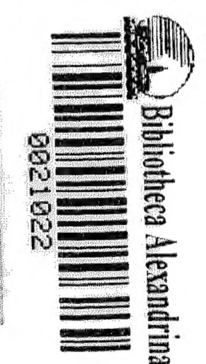


التحليل النفسي للولد

فيكتور سميرنوف

ترجمة

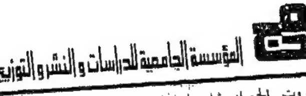
د. فؤاد شاهين



الطبعة الاولى ١٩٨٠م

الطبعة الثانية ١٩٨٢م

الطبعة الثالثة ١٩٨٥ م



بيروت ـ الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام

هاتف : ٨٠٢٤٢٨ ـ ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٢٩٦

بيروت ـ المصيطبة ـ بناية طاهر هاتف : ٣٠١٠٣٠ ـ ٣١١٣١٠

ص . ب : ٦٣١١ / ١١٣ تلكس : ٢٠٦٦٥ LE ـ ٢٠٦٨٠ لبنان

التحليل النفسي للولد

تأليف : فيكتور سميرنوف

ترجمة الدكتور فؤاد شاهين
استاذ العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

التحليل النفسي
للولد

تمهيد الطبعة الثالثة

ان ضرورة اعادة كتابة هذه الطبعة الجديدة كلياً تدل على الفن الثابت للموضوع التحليلي . فالمفاهيم الاساسية ـ مثل اللاوعي ، الدوافع الجنسية ، مبدأ اللذة والواقع ـ التي بنيت عليها النظرية التحليلية ، لم تتعرض لتغييرات جوهرية . والغرضيات الرئيسية توفر اليوم ايضاً ، كما وفرت بالامس ، الاطار المفهومي لكل بحث تحليلي . ولكن اتساع وتنوع التجربة العبادية اجبرتنا على التشدد النظري والنقدي .

ان العودة الى فرويد ، التي يدعو لها البعض ، قادتنا الى اعادة قراءة آثاره بانتباه ودقة اكثر ، هذه الآثار التي تبقى نموذجية على كل حال . فالاكتشاف الفرويدي يبقى دائم الحيوية ومدهشاً ، ولم نتوصل بعد الى استكشاف التفرعات التي يقترحها . فإغناء التجربة العيادية ابرز فرضيات جديدة من الضروري اخضاعها للتجربة العملية قبل الاقرار بصحتها . فليس غريباً ان يمتد هذا النسق على سنوات عدة ، منطلقاً من التجربة الى النظرية التي تنعكس بدورها على الممارسة .

لقد توصل عدد كبير من هذه الاعمال التي بدأت منذ زمن بعيد ، الى مقترحات أدمجت اليوم في النظرية التحليلية وتستمر في طرح الاسئلة عليها وفي تعديلها. وهكذا فقد استطاع د . و . فينيكوتD.W.Winnicott ادخال مفهوم نسق البلوغ والتسهيل وزوال الوهم الذي يلعب دوراً مهيمناً في علاقة الام بالولد . كما ادخلت اديت جاكوبسون Edith jacobson ومرغريت ماهلر

Margaret Mahler مفهوم التفرُّدية كطريقة لتكوين الانا . ومقترحـات جاك لاكان Jacques Laccan ابرزت صعـود الـذو (Sujet) في السجـل الرمـزي وجددت فهمنا للاوديب . واعمال هيلين دوتش Helen Deutsch وبيتر بلوس Peter Blos ساهمت في اعادة توجيه اقترابنا من المشكلات العاطفية للمراهقة . وانطلاقاً من الالسنية السوسورية ، لعبت البنيانية ، خلال السنوات الأخيرة ، دوراً مهماً في النظرية التحليلية . كل هذه الاتجاهات وجـدت مكانـاً في هذا المؤلف .

ولائحة المراجع ، التي ترافق نصنا ، جرى توسيعها وتطويرها . فالادب التحليلي يشكل جزءاً لا يتجزأ من العملية العيادية ، لأنه يعمم ممارسة فردية وصعبة الايصال ، والدليل على ذلك وفرتها المنقطعة النظير . فاختيارنا المحدود جداً لا يهدف الا الى الدلالـة على الطـريق عبـر مؤلفـات متشابـكة ومختلفـة الاهمية .

الا ان هذه الطبعة الثالثة ليست تعديلاً بسيطاً . فحول نقاط متعددة اعطينا توجهاً جديداً لهـذا المؤلف ، ممـا دعانـا الى اعـادة النظـر جذرياً تقريبـاً بكل الفصول ، وحتى الى اضافة فصول أخرى .

فطرق التحليل النفسي تسير اليوم على آثار مرسومة بشكل افضل . وسوف نرى اذا كانت هذه المنافذ الجديدة ستمكننا من توضيح مجالات ابقاها البحث التحليلي في الظلمة حتى اليوم .

مقدمة

ان قصدنا من كتابة هذا المؤلف يتطلب بعض التوضيحات ، فلنذكر قبل كل شيء بأن الاساسي لاعداد المحلّل يمر عبر التحليل الشخصي الضروري لضبط التجربة الحية للعلاج ، لاكتشاف وحل المعنى اللاواعي للهوامات وللتأزمات ، ولتقصي الظلمات والمقاومات . هذا الشرط الاولي لكل ممارسة يجعل المحلل قادراً على سماع الحديث اللاواعي للذين يتقدمون اليه .

هذا الاعداد لا يمكن ان يحل محله اي كتاب ، لقد عملنا على تقديم العناصر التي ترتكز عليها مهنتنا الى جميع الذين يهتمون بمستقبل الطفولة على اختلافهم . فالمعطيات الرئيسية المتعلقة بالتحليل النفسي للولد والمتجمعة هنا ، تبرز ازدواجيته كوسيلة علاجية واداة للبحث .

ويجب ان نبين ، بالدرجة الاولى ، ما يقدمه التحليل النفسي ، كطريقة للمعرفة ، لفهم الطفولة حيث تنشأ الهوامات الاولى وحيث تدور الصراعات الاولى داخل النفس التي نجد اثرها ، النهائي احياناً ، خلال كل حياة الانسان ـ على هذا المستوى ، فإن التحليل النفسي للولد لا يشكل فقط جزءاً لا يتجزأ من التحليل ، وانما يؤمن له المبادىء الاساسية .

ومن جهة اخرى يجب استخلاص القواعد النظرية التي تبنى عليها الممارسة التحليلية مع الاولاد . فسوف نرى ، بسبب الصعوبات الخاصة التي تنشأ ، بأن تحليل الولد ستدعي ممارسة تحليلية تحددها بعض المفاهيم : النقلة (Transfert) ، حيادية المحلل ، الطموح والهدف العلاجي . من هنا ضرورة

توضيح تعليماتـه ، حدوده ومعـايره . لهـذه الاسبـاب خصص مكان لمعالجـة المفاهيم ولعرض الابحاث . يقتضي فعلاً ادارك خصوصية العملية التحليلية ، في مرجعها المزدوج العيادي والنظري اللذين لا ينفصلان . بهذا ندرك الشكوك والنواقص والتناقضات التي تعترض هذا السبيل . فالتحليل النفسي لا يمكن اعتباره كنظرية متحجرة ومعرفة منغلقة على ذاتها : لقد عملنا على ابراز قيمته كطريقة . فهذا يفرض ، ليس فقط وضوحاً كافياً في استعمال المفاهيم ، وانما ايضاً طاقة نقدية لئلا يتحجر التحليل ويصبح معتقداً .

ولا ننسى بأن تنظيرنا يجب ان يجد مصدره في العيادية . بهذا تبدو لنا آثار فرويد نموذجية . فانطلاقاً من تجاربه العيادية الاولى ـ التي نشرها عام ١٨٩٥ في دراساته حول الهستيريا (Etudes sur l'hystérie) ـ ومن تحليله لنفسه ـ الذي نجد منه مقاطع مهمة في تفسير الاحلام (Interprétation des rêves) ـ فإن آثار فرويد ستصبح ، خلال اربعين عاماً ، نوعاً من تنظيم مضني ودائـم . بالنسبة لفرويد ، ليس مفهوم اللاوعي عفوياً وسابقاً للتجربة ، ولكنه الفرضية العلمية الوحيدة المقبولة والخاضعة للبرهان ، لتفسير عدد من الوقائع (الايحاء التابـع للتنـويم المغنـاطيسي ، المحتـوى الكامـن للحلـم ، العـرض الهستيري . . .) . وهكذا تحاك ، عبر اعمال فرويد ، مفاهيم اساسية مشكلة مجموعة متماسكة من المراجع . ولكن عبر هذا البحث الدؤوب ، لم يكن فرويد يخشى اعادة النظر بالمفاهيم النظرية عندما تأتي الوقائع لتبطل فرضياته وتبـدو المفاهيم غير كافية للتعبير عن الحقيقة العيادية .

منذ ١٩٠٠ ، تاريخ ظهـور Traumdeutang ـ المؤلف الافتتاحي لعلـم نفس اللاوعي ـ انتقل عدد من المفاهيم التحليلنفسية الى عموم الناس ، وهي تشكل جزءاً من الارث الثقافي لحضارتنا ، هذا بالاضافة الى ان ظاهرة التثاقف استطاعت ان تحدث بأشكال مختلفة حسب البلدان . بالاجمال كان للاكتشاف الفرويدي اثر مشابه لأثر الثـورة الكوبرنيسـكية في عصرهـا في مجـال العلـوم الفيزيائية ، او لادخال المادية الجدلية على العلوم الاقتصادية . مهما كان الموقف الذي نعتمده تجاه هذا الاكتشاف فلا يمكن مطلقاً تجاهل الانفتاح الجديد الذي يشكله .

ان كل نظرية تصل الى الغموم ، تنتشر وتبتعد عن مركزها تخضع لتشويه معين . فتنزع عنها الهالة الاولى ويخف مداها الذي كان في الاساس ثورياً وينحرف محتواها . ولكن انحرافها التدريجي لم يخفف من الخلاف العميق حول موضوع التحليل النفسي ، بل العكس هو الصحيح . وقد حلت محل الافكار المسبقة الاولى افكار اخرى جامدة وغير مستندة الى أساس . للاقتناع بذلك يكفي قراءة اطروحة سرج موسكوفيتشي Serge Moscovici تحت عنوان ، التحليل النفسي : صورته وجمهوره ١٩٦١ La psychaualyse- son image et son Public . يمكننا ان نلاحظ الى اي حد يبقى التصور الاجتماعي للتحليل النفسي وللمحلل مبهماً ومتقلباً وحتى غير حقيقي . ونضيف انه من الصعب اتهام الانتشار غير الكافي للافكار في هذا الموضوع .

ان الجهل يسند حججه الى مصادر اخرى ، وهذا ما عبر عنه فرويد بكل وضوح منذ عام ١٩٢٥ في مقاله حول المعارضات التي اثارها التحليل النفسي .

ولكن ، بالحقيقة ، ان سوء التفاهم هذا مسند جزئياً . فالتحليل النفسي يهم اياً كان من زاوية ما يبغي تجاهله بالضبط : فاكتشاف المعنى اللاواعي لرغباتنا وافعالنا ومشاعرنا ، وحتى للمبادىء التي تقودنا ، لا يمكن الا ان يخلق مقاومات ، تكون اكثر قوة واكثر صلابة بقدر ما يقترب هذا الاكتشاف من المعنى الحقيقي ا لمكبوت في اللاوعي ومن الافكار او من الاعراض .

ان النقد الذي تعرض له التحليل النفسي هو على نوعين : نقد طرائقي ضروري ، لا بد منه لتقدم اي علم ، يفرض معالجة معطيات النظرية الفرويدية عبر الوقائع التي تعمل على توضيحها . ان هذا العمل لا يمكن الا ان يشكل انفتاحاً للافق التحليلي ، وللنظرية التحليلية تعرضت لانتقادات واضافات من العلوم الاخرى : علم الاناسة ، علم الاجتماع ، الالسنية ، الخ . . .

لكن التحليل اصطدم ايضاً بنقد استفزازي ، باسم بعض المبادىء الاخلاقية او الماورائية التي ترفض معالجة الحقل التحليلي بحجة ان النظرية الفرويدية تبدو للوهلة الاولى مرفوضة . ان نقداً كهذا ، لا يزال البعض ينهك

نفسه به ، يجعل النقاش عقيماً . ونحن عند كتابتنا لهذا المؤلف افترضنا بأنه سوف لا يقرأ بروحية جدالية لأن عرضنا ليس وراءه اي قصد تبريري وان هدفنا هو اعلام الذين يبحثون عن الفهم وليس اقناع الذين اتخذوا مواقف مسبقة .

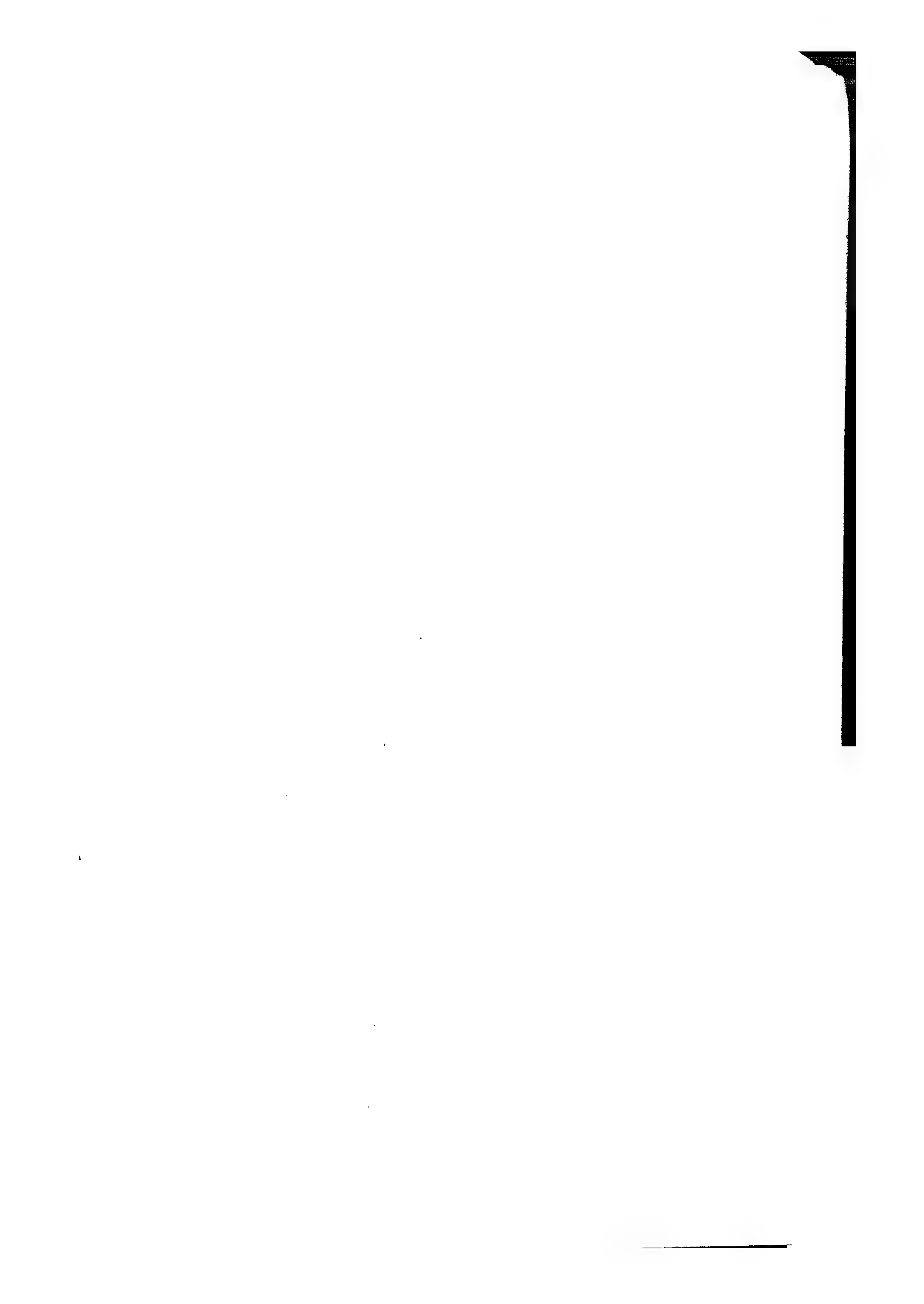
نأمل بأن نكون قد ازلنا بعض الخلافات ، ولكن قد يكون ثمن ذلك خلق خلافات اخرى . فهذا يبدو لنا فدية حتمية لكل محاولة تحويل علم انساني لعرض نظري . ان الصعوبة الكبرى كانت احياناً في الشكل المذهبي لبعض صيغنا : لقد كان من المستحيل تلافي ذلك تماماً . فبعض الصيغ قد تبدو مجردة للذين لا يستطيعون الاستناد الى تجربتهم الخاصة او الى ممارسة تحليل الولد . لقد فضلنا هذه الخطورة على التبسيط المفرط الذي يبغي الارضاء اكثر من الايضاح .

منذ خمسين عاماً اتخذ تحليل الولد اهمية كبرى ، اكان ذلك من ناحية المساهمات التي ما زال يقدمها للنظرية ، او من حيث المسائل التي يطرحها على صعيد الممارسة العملية . رغم انه يرتكز على نفس القواعد النظرية لتحليل البالغين ، فإن تحليل الاولاد يُدخل تغيرات تقنية عائدة للظروف الخاصة في حقل تطبيقه . لقد اعتبر البعض ان ممارسة تحليل الاولاد تتطلب اعداداً خاصاً . لا احد ينكر ذلك : فمحلل الولد تواجهه مشاكل ليس عليه ان يحلها مع المرضى البالغين ويعود الى ثوابت تقنية تبعده عن الممارسة النموذجية . ولكن هذه الملاحظة تفرض نفسها عند مواجهة تحليل المرضى الذهانيين البالغين حيث التقنية المدعوة تقليدية تخضع غالباً لتغيرات مهمة . يبدو واضحاً ان الاختبار العيادي لا بد منه لمواجهة مثل هذه المشاكل .

هذا لا يعني ان تحليل الولد وتحليل البالغين سيصبحان حقلين مختلفين تماماً : ان خصوصياتها اكيدة ، ولكن يجب ان لا ننسى بأن تحليل الولد يستخدم نفس المفاهيم النظرية ونفس الطرائقية ويسعى الى نفس الهدف كتحليل البالغين . فالفارق يكمن بشكل خاص في الحلول الموضوعة من اجل تجاوز بعض الصعوبات التقنية ، وليس في المفاهيم . فتحليل الاولاد يشكل تخصصاً في حقل التحليل : انه لامر مفجع ان يصبح علماً مختلفاً .

هناك سبب رئيسي بنظرنا ، للحفاظ على وحدة التحليل : فمحلل البالغين يجب ان يعرف كيف يستمع الى « الولد في كل بالغ » وان يقدر على حل رموز لغته . كذلك ، فالولد ليس محصوراً في عالم طفولي ، ولكنه ، منذ ولادته ، يواجه لغة البالغين . اننا نتمنى ان يستطيع كل محلل القيام بالتجربة التحليلية للولد وللبالغ على السواء اذا كان يبغي سماع السجل المزدوج للغة في كل لحظة من التحليل . فالتحليل ، خلافاً لأي علم آخر ، يجب ان لا يعتبر الكائن الانساني منقسماً الى ثنائية تجعل الولد في جهة والبالغ في جهة اخرى : فالتحليل لا يستطيع ان يدرك الفرد الا في استمرارية الانساق اللاواعية فيما يتعدى الزمن .

يشكل التحليل النفسي اليوم جزءاً من ارثنا الثقافي ، رضي المحللون اولم يرضوا ؛ حتى ولو اعتبروا ان التحليل يجب ان يقتصر على البحث العيادي ؛ حتى ولو اكدوا ان افضل عرض نظري لا يمكنه ان يعبر عن الواقع المعاش للتجربة التحليلية ؛ وحتى لو ايدوا او استنكفوا عن تأييد « التوسع الثقافي » للتحليل ، واعتبروا ان المحاضرات الجامعية او العلمية تسلب من التحليل الشكوك والتبعية ـ فالنظرية التحليلية يستخدمها عدد كبير من الباحثين في العلوم المختلفة ، وهم وان لم تكن لديهم التجربة الشخصية ولا التجربة العيادية يستخدمون المفاهيم التحليلية كنظرية . لقد فكرنا بأنه من الممكن ، على الاقل ، الحد من بعض الخلافات ، وذلك بتوضيح المدى الحقيقي لمفاهيمنا وبتبيان الحدود والصعوبات التي تعترض استخدامها .



الفصل الاول

التعريف

القول بأن التحليل النفسي هو علم نفس اللاوعي لا يكفي لاعطائه تعريفاً . ليس هناك تعابير في اللغة « التقنية » استعملت بشكل اسوأ من كلمة « تحليل نفسي » . هناك بعض الابهام ناتج عن سوء تفاهم منذ البداية : فعبارة التحليل النفسي تدل بنفس الوقت على الطريقة العلاجية ، والنظرية النفسانية ، واستخدام هذه النظرية في تطبيقها على دراسة الظواهر الثقافية والاجتماعية . لذلك يبدو من المفيد تعريف التحليل النفسي بالتوقف على المعاني المختلفة التي تغطيها هذه العبارة .

١ ـ في معناه الاصلي ، التحليل النفسي هو طريقة علاجية

لقد اطلق فرويد اسم التحليل النفسي على الطريقة العلاجية المطبقة في معالجة امراض العصاب : فهي طريقة محض نفسانية (دون ادخال اية وصفة لادوية ، او اية عملية جسمانية) ، يجري خلالها ، كما في اي علاج نفساني . استخدام العلاقة الشخصية بين الطبيب والمريض ، وعلينا ان نعترف للتحليل النفسي بخصوصية تفرقه عن العلاجات النفسانية الاخرى .

نستطيع القول ان التحليل النفسي هو علاج نفساني علائقي يعمل ،

بفضل التفسيرات ، على استدعاء المحتويات اللاواعية في التصرفات والاعراض ، الى الوعي . فالمادة الكلامية (التداعيات الحرة) التي يقدمها المريض خلال الجلسات يمكن تفسيرها من قبل المحلل الذي يكون في وضع حيادي لأنه لا يعطي اية نصيحة ولا يطلق اي حكم . هذا الحياد المتيقظ ينشيء بين المريض والمحلل علاقة خاصة تدعى النقلة[1] .

خلال المعالجة ، يدخل المعالج ، من قبل المريض ، في شبكة من المعاني يسقطها عليه المريض : « انها طبعات جديدة ونسخات من الميول والهوامات يجب ان تستيقظ وتصبح واعية مع تقدم التحليل ، ومن سمتها الخاصة انها تستبدل شخصاً كان معروفاً في السابق ، بشخص الطبيب . وبعبارة اخرى : هناك عدد كبير من الحالات النفسانية تحيا من جديد ، ليس كحالات ماضية ، وانما كعلاقات راهنة مع شخص الطبيب » (فرويد) . فالمريض ، في علاقته النقلية ، يعيد انتاج او يكرر بعض الاوضاع المعاشة سابقاً . وهذا ما سمح لدانيال لاغاش Daniel Lagoche (١٩٥٠) بتسمية النقلة « تكرار تذكري [2] ، في الوضع التحليلي ، لأزمة حدثت في الماضي وهي منسية ولا واعية واعية من قبل المحلّل » .

ان جعل المشكلة القديمة غير المحلولة راهنة بفضل النقلة ، وتكرارها في العلاقة مع المحلل ، يجب ان يسمح باحياء الذكريات المرتبطة بالاوضاع المتأزمة في مرحلة الطفولة ، ويسمح كذلك ، بفضل تفسيرات المحلّل ، بضبط الدفاعات والدوافع التي استخدمت في فترة معينة ، وذلك تحت رقابة الوعي ، وبعبارة اخرى أن التحليل يجب ان يسمح للمريض بالتفوه بالمعنى (اللاواعي) الذي كان يعطيه للاوضاع المتأزمة الاولى ، وبفضل هذا الكشف الذي يصبح

---

١ ـ ان عبارة حياد « متيقظ » قد فسرت في الغالب تفسيراً سيئاً : المقصود هو التيقظ السمعي تجاه الخطاب اللاواعي للمريض ، والانفتاح وليس سمة في طبع المحلل الخاص .

٢ ـ Ecmsèsie ـ التذكر = احياء قوي للذكريات القديمة التي تبدو مندثرة ، احياناً يبدو ان المريض يعيش احداثاً يتذكرها وكأنه في ذلك العصر الغابر (H. Piéron, vocabulaire de psychologie, p u f 1968)

معقولاً بواسطة النقلة ، يقوم باجراءات دفاعية وتكيفية متوافقة مع وضع غير عصابي . بهذا المعنى اراد البعض التعبير عن العلاج التحليلي بالتجربة الحية .

ان خصوصية التحليل تكمن في استخدامه للعصاب النقلي ؛ فتفسيره يطبع في كل لحظة سير العلاج ، والتحليل يهدف الى نشل المريض من سيطرة هواماته اللاواعية . وللقيام بهذا العمل عليه :

ـ ان يسمح للانا باشباع الدوافع الغريزية التي تخضع لمبدأ اللذة مع احترام متطلبات مبدأ الواقع .

ـ ان يقضي على الاواليات العصابية للأنا ويسمح لها بقبول بعض الدوافع الغريزية والتخفيف من متطلبات الانا العليا .

ـ ان يكتشف وراء التصرفات والاعراض او الاحلام ، الهوامات اللاواعية التي تغطيها ، وجعلها من ثم مقبولة في الوعي .

وفي مجال تحليل نفس الولد تحتل مشكلة النقلة مركزاً خاصاً . ان هذه المشكلة ، من الوجهة النظرية ـ المعنى الذي تأخذه اقامة علاقة بين الولد والمحلل ـ والوجهة العملية ـ اي تدعيم وضبط هذه العلاقة ـ كانت موضوع نقاش بين وجهات نظر مختلفة بشأن تحليل الاولاد .

٢ ــ التحليل النفسي ،نظرية الجهاز النفساني

وبمفهوم آخر للكلمة يعني التحليل النفسي ايضاً نظرية نفسانية متماسكة ، تفسر الظواهر التي تنظم الحياة النفسية ؛ وهي تسمح لنا بفهم تطور الانسان في صراعه مع المحيط .

وتجدر الملاحظة هنا بأن الطريقة العلاجية والبحث لا ينفصلان . فإذا كانت الممارسة العملية قد مكنت من تبلور النظرية ، فإن هذه الاخيرة بدورها ، قد مكنت من ترابط الانساق المرضية مع الشأن العلاجي .

فالتحليل النفسي باعتباره نظاماً نفسانياً يستند الى ثلاث مقترحات عامة ، هي نفسها ثمرة الاستنتاجات النظرية انطلاقاً من اولى اكتشافات فرويد

العلاجية . ان صياغة هذه المقترحات تمكن من رسم اطار علم النفس التحليلي :

أ) ان التحليل النفسي ، في صيغه ، يمكن من ملاحظة واستنتاج السببية النفسانية للوقائع « النفسية » . يتعلق هنا الامر بروابط بين الوقائع الملموسة وليس بين مفاهيم عامة[1].

ب) من جهة اخرى ، يدخل الاختبار التحليلي مفهوم كون هذه السببية تواجهنا مع وقائع نفسانية لاواعية . « فالتحليل النفسي يرفض اعتبار الوعي (الواعي) على انه يشكل جوهر الحياة النفسية ، بل هو يرى في الوعي صفة بسيطة لهذه الحياة » (فرويد) .

هذا يعني ان كل سلوك انساني وبالاخص العرض العصابي ، يخضع الى حد بعيد لدوافع وعوامل تفلت من معرفتنا المباشرة ؛ فهذا المعنى المخبأ لسلوكنا يجب التفتيش عنه خلف مظاهر تحركنا البارزة ، خلف احلامنا وتخيلاتنا[2] . ان جهود الطريقة التحليلية تهدف الى اكتشاف هذا المعنى اللاواعي ، والغير معروف من قبل المريض ، ونستعين للتوصل الى هذا الهدف بوسائل تقنية متنوعة ، مثل التداعيات الحرة ، التي تمكن من ربط سلاسل الدلائل فيما بينها ، التي تبدو لأول وهلة عرضية ومستقلة الواحدة عن الاخرى .

ان مفهوم الفاعلية النفسانية اللاواعية جرى التعرف اليها قبل فرويد . فكتابات بعض المؤلفين الالمان في القرن التاسع عشر ، امثال جان بول ، شوبنهور Schopenhauer نيتشيه وخاصة فون هارتمان E. Von Hartmann

---

١ - ان الطابع الملموس للتحليل النفسي كعلم نفس ، جرى التنويه به من قبل الفيلسوف الماركسي جورج بوليتزر George Politzer ، في كتابه Critique des fondements de la psychologie (١٩٢٨) .
اننا نجد معالجة البراهين التي يتقدم بها في الدراسة الجيدة حول مفهوم اللاوعي من قبل Serge leclaire, Jean la planche (١٩٦١)

٢ - لقا الحّ دانيال لاغاش Lagache على مفهوم التصرف : بالنسبة له (١٩٤٩) ان التصرف هو وسيط بين الفرد والمحيط : « مجموعة العمليات المادية والرمزية التي يميل جسم في وضع معين بواسطتها الى تحقيق امكانياته والحد من توتراته » .

(الـذي نشر عام ١٨٦٨ La Philosophie des Umbewressten) ، تدل على ذلك[٣] .

فبينما هذه الآثار تنحصر في مجال التأمل الفلسفي ، فالفضل يعدو لفرويد كونه اكتشف عمل اللاوعي في اشكاله وقوانينه ، اي ادخلـه في علـم النفس كمفهوم فاعل[٤] .

فهذا يبدو صحيحاً بشكل خاص في الفصل السابع من (تفسير الاحلام) (١٩٠٠) حيث يعرض فرويد مختلف اشكال « الترميز » اللاواعي ؛ فهو يبين العلاقة بين المحتوى الظاهر للحلم والمحتوى الكامن . فالانساق اللاواعية ، **التكثيف والانتقال** ، حولت المحتوى الكامن الى محتوى ظاهر : « ان افـكار الحلم والمحتوى الظاهر للحلم تبدو لنا كتصورين مختلفـين لمحتـوى واحـد ؟ وافضل من ذلك ، فمحتوى الحلم يبدو لنا كتدوين لافكار الحلم بنوع آخر من التعبير ، علينا ان نتعلم اشارات وقوانين العمل بمقارنة الاصل مع الترجمـة . نفهم افكار الحلم بصورة مباشرة عندما تظهر لنا . ان محتوى الحلم يعرض لنا على شكل هيروغليفي ، فإشاراته يجب ان تترجم واحـدة واحـدة الى لغـة افـكار الحلم . اننا نخطيء بالتأكيد اذا اردنا قراءة هذه الاشارات كصور وليس حسب معناها الرمزي »[٥] .

ولكن فيما يتعدى بنية ووظيفة اللاوعي في الحلـم وفي العـرض ، يمكننـا

---

٣ ـ يمكننا ، حول تاريخ اكتشاف اللاوعي مراجعة كتاب وايت L.L. Whyte (١٩٦٢) ومؤلف هنري الينبرجيه Henry Ellenberger -The Discovergy o the uncouscious (١٩٧٠)

٤ ـ لقد جرى جدال عجيب بين عالم النفس الفرنسي بيار جانيه Pierre Janet وسيغموند فرويد : يدعـي جانيه بأنه اكتشف اللاوعي قبل فرويد . صحيح ان جانيه يتحدث عنه ، ولكن قراءة كتبه تدل بأنه يحدد بعبارة « لاوعي » فاعلية عقلية مبهمة ، بعيدة جداً عن المعنى الـذي يعـطيه اياه فرويد الـذي يقصـد باللاوعي نوعاً من العمل الخاص للجهاز العقلي . هذا الابهام يبدو انه يكشف سوء التفاهم الذي سيطر آنذاك والذي يستمر اليوم الى حد ما . ونضيف ان اهمية وابتكار اعمال بيار جانيه تكمـن في غير هذا المجال ، كما يبرهن على ذلك Claude Prévost : La Psycho-philosophie de Payot- de Pierre) Janet ـ ١٩٧٣

٥ ـ S.Frend, l'interprétation des rêves. presses universitouied de France, ١٩٦٧ ـ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢

التعرف على تأثيراته في كل سلوك انساني مهما كان نوعه : فالمعنى الحقيقي للسلوك لن يتوضح الا من خلال معرفة دوافعه اللاواعية . ان كشف الاواليات اللاواعية للحياة النفسية هي المهمة التي يقوم بها التحليل النفسي الذي لا يشكل نظاماً فلسفياً ولا ما ورائياً . ولكن طريقة لالتماس الظواهر النفسية بفضل عملية حقيقية لفك الرموز .

ج) وقد اشار فرويد الى ان الحياة النفسية تخضع لعوامل دينامية واقتصادية . فالعوامل الدينامية تواجه كل دافع للسلوك الانساني من زاوية النزاع بين الميل الى اشباع الغرائز مباشرة (مبدأ اللذة) وامكانية اشباعها المنسجمة مع الظروف التي يفرضها العالم الخارجي (مبدأ الواقع) . فبواسطة التعابير الدينامية يصبح السلوك قابلاً للتفسير من خلال العلاقة القائمة بين لعبة العوامل اللاواعية اكانت غرائزية او قمعية . لكن فرويد يدخل ايضاً عوامل كمية ، قوة الدافع الغريزي والكبت واللذة والواقع ، والتشجيع والاحباط . فهذه النظرية الطاقية يدعوها فرويد وجهة النظر الاقتصادية[١] . وهكذا فإن الحياة العقلية تسير على خطوط قوى موجهة وكل سلوك يأخذ بعين الاعتبار طابع هذه القوى ، اصلها واتجاهها ، طبيعتها وحدتها . فاللاوعي الفرويدي يمكن تعريفه بأنه شكل من العمل المحدد بنيوياً والموجه دينامياً .

ان اشكال هذا العمل تشكل المبادىء الاساسية لعلم النفس التحليلي كما سوف نعرضها لاحقاً ، وتكوّن اسس الجهاز النفساني كما كان يدعوه فرويد . فالأمر يتعلق بنموذج بنيوي هيكله الاولي هو **مشروع من اجل سيكولوجيا علمية**[٢] . هذا النموذج البنيوي جرى استبداله ، عبر السنين ، بنماذج

---

١ - تجدر الملاحظة بأن الطاقة التي يتكلم عنها فرويد تبتعد عن الطاقة المعروفة في العلوم الفيزيائية : فهي كما يقول ريكروفت Rycroft (١٩٦٨) نظرية المدلول .

٢ - Entwurf einer psycologie ، نجد نصها في المؤلف الذي يجمع رسائل فرويد الى ويلهيلم فليس Wilhelm Fliess (Aus den Anfängen des psycoanalyse ١٨٨٧-١٩٠٢ ، نشر بالفرنسية تحت عنوان Naissance de la Psychanalyse PUF). هذه الصورة الاولى ، التي تستوحي بعض مفاهيمها وتعابيرها ، الى حد كبير ، من النظريات النفس فيزيولوجية السائدة في العصر وهي ترتكز على اعمال Fechner، Meynert, Brücke (انظر بيتر اماشيه Freud's Neurological Education, Amacher ١٩٦٥) وقد خضعت هذه الصورة للتعبير نظرياً عن الانتظام النفساني ، وهكذا جعلت الممارسة من الممكن بناء تحليل نفسي نظري ، كنظام تفسيري للسلوك .

اخرى ، لم يكن اي واحد منها نهائياً ، ولكنه مخصص للتعبير عن المفاهيم النظرية المؤسسة على حالة المعارف المكتسبة . لا يجوز لأي نموذج من هذه النماذج ان يعتبر ككيان جامد ، بل كآداة في خدمة عملية بناء المفاهيم .

٣ ـ وجهة النظر التحليلية مطبقة على العلوم الانسانية

واخيراً يجب الاعتراف لتعبير التحليل النفسي المعنى الذي لا يغطي لا التحليل العلاجي ولا علم النفس التحليلي . فالامر يتعلق بوجهة النظر التحليلية مطبقة على العلوم الانسانية .

لقد عمل عدد كبير من العلوم ـ علم الاجتماع ، علم الانام ، تاريخ الحضارات ، النقد الادبي وغيرها ـ على دمج المفاهيم والصميات المستعارة من التحليل النفسي في نظرياتها التفسيرية . لسنا هنا امام التحليل النفسي بكل معنى الكلمة ، ولكن امام استخدام الطريقة والمفاهيم الاساسية لمواجهة الابعاد اللاواعية لهذه الظاهرة او تلك . وقد جرت ، بهذا الشكل ، دراسة العوامل اللاواعية في المواقف الاجتماعية ، وتكون الاحكام المسبقة واصل الاساطير والطقوس ، ومعنى القيم الثقافية ، والمنابع العميقة للابداع الفني ، الخ . . .
لقد كان فرويد اول من حاول استعمال « التحليل النفسي التطبيقي » عندما بدأ معالجة المنابع اللاواعية لبعض الاعمال الفنية (انظر Délires et rèves dans la gradiva deWjeusen ـ ١٩٠٧ ؛ Un souvenir d'enfatnce de léonard de Vinci ، ١٩١٠ ؛ Le Moïse de Michel-Ange ١٩١٤) ولبعض المعطيات الثقافية (Totem et tabou ١٩١٣) . وقد حاول ايضاً تطبيق هذه الطريقة على المشكلات الاخلاقية والاجتماعية والدينية (L'avenir d'une illusion ١٩٢٧ ؛ Le malaise dans la civilisation ١٩٣٠ ؛ Moïse et le monothéisme ١٩٣٧) .

فدانيال لاغاش (١٩٥٦) يحذر الباحثين الذين قد يحاولون تطبيق الفرضيات التحليلية دون الخضوع لنظام بحث قاس و« للضغوطات الطرائقية لحقل الاتساع المعتبر » . ويلاحظ ان الرفض المنتظم تجاه المفاهيم التحليلية يمكن ان يكون دليلاً على الاحكام المسبقة اللاعقلانية لبعض الباحثين ؛

وبالمقابل ان التعصب التحليلي يدل غالباً على جهل المبادىء الاساسية للبحث . ويشير لاغاش الى ان « قيمة الفرضيات ليست في اصولها : هذه القيمة تتعلق بالشروط الخاصة لاقامة الدليل » .

بادخاله مفهوم اللاوعي ، غير التحليل النفسي بصورة جذرية الوجهة الطرائقية في مجال العلوم الانسانية ؛ وسمح باعادة البحث الاجتماعي - الاناسي على اسس جديدة ، كما تدل اعمال جيزاروهيم Gesa Roheim ، جورج ديفرو Devereux ، دافيد رشمان David Riesman وكثيرين غيرهم . ولكن تجدر الاشارة بأنه من العفوية تعميم المفاهيم التحليلية دون امتحانها على ضوء « الضابط الطرائقي » الذي ، وحده ، يمكن هذه المفاهيم من الاحتفاظ بمعناها الاصلي .

ان استعمال التعابير التحليلية لا يكفي لاضفاء طابع تحليلي على مثل هذه الاعمال ، لأن هذه الالفاظ تلصق غالباً بمفاهيم منحرفة ، وحتى مفرغة كلياً من معناها الخصوصي[1] اذا كان هذا التحذير يبدو ضرورياً ، فتجدر بالتالي الاشارة الى ان التوجه المتعدد الاتجاهات هو ايضاً ضرورة . واذا كان التحليل النفسي يريد تجاوز الحدود العيادية التي يبغي البعض قصره عليها ، ويساهم بالبحث في مجالات العلوم الانسانية ، فعليه ان يكون قادراً على اقامة حوار مع الباحثين العاملين في المجالات المرتبطة به : والا ستخضع النظريات التحليلية المستخدمة الى انحراف متزايد حتى تصبح غير معروفة .

---

١ - اننا نملك الآن اداة جيدة للعمل ، Le Vocabulaire de la Psychanalyse تأليف J.B. Pontalis, J. Laplanche ، ١٩٦٨ ، الذي يحدد ويفسر المفاهيم الفرويدية .

الفصل الثاني :

حقل التحليل النفسي

ان تعريف التحليل النفسي لا يكفي لتحديد اصالة موضوعه ولا لرسم حدوده . لا بد اذن من الاحاطة بحقل التحليل النفسي ، خاصة حيث يصطدم بالعلوم القريبة وبالمفاهيم التي يتعارض معها ، لأنه استقى منها بعض معطياته وغيّرها بدوره واغناها .

١ ـ التوجه المرضي والتوجه البنيوي

ان الهم المرضي للطب العقلي في القرن التاسع عشر حبسه في نمطمن التوجه الوصفي على حساب اي تفسير دينامي . ان التحليل الاعراضي الدقيق سمح بعزل الاعراض الكبرى التي تستخدم حتى في ايامنا كإطار للطب العقلي المسمى تقليدي : الفصام ، الذهان الهوسي ـ الخَوْري ، الذهانات المهلوسة الحادة ، الخ . ان الاعمال التشريحية ـ المرضية او انشاء طب عقلي ـ عصبي وظيفي ، من بورنوفيلBourneville الى هوغلان جاكسونHughlin Jackson ومن اسكيرول Esquirol الى كرابولان Kraepelin ، حاولت ان تحل مسألة اسباب المرض العقلي باتجاه جسمي احياناً وجبلّتي (مزاجي) احياناً اخرى .

فالطب العقلي للولد ، في اوائله ، ورث من هذا الاتجاه ، لقد ترك الطب

العقلي للعلم الناشيء الاطار الصلب لتصوراته المسبقة النظرية ، او بالاحرى ثقل احكامه المسبقة . وبمحاولتهم الصاق الاعـراض المرضية ـ الفعلية للولـد باعراض البالغ ، فإن هؤلاء الكتاب اندفعوا ليس فقط للبحث عند الولد عن الاعراض الكبرى التي وصفناها ، بل انهم استعانوا بالصـور التشـخيصية ، محاولين التفتيش عن المصدر الأولي للاضطرابات العقلية في العجز الجسدي او في الاضطراب الوظيفي . في كتابـه Traité des maladies mentales ، يخصص غريازنجـر Griesinger ، منـذ عام ١٨٤٥ ، جزءاً مهماً من ا لمؤلف للمسائـل المرضية العقلية عند الولد . فإذا كان لا يزال يعتمد تصنيفاً للامراض مشابهاً لتصنيف الطب العقلي عند البالغ ، لكنه يعترف بالاسباب النفسانية للامراض الى جانب العوامل العضوية .فالكاتب الاول الذي واجه الطب العقلي للولد من زاوية جديدة كان هيرمان هامينغوس Hermaun Hemminghaus الذي اخذ بعين الاعتبـار في كتـاب Les troubles psychiques de l’enfant (١٨٨٧) ، ليس فقط الاسباب العضوية ولكن ايضاً التأثير العـائلي والظـروف الاجتماعية السيئة والنقص التربوي . فالولد المنحرف ، بالنسبة له ، ليس كائناً لا اخلاقياً ولكنه ضحية مرض . ورغم ان افكار هامينغوس طواها النسيان مؤقتا ، برز بسرعة ان المظاهر النفس ـ مرضية للولد لا يمـكن مقارنتهـا بالمظاهـر النفس ـ مرضية للبالغ ، وذلك لأن المرض العقلي عند البالغ يظهر على ارضية محددة من طاقة البلوغ ، بينما عند الولد يجري النسق في ذروة التطور العاطفي والعقلي .

هناك فوارق جوهرية بين الطب العقلي للولد والطب العقلي للبالغ ، وهي التي تعطيه خصوصيته .

أ) في الطب العقلي للبالغ كان بالامكان الاستناد الى مفهوم عدم التكيف (Heuger ١٩٦٩) ، والى الادراك الذاتي الذي يشعر المريض بواسطته باختلال توازنه او بقلقه (M.(Foucault ١٩٥٤) ، او الى العزل الاجتماعي تجاه المريض العقلي (T.Szasz ١٩٦٢) . فهذه المعايير لا يمكن ان تكفي في مجال الطب العقلي للاطفال . فالاندماج الاجتماعي للولد له معنى مختلف جداً عن اندماج البالغ ؛ ان اضطرابات السلوك تظهر بشكل خاص في الازعاج الذي يسببه الاضطراب للحياة العائلية وفي انعكاسها المتغير على الاحتمالات التطورية للولد . فالمراجع

المتخذة كمعيار تتعلق بالعالـم الخارجي ، دون ان يؤدي ذلك الى موضـوعية متزايدة . ويمكننا القول اذا كان الاضطراب يخلخل حياة ومستقبل الولد ، فإن مكان التعرف على هذا الاضطراب ليس هنا : فالذين يطلبون المساعـدة هم الاهل والمربون وليس الولد .

وهكذا حدث سوء تفاهم منذ ولادة الطـب العقلي للولـد . فالاعـراض المرضية الكبرى التي جرت محاولة تقصيها انطلاقاً من الطـب العقلي للبالـغ ، تضاءلت بسرعة الى اضطرابات السلوك والى اعراض صغيرة ، والى طب عقلي بسيط . هذا فضلاً عن ان الطب العقلي للولد في القرن الماضي كان لا يهتم فعلياً الا بالتخلف العقلي وبالتصرفات المنحرفة التي يمكن ان تفسر توجهه التقويمي وهدفه كتربية علاجية .

ان اداخال التحليل النفسي كان من نتيجته توسيع مفهوم المرض العقلي ، وافساح المجال ، الى جانب المشكلات الكبرى النفس ـ ا جتماعية ، لابراز نوع من الامراض ، قد تبدو للوهلـة الاولى بسيطـة . فالعـرض ـ عدم التـكيف المدرسي ، العدوانية ، الخواف ، التبول ، الخ ـ لم يكن يواجه من زاوية عائق معين منعزل ، ولكن كدليل على نسق نفس ـ مرضي (عصاب ، حالة ما قبل الذهان ، الذهان ، الخ . . .) .

لقـد استبـدل التحليل النفسي التشــخيص الوصفــي بتـوضيح بنيوي للاضطراب النفساني ، فهذا العرض او هذا السلوك لا يمكن مواجهته بهدف ازالته الجذرية وحسب ؛ فإن الحد من العرض لا يتـم الا في تغيير الاقتصـاد النفسي الذي يحتويه والذي يدل الاضطراب على وجوده ويرمز الى احد اوجهه . وهكذا فكل علاج نفسي يدعي التأثير على العوامل المسببة للاضطراب وليس على المظهر العيادي البارز الذي يُبقي الغاؤه على السبب الاسـاسي ، اي على البنية النفسانية الغامضة .

يبقى تحديد معنى العرض . فالتوجه التحليلي جعل من الضروري التفريق بين الاضطراب « الانعكاسي » والعصاب . فالاضطرابات الانعكاسية تتوافق مع الاعراض او السلوكات التي تظهر في ظروف معينة ، وتنخفض عندما تعود

الظروف المحيطة الى طبيعتها . فالعصاب ، بالمقابل ، يدل على استبطان ازمة لم تحل ، فتكبت في اللاوعي وتعود للظهور على شكل عرض . ا ن هذا التفريق قد يخسر من وضوحه اذا أُخذ عن قرب ، ولكن من الزاوية التشخيصية والعلاجية فهو يحاول تعدي التشخيص المرضي الوصفي ، لأن المطلوب ، وراء العرض البارز بشكل عادي وغير محدد ، اكتشاف اما البنية العصابية للمريض ، واما الوضعية المحددة والكامنة احياناً ، والتي تفسح المجال امام المظهر المرضي .

ب) فالولد ، بسبب تبعيته الدقيقة تجاه محيطه المباشر وخاصة وسطه العائلي ، يجد نفسه امام ظروف خاصة ، مختلفة جداً عن ظروف البالغ . ليس من الضروري التأكيد على تأثيرات الاهل والدور الاولي الذي يلعبونه في حياة الولد . ولكن ، بالمقابل ، تجدر الاشارة الى ان علاقات الاهل بالاولاد تخضع ، مع النمو ، الى تعديلات ثابتة تعكس مختلف مراحل العلاقة الغيرية . فكل عرض نفس ـ مرضي يعكس بالضرورة اضطراباً اساسياً في نشوء العلاقة مع الاهل ، ولكن العرض بدوره يؤثر على التفاعلات العاطفية داخل العائلة .

من جهة ثانية ، يقوم الاهل بدور تربوي يتعدى التعلم الحركي والعقلي ، وهو يغير بشكل جذري طبيعة الروابط العاطفية « الطبيعية » . فالزوجان من خلال دورهما المزدوج كمربيين واهل تجاه الولد ، يقيمان علاقة سلطة تجازي اية فاعلية واية عاطفية للولد . هذه السلطة ، الخارجية في البداية ، تستبطن بسرعة وتساهم في تكون الانا العيا .

ومهما كان الدور الذي يلعبه الاهل تاريخياً في تكوين وتحديد العصاب عند البالغ ، فإن هذا الدور يقوى عند الولد من خلال الحضور الفعلي والتأثير الراهن الذي يمارسه الاهل في حياة الولد اليومية . فالعلاقة الخيالية ترافقها هنا علاقة حقيقية ، رغم ان اهمية هذه الحقيقة قد جرى تقييمها بأشكال مختلفة . فالبعض يعتبرها اساسية ويميل لتحميلها كامل المسؤولية في تكوين الاضطرابات النفسانية للولد ؛ والبعض الآخر لا يجد في هذه الحقيقة الا عنصراً مساعداً بينما اصل الاضطراب العصابي يرتبط بالدور الذي يجعل الولد اهله يلعبونه في هواماته .

ج) هناك نقطة ثالثة يقتضي الاشارة اليها ، وهي الارضية الخاصة التي يشكلها الولد عند بروز اضطراب نفساني . فهذا الاضطراب يجب ان يواجه في اصوله من زاوية النمو والبلوغ . بينما عند البالغ فالامر يتعلق عادة بمرحلة تطورية خاتمة لسير طويل ، فعند الولد ، على العكس من ذلك ، نواجه تطوراً متنامياً : اكان ذلك من ناحية البلوغ العصبي ، اي البروز التدريجي لطاقاته الحركية والحسية ، ولمكتسباته الفكرية والادراكية ، ام من ناحية نموه العاطفي حيث يأتي نشوء العلاقات المختلفة والجدلية بسبب اللغة ، ليغير في كل لحظة ويغني علاقات الولد بالعالم الذي يحيط به .

فهذا النمو العاطفي يتعلق بعدد من العوامل : بمرونة الدوافع الغريزية التي يحدد تقلبها علاقات الولد بأشيائه ؛ بصيرورة هذه العلاقات التي تحدد شروط اندماجه في عالم اجتماعي ومتراتب ؛ واخيراً ، يتعلق بمعطيات بنيوية ، او اليات دفاع وتماهي ، تكسب الفرد شكل انتظامه الخاص . وبتوجه تحليلي ودينامي للمرض العقلي عند الولد ، علينا ان نأخذ بعين الاعتبار الطاقة البلوغية والتاريخ التطوري للفرد التي يحددها العالم المحيط والدوافع الغريزية والهوامات في نفس الوقت . فالتحليل النفسي ، باقتراحه توجهاً تاريخياً للمريض ، جعل الطب العقلي للولد يتحرر من اطار التصنيفات المتصلب .

٢ ـ التربية التقويمية والعلاج النفسي

ان القول بأن الطب العقلي للولد تطور بموازاة التحليل النفسي هو قول صحيح ، لقد شجع التحليل النفسي انطلاقة الطب العقلي للولد واغناه بمجموعة من المفاهيم الاساسية الضرورية لتوجهه اللاحق . وصحيح ايضاً ا ن التوجه النفساني والتربوي بالنسبة للولد قد نشأ في القرن الثامن عشر تحت تأثير جون لوك ودافيد هيوم وروسو وكوندياك الذين كانوا قد رسموا الطريق لفهم الولد واكدوا على اهمية الدافع : فكل تعلم يجب ان يبدأ برغبة للتعلم متيقظة عند الولد ، بدل ان يكون مفروضاً باجراءات قسرية ، فحركة علم النفس الحسّوي قد تستخدم كقاعدة لمحاولات تربية الاولاد المدعوين غير طبيعيين ، وهي مرحلة اولى في الطب العقلي للاولاد كما تدل على ذلك النسخة الاصلية من مؤلف هامينفوس (١٨٨٧) .

يمكننا اذن اعتبار الطب العقلي للاولاد في نهاية القرن الماضي وبداية القرن العشرين يواجه « اعادة التربية » . فهذا الاتجاه الى « التطبيع » يبدو في الاهمية المعطاة لمشاكل التربية . فمنذ بداية القرن التاسع عشر اعطى كل من بستالوتزي Pestalozzi ، في مدرسته « للتربية الحدسية » في ايفردون Yverdon ، وفروبيل Froebel وايتار Itard الذي انشأ المعاهد الاولى للاولاد غير الطبيعيين (مثل معهد بيساتر Bicêtre ومؤسسة التقويم العقلي Félix-Voisin) ، دفعاً لطرق تربية الاولاد المتخلفين عقلياً . لقد كانت هذه التربية قبل كل شيء « حسّوية - تجريبية » حيث كان التعليم يهدف الى التحسين التدريجي والتدعيم شبه الميكانيكي للعقل . فجميع المربين يتفننون بتنمية « ملكات » التعلّم الطبيعية - مفترضين انها متوقفة بسبب عاهة في سيرها أو خطأ في الملكات الطبيعية بالذات . تربية حسية عند فروبيل الذي يستخدم بعض الاشكال الهندسية لايقاظ الادراك المتدرج التعقيد عند الولد (الكرة ، المكعب ، الاسطوانة) ؛ تربية فيزيولوجية ووظيفية عند ايتار ، وهي طريقة حاول تطبيقها على ولد وجد في حالة وحشية ، (Victor de L'Aveyron) (١٨٠١) . وادوار سيغان Seguin ، الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي للمراكز الطبية - التربوية ، وهو مربي ومنظم بارع ، لقد عرف اهمية العجز الادواتي عند الولد وادرك الدور المبنين للعب والالعاب في كل تعلّم . ولكن الجميع يواجهون هذا العجز على انه من طبيعة ادواتية وليس نفسانية ، هذه النظرة تجد تعبيراً لها في الوسائل المستخدمة .

في نفس العصر كانت ماريا مونتيسوري Montessori تدشن تربية خاصة للاولاد المتخلفين ، مرتكزة على تدريب احاسيس اللمس والحركة ، وقد جرى تعميم هذه الطرق بسرعة ، وتطبيقها على الاولاد الطبيعيين[1] رغم بعض التصلب النظري والشكل الاصطناعي للادوات والتمارين المقترحة ، فإن طريقة مونتيسوري حبذت بعض الحرية للولد ، وشجعت التعبير الحر ، لذلك يمكن

---

[1] ـ يمكننا مراجعة كتاب ماريا مونتيسوري L'enfant المكتوب عام ١٩٣٦ (Gontier ١٩٦٣) الذي يشكل مدخلاً ممتازاً لفكرها ، كذلك كتابها l'esprit absorbant de l'enfant, Deslée de Brouwer ١٩٥٩

اعتبارها كمخطط اولي للطرق الفعالة التي تطورت مع دكرولي Decroly . لقد كان هذا الاخير رائداً حقيقياً للتربية من خلال مراكز الاهتمام ، فيطلب من كل ولد مشاركة فردية تقوده شيئاً فشيئاً لتكوين جدول بالمعارف . ولكن ما يسترعي انتباهنا هو ان طريقة دكرولي ، خارج الاعتراضات المبدئية ، حاولت بالفعل انشاء تربية « على القياس » ، كما كانت تحاول ان تتكيف مع حاجات كل ولد[1] .

وهكذا فاللعب ، والجسمي المعاش ، والتعبير الحر ، والابداعية وضعت على نفس مستوى الطرق التربوية واتت لتوسع حقل التعلم الذي كان لا يزال حتى ذلك الوقت وقفاً على الناحية المعرفية .

ولكن جون ديوي DeWey ، بالحاحه على ضرورة حل الولد لمهمات جديدة وعلى ضرورة تنظيم معطيات الواقع المعاش ، ادخل اتجاها سلوكياً ومادياً على التربية التقليدية[2] ان تمسك ديوي بالليبرالية وبمبادىء الديمقراطية جعل منه رائداً لمفهوم التكيف . فالتربية المعتبرة بشكل اساسي كتعلم اجتماعي تهدف الى دمج الفرد في المجموعة ، وجعله يعتاد على نمط من الحياة حيث تحدد الجماعة للفرد هدفه وحدوده . فازدهار قرى و« جمهوريات » الاولاد يعود الفضل فيها لديوي ، وسوف نعود اليها عندما نعالج تكييف الشباب المنحرفين مع الحياة الاجتماعية الطبيعية[3] .

واشار جون ديوي ايضاً الى ان التربية يجب ان لا يكون هدفها فقط التهيئة

---

١ ـ ليس لنا هنا ان نعالج مختلف الطرق التربوية التي تطرح مشاكل ذات اهمية بالغة . فلمزيد من التفاصيل ندل القارىء على كتب: Les grands Pédagogues - Puf ١٩٧٧ ، و Hubert :Histoire de la Pédagogie ١٩٨٠ PUF .

٢ ـ فالتعارض بين التربية « الفعالة » والتربية التقليدية يجب ان لا يذهب بعيداً ، يبدو واضحاً ان الانظمة التربوية في العصور القديمة مثلاً لم تكن متصلبة بالشكل الذي تريد اظهارها النظرة التبسيطية (انظر Marrou Histoire de l'éducations dans l'Autiquité ١٩٤٨ Castle: Ancient Educationaux Today, Peinguin Books ١٩٦١ ، الذي يؤكد على بعض التشابه الذي يجري تجاهله غالباً » .

٣ ـ هناك مثل آخر : عندما قام الاتحاد السوفياتي بحل مشكلة الاولاد الذين هم دون اهل ، فاقام تحت تأثير المربي السوفياتي ماكارينكو Makarenko ، مجموعات الاولاد التي اضحت قصة اخرجها نيقولا ايك Nicolas Ekk فيلماً بعنوان Le chemin de la vie ـ (طريق الحياة) (١٩٣١)

للحياة اللاحقة ، ولكنها يجب ان نشجع على تفتح الحياة الحاضرة للولد ، فالتربية الفعّالة اتت لتحل محل الطرق التقليدية .

فالطرق التربوية تعكس بأمانة المفاهيم النفسانية والاجتماعية والفلسفية والاخلاقية ، وبالتالي الايديولوجية ، لعصر معين . فليس غريباً ان نلاحظ طرقاً تربوية جديدة تتلاءم مع الهدف الجديد للتربية . فليس صدفة ابداً ان يبادر ايتار ، تحت تأثير المباديء التي استوحى منها اعلان حقوق الانسان ، الى تربية فيكتور ، الولد المتوحش ، وان يطالب بينيل Pinel باصلاح مآوي المجانين . فالتربية التقويمية في القرن التاسع عشر كانت تهدف الى سد عجز فكري او نقص اجتماعي ، وحتى انشاء اخلاق ليبرالية .

في بداية القرن العشرين ، ادى الادراك الافضل للعوامل النفسانية التي تحدد نمو الولد الى موقف وهدف تربوي مختلفين . والمجال الناشيء للطب العقلي للاطفال فكك الاطارات التصنيفية القائمة للامراض ـ التخلف العقلي ، العته ، الشذوذ البنيوي ـ وحسن طرقه الاستقصائية ، وسبر غور معطيات النمو بتبصر اكثر .

وادخال معايير جديدة ـ خاصة بفضل التحليل النفسي ـ مكن من ادراك ادق للمظاهر المختلفة : اضطرابات السلوك العائلي ، المصاعب المدرسية ، خصوصيات بعض التصرفات ، الخ ، وهي كانت مهملة في الماضي ومعتبرة كحوادث بسيطة غير مكونة للطبع ، وادخال المعايير غير جذرياً تصنيف الامراض القائم ، وبنفس الوقت غير التوجه التقويمي الصرف للطب العقلي الذي كان سائداً في بداية القرن العشرين . وبمواجهته للاعراض النفس ـ مرضية للولد باعتبارها اضطراباً للسلوك ، فإن الهدف التربوي الصرف ترك مكانه شيئاً فشيئاً للمحاولات النفس ـ علاجية . لم يعد الهدف تعويض نقص فكري او ادواتي ، ولا تصحيح الظروف الخارجية غير الملائمة ، ولكن نقص السبب الكامن للسلوك ، المعتبر كعارض لبنية عصابية او لاضطراب انعكاسي ، وهكذا اخذ العلاج النفسي ، تحت تأثير النظريات الفرويدية ، مكاناً متزايد الاهمية بين الاجراءات الطبية ـ النفسانية .

هذه المساعدة النفسانية كانت في اساس انشاء Child guidanceclinics ، المختصة عندما انشئت بتقصي ومعالجة حالات انحراف الشباب ، ولكن توسع حقلها بسرعة وشمل اضطرابات السلوك والاضطرابات الانعكاسية للسلوك ، والحالات السابقة للذهان ، والخلل الادواتي ، كما اعطى مجالاً واسعاً لامراض الاطفال النفسانية .

فالعيادة الاولى لتوجه الاولاد انشأها وليم هيلي William Healy واغوستا برونير Augusta Bronner في شيكاغو ، عام ١٩٠٩ . فهذه العيادة التي تدعي Juvenil Psychopathis institute كانت نموذجاً لعدد من العيادات الاخرى، وقد تخصصت في البداية بتقصي العوامل النفسانية لانحراف الشباب ، ولكنها اهتمت وفيما بعد بجميع اضطرابات الولد النفسانية . في عام ١٩١٥ انشأ الدكتور هيلي في بوسطن Judge Balzer Foundation ، بينما برنارد غلوك Bernard glueck اسس School of social work في Smith college ، وذلك لاعداد المساعدات الاجتماعية المتخصصات . وماريون كينورتي Marion kenworthy التي كانت اول طبيبة عقلية اميركية للأولاد تلقت اعداداً تحليلياً ، اصبحت مديرة لهذه المدرسة فساهمت باعطاء اتجاه تحليلي واضح ل Social case - work في الولايات المتحدة .

وفي فينا برز اهتمام متزايد في الحلقات التحليلية لعلم نفس الولد ، ومنذ ١٩٢٢ ، اجرى سيغفريد بيرنفلد Siegfried Bernfeld ، مدير مؤسسة للاولاد المتروكين ، Kinderhein Baumgarten ، سلسلة من المحاضرات حول علم النفس التحليلي المطبق على الاطفال الرضع[1] . واغيست ايكهورن August Aichhorn حاول تكييف الشباب المنحرفين في مؤسسته في Ober-Hollabrem حسب المبادىء التحليلية[2] وفي عام ١٩٢٤ ، الحق مركز لتوجيه الاولاد مباشرة في Lehrinstitut لجمعية فينا التحليلية . ومن المفيد ، لفهم نتيجة تطور مجموعة

---

١ - ظهر بعنوان Psychologie des Säuglings (١٩٢٥) ، فهذا المؤلف كان اول محاولة للتوجه التكويني لعلم النفس الخاص بالسن الاولى .

٢ - فالتجربة ذكرها المؤلف في Verwahrloste Jugend (١٩٢٥) الذي ترجم الى الفرنسية تحت عنوان Jeunesse à l'abandon .

فينا ، استخلاص الوجهة الخاصة لاهتماماتها ، ومنهـا اهتمام المحللـين في نشر الافكار التحليلية بين المربين . فالمحاضرات التي القتها انّا فرويد Anna Freud على مدرسي مدينة فينا عام ١٩٢٩[1] ، والمقالات العديدة لكل من اليس بالنت Alice Balint ، واديت ستيربـا Edith Sterba وهيرتـا فوشس Herta Fuchs وفريتز ريدل Fritz Redl[2] ، وحلقات الدراسات التـي كان يقودهـا ستيربـا وايكهورن ، ودورة الاعداد والتحسين التي انشأها هوفير W. Hoffer لجعـل المربين يأخذون التحليل النفسي بعين الاعتبار في تكوين النظريات التربوية ، كلهـا تشهـد على النشـاط المبـذول . ان التعابـير المستخدمـة باستمـرار Psychaanalytische Pädagogik, grenrd lagen eius Erziehungasys teuis[3] ، تدل بالضبط على الروحية التي كتبت بها هذه المؤلفات . فالهدف هو وضع الاسس للتربية التحليلية ، الاهتمام الذي نجـده فيما بعـد في اعمال أنّـا فرويد . وفي فرنسا يعـود الفضـل للبروفسـور جورج هوير Heuyer الـذي استخدم عام ١٩٣٦ التحليل النفسي للاولاد ، Mme Morgenstern ، وادخل التحليل النفسي هذا الى العيادة التابعة للطب العقلي - العصبي للولد التي كان قد انشأها عام ١٩٢٥ وكانت اول مؤسسة تمارس الطب العقلي للولد من زاوية تعدد الاختصاصات . وبفضـل جورج هوير ، اتخـذت الممارسـة التحليلية مكاناً في المجال الاستشفائي مدشنة تقليداً لا يزال مستمراً حتى اليوم ، وتشير بهذه المناسبة ان الادخـال الرسمـي للتحليل النفسي في فرنسـا جرى في عصر انتشار الاحكام المسبقة البارزة جداً تجاه النظـريات الفـرويدية . فإذا كانـت بعض هذه الاحكام المسبقة لا تزال قائمة الى اليوم ، فإن التحليل النفسي للولد قد احتل مركزه نهائياً كطريقة علاجية .

بعد الحرب العالمية الثانية توسع بشكل كبير اسعاف الطب العقلي خارج المستشـفيات في فرنسـا (Duchêne ١٩٥٩) . فانتشرت شيئـاً فشيئـاً المراكز

---

١ - نشر بعنوان Intrøduction to Psychoanalysis for Teachers (١٩٣١) ، وقد اضيف على الكتاب قسم ثان عندما نشر في برن Berne عام ١٩٥٦ عند Haus Huber

٢ - اننا نجدها في مراجع كتاب انّا فرويد Le traitement psychanalytique des enfants، (١٩٤٥) .

٣ - قواعد نظام تربوي ؛ التربية التحليلية .

الـطبية ـ النفسـانية بتأثير بونـافيه ، دوميزون ، سيفـادون وهنـري دوشـين Bonnafé, Daumezon, Sivadon, Henri Duchêne وفي نفس الوقت سمح تنظيم العيادات والمستشفيات الطبية ـ التربوية بادخال المعالجين النفسانيين الى داخل الفرق المعالجة بالذات ، وذلك بأعداد تزايدت شيئاً فشيئاً[١] . كل هذه الاجراءات دفعت تدريجياً الى انتشار الاسعاف النفس علاجي .

ان العيادات الـطبية ـ النفسـانية المشابهـة لـChild- guidance clinics تهدف الى جعل الولد يتكيف بشكل افضل مع محيطه الاجتماعي العائلي ، ليس بمعالجة الوسط ، وانما بتركيز الجهود على العلاقات العـاطفية للولـد . ان هذا الهدف التوافقي يجب ان لا يخدعنا : ليس من الضروري محاولة قولبة الولد في قالب مسبق من المثل الاجتماعية ، لكشف العوائق التي اصطدم بها الولد خلال نموه والتي شوشت علاقاته الغيرية ، وادت الى مأزم عصابي واثرت على بنية شخصيته . فكل عمل نفس علاجي يقـوم بتغيير البنية المشوشـة للشـخصية وبحل الازمات داخل النفسية . يجب قبل كل شيء تمكين الولد من ايجاد حل لمصاعبه الـداخلية ، حتـى يصبـح قادراً على استخـدام كل طاقتـه العـاطفية والعقلية .

إن طرق Child Guidance هي تطبيق مباشر للعلاج النفسي التحليلي[٢] . هذه العلاجات تهدف ، من خلال اعداد الوضعية النقلية ، الى تبديلات بنيوية .

الا ان الاتجاه نحو العائلة يستوحي غالبـاً من اعتبـارات اخـرى ، مثـل الفعالية المباشرة القصيرة الاجل والهادفة الى تشجيع امكانية استمـرار العـلاج النفسي للولد في افضل الظروف الممكنة . وهذا يعني ان العلاجـات النفسية للاهـل تبقـى غالبـاً بعيدة جداً عن معـايير التحليل النفسي ؛ خاصـة وان

---

١ ـ لقد نشرت تقارير حديثة عن التجهيز الحالي في هذا المجال . انظر Les Hôpitaux de jour et externats psychothérapeutiques pour enfants (١٩٦٩) .

٢ ـ اننا نعطي هنا لعبارة Child guidance معنى ضيقاً . صحيح ان مراكز توجيه كثيرة تستخدم حالياً تقنيات عديدة للاعداد الوظيفي ، للاسترخاء ، للنطق ، الخ . . فنحن لا نعرض هنا الا للنشاطات النفس علاجية فقط .

العلاجات النفسية للاهل تجري على وتيرة اسبوعية عادية ، وبسبب بعض الصلابة المكتسبة والثبات في المواقف الجامدة منذ زمن بعيد ، فان التغيير البنيوي للاهل ليس محتملاً . هناك محاولة لجعل الاهل يعون موقفهم تجاه الولد ، وجعلهم يدركون ماذا يعني هذا الموقف وجعلهم يكتشفون االتكرار اللاواعي لبعض صور السلوك . فالأمر لا يتعلق في الواقع باعطاء النصائح ولا بتربية معينة ، ولكن بجعل الاهل قادرين على ادراك بعض الدوافع المرتبطة بسلوكهم العائلي كأهل .

فنحن هنا لا نقوم بالتحليل النفسي بمعناه الدقيق ، فما من شك ان العلاجات النفسية تشتق مباشرة من النظريات التحليلية ، فضلاً عن انها تستند الى نظرة تحليلية للشخصية والى مباديء علم النفس الدينامي . فهذه النظريات ، كونها غير موجهة ودون هدف تربوي ، لا تعمل لا على المذهبة ولا على تقديم النصائح ، ولكنها تأخذ على عاتقها توضيح الازمات الداخلية وتوفير فهم افضل للدوافع[1] .

فإذا كانت النظريات التحليلية قد جعلت انتشار توجيه الاولاد امراً ممكناً بتأسيسها القواعد المفهومية للتوجه النفس علاجي ، فإن المراكز الطبية - النفسانية ساهمت كثيراً بدورها بتثبيت المفاهيم الفرويدية التي حددت اتجاهها الحالي .

٣ ـ الجبلّة والحتمية النفسانية

كان على التحليل النفسي ان يتخذ موقفاً بالنسبة لمسألة اسباب الامراض العقلية . وبسبب دخول النظريات التحليلية ، اتخذت هذه المسألة المرتبطة بشكل وثيق بمسألة تكون الشخصية ، دفعاً جديداً .

---

١ ـ انظر سميرنوف De quelques problèmes que pose au psychanalyste la pratique dispensoriale (١٩٦٧) .

فالطب العقلي في القرن التاسع عشر اقام مفارقة جوهرية بين الامراض النفسية ذات الاصل الجسمي والاضطرابات العقلية التي لا يمكن لأي تفسير جسمي ان يدرك اسبابها وكانت تعتبر وكأنها نتيجة لجبلّة عقلية ، موروثة او فطرية .

فما يقدمه الطب العقلي الدينامي ، الجبري والطبيعوي هو توضيح مسألة العوامل الجبلّتية . ان اطار الاصابات الجسمية في الطب العقلي اصبح بسرعة مقتصراً على بعض الامور المحددة (الشلل العام ، اختلال في الشرايين ، ضعف الجبهة ، آثار ناتجة عن مرض في الدماغ) النادرة نسبياً امام العدد الهائل من المرضى العقليين ؛ فالابحاث التشريحية ـ المرضية او الكيماوية ـ الاحيائية لم تؤكد حتى الآن الاصل الاحيائي لعدد كبير من الامراض العقلية .

ولكن بعد حل مسألة الاصل العضوي ، واجه التحليل النفسي مسألة انتقال الامراض العقلية التي ليس لها اي سبب واضح ، ودار النقاش لتحديد النسبة التي يجب ان نعزوها للعوامل الفطرية الجبلّتية والنسبة التي تعود للعوامل المدعوة عوامل الوسط[1] .

١ ـ العوامل الوراثية

على الصعيد الاحيائي تعرف الوراثة بأنها الانتقال التكويني لهذه الخاصة او تلك . هذا الانتقال الوراثي للخصائص التشكلية او الفيزيولوجية يحدد نموذجاً تكوينياً يمكن لمظهره الخارجي ، الظاهرة النموذج ، ان يتغير ، ولكنه يخضع

---

١ ـ ان النظريات التكوينية تفترض ان الخصائص الوراثية تحملها المكوِّنات Gènes (الموزعة على طول الصبغ) : فالوراثة المماثلة تعني تماثل المكوّنات . وهكذا تنطبع الوراثة في الخلايا الوراثية وتخضع لقوانين الانتقال الصبغي . ومؤخراً جرى التأكيد بأن حمل الخصائص الوراثية يمكن تحديده كيماوياً (جزئيات ADN) . يمكننا مراجعة génétique (Robert-P. Lévine, Edèscienx ١٩٦٩ Hermann) ؛ Petit et Prevost génétique et evolution, ١٩٦٦) لقد استطاع البحث الحديث ان يكتشف في الانتقال الوراثي وجود دليل لرموز الجزئيات ، وبرمجة تكوينية حقيقية La logique du vivant F. Jacob Gallimard ١٩٧٠) .

دائماً للانتقال الصبغي "Chromosomique"[1] الا ان تعقيد هذا الانتقال يمكن ان يكون كبيراً ، لأن مفاهيم الوراثة البسيطة او المزدوجة ، المشاركة او التابعة للجنس (Sex-Linked) ، المتأسّلة او المتراكمة ، تأتي لتعقد مباديء المكونات المسيطرة او المتنحية ، المنطوية على نفسها او ذات التعبير النسبي ، وهذا ما يفسر ، كما يشير مالسون Malson (١٩٦٤) ، « الشك الذي يسيطر ، في الحالة الراهنة للعلم ، في دفاتر العلماء التكوينيين » .

في حقل علم النفس وعلم الامراض العقلية ، فإن الانتقال الوراثي والتكويني ، لسمة من الطبع ، لأثر نفساني ، لخاصة فكرية ، وحتى لاستعداد مرضي ، يبدو ايضاً امراً صعب التحديد . لقد خاض فرويد ، منذ بداية اعماله ، معركة حامية ضد فكرة الانتقال الوراثي للعصاب . وتجدر الاشارة ايضاً ان فرويد لم ينتفض ضد النظريات التكوينية المندلية (Mendel) ، ولكن ضد استعمال العبارة المنحرفة عن معناها العلمي الدقيق والمجردة من اسنادها الملموس[1] لقد وقف فرويد اذن ضد نوع من القدرية التفسيرية ، ضد الحجة التبسيطية التي تحويها هذه الكلمة من القبول طوعاً بعدم وجود مسؤولية اجتماعية ، او ضد المصير الذي لا مفر منه والمكتوب في صيرورة الشخص حتى قبل ان يولد .

٢ ـ العوامل الفطرية والجبلّة

يبدو لنا مفهوم العناصر الجبلّية مفضلاً على مفهوم الوراثة . انها مجموع العوامل الفطرية التي يتسلح بها الطفل عند ولادته . فهي تشمل العوامل الوراثية والعوامل المكتسبة خلال الحياة داخل الرحم . ان العوامل السابقة

---

١ ـ الوراثي هو كل ما ينتقل ، خلال الاجيال المتتابعة ، حسب القوانين التكوينية . ان مصير مفهوم وراثة السفلس يبدو من هذه الزاوية واضحاً . ان الايمان بانتقال وراثي مبهم قد ترك المكان لمفهوم السفلس الموروث ، الناتج عن تلوث رحمي او عند المرور في القناة بين الرحم والمهبل . بعد ذلك لم يعد السفلس قدر لا مفر منه ، ولا عنواناً لعيب متأسّل ، بل يمكن اعتباره كنتيجة لتلوث مباشر من الام للولد ، ويمكن اذن تداركه بمعالجة الام قبل او خلال الحمل . بهذا لم يعد للآثار السفلسية الموروثة معناها الشائن ، وبالتالي يمكننا ان نتصور الانعكاس الذي احدثه هذا التحول النظري على الصعيد النفس اجتماعي .

للولادة والعائدة للوسط الرحمي الامي ، والتي لا جدال في تأثيرها من الناحية الفيزيولوجية والجسمية ، تتعلق بالحالة الفيزيولوجية ، والى حد ما ، بالظروف النفسانية للام . من جهة تكون بعض التوابت النفس فيزيولوجية للولد ، فإن حياته داخل الرحم لا يمكن اهمالها بالرغم من الصعوبة ان نتكلم عن « الصدمات النفسية » ، كما نفهمها .

وتجدر الاشارة انه في مجال علم النفس ، من المستحيل غالباً ان نفصل بدقة بين ما يتحمله التحديد التكويني والذي ينتج عن العوامل المكتسبة . فإرادة رسم خط فاصل وواضح بين هذين النوعين من الوقائع تصطدم بمشاكل طرائقية . نستطيع القول ان المعطى الجبليّ يفوق معطى الوراثة التكوينية وان العناصر المكتسبة داخل الرحم تشكل على وجه التحديد جزءاً من هذا المعطى .

٣ النضج او البلوغ

يجب ان نواجه دور البلوغ النفس فيزيولوجي الذي يمكن ان نقترح تعريفه بما يلي : النضج هو بروز وظائف فطرية خلال النمو الجنيني تجد امتدادها بعد الولادة . فالبلوغ عند الفرد ينطبع على شكل استعدادات مسبقة (Aulage) تتعلق بها المكتسبات اللاحقة . فالبلوغ يعطي امكانيات وطاقة على الحركة والاكتساب ، ولكن استثمارها يتعلق بالتعلم المستند الى الوسط . فهذا صحيح بالنسبة للمكتسبات الحسية ـ الحركية ، لللغة ، الخ . . . ان ما نسميه مراحل نمو الوظائف والتصرفات ، هو بالتحديد بروز بعض الصميات المعقدة الناتجة من تأثير الوسط على الطاقة البلوغية : هذه التصرفات لا يمكن ان تظهر الا عندما يبلغ التنظيم الفيزيولوجي والعصبي وتكامل قشرة الدماغ مستوى معيناً من النضج . ان كل تربية تبقى عقيمة اذا لم يتم الوصول الى هذه المستويات . وهكذا فالبلوغ يعطي طاقة يتعلق استثمارها (النمو) ، إلى حد كبير ، بالدوافع وبالمثيرات العاطفية التي يوفرها الوسط الخارجي .

وهكذا فإن اكتساب المشي مثلاً لا يمكن ان يتم قبل تغلف الاعصاب في النظمة الهرمية . فإذا كان تعلم المشي لا فائدة منه قبل هذه الفترة (عادة حوالي نهاية السنة الاولى) . فإنه يصبح ضرورياً في هذه الحقبة . فالوظيفة التي تبدو

مطبوعة بشكل اساسي في النسبية التكوينية تحتاج لكي تتحقق ، ان يُحث الولد من قبل محيطه كي يكتسبها .

ان مثل « الاولاد ـ الذئاب » ، الذين نشأوا بعيدا عن اي اتصال بشري ـ والذين لم يكتسبوا المشي كوسيلة عادية للتحرك ـ يعطي دليلاً شبه اختباري[1] . واذا كان بالامكان الكلام عن بلوغ حياتي ، فإنه من الاصعب اعتبار البلوغ النفساني كمعطى فطري بالكامل . ان مفهوم البلوغ في التحليل النفسي ، مع تمييزه لمراحل الدوافع الغريزية ، يبدو اليوم اقل صلابة مما تريده بعض الشروحات التقليدية ، كشروحات ابراهام Abraham ١٩٢٤ مثلاً . الا اننا نعجب لعمومية البلوغ الاحيائي السابق لاوانه الذي يضع الولد بشكل دائم في تبعية محيطه . ان هذه الوجهة المزدوجة لعدم البلوغ الفيزيولوجي وللتبعيه تجاه الغير هي في اساس اي نمو للولد ويشكل ما كان فرويد يسميه بالعجز الاساسي Hilfslosigkeit .

فضلاً على ذلك ، يمكننا ان نتساءل الى اي حد لم تكن بعض مراحل النمو الليبيدوي حوادث عارضة ذات اصل ثقافي، وما كانت حصة البلوغ العصبي ـ الاحيائي في اكتساب القدرات المختلفة . وبعبارة اخرى من الممكن اعتبار ان البلوغ الاحيائي لا يحدد ، وانما يجعل من الامكان اقامة علاقات غيرية بتقديمه للولد بعض التجهيز ؛ وبالمقابل ، ان نمط اقامة هذه العلاقات يتعلق بالعوامل الخارجية التي يمكن ان نسميها ثقافية .

ان موقعاً كهذا يسمح بتحديد الدور الذي يلعبه البلوغ في تكوين الشخصية : « فالبلوغ قائم ولكن ليس له تأثير ولا يوجد كمعطى الا تبعاً للمحيط . فنسق البلوغ لا يمكن اذن اعتباره كعامل مباشر للشخصية ، فهو يفعل داخل حركة تفاعل معقدة ، وهو يتعلق بالنمو السابق وبالمحيط » . (J.-C. Filloux ١٩٦١) .

---

١ ـ منذ نشر ، عام ١٨٠١ ، للطبعة الاولى من ملاحظة جان ايتار Itard حول Victor de l'Aveyron (انظر Malson ١٩٦٤) ، جرى استقدام عدد من الحالات المشابهة .

٤ العوامل الجبليّة وعوامل الوسط

ان الدور المتتالي لكل من الجبلة والوسط في تحديد سمات الشخصية والمرض العقلي قد طرح منذ زمن بعيد . ان مقابلة الطبيعة والثقافة التي طرحت النقاش على صعيد الخيارين الاساسيين ، كانت حقلاً لابحاث متعددة ، سنذكر هنا ببعضها التي تمكن من تحديد المواقع المتتالية بشكل افضل .

أ) **الذكاء والتخلف العقلي** ـ لقد جرت السلسلة الاولى من الاعمال حول التخلف العقلي وعدم التكيف الاجتماعي في بعض العائلات[1] ـ ان دراسات غودار Goddard (١٩١٢) على الذرّيتين الناتجتين من مارتن كاليكاك martin kallikak ، الواحدة شرعية وطبيعية من حيث الذكاء ، والثانية غير شرعية ومكونة من متخلفين عقلياً ، سوف تبرهن على التحديد التكويني للذكاء . ولكن ، كما لاحظ ذلك عدد من النقاد ، ماذا كان يمكن ان يحل بالفرع اللاشرعي لو استطاع ان يتمتع ، كالسلالة الاخرى ، بجميع المكاسب الاجتماعية : « منبوذون ، هامشيون ، محتقرون ، لقد لقي الاهل الفقراء لكاليكاك السعداء المصير الذي رسمته العادات » (مالسون ١٩٦٤). نفس المصير لحق بذرية سكيرومتشرد ، ماكس جوكس Maxjukes ، التي اجرى لها دوغدال Dugdale عام ١٨٧٧ وصفاً غير مشجع ووجد لها ايستابروك Estabrook عام ١٩١٦ منتسبين عديدين منهم ٣٠٠ يتعاطون الدعارة و٦٠٠ متخلفون عقلياً و١٤٠ مجرماً و٣١٠ متسولين . فإذا كانت مثل هذه الدراسات تبدو للوهلة الاولى برهاناً على تهيء جبليّ ، فهي في الواقع تشكل حجة ذات قيمة لصالح تأثير الوسط[2] .

ان الفرضية القائلة بأن مستوى الذكاء هو معطى وراثي قد خضعت،

---

١ ـ لالقاء نظرة عامة على المشكلة يمكننا العودة الى اعمال زازو R.Zazzo ومساعديه (١٩٦٩) وروكلان M. Reuchlin (١٩٦٩)

٢ ـ H.H. Goddard- The Kallikak family, a study in the heredity of Feeblemindeduess, Macnillan 1912, R. L. Dugdable, A Study un crime, Disease and Heredity, Putman 1877. A.H. Estabrook, The Jukes in 1915, carnegie Institute, 1916

لتحقيقات منهجية . لقد كان ذلك ممكناً بفضل استخدام روائز نسبة الذكاء المقننة والتي قد تسمح باختيار جماعات منسجمة[1] ان العمل الهائل الذي قام به فريمان وهولزنجر وميتشل Mitchell, Holzinger, Freeman (١٩٢٨) اظهر تأثير الوسط على نمو الذكاء : من بين الاولاد الموجودين في عائلات متبنية فالارتباطات النفسانية بين الاولاد المتبنين والاولاد الحقيقيين هي اكبر من الارتباطات بين الاولاد المتبنين واهلهم الحقيقيين ؛ من جهة اخرى هناك مساواة ذات دلالة بين الاولاد المتبنين الذين يعشون في نفس العائلة وان كانوا من اصول مختلفة .

ان الاولاد الآتين من امهات متخلفات عقلياً ويعيشون في عائلات طبيعية يصلون الى مستويات متوسط المجموعة ، بينما الاولاد الذين يعيشون مع اهل متخلفين ، هناك احتمال كبير لأن يصبحوا متخلفين بدورهم . ان الدراسات المتعلقة بالتوائم تعطينا مؤشرات قيمة . لقد قام نيومان Neuman وفريمان وهولزنجر (١٩٣٧) بتفحص تطور الذكاء لدى التوائم من نفس البويضة الذين يتربون اما سوية ، وام منفصلين[2] . فإذا كانوا في نفس الوسط العائلي يبدو التوائم من نفس البويضة متشابيهن كثيراً ، بينما التوائم من بويضات مختلفة لا يتشابهون الا مشابهة الاخوة فيما بينهم . من ناحية اخرى ، لقد تمت البرهنة ان التوائم من نفس البويضة والذين يُربون منفصلين تظهر بينهم فوارق من

---

١ ـ يبدو في هذا المجال ان اختيار متغير معين يصطدم بصعوبات كبيرة . فلعزل عامل قابل للقياس تعتبر النسبة الذكائية غير متبدلة ، لذلك لم نحل طبيعة هذه التغيرات . هل الذكاء هو عامل يتحدد تكوينياً او انه يتغير بالتأثيرات السابقة للولادة والمكتسبة ؟ فعلم الامراض يدلنا ان الاحتمالين واردان . ولكن لا تكون هنا قد حددنا الا الطاقة الذكائية الفردية وليس تطورها اللاحق تحت تأثير الوسط . ان الدراسات حول التخلف العقلي تبين اي دور يلعبه الوسط في استخدام وصيرورة هذه الطاقة الذكائية . ولكن كان يبدو ان الامر يتعلق هنا بقدرة يمكن قبول تحديدها التكويني بشكل اولي .

٢ ـ هناك نوعان من التوائم . التوائم الآتون من تلقيح بويضة واحدة (Zygote) يدعون توائم من نفس البويضة Homozygoty : مما يفرض ان هؤلاء التوائم ينتجون من اتحاد حُيَيّ منوي واحد مع بويضة واحدة . فهم يملكون نفس المخزون التكويني . هذه التوأمية لا تتحدد بعوامل عائلية . والتوائم من بويضات متعددة Hétérozygotes يأتون من بويضات ملقحة افرادياً وهم يشبهون الاخوة . هذا النوع من التوأمية يبدو انه خاصة عائلية .

الممكن ان تكون عائدة للظروف الاجتماعية والتربوية المختلفة في اوساطهم المنالية .

هكذا نتائج لا تسمح باستنتاج ان الذكاء هو عامل وراثي ، يمكننا بسهولة ان نتصور المصاعب التي تصطدم بها التحقيقات التكوينية عندما يراد معالجة العوامل النفسانية التي هي صعبة التقدير اكثر من الذكاء الذي نملك له على الاقل طرق عديدة للقياس (النسبة الذكائية) . فهذه النتائج هي لصالح التفسيرات التي تستخدم النماذج الاهلية والتشابه التربوي والتماهي اللاواعي ، اكثر منها لصالح تأثير تكويني صرف .

يمكننا ان نشير منذ الآن ، ان النظرية التحليلية لا تعتبر النمو الذكائي على نفس الشكل وهي تفسره كوظيفة للأنا . فمهما كانت حصة العامل الفطري او الوراثي ، فإن التحليل النفسي يأخذ بعين الاعتبار ، وعلى وجه الخصوص ، التجربة المعاشة التي تلعب دوراً محدداً في استخدام ونمو هذه الطاقة . وهكذا فكل تعلم ، وكل القوى التي تدفع الولد للرؤية واللمس والسمع واكتشاف اشياء العالم الخارجي هي مشحونة بتشجيع ليبيدوي . فسوسان اسحق Susan Isaac (١٩٤٣) تعتبران الذكاء والتهوّم واختبار الحقيقة الخارجية هي مترابطة باحكام : هي ترى في كل لعب « تظاهر » حيث تجد كل الوظائف نموذج النشاط العقلاني المستقبلي .

ان ميلاني كلاين Mélanie Klein (١٩٣٢) فتتحدث بشكل اكثر تخصيصاً عن الميل للهواية المعرفية التي تتعلق بالدوافع الجنسية وتشكل رغبة للمعرفة ترتبط مباشرة بالفضولية الجنسية للولد ، وهي ستصبح فيما بعد رغبة للتعلم واكتساب المعارف في مجالات اخرى . فعندما تكبت هذه الميول للهواية المعرفية - اما بسبب المأزمات النفسية ، واما لممنوعات تتعلق بالاهل - تظهر الصدود الفكرية او المدرسية ، وحتى انكفاء عن اي تعلم . فميلاني كلاين تعتبر ان ميول الهواية المعرفية تشكل العامل الاولي حتى يستطيع الشخص ان يحيط بالحقيقة الخارجية ويصبح قادراً على مراقبتها .

وبهذه المناسبة يجب الاشارة ايضاً ان مانوني M. Mannoni (١٩٦٤) تؤكد

على العوامل العائلية التي تلعب دوراً حاسماً في حال النقص الفعلي . « ان دراسة المتخلف عقلاً ، كدراسة الذهاني ، لا تقتصر على الفرد ، ولكن تبدأ بالعائلة . . . فالتخلف المعتبر كنقص في الكفاية يعزل الفرد في نقصه » . ويشير المؤلف الى ان الولد المتأخر وامه يشكلان جسماً واحداً ، فرغبة الواحد تمتزج برغبة الآخر . فالولد يصبح معداً للعب دور يرضي الارادة اللاواعية التي تظهر في الهوامية الامية : « فالذي ، عند الام ، لم يكن بالمستطاع حله على مستوى عقدة الخصي سوف يعيشه الولد كصدى » . حتى عندما يدخل عامل عضوي في العملية ، فعلى الولدأن يواجه الشكل الذي تستخدم فيه الام نقص ولدها . ان مانوني تؤكد على استمرار العلاقة الثنائية بين الولد وامه ، وحيث لا يتخذ الاب مركز المشترع ؛ وهي تؤكد ايضاً على رفض الخصي الرمزي وعلى صعوبة التوصل للرمز بالنسبة للولد . فكل تقويم تربوي قسري لا فائدة منه ، بل هو مضر ايضاً ، ما لم يتوضع ، من قبل العلاج النفسي ، الطابع الارتهاني للرابط العائلي ، ولنضيف اخيراً ان التماهي الاهلي يلعب دوراً مهيمناً في النمو وفي المكتسبات الفكرية للولد .

وهكذا نرى ان التحليل النفسي ، رغم قبوله بامكانية الطاقة الفطرية ، يعلق اهمية اكبر على العوامل الدينامية والعاطفية ، فمثل نمو الذكاء ليس وحيداً ، فإننا نجد جدالاً مماثلاً حول بعض العوامل النفس مرضية .

ب) **الفصام** ـ فالسلسلة الاخرى من الاعمال تعالج فعلاً الفصام وانتقاله بالوراثة . ان الدراسات التي اجريت على التوائم لم تمكن من البرهنة على الانتقال التكويني . حتى ولو كانت درجة الارتباط بين التوائم من نفس البويضة مرتفعة ، تجدر الملاحظة بأنه يمكن ان يعود ذلك للعوامل السابقة للولادة او لعوامل الوسط على السواء : واشير الى ان تأثير الوسط يكون اكثر مشابهة كلما ارتفعت درجة القرابة الاحيائية .

فأعمال روزانوف Rosanoff (١٩٣٤) وكالمان Kallman (١٩٤٦ ، ١٩٥٣) تدل كما يبدو انه عندما يكون احد التوائم من نفس البويضة مصاباً بالفصام ، فالثاني عنده احتمال ٩٠٪ لكي يصاب هو الآخر بهذا الداء . ان

الابحاث الراهنة لا تؤكد ابداً هذه النتائج (تينـاري P. Tienari ، ١٩٦٣ ؛ كلينجلين E. Klinglen ، ١٩٦٦ ، جليك I.D.Glik ، ١٩٦٧)[1] .

فحسب الاحصاءات الحديثة والاكثر دقة هناك احتمال يتراوح بين ٢٠ و٤٠٪ للتوأم من نفس البويضة ان يصاب بالفصام اذا كان الآخر مصاباً . صحيح ان هذه النسبة تفوق النسبة القائمة عند التوائم من بويضات مختلفة او عند الاخوة العاديين (٥ الى ١٥٪) ، الذين يخضعـون بدورهم لاحتمال اعلى من السكان عامة[2] الا ان احصاءات جليك (١٩٦٧) مثلاً حول التوائم من نفس البويضة اللذين يعيشان منفصلين ، تعطي نتائج قليلة الاقناع : يبدو ان عوامل الوسط تلعب اكثر ، بالنسبة للتوائم المنفصلين ، من القرابـة التكوينية . فمهما كان الاستعداد الاحيائي او الاحيائي - الـكيماوي المنتقـل ، يؤكد حالياً على اهمية التعامـل بـين الفـرد ومحيطـه الانسانـي (سيرلز Searles ، ١٩٦٠ ؛ ستيرلـين Stierlin ، ١٩٦٩) . لقد بدا من الضروري اعادة الاعتبار للمسألة التكوينية في الفصام ومحاولة ابـراز اية عوامـل علائقية خاصـة يمـكن ان يشجعهـا ظهـور الفصام .

ونذكر هنا عمل ليدز Lidz (١٩٦٤) الذي استخلص ، مع معـاونيه ، اربعة اوصاف للاهل ، لا بد منها لتأمين امكانيات التكيـف لاحقاً للولد : أ) اتفاق الاهل الذي يحافظ على استقرار العائلة ويمكن الولد من ان يكون له اثنان من الاهل : واحد يتماهى معه والآخر يمكن ان يحبه ؛ ب) الحفاظ على الحدود بين الاجيال ، وهو ضروري لتلافي تشابك الادوار : فالحدود غـير الواضحـة تسير باتجاه التبعية الطفلية للاهل فيما بينهما ، والغيرة بـين الاهـل والاولاد ، والظهور اكثر فأكثر للميول المحرمة ؛ ج) الحفاظ على الادوار الجنسية ، فالهوية الجنسية هي عامل حاسم لنمو وظائف الانا ؛ د) وامكانية نزع الهالة الجنسية عن علاقة الراشدين بالولد ، مما يمكنه من حل الوضعية الاوديبية . في العائلات

---

١ - P. Tienari, Acta Psychiatrica Scandinavica, suphl 171, 1963, E. Klinglen, Psychiotry, vol. 29-172—184, 1966, I.D.Glick et al., An. J. Psycniatry, vol 124, 1967 .

٢ - فلنذكر ان هناك اقل من ١٪ احتمال عند السكان الطبيعيين لأن يصبحوا في المستقبل مصابين بالفصام .

حيث يظهر ويعيش اولاد مصابـون بالفصـام ، استطـاع ليدز ان يستعـرض سلسلة من الانحرافات في العلاقات العائلية :

ـ فـالام لا تستـطيع غالبـاً ان تدرك مشاعـر وحاجـات اعضـاء العائلـة الآخرى ؛

ـ والاب ، بسبب انعدام الامن الـداخلي ، لا يستـطيع ان يؤمـن للولـد صورة يتماهى بها ، ولا ان يشجع عند بناته وعيهن لانوثتهن الخاصة ؛

ـ العلاقات بين الاهل تكون مطبوعة بانقسام يشـق العائلـة الى فريقـين منفصلين : حتى في العائلات التي تحوي انسجاماً ظاهـراً ، فالوسـط العـائلي يمكن ان يتغير بعمق عندما يصاب واحد من الاهل باضطرابات ذهانية تكون مقبولة بسهولة ، وحتى متقاسمة ، من قبل الآخر .

ـ والعائلة قد لا تشكل ملجأ للحماية عندما تعزل مشاعر الحذر او الحسد ، في العلاقات العائلية ، مختلف اعضاء العائلة الذين عليهم ان يحتموا باستمرار ضد العدوانية ومواقف السخرية والطرد ؛ ان الخوف من ان يهاجموا او يُبادروا او يستهزأ بهم او يُبعدوا يجبرهم على الاحتماء باخفاء مشاعرهم .

ـ واخيراً يؤكد ليدز على الصد والانكماش العاطفي عند الولد الذي يُربى في عائلات حيث توجد لا عقـلانية كبـرى في العلاقـات العـاطفية ، ونظامـاً للاتصال لا يسمح للولـد باكتسـاب نظـرة واضحـة ومتماسـكة عن الوسـط . فاضطرابات الاتصـال هذه ، « كالرابـط المزدوج » مثـلاً (double bind) ، جرت ملاحظتها من قبل مدرسة بالوالتو Palo alto مع باتيسون G. Bateson (١٩٥٦) الذي جعل منها احدى خصائص العلاقة المؤدية للفصام .

وقد جرى ابراز دور العائلة المسبب للمرض في داء الفصام من قبل بتلهايم B. Bettelheim (١٩٦٧) في دراسته حول الانطواء الطفلي . وقد اشار الى هذا الدور خاصة المؤلفون البريطانيون لانغ واسترسـون (١٩٦٤) ، دافيد كوبـر (١٩٦٧ ، ١٩٧١) ور . لانـغ (١٩٦٩) (R. Lqing-David cooper- Esterson- Laing) الذين اكدوا على المرضية العائلية وعلى العوامل المرتهنة في

البنى العائلية التي ، شأن جميع البنى الاجتماعية ، تفرز الحالة السوية وقواعد الامتثالية : فللتهرب من المؤسسات العائلية او الاجتماعية ، لاخيار امام الفرد الا بين الانتفاض او الجنون . هذه المواقع ، التي يدافع عنها بشكل خاص المعارضون للطب العقلي ، تأخذ بعين الاعتبار المدلول الرمزي للنواة العائلية في المجتمع الرأسمالي ، والاستشراط الايديولوجي الذي هو في اساس اية تربية واى متتطلب توافقي . ان طرح الخلية العائلية على بساط البحث والايديولوجية التي تحملها يؤدي ، ليس فقط الى نكران دور اي انتقال وراثي ، بل الى سؤال التحليل النفسي ايضاً الذي يرى في البنية العائلية ـ وفي المأزم الاوديبي ـ معطى اساسياً . وهكذا ، تعود معارضة الطب العقلي ، بطريقة مختلفة ، الى اثارة النقاش حول النسبية الثقافية ، وهذا ما سوف نراه عندما نعالج عقدة اوديب

يمكننا القول ان هذه الدراسات تمكّن من التعرف على اهمية المشكلة التي يطرحها علم اسباب المرض بالنسبة للامراض النفسية . اذا لم تكن اية خاصة من هذه الخصائص معتبرة ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، انها تؤدي الى الفصام بحد ذاته ، فإن مجملها على الاقل يعطينا صورة عن الوسط الذي لا يجد فيه الولد الشروط الضرورية لا لفردانيته ولا لتماهياته ولا لاقامة اتصال انساني مُرْضٍ .

فاليوم ان موقف العلماء التكوينيين انفسهم متنوع جداً : فروزنتال وكيتي Rosenthal, Kety (١٩٦٨) يشيران بأنه من المهم معرفة كيفية اندماج العوامل الوراثية والعائلية لانتاج « محلول فصامي » .

ان فرويد هو الذي ادخل في علم النفس المرضي الحتمية النفسانية ، عندما برهن على الطابع المكتسب ـ وليس الفطري ـ للعصاب . لذلك يجب ازالة الابهام اللاحق بالمفهوم التجريبي « للطبيعة » او للعناصر الجبليّة . فإذا كان التحليل النفسي قد شجع دائماً التأثير المسيطر للوسط ، الوسط العائلي والاجتماعي على السواء ، الا انه لم ينكر وجود العوامل الجبلية . لذلك يجب

تحديد المركز الذي يعترف به لهذه العوامل[1] . فالذي يتأثر بالجبلة هو حالة العمل العقلي ، التي تجعل الفرد قابلاً لمقاومة حالة الحاجة الى حدٍ ما ، ومقاومة الاحباطات والضغط ، وقادراً على استيعاب تطورات البلوغ . ونستطيع القول ان الجبلة ، في اطار المفهوم التحليلي ، تحدد بشكل خاص العوامل الكمية : حدة الدوافع الغريزية ، قوة التسامح في الاحباطات ، الطاقة على تجاوز الضغط إلخ . وما يبقى للجبلة الفطرية هي قدرة الفرد على اخماد الدوافع الغريزية وامكانية تكييفها مع متطلبات الواقع . ان سبب زوال العطف الذي يأخذ منه المحللون هذه المعطيات يعود الى كون العلاج لم يؤثر عليها والى ان هذه العوامل ليست اذن من اختصاصه . فالعامل الجبلي المعتبر كمعطىً نفس فيزيولوجي لا يدخل لا في نظرية ، ولا في ممارسة التحليل النفسي الذي ، وان كان لا ينكر وجوده ، لا يهتم الا بتأريخية التجربة الفردية المعاشة .

٤ ـ التحليل النفسي وعلم الاناسة

اذا كان موقف التحليل النفسي تجاه الاطروحات الجبلتيّة يؤكد غلبة المكتسب على حساب الفطري ، الا انه بالمقابل لا يدافع عن نظرية تقترح تحويل اعداد الفرد والمجتمع الى تأثير العوامل الخارجية وحسب . خطأ القول ان فرويد لم يهتم للعوامل الاجتماعية ، لكنه عمل على ايجاد العوامل الفردية ، تارة في اصول التنشئة الاجتماعية وطوراً في علم النفس الجمعي ، ولكن التوجه التحليلي جدد المشكلة المطروحة منذ زمن بعيد حول علاقات تكوين الكائن بتكوين الكون ، وهي كانت احدى مهمات علم الاناسة التحليلي ، فكما كتب فالابريكاValabrega (١٩٥٧) « ان مسلمة اولوية المظاهر التكوينية للكائن تشكل فرضية طرائقية ضرورية لدراسة مشكلة محددة وجديدة تماماً : هي مشكلة الحياة الجنسية للطفل » .

---

١ ـ لنتذكر هذا المقطع لفرويد ، من بين كتاباته المختلفة ، في نهاية مقاله عام ١٩٠٥ عن دور الحالة الجنسية في تحديد اسباب الامراض العصابية : « ان تفسير اسباب الامراض العصابية بالوراثة او الجبلة فقط هو نتيجة لنظرة ضيقة ، تماماً كالنظرة التي تعيد اصل الامراض العصابية الى التأثيرات الطارئة فقط التي تخضع لها الحالة الجنسية خلال حياة الشخص » .

١ ـ المدرسة الثقافوية

لقد التقى علم الاناسة الاميركي بالتحليل النفسي حوالي عام ١٩٣٢ . هناك ملاحظتان تفرضان في هذا السياق . الاولى حول اثر التحليل النفسي الحديث على نظريات المدرسة الثقافوية ؛ والثانية تتعلق باستخدام المفاهيم التحليلية من قبل علماء الاناسة .

فالتحليل النفسي الحديث المتأثر بالبداية بالتفكير الماركسي) ادخل بعض التغييرات على النظرية التحليلية ، الى حد انه غير معناهـا : فبإعطائه اهمية متزايدة للعامل الاجتماعي انتهى به الامر الى اهمال بعض المفاهيم الاساسية : فالتأكيد على العوامل الواقعية على حساب الهوام قاده الى نظرية جديدة للقلق الذي اعتبر كنتيجة لمأزم بـين الانسـان ومحيطـه ، وليس نتيجة لمأزم نفساني جنسي . فالمجتمع يظهر كمكان للتناقض الذي يخلق العصاب والعوامل الحالية تسبق العوامل التكوينية للكائن . فالحياة الجنسية للطفل وعقـدة اوديب اعيد تفسيرهما بعبارات الانتفاض ضد السلطة وليس بعبارات الهوامات المعبرة عن المأزم الجنسي . وهكذا فاللاوعي ، اذا لم ينـكر ، يوضـع في المقـام الثانـي ، فالهدف التوافقي يحل محل مبدأ استعادة المأزم الدفاعي اللاواعي . لقد ساهم هذا التحليل النفسي الحديث ـ واهم ممثليه هم كارين هورني ، اريك فرام ، هاري ستـاك،سوليفـان ، karen Horney, Erich Froum, Harry stack Sullévan ـ بتكوين نظرية اناسية وادخل اليها الحجج المتوافقة مع هدفه .

اما الملاحظة الثانية المتعلقـة باستخـدام المفـاهيم التحليلية فترتبـط جزئياً بالملاحظة السابقة . فباستخدامه المفاهيم الفرويدية المنحرفة عن معناها الاصلي يتأثر علم الاناسة بالتحليل النفسي لجهة المصطلحات ، ولكنه يعطي التعابـير المستخدمـة معنـى جديداً . وهـكذا فعبـارة « القمـع » المبهمـة في اللغـة الانكليزية ، تدل في نفس الوقت على الكبت ، وهو اوالية دفاعية ، وعلى القسر الاجتماعي ، لقد كانت تستخدم بشكل غير دقيق ؛ اننا نجدها مستعملة عند مالينوفسكي Malinowski (١٩٢٧) عندما يتكلم عن « القمع الجنسي » او حتى عند ماركوز Marcuse (١٩٥٥) عندما يريد ان يدل على القمـع الاجتماعـي

المتزايد للحياة الجنسية . ولكن من ناحية اخرى لقد اجرى علماء الاناسة اختياراً بين المفاهيم : فهم رغم عدم انتائهم الى الفرويدية ، تبنوا منها ، وبشكل اعتباطي احياناً ، بعض العبارات التي توافقهم ، واستخدموها خارج سياقها فأفرغوها بذلك من دلالاتها الخاصة : مما ادى الى الابهام ، وما يدعو للاسف اكثر من ذلك ان هذه الاستعارات تتوافق مع التخلي عن الطرائقية الفرويدية : « فهذا التشابه في الالفاظ ليس الا للخداع » باستيد Bastide (١٩٧٢) . وهكذا يُفسر جزء من سوء التفاهم القائم في علاقات علم الاناسة والتحليل النفسي . لكن خلافهما هو في الواقع اعمق من هذا .

هناك فعلاً اعتراضات مبدئية للمدرسة الاناسية الاميركية ، المدعوة « الثقافة والشخصية » . فروت بنديكت ومرغريت ميد Ruth Benedict, Margaret Mead اللتان كانتا في اساس هذا الاتجاه ، تعتبران بأن الاشكال التي يظهر التطور الليبيدوي من خلالها تتحدد بالثقافة .

فالتعدد الثقافي الذي اعتمدته بنديكت (١٩٣٤) قادها الى التأكيد بأن في كل ثقافة تظهر نماذج مختلفة للشخصية ، وحتى نماذج مختلفة لتنظيم اللاوعي . بالنسبة لها ، كل حضارة تملك قيماً اساسية تتحكم بالبنية الاجتماعية : بهذا المعنى ينتج الجنسي (الذي تحول بالنسبة لبنديكت الى التناسلي) من الثقافي والبناء العائلي يصبح تابعاً للثقافة : فالعلاقات بين الولد والاهل هي اقل تأثيراً من المثل الثقافية التي تتقدم على الممارسات التربوية وتنتقل من جيل الى جيل ، الا ان مرغريت ميد (١٩٣٥) قطعت خطوة بأعمالها ، لقد طرحت بوضوح السؤال الذي يهدف الى معرفة ما اذا كان الجنسي مقولة عضوية ام اجتماعية ؟ لقد ادخلت ميد في علم الاناسة دراسة الولد اليافع وواجهت صيرورة الفرد انطلاقاً من وظائف التنشئة الاجتماعية والحياة الجنسية السابقة للبلوغ .

لقد تسألت ميد ، عندما اهتمت بالسلوك المراهق لدى البنات الاميركيات ، اذا كانت تصرفاتهن محددة بالثقافة الاميركية الشمالية . لقد بدأت باجراء استقصاءات واستأنفتها في جزر ساموا Samoa وغينيا الجديدة Nouvelle-Guinée ؛ لقد استطاعت ان تبرهن ان ثلاث قبائل متقاربة ومنتمية

الى نفس القوم (الانام) وتعيش في ظل نظام اقتصادي وتنظيم اجتماعي متشابهة تقريباً ، يجري فيها التطور الجنسي بشكل مختلف ، والعادات الجنسية ، خاصة عند المراهقة ، تختلف من قبيلة لاخرى . لقد اعادت ميد هذه الفوارق في السلوك الى الروابط التراتبية والموقعية القائمة في العائلات . ان هذه الاهمية التي توليها ميد للجماعات الصغيرة العائلية تشير الى الاثر الذي تمارسه الأمور المباشرة اكثر من تأثير الثقافة الاجمالية . ولكن في دراستها عن الأرابيس والموندو عومور arapesh, Mundugumor في غينيا الجديدة (١٩٣٨) ، استنتجت ميد ان تماهيات الاولاد بالاهل لم تكن تتبع الصورة الاوديبية . لقد اكدت على اولوية الاجتماعي وعلى دور التربية التي تشجع ، حسب رأيها ، التشبث وحتى النكوص الى مرحلة ليبيدوية معينة ، فمية او شرجية .

٢ ـ اعمال كاردينر *A. Kardiner*

لقد حاول كاردينر ادخال بعض المفاهيم التحليلية في نظريته عن علاقات الفرد بمجتمعه ، الا انه ، في البدء ، يرفض عمومية الاوديب والقانون الذي بموجبه يعيد تكوين الكائن تكرار تكوين الكون ، انه حاول ان يبرهن على ان الفرد يتكيف مع الجماعة : غير انه يقول ، اذا كان لا يجوز التفتيش عن اصل المؤسسات في اواليات الليبيدو ، فإن بعض الوقائع الاجتماعية يمكن ان تجد اصلها في انعكاسات فردية . فهو يلاحظ وجود المؤسسات الاولية التي تدل عليها بنيات القرابة والقواعد التربوية ، الخ ، والتي تحدد ما يسميه كاردينر الشخصية القاعدية المشتركة بين كل الافراد في نفس الثقافة . فهذه الشخصية القاعدية تتحكم بدورها بالمؤسسات الثانوية ومنها ، كما يعتبرها الكاتب ، الدين والاساطير والاخلاق التي تشكل البنية العليا : وهذه الاخيرة يمكنها ان تتدخل لتغيير المؤسسات الاولية وخاصة بعض المبادىء والمواقف التربوية . ويلاحظ ان كاردينر (١٩٤٥) يقبل بوجود عدة شخصيات قاعدية في مجتمع واحد ، وذلك حسب الطبقات الاجتماعية مثلاً ، وهو ما دعاه لينتون Linton (١٩٤٥) « الشخصية الموقعية » (المتعلقة بالموقع الاجتماعي) . بالنسبة لهؤلاء المؤلفين فإن كل ثقافة لها استقلال نسبي تجاه الافراد الذين يمارسونها ، بالرغم

من أنها لا توجد الا بهم . فالتحليل النفسي يواجه هذه القضية بشكل مختلف : فإذا كان جميع اعضاء جماعة معينة يملكون بعض السمات المشتركة ، فإن هذا يجب ان يُعزى للتماهي المشترك بنفس القائد او بنفس الفكرة . يتوسع فرويد بهذه الفكرة في كتابه Psychologie collective et analyse du moi .

ولكن ، مهما كان اتخاذ هذه المواقف متميزاً ، فإنها على الاقل لا تؤكد اولوية الاجتماعي . فكل الاوضاع المأزمية تنطبع في المعايير الثقافية . فالمحيط يلعب دوراً حاسماً في هذه القولبة والثقافويون يعترفون بالاهمية الاولى لمواقف الاهل في الاعداد (التي يفرقونها عن التأثير التربوي بحد ذاته ، وعن التربية) وهم يعنُون بها جميع اشكال العلاقات القائمة بين الاهل والاولاد ، فهؤلاء المؤلفون يفتشون اذن عن اصل سمات الطبع ، وكذلك عن اي انحراف مرضي ، في تحليل التصرفات بدقة متزايدة . (هناك نتيجة مماثلة فيما يتعلق بمواقف الام خلال فترة الرضاعة ، وهذا ما سوف نراه فيما بعد) ، لقد وصف فالابريغا (١٩٥٧) هذا الموقف المذهبي بأنه « خيار واقعي » : فملاحظة الوقائع ، كما يمارسها علماء الاناسة ، لا يمكن ان تدل الا على معطيات تأخذ بعين الاعتبار البنيات الظاهرة ، بينما علم الاناسة التحليلي يهدف الى « اكتشاف نظام واقعي آخر » ، اي الهوام اللاواعي .

٣ ـ نقد الثقافوية

ان الاقتراحات التي قدمتها الثقافوية جرى انتقادها من قبل المحللين . سوف لا نتناول الا البراهين التي تمكن من اقامة قواعد لعلم اناسة تحليلي .

١ ـ ان التفسيرات ، مع استنادها الى التعددية الثقافية ، هي بالضرورة مقتصرة على سياق اجتماعي ـ ثقافي معين . ان هذا الاتجاه نحو « المركزة » يبدو لفالابريغا Valabrega (١٩٥٧) كأحد اكبر العوائق امام تعميم المقترحات الثقافوية : فهذه النظريات ، بعزلها لظواهر تقارب ، تهمل ما يعود للتعالي الثقافي وبالتالي ما يمكن ان تحويه العوامل المختلفة من عمومي .

٢ ـ والمفاهيم المستخدمة ، خاصة من قبل كاردينر ، لا تغطي المعنى المستخدمة فيه من قبل النظرية التحليلية التي يستعيرها منها الكاتب ، لقد

ذكرنا سابقاً النتائج فيما يتعلق باستخدام عبارة القمع ، فنفس النقد ينطبق ايضاً على عبارات اخرى : الاحباط ، الانا العليا ، التماهي . فالثقافوية لا تستعير الا الالفاظ رغم الادعاء انها من التحليل النفسي .

٣ ـ ان الثقافوية تبقى غالباً على مستوى المحتوى الظاهر : فالبحث عن صدمة اجتماعية او فردية ، لا يأخذ بالاعتبار الا الوقائع الخاضعة للملاحظة ، وليس المحتويات العميقة ؛ فالتهوم يتحول الى الهوامات الواعية . فكل تفسير تحليلي للّاوعي يبدو أنه يتوقف عند البحث عن ما يريد الملاحظ ان يجده . فكما يشير فالابريغا (١٩٥٧) ، « ان المشكلة الاناسية للهوام » تستدعي طرائقية مختلفة . ففي حالات عديدة يبدو أن الثقافوية تقع في فخ الصدمة « الحقيقية » دوفرين Dufrenne (١٩٥٣) ، كما كان فرويد يعنيها قبل ان يفهم ، بفضل تحليل العصابات الهستيرية ، بأن الصدمة ليست حدثاً حقيقياً ، ولكن هواماً لاواعياً - فهذا الاكتشاف وحده قاد فرويد الى نظرية الجنس الطفلي والاوديب .

٤ ـ واخيراً فإن نسبية اللاوعي ، الناتجة عن الثقافة ، ليست مقبولة : فدراسة الاساطير تدل بأن هناك مسائل متشابهة موجودة في جميع الثقافات . ان م . ك وأ .اورتيغوس m.c.je. Ortigues (١٩٦٦) يقولان ان « اللاوعي ليس قسماً منه طبيعي والقسم الآخر ثقافي ، فهو بمجمله طبيعي في الثقافي » .

٤ ـ علم الاناسة التحليلي

نستطيع القول بأن التحليل النفسي ينفصل عن النظريات الثقافوية في جميع النقاط . فإذا قبل التحليل بأن كل سلوك انساني يتحدد باغراءات الوسط الاجتماعي والقوانين السائدة في المجتمع ، لكنه اتخذ خياراً بتأكيده ان الثقافة هي نتيجة لحتمية نفسانية ، اصلية واولية . ان النظريات عن اصل المؤسسات الاساسية ، كما وصفها فرويد في Totem et Tabou (١٩١٣) كانت ترتكز على عدد من النظريات غير المبرهنة : العشير البدائي ، الاغتيال الاصلي للاب ، اقامة الطوطمية والزواج الخارجي كدفاع ضد عودة الاغتيال الاصلي للاب . ان نظرية العشير البدائي والابوة الاولية ، المستوحاة من نظريات داروين وفرازر وروبرتسون ـ سميت Darwin, Frazer, Robertson- Smith ، ليست مقبولة

من قبل علماء الاجتماع : يُقال انها نظرية بالية وبدون مرتكز ، ولكن دون التمكن من دحضها بشكل اكيد . وحتى المحللون هم على استعداد للاعتراف بالتخيل الذي تحويه مثل هذه النظرية . ان التخلي عن هذه الصورة « التاريخية المزيفة » المقترحة من قبل فرويد لا يعني بأن وصفه لا يمس نظاماً مختلفاً ، وصف الحقيقة النفسية . بالنسبة للمحللين ان التهوّم هو الذي يؤدي الى دعم عمومية الاوديب كفترة تبني المرور من التبعية الثنائية حتى الوصول الى الحياة الاجتماعية[1] .

وهكذا يمكننا ان نستخلص بعض النقاط

أ) يعتبر المحللون ان التربية ، بمعناها الواسع ، هي ذات اهمية كبرى : لكن اهتمامهم اقل بسلوك الاهل ، ولا يأخذون بالاعتبار كل ما يُنقل بشكل ضمني ، حتى بمعزل عن الاهل والقيم الثقافية بالطبع ، وخاصة لقلقهم وازماتهم النفسية الخاصة التي ستنعكس في سلوكهم .

ب) ورغم ان الانا العليا للاهل تمارس تأثيراً عميقاً ، وحتى حاسماً ، على العلاقات بينهم وبين الولد ، ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان الانا العليا هي بعد نفسي لا واعي ولا يمكن اعتبارها كبنية فوقية . فإلى الازمات الاجتماعية ، المجتافة من الاهل ، تنضاف ازماتهم النفسية التي يعتبر المحللون وجودها مستقلاً عن هذه الثقافة او تلك . اننا نجد هنا ايضاً عمومية العقد ، اي، التشكيلات المأزمية الاولية (العلاقة الثنائية التي ترهن الولد في رغبة الام ؛ عقدة اوديب ، اولوية القضيب وعقدة الخصي) .

ج) ان النظرة التكوينية للكائن تشكل ركيزة علم الاناسة التحليلي ، صحيح ان فرويد نفسه يتكلم عن « الهوامات الاصلية » (هوام الحدث البدائي ، هوام الخصي) التي تشكل قاعدة مشتركة لكل الانسانية ، ولكن تجدر الاشارة ان هذه الهوامات ليس لها قيمة بحد ذاتها ، ولكن تأخذ معناها الحقيقي في التجربة الفردية المعاشة التي تتغير من فرد لآخر .

---

١ ـ اننا نوجه القاريء الى الفصل الذي يعالج القضية الاناسية للاوديب .

د) واخيراً فإن تحديد الثقافة يخضع لبعض القواعد الناتجة مباشرة عن التطور التكويني للكائن . ان يكون بعض تطور الكائن البشري واقعاً عاماً ، فهذا لا جدال فيه من الناحية الاحيائية ، ويجب ان لا يغرب عنا بأن الشرط الاولي الذي يفرضه البلوغ الاحيائي المسبق للمولود الجديد ، بإقامة وضع تابع للام في البداية ، بغير المصير الانساني . وكذلك فإن اختلاف الجنس ، وهو ثابت آخر ، يُدخل الفرد في موقع ، طبيعي في البداية ، ولكنه يشكل مع الاوديب نقطة الانطلاق لكل رمزية .

هذه بعض الاقتراحات المبدئية التي يستند اليها المحلل ليواجه الواقع الاجتماعي ـ الثقافي .

لقد عمل المحللون اذن على التدقيق بخياراتهم النظرية . ان ابحاث جيزاروهايم Géza Roheim ، الذي كان رائداً لعلم الاناسة التحليلي ، كبيرة جداً لا يتسع المجال هنا لمعاجلتها . فأهميته تكمن في كونه احد المحللين القلائل الذين عملوا في « الحقل » ، خاصة في اوستراليا على جماعات ارانـد Aranda ، وفي غينيا الجديدة ، ثم عند الهنود يوما Yuma (روهايم ١٩٥٠) . وترك لنا ايضاً تفسيراً للثقافة الغربية (١٩٤٣) يكمل مواقف فرويد التي اعلنها في L'Avenir d'une Illusion (١٩٢٧) Malaise dans la civilisation (١٩٣٠) . وهو يعلن عن اعمال ماركوز (١٩٥٥) المستوحاة من الماركسية والتحليل النفسي ، فيقول ان كل حضارة يجب ان تبنى على القسر والتخلي عن الغرائز . ولكن روهايم (١٩٤٥) يهتم بشكل خاص بتحليل الاحلام والهوامات حسب الطريقة التحليلية[1] .

وكذلك ابحاث ديفيرو (١٩٧٠) G. Devereux ، وكتابات اريك اريكسون (١٩٦٣) Erik Erikson واورتيغوس M.C.et E. Ortigues (١٩٦٦) تستند الى التجربة الاناسية المباشرة . هذه التجربة تبقى نادرة بين

---

١ ـ اننا نجد تقديماً مختصراً لاعمال روهايم في الكتاب الذي اعده عنه دادون ١٩٧٢ R. Dadoun

المحللين مع ان المستقبل الحقيقي لعلم الاناسة التحليلي يجب ان يمر بهذا الطريق الصعب من الاعداد المزدوج .

ولكن فيما يتعدى الاستكشاف المباشر ، فقد قدم التحليل النفسي لعلم الاناسة طرائقية جديدة مقترحاً الطرق وتفسير اللاوعي: فنظرية الثقافة التكوينية للكائن قد تسمح في الذهاب بعيداً لفهم الواقع الثقافي .

٥ ـ البنيائية والتحليل النفسي

على علم الاناسة والتحليل النفسي ، حسب البعض، ان يفتشا على لغة ومسار مشتركين . بالنسبة لاورتيغوس و زمبلينيzemplini (١٩٦٨) ، لا يمكن للمجالين ان يتلاقيا الا من خلال تجربة مشتركة ، ولكن خاصة من خلال تحليل بنياني يبرز ، خلف الوقائع ، بنية موحدة . وكذلك استند فوكو M. Foucault (١٩٦٦) الى نظام دال عندما اقترح كلغة مشتركة لجميع العلوم الانسانية ، خطاب اللاوعي . فليس عن عبث يقترح فوكو أتباع طريق علم الاناسة التحليلي كما هو اليوم ؛ فهو يحيلنا الى نوعين من الابحاث ، ابحاث كلود ليفي ـ ستروس claude Lévi- Strauss وجاك لاكان jaques Lacan التي تتقاطع بطرقهما وتستوحي النموذج اللغوي . اننا سنتبع هنا العرض المختصر الذي قدمه لهما باستيد (١٩٧٢) .

ان ليفي ـ ستروس (١٩٥٠) ، بانطلاقه من فكرة مارسل موس Marcel Mauss ان المجتمع يعبر بشكل رمزي في « عاداته وفي مؤسساته » ، يعترف لعلم النفس بدور « التعرف على اصل الوظائف الاساسية » . فهو لا يرى بقتل الاب حدثاً حقيقياً ؛ بل يقرأ في هذه القضية رغبة لا واعية يقبل باستمرارها وبعموميتها . فليفي ـ ستروس يقبل ، مع فرويد ، وجود بنية دائمة للحياة النفسية . ان المرور من الطبيعة الى الثقافة يشكل مروراً من مجال الغريزة الى مجال القانون ، وهو ما يحاول الكاتب ان يبرهن بأنه عمومي ، مثل القانون الذي يحدد الزواج الخارجي ومحرم الزواج . فكل تحريم هو في نفس الوقت قانون : فالزواج الخارجي يدخل مانع الزواج الداخلي بالاضافة الى نظام يحدد تبادل النساء ، فالثقافة بتطابقها مع الطبيعة لا تعمل الا على تقنين الرغبة

الجنسية ، الحلم الغريزي للانسان (باستيد ، ١٩٧٢) . بالنسبة لليفي ـ ستروس يجب معرفة ما يبقى من الرغبة المحرمة في الثقافات . ولكن تبادل النساء الذي يدعّم البنيات الاولية للقرابة (١٩٤٩) ليس تبادلاً بسيطاً لأشياء ؛ فالمرأة ، موضوع الرغبة الجنسية ، تحتفظ بقيمة خاصة . وهكذا فالطبيعة ، الحاضرة دائماً في الرغبة المحرمة اللاواعية ، سيجري خنقها في جهاز ثقافي يجب اكتشافه . بالنسبة لليفي ـ ستروس تعرّف الوقائع الاجتماعية كاشارات يخضع ترميزها وفك رموزها لنفس القواعد السائدة بالنسبة لانتاجات اللاوعي .

الا أن ليفي ـ ستروس لم يلبث أن يبتعد عن التحليل النفسي التقليدي ، فالبنيات اللاواعية التي يتحدث عنها ليست مطموسة فقط بالليبيدو : فهي تطبع الآن كل بنية عقلية ومجمل قوانين الوظيفة الرمزية . فليفي ـ ستروس يفرف اللاوعي عن مادون الوعي الذي هو اللغة الفردية حيث يراكم كل واحد مفردات تاريخه الشخصي[1] ، لكن هذه المفردات لا تكتسب معنى بالنسبة لنا وبالنسبة للآخرين الا اذا « نظمها اللاوعي حسب قوانينه ، وعمل منها خطاباً » (ليفي ـ ستروس ١٩٥٨) .

ان ابحاث ليفي ـ ستروس تهدف بعد ذلك الى اكتشاف القوانين البنيوية للوظيفة الرمزية ، عندها يبتعد ليفي ـ ستروس عن التحليل : ان المدلولات التحليلية تختفي من كتبه وتحليل الوقائع الاجتماعية والاساطير يستخدم مزيجاً تبرز منه بعض المجموعات الرمزية : الرموز الطعامية ، الرموز الاحيائية ، الرموز الفلكية ، ولكن محتوياتها الاسطورية لا تفسر ابداً بعبارات تحليلية (١٩٦٤ ـ ١٩٧١) . ان اللاوعي عند ليفي ـ ستروس واللاوعي عند فرويد ليس بينهما أي شيء مشترك « اللهم الا مفهوم الرمزية بالذات » باستيد .

ان الاولوية المعطاة للرمزي هي التي تقرب ليفي ـ ستروس من لاكان ، فإعادة قراءة مؤلفات فرويد ادت بلاكان الى اعتبار ان اللاوعي له بنية وان هذه البنية تخضع لقوانين شكلية مشابهة للقوانين السائدة في ترابط الوحدات الدالة في

---

١ ـ ومنها الصدمات العاطفية ، والذكريات والتجربة الفردية المعاشة . . .

مجال اللغة[1] ، ولكن لاكان الذي لم يستبعد اللاوعي المرتكز على الدوافع الغريزية ، اهتم اذن بتصورات هذه الدوافع كما تظهر في اللاوعي التي يعتبرها لاكان كدلالات ، واهمها القضيب .

ان النظام الرمزي يتشكل انطلاقاً من هذا الدال الاولي ، « دال الدال » وحوله تنتظم وتتوزع المراكز التي سيحتلها مختلف الرواد . وهكذا فإن ليفي - ستروس ولاكان ، باستنادهما المشترك الى النموذج اللغوي ، يتعلقان بالبنية ، وكل واحد يختار بعض الدلائل . ولكن بالنسبة للاكان فإن التحليلي يحوي الثقافي الى حد ان الثقافة لا تنطلق الا من خلال التعرف على البنوّة والزواج .

واليوم أين يقع كل من التحليل النفسي وعلم الاناسة ؟ في علاقة تكاملية كما يقول احد علماء الانام . « فالمحلل وعالم الانام موجودان داخل الثقافة نفسها وقد يكونان في نفس الموضع « الاناسي » . فإذا لم يعرفا ذلك فلأن الواحد يدير ظهره للآخر وينظران باتجاهات متعارضة . لذلك يمكنهما ان يتكاملا . فالتكامل يفرض جهداً متبادلاً ؛ فهذا افضل من الاستعمالات المفرطة والصدامات والطرق المختصرة والخطرة . فالاشياء الحسنة لا تتناقض ولكن يجب ان لا نمزجها » . (بويون ١٩٧٠ J-Pouillon) . ولكن رغم هذه الانتقائية يبقى التحليل النفسي مترصداً المعطيات الاناسية ، ويوجد مجال ، كما سنرى لاحقاً ، يؤكد فيه نفسه باتخاذ موقف جذري ، وهو ما يتعلق بعقدة اوديب

٦ الواقع والتجربة المعاشة

اننا ندرك اصالة التحليل النفسي عندما نعمل على بلورة موقفه تجاه الاحيائوية والثقافوية .

فالتحليل النفسي يواجه عوامل الوسط عن طريق التاريخ المعاش للفرد . وذلك ليس بمعنى ان تاريخ الفرد هو انعكاس بسيط للضغوطات الاجتماعية -

---

١ - انظر بشأن النظرية اللغوية التي استخدمت كمنطلق للمواقف البنيانية : F. de Saussure cours de linguistique génélale, Paris, Fayot, 1968

الثقافية التي تمارس عليه ، ولكن بالنسبة للاحداث الاكثر نضوجاً يتشكل بعض النمط العلائقي بموضوع ـ او مواضيع ـ رغبته ؛ تفاعل مع الوسط ، هذا لا شك فيه ، ولكن من خلال تجربته الشخصية المعاشة . ان الاحداث التاريخية لحياة الفرد لا يمكن ان تكتسب معناها الا من خلال الحقيقة النفسية المشوهة ـ وبمواجهته عدداً كبيراً من المتغيرات ، حتى في ثقافة بدائية ، فالتجربة المعاشة لا يمكن الا ان تكون فردية ، ملموسة ، و« بالضمير المتكلم » ، ليس فقط على اثر استعدادات جبليّة ، ولكن بسبب التغير الكبير في الظروف الذي يجعل امتزاجها كل تحويل تبسيطي الى شخصية قاعدية امراً لا طائل تحته ، فليس هذه الصعوبة او هذا الحدث هو الذي يرسخ معنى صيرورة الشخص ، ولكن الشكل الذي يأخذ فيه الحدث مكانه في اقتصاده العاطفي ، ان هذه التجربة المعاشة هي التي تمنح الحدث الخاص قيمة الصدمة التي تنطبع في حياة الفرد ، بينما بالنسبة لشخص آخر فإن الظروف المشابهة تأخذ معنى مختلفاً .

ان عمومية عدد من الوضعيات المأزمية خلال مرحلة الطفولة مثل الفطام والتنامس والوضعية الاوديبية ، تجعل هذه الوضعيات مشحونة بطاقة مرضية ، مصدر الاحباطات بقدر ما تفرض كابحاً للدوافع الغريزية ، وتطلب تحولاً لهذا الدافع ، وتدور حول هدف او موضوع هذا الدافع . بهذا المعنى يجب ان نشير الى الفرق بين الواقع والتجربة المعاشة . فالواقع هو بالطبع ما يمكن ان يصبح موضوعياً ، ولكن هل هذا هو الواقع الذي نعالجه بالنسبة للولد ؟ انه بالامكان توضيع هذا السلوك الامي ، او هذه البنية العائلية ، او هذا الحدث الذي يمكن ان يبدو حاسماً في الطفولة الاولى . ولكننا لا يمكن ان نكتفي بهذا التوضيع الوهمي للواقع ، لأن المعنى المعاش لهذا الواقع بالنسبة للذي يجابهه لا يمكن تحويله الى معطيات تتجاهل تمثل الحدث من قبل الفرد الاجتماعي .

ان اصالة التحليل النفسي تكمن في مواجهته لبنية الشخصية والبحث عن اسباب العصاب من زاوية المأزم النفسي[1] فالأمر لا يتعلق بالمأزم كما كان يعرفه

---

١ ـ فالمأزم النفسي الذي يمثل في التحليل النفسي صدام الدوافع الغريزية والاركان، يصبح بالنسبة لعالم الاجتماع مأزقاً بين الفرد ومتطلبات المجتمع : فالدونية لم يعد بسببها قلق الخصي بل الشعور بالقمع الاجتماعي (باستيد ١٩٧٢)

علم النفس التقليدي ، حيث يجد الولد نفسه في وضعية مأزمية بسبب عدم مطابقة دوافعه الغريزية او حاجاته مع الواقع الخارجي ، بالمعنى التحليلي فإن الازمة الداخلية النفسية تأخذ محتواها من هذه الوضعيات ، ولكنها لا تصبح ازمة بالفعل الا عندما يستبطن الولد هذه المعطيات الخارجية ، اي عندما تشكل المعطيات المتناقضة للمأزم الغرائزي صعوبة يتوقف حلها على التغير الداخلي وليس على التكيف مع الظروف الخارجية .

وعندما يجري تجاوز هذه المأزمات الطفلية فإن الطريق تصبح حرة امام قطع مراحل النمو المتتالية . وعلى العكس من ذلك ، اذا بقيت المأزمات دون حل يجد الولد نفسه جامداً في سلوك تكراري ، محاولة تتجدد على الدوام ، وعلى الدوام تؤدي الى الفشل بالنسبة للحل : فكل الطاقة الضرورية لمواجهة المهمات الجديدة يجري امتصاصها في هذا السلوك من التكرار العقيم .

في البدء اهتم التحليل النفسي بالبحث عن استمرارية هذه المأزمات الطفلية عند البالغ ، بعد ذلك جرى الاهتمام بابراز هذه المأزمات عند الولد بالذات . وما يشكل خصوصية التحليل النفسي عند الولد ، هو ان انساق البلوغ النفساني والوظيفي تجري تدريجياً ، وان المقابلة الفعلية بين الولد ووسطه هي حادة بشكل خاص وتسمح اذن بالتقاط تعبير هذه المأزمات وهو ساخن ، اكان ذلك في تأثيراتها القريبة جداً وغير المنحرفة عن هدفها الاولي ، ام في تناقص حلها بالذات .

الفصل الثالث :

بعض المفاهيم الاساسية

بدل ان نعرض النظرية التحليلية بشكل منتظم فضلنا ان نعرض بعض المبادىء الاساسية كما تبلورت في السياق التاريخي . فهذا العرض بدا لنا اجدى لمعرفة تطور التفكير التحليلي ومختلف المشاكل التي يطرحها في تطبيقه على الولد[1] .

١ ـ الصدمة النفسية

ان اكتشاف الصدمة النفسية يعود الى اولى اعمال فرويد حول الشلل الهستيري . فعام ١٨٩٥ كتب فرويد وبروير Breuer ، حول تكون الاعراض

---

١ ـ يمكننا ان نجد عرضاً للنظرية التحليلية من زاوية اجمالية في مؤلفات اخرى . نذكر منها Morthe Robert La revolution psychanalytique (١٩٦٤) ؛ J.C. Sempé et coll. La Psychanalyse- (١٩٦٦) ؛ G. f. Brabant Clefs pour la psychanalyse (١٩٧٠) . ولكن من المفيد ايضاً للـذين يريدون التوسع بالموضوع ، قراءة اعمال فرويد التي حاول نفسه ان يعرضها بشكل مختصر في كتابين Introduction à la psychanalyse (١٩١٧) و Nouvelles conferences sur La Psychanalyse (١٩٣٢) ، يشكلان فترتين متتابعتين لتكونه النظري ، من جهة اخرى ، فإن كتاب Ernest Jones عن La vie et l'œuvre de sigm nd Frend يسمح باتباع تطور الافكار وبالتعرف على الفكرة الفرويدية في سيرها خلال حياة المؤلف . يمكننا ايضاً ان نراجع الدراسة القيمة التي خصصتها O.Mannoni (١٩٦٨) لسيغموند فرويد .

الهستيرية ، انه « في معظم المحالات لا يمكن الكشف عن نقطة انطلاق المرض بتوجيه اسئلة بسيطة للمريض مهما كان هذا المرض عميقاً ؛ وذلك لأن الاحداث غالباً ما تكون قصتها سيئة بالنسبة للمرضى ، وخاصة لأنهم لا يتذكرونها فعلياً ، او انهم لا يرون العلاقة السببية بين الحدث البارز والظاهرة المرضية » .

لقد كان هدف جهود فرويد العلاجية في البدء التركيز على تذكر هذا الحدث المسبب للصدمة . وقد اصبح هذا التذكر معقولاً بفضل تنويم المريض مغناطيسياً . ولكن تخلى فرويد فيما بعد عن التنويم المغناطيسي الذي اعتبره غير ضروري واستبدله « بالتداعيات الحرة » التي يقوم بها المريض وهو في حالة الصحو .

لقدولدت التقنية التحليلية بهدف التوصل الى الذكريات المنسية او التي لا يعرفها المريض ، فهذه الذكريات خضعت للكبت واصبحت لا واعية . فمنذ الاتصال الاول بدأت تظهر مفاهيم اللاوعي والكبت والصدمة التي سوف تستخدم كقاعدة لتكوين اول نموذج للعمل النفسي .

فالصدمة النفسية اعتبرها فرويد كحدث يسبق قليلاً او يزامن تكون العرض . وما لبث ان اكتشف بأن الطابع الصدمي يجب ان لا يرتبط بالحدث بحد ذاته ، بل ان الامر هو احياء لذكرى مؤلمة او لصدمة نفسية من الطفولة .

منذ هذه الفترة اكد فرويد على ان الرابط بين الصدمة النفسية والعرض الذي يحددها لا يمكن ان يكون علاقة بسيطة بين الحدث ونتائجه على الفرد ، بل على العكس هناك رموز عاطفية رافقت الحدث الصدمي الاولي . في هذه الحالة لا يمكن الكشف عن العلاقة السببية الا بتحليل المواد التي تتجمع من التداعيات الحرة التي ، باقامتها علاقة بين مختلف سلاسل الادوات الدالة - التي تبدو ظاهرياً بدون علاقة فيما بينها - تسمح بتخطي حاجز (الرقابة) الذي يقف في وجه التذكر وازالة الكبت . خلال فترة معينة كانت الممارسة التحليلية التي يدعوها فرويد « الطريقة المسهلة » تهدف لاستعادة الذكريات المرتبطة

بالصدمة . فالوعي كان يعتبر آنذاك الفترة القصوى للعلاج ويشكل عامل الشفاء .

لقد اجرى فرويد استقصاءته حول طبيعة هذا الحدث الصدمي بالذات. لقد كان في البداية يعتبر ان للصدمة وجود حقيقي : فحسب قصص وذكريات المريض ، هناك احداث تعود للطفولة الاولى اولعمر اربع او خمس سنوات تدل على تجربة جنسية سلبية عاشها الاولاد بمساعدة احد البالغين . ان الثبات والدقة التي كان المرضى يستعيدون بها هذه الذكريات جعلت الاعتقاد يتجه الى ان اصل الامراض العصابية يتصل فعلاً بهذه الاحداث الحقيقية التي احتفظ الولد بآثرها الثابت واللاواعي . فالطابع المؤلم او غير المحتمل لهذه الذكرى جعلها تكبت .

ولكن يجب الاعتراف لفرويد بأن قصة هذه الذكريات الوهمية ليست الا تعبيراً عن رغبة ، عن هوام وليست حقيقة . فضلاً عن ان هذا « الاغراء » كان دائماً في قصة المرضى يتجه الى بالغ من الجنس الآخر ، وهكذا فتحت الطريق امام التعرف على التحقيق الهوامي للرغبة الاوديبية التي تظهر خلفها المشاكل التي تطرحها الحياة الجنسية للاولاد .

ومن الضروري ايضاً ان تتحدد عبارة الصدمة النفسية بالنسبة للواقع الذي يعيشه الولد ، فحياة الولد يمكن ان تتأثر فعلاً بأحداث مأسوية نوعاً ما يبقى اثرها على شكل ذكريات مكبوتة ، اذن منسية ، فقد تكون هناك حياة مشوشة اكثر من غيرها حيث تلعب الاحداث الحقيقية دوراً كبيراً في كيفية اجتياز الولد للسنوات الاولى ، اي في تنظيم علاقاته الغيرية . وهكذا فإن احداثاً مثل موت احد الاهل او الخلافات والانفصالات العائلية او وجود واحد من الاهل في المنزل ذهاني او سكير ، يمكن ان يعشها الولد بشكل مأسوي . ولكن تجدر الاشارة الى ان بعض الظروف الاقل مأسوية في تعبيرها قد تطبع الولد في مستقبله بشكل يفوق الاحداث الاخرى مثل الاب الذي لا يقدر ان يؤمن للولد تماهياً ابوياً ، او الام التي تخفي رفضها العاطفي اللاواعي بمظهر حمائي مفرط .

فهل يمكن القول ان العصاب هو نتيجة للمشاكل الحقيقية التي اجتازها

الولد خلال السنوات الاولى ؟ ان نكران هذه الامكانية امر باطل . ولكن معنى الصدمة النفسية يمكن ان يفسر بشكل مختلف .

فالولادة ، باعتبارها انفصال اساسي للولد عن امه ، والفطام باعتباره انتقال من التبعية الكاملة للولد الى اول درجة من الاستقلال ، والاوديب اعتباره تخل عن موضوع الرغبة الاولى ، تشكل فعلاً « فترات خصبة » مكونة للشخصية او للعصاب . ولكن يتوقف الامر على الظروف اللاحقة التي تحيي العاطفة الملتصقة بهذه الصدمات ، حيث تخلق اوضاعاً متأزمة لا تحل وتكبت ، وبالتالي يمكنها ان تلعب دوراً مسبباً للمرض .

من ناحية اخرى فإننا نفضل مفهوم التجربة الصادمة المعاشة[1] على مفهوم الحدث الصدمي الحقيقي . فهذه التجربة بمفهومنا لا تنتج عن صدمة فقط ولكنها تعبر عن نمط في العلاقة يطبع الاوضاع التي يواجهها الولد بالشحن الصدمي . فقد تكون الام الفائقة الحماية والاب الغائب عاطفياً والعلاقات الزوجية السادية ـ المازوشية الكامنة تؤدي من اوجه عدة الى التسبب بالمرض اكثر من الاحداث المأسوية التي يحملونها عادة مسؤولية تفسير الامراض العصابية . ان العلاقات الغيرية تشوشها اضطرابات البنية العائلية التي تدخل اولى العناصر العصابية من خلال افسادها لمعنى هذه العلاقة .

ان هذه الاوضاع المؤزِّمة ، والحد الغامض الذي يكللها والقيمة الرمزية التي نعطيها معنى سوف تشكل ما يمكن ان يتخذ وضع الصدمة[2] .

وهكذا فانطلاقاً من مفهوم الصدمة تتأكد اهمية مجمل التجربة الطفلية المعاشة التي تكون ليس فقط العصاب ، وانما كل بنية الشخصية عند الفرد .

فالصدمة النفسية التي كانت تعتبر تطفلاً يأتي ليشوش حياة الفرد العاطفية بشكل كثيف ، يجب ان تعتبر الآن جزءاً لا يتجزأ من تجربة الفرد المعاشة . يجب

---

١ ـ اننا نجد هنا تعابير مسعود خان (١٩٦٣) Masud. R. Khan حول الصدمة المتراكمة .

٢ ـ فبهذا المفهوم ايضاً يجب تفسير الذكرى ـ الستار (انظر فرويد ١٨٩٩ ؛ Ph. Greenacre ١٩٤٩ ؛ E. Kris ١٩٥٦ ؛ V. Smirnoff ١٩٦٧) .

ان نضمها الى النظرية الفرويدية عن القلق . فالنوعية الصادمة لوضعية معينة يمكن أن تعود الى الظهور المفاجيء للكمية من المثيرات ، من خلال الحواجز الدفاعية ، والتي لا تستطيع الأنا أن تسيطر عليها . فعدم كفاية الحاجز الدفاعي يتعلق بالتجهيز العاطفي للفرد أكثر من تعلقه بالحقيقة الصادمة ، اي بتسامح الفرد تجاه الاحباط وبقدرته على تعبئة الدفاعات .

لقد لفت فرويد انتباهنا الى حدة التجارب المعاشة من قبل الولد : خيانة الذاكرة ، عدم البلوغ وسرعة عطب الأنا تجعل من جميع المتطلبات الدوافعية وجميع المثيرات الآتية من الخارج تشويشاً او تطفلاً صدمياً . فالنتائج قد لا تتوافق مع الاسباب : فهذه التجربة المعاشة تؤثر احياناً على الأنا بشكل ، ولو لم يكن ظاهراً عند التأثير ، يمكن ان يمثل فيما بعدا لنقاط الاولية للعصاب . فهذا يسهل فهمه اذا تبعنا فرويد في التشابه الذي يعطينا اياه : فالصدمة الصغيرة على جسم جنيني يمكن ان تصبح مصدراً لتشويهات خطيرة لا تظهر الا فيما بعد . الا ان هذه التجارب الصدمية الاولية لا يمكن تلافيها من قبل اي كان ، وكل كائن بشري يمكنه ان يحتمي منها قدر المستطاع من خلال الاواليات الدفاعية .

٢ ـ المأزم النفسي .

فلتوضيح مفهوم العصاب ، وهو مفهوم ديناميكي بشكل اساسي ، من الضروري عرض تكوينه . وفي اساس كل تشكيل عصابي نجد ما يسميه فرويد المأزم النفسي .

فهو مأزم بين الدافع الغريزي الليبيدوي ووظائف الرقابة للأنا . فإذا لم يجد هذا المأزم حلاً له في تسوية بين الوسائل التي تكافيء الدوافع الغريزية وبين متطلبات الوسط الخارجي التي تعترضها او تحد من امكانياتها ، فإن الدافع سوف يكبت بشكل لا واعي ، دون ان يخسر من حدته : فهو يعود للظهور في حياة الفرد بشكل متنكر ،على صورة عرض . وهذا ما يسميه فرويد « عودة

المكبوت » . فالمأزم النفسي والكبت وعودة المكبوت تشكل ثلاث عبارات نفس مرضية لتكوين العرض العصابي .

فحسب ما يستعمله المحللون ، ليس المأزم ا لنفسي مجابهة بسيطة للفرد الذي يصطدم مع شروط الوسط المحيط . ان الاستعانة بنظريات سيلي Selye التوافقية وبمفهوم الضغط سيمكننا من توضيحه . بالنسبة لسيلي تنتج الحالة المرضية لجسم معين من عدم الانسجام بين الفرد والوسط الخارجي : فالفرد يخضع لضغط وتوتر ناتجين من تدخل الظروف الخارجية ويصطدمان بدفاعات الجسم غير الكافية التي تصبح معطلة نتيجة هذا العدوان . بهذا المعنى ليس العصاب الا عدم تكيف ، الا رد فعل للفرد على العوامل الخارجية التي ادت الى التحلل .

ولكن هذه الوضعية الضاغطة لا تحدث ، بحد ذاتها ، عصاباً . فالصعوبات التي تعترض الفرد من خلال وسطه تؤدي الى اضطرابات انعكاسية ، اي الى مجموعة اعراض تنهار عندما تقوم الظروف الملائمة باسقاط العوائق التي يواجهها الفرد .

من المعقول طرح المشكلة العامة للدور الذي يلعبه الضغط الانفعالي في احداث المأزمات العصابية . لقد اكدت على هذا الدور بعض المدارس النفسانية التي تدافع عن الاسباب « المحيطوية » او « الثقافوية » للعصاب .

فالمفاهيم المرضية لكارين هورني وهاري ستاك سوليفان مثلاً اللذين يدعيان بأنهما يستوحيان من التحليل النفسي تفترق عنها بعدة نقاط اساسية . ويمكننا تصوير موقفهما بالقول ان « الثقافويين » يعتبرون المأزم النفسي يتحدد بشكل اساسي بشروط الوسط ، والعصاب يصبح اذن عدم تكيف الفرد مع الوسط الخارجي . بينما المحللون يعتبرون المأزم النفسي ناشئاً داخل الفرد نفسه وهو كفرد يواجه الوسط المحيط . فالعصاب ليس مجرد مجموعة الصعوبات التي يواجهها : فحتى يحصل العصاب يجب على المأزم ان يستبطن ، اي ان لا يجري ادراك هذا المأزم بأنه احدث نتيجة للظروف الخارجية . فهو بالنسبة للمحللين مأزم داخل النفسية . فالمصاعب الحقيقية التي يواجهها الفرد يجب ان تهضم ؛

ويطرأ عليها تحول لتصبح فاعلة كعوامل مسببة لمرض العصاب . وهي اذا استبطنت او اجتيفت في اقتصاد الفرد الليبيدوي تصبح في وضع يؤهلها لأن تشكل عاملاً مأزمياً .

يلاحظ ان المأزم النفسي هو في وضع يناقض الصعوبات الحقيقية . فهذا مفهوم اساسي لفهم كيفية عمل الضغط الانفعالي . فعلى الصعيد العيادي من السهل ملاحظة ان الفرد ، في ظروف صعبة لا يمكن تلافيها او العودة عنها ، يمكنه ان يواجهها بشكل عام ؛ ولكن في الظروف التي يجبر فيها الفرد على الاختيار او على التخلي بنفسه عن بعض الرغبات والامنيات يبرز المأزم الداخلي فتظهر الاعراض او السلوك العصابي .

وهكذا يعرّف المأزم النفسي بأنه تصادم الدوافع الغريزية مع البنية الداخلية ، مع الأنا ، فهذا المأزم الذي يتحدد بحاجاته الداخلية والمتطلبات الحقيقية او الخيالية لمواضيع الحب « المستبطنة » ، هو في اساس اية نظرة تحليلية عن الامراض العصابية .

لقد جرت محاولة تحديد طبيعة هذا المأزم الذي اعترف له بخاصتين :

١) ان العلاجات التحليلية التي قام بها فرويد دلت له بأن المأزم يدور حول الحياة الجنسية للفرد[1] . فالاصل الجنسي للامراض العصابية يفسر بكون الدوافع الجنسية تختلف عن غيرها من الدوافع الغريزية ببعض السمات الاساسية . فالدافع الجنسي يبدو مخالفاً لتكيف الفرد مع الظروف الخارجية طالما ان هذه الدوافع لا تمس الوظائف الاساسية المحافظة على الفرد . فبعكس الجوع او العطش ، فإن الدوافع الجنسية يمكنها ان تحصل على مكافأة غلمية ـ ذاتية ، ويمكنها ايضاً ان تشبع مؤقتاً بمكافأة « هلاسية » . وهكذا فالدوافع الجنسية تفلت من الضرورة المحتومة لحاجة التكيف مع الوسط ، وهذا ما

---

١ ـ ان مفهوم الحياة الجنسية كان ولا يزال المفهوم الذي لم يفهم جيداً في النظرية التحليلية : فالمعنى العادي للعبارة لا يغطي المعنى التحليلي الا جزئياً . فالحياة الجنسية ، بالمعنى الواسع الذي يعطيه لها التحليل النفسي ، تشمل كل دائرة المكافآت الليبيدوية

يفرقها عن الدوافع الاخرى الهادفة الى الحفاظ على الفرد وعلى استمراره في الحياة ، مثل الدوافع الغذائية التي لا يمكن مكافأتها ذاتياً بالطبع ولا يمكن لمكافأة هلاسية ان تحل محل المواضيع الخارجية الضرورية لاشباع الحاجة . كذلك فإن موضوع الدافع الجنسي يظهر في وضع خاص جداً بالنسبة للمواضيع الاخرى .

٢) هذا الاكتشاف سمح بربط الحالات العصابية للبالغين بعصاب طفلي وصفه فرويد في كتابه Les Trois essais sur la théorie de la sexualité (١٩٠٥)[1] .

ان فرويد يستند الى عقدة اوديب وقلق الخصي عندما يتكلم عن المأزم العقدي الذي يبين الامراض العصابية وقد استطاع ان يلاحظه في حالة عيادية : ملاحظة التحليل الاول للولد ، تحليل هانس الصغير . فهذا العصاب الخوافي عند ولد عمره خمس سنوات ، حلله فرويد حوالي ١٩٠٦ (والحالة نشرت عام ١٩٠٩) سمح بتأكيد نظرية الحياة الجنسية الطفلية كما بنيت انطلاقاً من المواد التي جمعت خلال تحليلات البالغين .

ان الحل العفوي او العلاجي لهذا المأزم العقدي الذي هو عقدة اوديب ، هو الذي يحدد مستقبل الفرد الى حد بعيد . فإذا لم يجر تجاوز هذا المأزم واذا لم يصفَّ العصاب الطفلي فإنه يشكل دعوة للتشكيلات العصابية اللاحقة . فعدم حل هذا المأزم قد يعود لاسباب عديدة . اما لأن المأزمات حادة نسبياً لا يمكن ازالتها بكبت ناجح ، فتبقى فاعلة وتظهر على شكل قلق او اعراض ؛ واما يبقي الكبت ، الفعال لفترة معينة ، المأزم كامناً بدون حل ولكنه يتخفى في بعض الظروف الضاغطة ويفسح المجال لانفجار الاعراض العصابية .

وما يعتقد عادة انه يعود للضغط هو في الواقع ايقاظ المأزمات القديمة غير

---

١ ـ ان مفهوم الاصل الجنسي للامراض العصابية ، كان تاريخياً في اساس المقاومات الاكثر انفعالاً للتحليل النفسي الذي اتهم بأنه نظرية « للطبيعة الجنسية » . يوجد هنا سوء تفاهم اساسي لم يجر اجلاؤه .

المحلولة بواسطة الضغط ، وهي قد بقيت كامنة طيلة الوقت الذي يتمتع به الفرد بطاقة كافية للابقاء على الكبت .

فبالنسبة لبنية الولد النفسانية فإن المأزمات تتخذ عنده حدة خاصة . من جهة ، لا يملك الولد الا القليل من الوسائل لتغيير الظروف التي يعيش فيها ، لذلك لا يستطيع ان يؤثر على الوسط ويجعله ملائماً لرغباته . ومن جهة اخرى ، فإن الولد ، بسبب عدم التنظيم النسبي لوظائفه المعرفية ولتجهيزاته الادواتية ، لا يتحمل الاحباطات الحقيقية التي يفرضها عليه الوسط . فهذان الشرطان يفسران بأن الولد ليس مسلحاً لحل المأزم النفسي الناشيء من التناقض بين دوافعه الغريزية ومتطلبات الواقع .

لقد لاحظ فرويد بأنه لا يجوز الحكم على الحدة المعاشة لهذه المأزمات النفسية كما يجري بالنسبة للبالغ . فكما يجري بشأن الصدمة الصغيرة التي تصيب الخلايا التكوينية الاولى خلال التطور الجنيني وتؤدي فيما بعد الى تلف كبير يبرز في تشويهات عندما يبلغ الجسم نموه الكامل ، كذلك فإن الصدمة النفسية ذات المظهر البسيط يمكن ان تؤدي الى نتائج تفوق نسبة السبب الاولى[1] .

٣ ـ اللاوعي

لقد كان الاكتشاف الاساسي لفرويد هو ادخال اللاوعي كبعد رئيسي في الظواهر النفسية . فهو يصف باللاواعي « كل نسق نفسي تدل مظاهره على وجوده ، بينما لا نعلم عنه شيئاً رغم انه يحدث فينا . . . فهو كل نسق نقبل بأنه فاعل حالياً دون ان نعلم ، وبنفس الوقت ، اي شيء آخر عن امره » (فرويد ١٩٣٣) . ان هذا التعريف الوصفي يرتكز على وجود عوامل نفسية لا يدركها الفرد بشكل واعٍ وهي تكتشف اما بتحليل الاحلام (المعنى الكامن للحلم) ، واما بالتداعيات الحرة . ولنذكر بما كان يكتبه دانيال لاغاش (١٩٥٠) :

---

١ ـ Abrégé de psychanalyse (١٩٣٨) . (رغم العنوان ، فإن هذا الكتاب هو آخر ما كتبه فرويد ، لا يشكل المدخل المفضل لأعمال هذا المؤلف) .

« اللاوعي ليس مادة ، فهو خاصة لبعض الدوافع ولبعض التكاملات ، او بعبارات اخرى ، لبعض الدلائل الوظيفية للسلوك » . فاللاوعي يشكل عمق كل حياة نفسية ليست الظواهر الواعية الا مظاهر لها .

وبادخاله مفهوم اللاوعي ، اكد فرويد على ان الظواهر الواعية لا تشكل الا القسم السطحي من الحياة النفسية ؛ فاللاوعي يشكل القسم الاكبر منها ؛ فهو يبين ويحدد التصرفات ، وكذلك الاعراض العصابية . لقد كان ذلك الاكتشاف الاولي لفرويد اثناء ابحاثه عن الهستيريا (١٨٩٥) ، حيث استطاع ان يبرهن ان اعراض المرض لم تكن الا تعبيراً عن انساق نفسية لاواعية لا يمكن للفرد ان يعرفها في الظروف العادية ، مهما كانت رغبته في الشفاء معلنة . فالحالة المرضية ، اي العرض ، ابقيت في الدوافع اللاواعية التي تعبر عن رغبة الفرد اللاواعية . فمثل هذه الدوافع اللاواعية توجد في الوظائف النفسية العادية . نفس المنطق اللاواعي هو في اصل الاحلام حيث يكشف التحليل بفضل ترابط سلاسل التداعيات خلف قصة الفرد عن المحتوى الظاهر ، عن محتوى كامن لا واعٍ يسعى المحتوى الظاهر الى طمس معناه . فالمحتوى الكامن هو التعبير عن رغبة ، ولكنها بقيت مخبأة بواسطة دفاعات الفرد .

فالامر هو كذلك بالنسبة للتصرفات التي يكتشف التحليل وراءها معنى كامناً يتناقض غالباً مع النيات المعلنة او التصرفات الفعلية ، مما يسمح ليس فقط بتفسير السلوكات العصابية ، ولكن ايضاً بتفسير الدوافع اللاواعية للسلوكات اليومية . فاللاوعي يبدو اذن بمعزل عن الوعي ، حتى بشكل مقنّع ، اكان ذلك في الاحلام ام في النسيان ام في التصرفات الناقصة ام في زلات اللسان كما برهن على ذلك فرويد في Psychopathologie de la vie quotidienne (١٩٠١) .

من الناحية الدينامية يوجد فوارق اساسية بين التصورات النفسية الواعية واللاواعية . لقد حاول فرويد ان يعطي للجهاز النفسي نموذجاً بتجزئته الى نظامين ، النظام الواعي والنظام اللاواعي . فهذا النموذج الاولي يسمح

بالاعتراف لكل نظام بنمط من العمل الخاص[1] فعندما يصبح التصور اللاواعي واعياً ، فالامر لا يتعلق بتغيير المكان ولكن بانتقال الشحنة الطاقية . فحسب ما يكون التصور مشحوناً ام لا بهذه الطاقة ، فإنه ينتقل من حالة الى اخرى . فهذه التفرقة الى نظامين تمكن بشكل افضل من تحديد الدور الذي يلعبه الكبت .

٤ ـ الكبت .

ان مفهوم الكبت يرتبط بشكل دقيق بمفهوم اللاوعي . ان بعض الانفعالات الدافعية وبعض التصورات النفسية تصطدم بمقاومات تمنعها من الوصول الى الوعي : لقد اطلق فرويد تسمية الكبت على الاوالية النفسية التي تعيق الادراك الواعي لهذه التصورات وهذه الانفعالات .

فالكبت يجب اذن ان يحصل كلما اصطدم تحقيق اشباع غريزي ، بسبب الظروف التي ترافقه ، بتكدر يفوق لذة المكافأة . وبعبارات اخرى ، عندما تصطدم هذه المكافأة بمنع ينتج عن الأنا .

يؤكد فرويد (١٩١٥) على كون الكبت يطال الممثلين النفسيين للدافع الغريزي ؛ فهؤلاء الممثلون النفسيون غير المقبولين من قبل الأنا يُقذفون خارج الوعي في مرحلة اولى يدعوها فرويد الكبت الاولي . فيما بعد كل حدث معاش وكل انفعال وكل فكرة تكون مرتبطة بهذا الممثل النفسي المكبوت عن طريق التداعي سوف تتعرض بدورها للكبت . وهكذا فإن سلاسل افكار تنبثق من اوضاع اخرى وتكون مرتبطة بهذا الذي يسمى ممثل الدافع ، تبدو من الوعي بواسطة نسق يدعى الكبت الثانوي ، وهو ما نواجهه في الممارسة التحليلية .

« فالكبت لا يمنع ممثل الدافع من البقاء في اللاوعي والاستمرار في التنظيم

---

١ ـ هذا النموذج الاول الذي عرضه فرويد في الفصل السابع من تفسير الاحلام (١٩٠٠) جرى اكماله بالنموذج الثاني الذي ادخل في العمل النفسي لعبة الاركان الثلاثة : الهو ، والأنا ولأنا الاعلى (Le Moi et le ça ؛ ١٩٢٣)

وتشكيل نوى رفضية وعقد روابط جديدة . فالكبت لا يضايق حقاً الا العلاقة مع نظام نفسي واحد ، نظام الوعي »[1] .

ان الدور الاساسي للكبت ليس ازالة التصور المنبثق عن الدافع الغريزي ، ولكن ابقاؤه في حالة التصور اللاواعي . من جهة اخرى ، فان الكبت قد يطال ايضاً بعض المؤثرات او الانفعاالات الغريزية . يتكلم فرويد عن الانفعالات ذات الفكرة المتصورة اللاواعية : « اذا لم يكن احد الدوافع الغريزية مرتبطاً بتصور معين ، واذا لم يعبَّر عنه بحالة عاطفية ، فهو يبقى مجهولاً تماماً من قبلنا . . . قد يبقى الانفعال العاطفي مجهولاً مع كونه مدركاً . فعلى اثر كبت الفكرة التي تمثله يجبر هذا الانفعال على الارتباط بتصور آخر ، وهكذا يعتبره الوعي كمظهر لهذا التصور »[2] .

وتجدر الاشارة الى ان الطابع اللاواعي للتصورات والمؤثرات لا يلغي فعاليتها النفسية ، وهي تبقى حيوية دون ان تكون واعية ومدركة ومحددة . فإذا نجح الكبت باعاقة تحول الانفعال الغريزي الى مظهر عاطفي ، واذا اجبر هذا الانفعال على البقاء لا واعياً ، فإنه لا يلغي بهذا فعاليته .

في البدء يخلق الحدث متطلباً غريزياً يطلب ان يُرضى . هذا الارضاء ترفضه الأنا التي تواجه اما تطلباً ملحاً ، واما طلباً معتبراً خطيراً في نتائجه . امام هذا الطلب تسعى الأنا الى تلافيه او ازالته من حقل الوعي بفضل الكبت . ولكن ليس هذا الا حلاً ناقصاً . فإذا احتفظ الدافع الغريزي بقوته او اذا جرى احياؤه بحدث جديد ، فإنه يعود ويصبح فاعلاً . فبما ان طريق الارضاء الطبيعي قد قطعت عليه بسبب الكبت ، فإنه يسعى الى الوصول نحو ارضاء بديل يظهر على شكل عرض ، وكل ذلك بدون موافقة او فهم الأنا . فكل ظواهر تكوّن العرض يمكن اعتبارها كعودة للمكبوت . فإن طابعها المميز هو التشويه الذي يلحق بالعناصر التي تعود للبروز بالنسبة لشكلها الأولي[3] .

---

١ ـ Le refoulement, S. Freud (١٩١٥)

٢ ـ (L'inconscient) 5191 .

٣ ـ Moïse et le monothéisme (١٩٣٧)

هناك علاقة وثيقة بين مفهوم اللاوعي ومفهوم الكبت ، فهو تعبير دينامي يدل على تطلع التأثيرات النفسية لكي تصبح واعية ، ولكنها تصطدم بقوة معارضة ، بمقاومة لاواعية .

فبين الوعي واللاوعي يوجد حاجز طاقي يدعوه فرويد الرقابة . من الناحية الوظيفية ليس هذا عائقاً بسيطاً ، ولكنه قوة حيوية تكبت في اللاوعي المؤثرات المؤلمة التي لا يستطيع الفرد ان يسمح بها ، كما انها تمنع بعض المؤثرات المكبوتة سابقاً من مقاربة الوعي وتبقيها مكبوتة .

لقد اشير الى الطابع المتحرك لهذه الاوالية . فالكبت يمكن ان يزول في بعض الظروف ؛ كذلك لا يمكن اعتباره كنسق حدث مرة واحدة ، وبقي بعد ذلك تأثيره دائماً ونهائياً . بالعكس « ان البذل المستمر للجهود لا بد منه للابقاء على الكبت ، وفي حال انقطاعها ، فإن الكبت يصبح معرضاً وتصبح عملية كبت جديدة ضرورية . . . فالمكبوت يمارس ضغطاً مستمراً باتجاه الوعي ، وهذا الاخير يجب ان يحافظ على التوازن بواسطة ضغط معاكس ومساو للاول . فالحفاظ على الكبت اذن يقتضي بذل طاقة مستمرة » (فرويد ، ١٩١٥) .

من زاوية الاقتصاد النفسي فإن رفع الكبت يشكل تحريراً هائلاً للطاقة التي قد توظف بعد ذلك في وظائف نفسية اخرى . فهذا هو احد اهداف التحليل النفسي .

٥ ـ فقدان الذاكرة الطفلية .

ان مفهوم فقدان الذاكرة الطفلية يرتبط بمفهومي اللاوعي والكبت ، وهو يغطي الذكريات المكبوتة العائدة لاحداث السنوات الاولى والتي تشكل مجمل التجربة الطفلية المعاشة المتعذر على الوعي بلوغها .

ان استكشاف ماضي الفرد يصطدم بصعوبات هائلة . فعندما نسأل ولداً عن سنواته الاولى نتوقف بسرعة لعدم توفر المواد . واذا اخضعنا البالغ الى مثل هذا التحقيق الاستذكاري يمكنه ان يعطي قصة مترابطة لحياته اعتباراً من السنة الرابعة او الخامسة ، ولكنه لا يستطيع في الغالب ان يعطي احداث طفولته

الاولى بشكل منظم . فبعض الصور المعزولة والمنفصلة عن اي سياق تظهر فقط بالنسبة للامكنة حيث كان يسكن او بالنسبة لحدث صغير ظاهرياً . قد نميل الى اعتبار هذا الفقر في المعلومات ناتج عن حياء معين امام شخص آخر ، ولكن تجربة الاستبطان الشخصي لم تعط نتائج اكثر من ذلك ، حتى عندما لا يسعى الفرد الى تلافي الوقائع المؤلمة ارادياً . فالذكريات المستعادة تبقى بدون معنى خاص وظاهر .

ان ندرة الذكريات عن الطفولة الاولى اذهلت فرويد بطابعها الغريب ، فبينما كل شيء يبدو انه يشير الى ان الولد كان يتمتع بسلوك متعقل وانه كان يشارك في الحياة المشتركة ، كما تدل على ذلك اقاصيص الاولاد ، فإن محو الذكريات يجب ان يعاد الى كون الولد قد مر ، منذ سنه الصغير ، بمأزمات نفسية كبتت بسرعة .

فعلم النفس التقليدي كان يعزو هذه الصعوبة في تحديد الذكريات، اما الى عدم نضوج الوظائف التذكرية واما الى تأثير الصدفة .

بعد ذلك ، دلتنا الممارسة التحليلية ان النسيان ، شأن كل تصرف ناقص ، ليس عفوياً ، وهو يعود الى كبت معنى غامض (فرويد ١٩٠١) . فالكبت يهيمن ايضاً على ظاهرة فقدان الذاكرة الطفلية . وهكذا ينتقل الى اللاوعي بعض ممثلي الدوافع الليبيدوية : اما لأن تحقيقها منع على الولد ، واما لأن القلق الذي تسببه بلغ حداً لا يطاق . ان فقدان الذاكرة يشمل اذن جميع الاحداث المتعلقة بالوضعيات المأزمية اذا كانت ، بسبب عدم النضج العاطفي للولد ، مؤلمة جداً لكي يجري استيعابها مواجهة ، وصعبة جداً لكي تحل ، لذلك فإن محوها هو الوسيلة الوحيدة للولد لكي ينساها (فرويد ١٩٠٥) . فالكبت يخرج من حقل الوعي المأزم نفسه وكل الذكريات التي تتعلق به . وهكذا تختفي بشكل مختلط الذكريات المؤلمة والذكريات المفرحة ، فهذه الاخيرة تذهب عن طريق التداعي البحت . هناك زوايا بكاملها من حياة الولد تقع في فقدان الذاكرة ، ولا تترك احياناً على السطح الا ذكريات لا قيمة لها بحد ذاتها ، ذكريات ـ ساترة ، ممثلة ذاكرية حيث يختبيء المؤثر (فرويد ١٨٩٩) .

ان تحليل التداعي وحده لهذه الذكريات ـ الساترة يمكن من اعادة تكوين الماضي والمؤثرات المرتبطة به .

فهل الذكريات التي نتكلم عنها هنا تعادل الآثار الذاكرية الحقيقية ؟ يعتبر البعض ان تأثير التجارب الاولى في الحياة ، التي تجري خلال المرحلة السابقة للكلام ، لا يمكنها ان تعطي الا تجربة معاشة لا يعبر عنها بالكلام ولا يمكنها ان تصبح واعية بمعنى الوعي الانعكاسي : فهي اذن لا يمكن ان تكبت ، وبالتالي لا يمكن تذكرها . الا ان التجربة التحليلية تفيدنا بأن المرحلة ما قبل الكلامية يمكنها ان تترك آثاراً لا واعية قد تمارس من هذه الزاوية تأثيراً كبيراً . ان الاحاسيس الحسية ـ الحركية والتوازنية والبصرية والسمعية والشمية يمكنها ان تساهم بتكوين شكل معين Gestalt للتجربة المعاشة . من بين التجارب المذهلة يمكن ان نذكر تجارب الارضاع الاولية التي تلصق بالفرد بعض الصور الخاصة : شكل الام المرضعة كما وصفه سبيتز Spitz في عمله عن la cavité prémitive (١٩٥٥) وحيث تختلط بشكل محكم الذكرى البصرية والاحساس الحسي ـ الحركي والأثر التوازني ، ان الطابع اللاواعي لمثل هذه الاثار يوجد في ظاهرة ايزاكوير Isakower (١٩٣٨) وفي « الشاشة البيضاء للحلم » التي يتكلم عنها لوين Lewin (١٩٤٦) وهي ترتكز على الآثار اللاواعية للتجارب الاولى[1] .

٦ ـ مبدأ اللذة ومبدأ الواقع

فمن اجل تفسير عمل الجهاز العقلي صاغ فرويد عدداً من المبادىء .

يقصد بمبدأ اللذة ، الميل الذي عند الجهاز العقلي للحفاظ على كمية الاثارة على اخفض مستوى ممكن او على اثبت مستوى ممكن . ان ادراك حالة الاثارة (مثير) تؤدي الى سلوك يسمح بالحد من هذه الاثارة ، ومن تخفيض الكدر

---

١ ـ ايزاكوير Isakower (١٩٣٨) يتحدث عن صور نعاسية تحدث خلال السهو (النوم الاولي) الذي يسبق النوم . فالفرد يرى كتلاً مائعة تأتي نحوه ، يفسرها الكاتب بأنها احياء للرضاعة من النهد . ولوين (١٩٤٦) يصف « الشاشة البيضاء للحلم » التي تنعكس عليها تخيلات الحلم : فالشاشة تفسر على انها « رمز لنهد الام ، المعادل اللاواعي للنعاس ؛ اي ان هذه الشاشة تشكل الرغبة للنوم والتخيل البصري والرغبات التي تشوش النعاس » .

الذي ينتج عنها ، وبالتالي من التفتيش عن الارضاء ، فعندما يعمل الجهاز النفسي حسب هذا المبدأ ، فإنه يميل الى تأمين ارضاء مباشر بالحد من التوتر[1] .
ان مبدأ اللذة هو الذي ينظم سلوكات الطفل في البحث عن المكافأة المباشرة لحاجاته ودوافعه الغريزية ، ويبعد كل تغيرّ يمكنه ان يدخل حالة من اختلال التوازن ، اي من التوتر في النظام المقفل الذي يشكله .

وهكذا فإن الاحساس بالجوع عند الرضيع يحدث حالة من التوتر المؤلم . فالطفل يحاول ان يُقلل هذا التوتر المؤلم : فالصرخات والمظاهر الحركية للرضيع ليست في البدء الا مظهراً لهذه المحاولة ولا تشكل « اشارة » تتوجه للام . فهذا حل غير فعال ، ولكنه يميل الى تخفيض حالة الحاجة . فيما يتعلق بالميول الجنسية (المتخذة بالمعنى الواسع الذي يستند اليه المحللون) ، من المؤكد انها تخضع لمبدأ اللذة وتحافظ على هذه الوظيفة طيلة النمو .

فمبدأ اللذة يعمل حسب نمط معين يختص بما يسميه فرويد النسق الاولي .

ان مفهوم النسق الاولي يرتكز على ملكة الفرد في انشاء تماثل في الادراك ، وفي دمج الصورة الذاكرية مع ادراك الشيء الحقيقي . وهكذا يميل النسق الاولي الى ارضاء الدافع الليبيدوي بتحقيق « هلاسي » للرغبة . ان هذا النمط من العمل يوجد مثلاً في الحلم الذي يسعى لتأمين المكافأة للرغبة عن طريق ظهوره في الحلم . وهكذا فإن عدداً من المكافآت يمكن ان تتأخر . نفس الامر يجري بالنسبة « للفكرة السحرية » التي تحاول استبدال الواقع بتحقيق خيالي هوامي وكلما اصبح النسق الاولي غير قادر على اشباع الحاجة او تحقيق الرغبة ، فإنه يكمل او يستبدل في النهاية بالنسق الثانوي .

ان النسق الاولي هو في خدمة ركن نفسي (الهو) لا يعترف الا بحقيقة ذاتية حيث يحسب فقط الحصول على اللذة وتلافي الكدر ، وهو يبحث عن مكافأة مباشرة اكان ذلك بواسطة الحلم او الهلاس او الفكرة السحرية .

---

١ - ان مبدأ اللذة هو مفهوم استعاره فرويد من العالم الفيزيولوجي الالماني فيشنر Fechner الذي وصف مبدأ الثبات المكلف بأن يوفي الجهاز العقلي اي تغير طاقي ، وان يحافظ على اندفاع الاثارة عند خفض مستوى ممكن .

فمبدأ اللذة يصطدم بسرعة بتدخل الواقع في حياة الفرد . فالواقع يشكل حاجزاً امام الارضاء المباشر ويصبح على الفرد ان يتكيف مع الوضعية التي تُقدم له : التخلي عن اشباع لذته لصالح سلوك متكامل . « فالأنا تعلم بأنه لا مفر من التخلي عن الارضاء المباشر ، وتأخير الحصول على اللذة ، وتحمل بعض الآلام ، والتخلي ، بشكل عام ، عن بعض مصادر اللذة . فالأنا المتربية هكذا تصبح « عاقلة » ، فلا تترك مبدأ اللذة يسيطر عليها ، بل تتلاءم مع مبدأ الواقع ، الذي يهدف ايضاً في العمق الى اللذة ، ولكنها لذة ، ولو تأخرت او خففت ، لها الكفاءة بأنها تؤمن الثقة التي يوفر التماس مع الواقع والتلاؤم مع متطلباته »[1] .

وهكذا يدخل مبدأ الواقع الذي لا يزيل مبدأ اللذة ولكنه يفتش عن طريق للمكافأة افضل وافعل مع اخذ الحدود المطلوبة بعين الاعتبار . فالفعالية والمحاكمة والاختبار والقرار ، هي صفات تطبع الانساق الثانوية التي يعمل مبدأ الواقع بالاستناد اليها . فالنسق الثانوي يطبع مجيء الركن النفسي الثاني (الأنا) ويدخل في اقتصاد الفرد مبدأ الواقع . في حياة الولد تبقى بعض النشاطات تابعة لمبدأ اللذة (النسق الاولي) مثل الالعاب والتخيلات . والانساق الثانوية تنظم عمل الأنا . فهذه يجب ان تبدل التفريغ الحركي باحلال الوظائف الواعية للتكيف مع الواقع - الانتباه الذاكرة ، المحاكمة - وجعلها تحل محل الكبت او النفي . يمكننا القول ان اللاوعي يعمل حسب مبدأ اللذة وان مبدأ الواقع يتدخل ليجعل التعبير عن هذه الميول متلائماً مع متطلبات الأنا الواعي .

٧ ـ الأنا والهو . الضابط الثاني

فعندما يصطدم البحث عن المكافأة المباشرة بمحددات الواقع المفروضة ،

---

١ ـ S. Freud- Introduction à la Psychanalyse (١٩١٧) . في مقال (١٩١١) (Formulations au sujet des deux principes de l'activité psychique) ، يذكر فرويد برنارد شوليدل على الاولوية النهائية لمبدأ الواقع على مبدأ اللذة : « ان يكون قادراً على اختيار طريق المكسب الاكبر بدل الخضوع لطريق المقاومة الاضعف » .

فإن مأزماً يظهر بين الميول الغريزية والنظام الضابط الذي يحاول ان يستوعبها . فإلى ثنائية الوعي ـ اللاوعي يضاف نموذج آخر من المقـولات ، يميز فيه فرويد ركنين نفسيين : الأنا والهو .

فالهو يمكن تعريفه على انه النظام الاعمق الذي يعبر عن الشكل الاصلي للجهاز النفسي ، وتقوده منذ الولادة الدوافع الغريزية الفطرية المشتهية[1] . ان عمل الهو يخضع لمبدأ اللذة ، اي ان الهو يبقى غيرمعروف من قبل المعـطيات الخارجية الزمنية والمكانية ، ومن العلاقات السببية والمنـطقية . فالقـوى التـي تحكم الهو لا يمكن تقريبها ببساطة الى الغريزة الاحيائية ، ولكن يجب اعتبارها كنظام يعمل على اشباع الدوافع الجنسية والدوافع العدوانية .

في هذه الموضعة الثانية فإن الهو يُغطى بشكل رئيسي باللاواعي : فخارج القوى الغريزية الخاصة يحوي ايضاً على كل ما هو ناتج عن الكبت . نستطيع القول انه من الوجهة الدينامية ينفلت عمل الهو كلياً عن الوعي ويشكل المادة الاولية للفوارق اللاحقة .

وانطلاقاً من القوى الغريزية للهو يتميز نظـام ثانٍ ، الأنـا ، بالتماس مع الواقع الخارجي ، فعمله يتحدد بالانساق الثانوية ؛ وبنيتهتتحددبمبدأ الواقع . في الوصف الذي يعطيه له فرويد (١٩٣٨) يراقب الأنا قدرة التحرك الارادية (وظيفة البقاء) ، ويدرك المثيرات ، ويسجل الـذكريات (وظيفـة تذكرية) ويتكيف مع الاثارات والاحـاسيس (وظيفـة التوافـق) ويتحـاشى التوتـرات الكبيرة جداً (وظيفة التحاشي) يجمع المعلومات التي تأتيه ويحاول تغيير الوسط بجعله مهيئاً للاجابة الى حاجاته ولاشباع رغباته (وظيفة التعلـم) . اذا كان صحيحاً بأن هذا المفهوم قد استخدمه فرويد طيلة ابحاثـه ، فإن معالجتنـا له

---

١ ـ ان تعبير das Es (Id بالانكليزية) استعاره فرويد من Groddeck ، في كتابه Das Buch VomEs (١٩٢٣) Le livre du ça (Gallimard ١٩٧٣) فهو يعرف DasEs كممثل للقوى الغريزية التي تطبع ديناميتها الخاصة في اللاوعي . الا ان المفهومين يختلفان : بالنسبة لفرويد يتعلق الامر بأحد اجزاء نموذج الجهاز النفسي ، بالنسبة لغروديك فهو مفهوم نفس جسدي وقوة بواسطتها تعيش (Rycroft ١٩٦٨) .

سوف تقتصر هنا على الشكل الذي ظهر فيه حوالي عام ١٩٢٠[١] . فالأنا وصف بأنه وكالة دفاعية ، والأنا العليا كنظام للممنوعات ، والهو كقطب غريزي ، وقد رفعت الآن الى مكانة الاركان في الجهاز النفسي » (لابلانش بونتاليس ، ١٩٦٧ Laplanche et Pontalis) .

وهكذا يبدو الأنا كركن مكلف بالتوسط بين علاقات الفرد مع العالم الخارجي . ولكن من جهة اخرى ، على الأنا ان يواجه الدوافع الغريزية الداخلية باحداث الرقابة على المتطلبات الغريزية : عليه ان يقرر الظروف والفترة التي تمنح فيها المكافأة ، عليه ان يؤخر ذلك الارضاء حتى الفترة الاكثر ملائمة ، وحتى يلغي كلياً ذلك المتطلب اذا كان يؤدي الى نتائج مؤذية . يتحتم على الأنا ان يواجه في نفس الوقت متطلبات الخارج والدوافع الغريزية ذات الاصل الداخلي[٢] .

ان هذا التعدد في النشاطات جعل بعض المؤلفين (هارتمان ، كريس ، لوبنستاين H. Hartman, E. Kris, R. Lœwenstein. D. Rapaport) ينشؤون نظرية للجهاز النفسي متمركزة على وظائف الأنا (Ego- Psychology) . فالأنا اعتبر كجهاز مستقل ينمو من خلال حالة غير متميزة للنفسية (هارتمان ١٩٤٦) . وباعتباره تنظيماً ضابطاً يضم الأنا تحت سيطرته كل العمليات الادراكية والمعرفية وكل عمليات التعلم والتكيف مع الواقع ، الخ . في مثل هذه النظرية ، يلعب الأنا قبل كل شيء وظيفة التركيب ويراقب كل الملكات

---

١ ـ اننا ندل القاريء ، من اجل المعالجة التاريخية والنقدية لهذا المفهوم ، على المقال الممتاز الذي خصصه له لابلانش وبونتاليس في قاموسهما Vocabulaire (١٩٦٧) .

٢ ـ ويلدر R. Waelder (١٩٦٠) لاحظ عن حق ان تعريف الأنا هو مفهوم غائي ، فنظام الأنا يعرَّف بالنسبة لهدف لاحق (التكيف ، التعلم ، الرقابة) ولا يدل على حالة بنية داخلية ولا على عمل النظام . في ايامنا يحاولون الانتقال من التفسيرات الغائية الى التفسيرات السببية مع وصف بعض التصرفات المتجهة نحو هدف (Goal- directed) وذلك بمساعدة نماذج مجهزة بوسائل ارتجاعية . فالاعلام الحاصل من تسجيل الشروط الخارجية يرسل في النموذج الذي ينظم سيره بما يتلاءم مع هذه المعلومات (انظر Gallimard- Cybernetique et société- . Viener ١٩٦٢) . ان للنظريات الغائية في التحليل النفسي قيمة وصفية ، لكنها يجب ان لا تعتبر كتفسيرات . وهكذا فإن مفهوم ضعف او قوة الأنا لا يفسر عدم القدرة على احتمال الاحباط .

العقلية (هارتمان ١٩٥٠ ؛ كريس ١٩٥٠) . فهذه النظرية جعلت مؤلفيها يدخلون مفاهيم جديدة : نزع الجنس وتحييد الليبيدو ، ويفترضون وجود « انا مستقل » وكرة غير مأزمية في الأنا . فنظرية Ego Psychology ساهمت بتقدم الابحاث التكوينية ، وخاصة ابحاث سبيتز التي حاولت تفسير تكون العمل النفسي من خلال الآثار الدماغية الحسية ـ الحركية عند المولود الجديد[1] .

فالأنا لا يمكن ان تتحول الى نظام ضابط بسيط : « فهذا المفهوم للأنا ، المتمركز على الاوجه المعرفية ، وكذلك الفرضية التكوينية المرتبطة بها ، لا تغطي جميع اوجه الأنا . . . بينما لاكان يرفضها كلياً ولا يريد ان يرى في عناد فرويد للتمسك بها الا احياء للاحكام المسبقة العلماوية في عصره وفي وسطه » (برابانت Brabant ١٩٧٠) . فالأنا الذي يراقب وصول الادراكات والمؤثرات والدوافع الغريزية الى الوعي ، يلعب في نفس الوقت دوراً في حل المأزمات الداخلية ، اي انه يحدد علاقات الفرد بنفسه . ان فيديرن Federen (١٩٣٢) يتكلم عن « مشاعر الانا » التي تمثل احساس الفرد لنفسه في تجربته المعاشة جسدياً وعاطفياً والتي يجابهها في كل لحظة وتشكل تجربة ذاتية ودائمة لا تعبر عنها كلمات « الوعي » او « معرفة الذات » .

لهذا يجب اعتبار اتجاهاً آخر يعينه فرويد عندما يتكلم عن الأنا كممثل لنتيجة انساق التماهي بالغير . هذا الموقف يظهر بوضوح عند فرويد (١٩١٤) عندما يدخل مفهوم النرجسية والليبيدو والنرجسي الذي يتحول عن المواضيع الخارجية ويثبت على الشخص ذاته او على الأنا الذي يمثله : وهكذا يصبح الأنا

١- فبدون ان نواجه نظرية ego- Psychology ـ التي نجد مقولاتها الرئيسية في كتاب هارتمان (١٩٦٤) ـ بالنظرية الفرويدية الارثوذكسية للأنا ، لكن من الضروري الملاحظة انها غير كافية للتعبير عن العمل الاجمالي للأنا وهي تهمل ، كما سوف نرى ، بعض الاوجه الاخرى التي وصفها فرويد بأنها تنتمي للأنا . ورغم الامور الجديدة ، فإن هذه النظرية قد وجهت التحليل النفسي على طريق البحث الاختباري الذي يبعده عن المستجدات المهمة التي اتى بها كل من ميلاني كلاين وبالانت Balint ولاكان وفينيكوت Winnicott وغيرهم . لقد اجرت نظرية ego- psychology بعض الانشقاق بين المحللين الفرويديين ، هذا الانشقاق نلاحظ اليوم انه لا يمكن الحد منه في بعض النقاط . وتجدر الملاحظة ان كلا الطرفين يدعيان الامانة للفكرة الفرويدية وكل واحد يستند بما لا يقبل الشك الى قراءة مختلفة لفرويد فهي تشجع تارة هذه الوجهة وتارة الوجهة الاخرى من المفاهيم الفرويدية .

موضوعاً للحب النرجسي ، ويلاحظ ان الأنا كموضوع للحب لا يمكن ان يوجد على الفور ولا يتكون الا في عملية التماهيات . وهكذا يرى لاكان (١٩٤٩) في مرحلة المرآة الفترة حيث يجابه الولد ، في رقابة التماهي المرآوي ، صورة مثيلة : وهي اول تكون للأنا ، تكون خيالي مرتبط بالخداع والجهل .

بهذا المعنى كتب لوكلير (١٩٥٨) S. Leclaire « الأنا هو التجربة المعاشة للتماهيات الخيالية عند الفرد » . فهل الأنا هو المكان حيث تظهر جميع الصور المثالية ، جميع خداعات التصورات المرغوبة ، وما يرغبه الفرد او ما يريد ان يكون ، فالمحلل برفضه الانجرار وراء هذا المنطق عليه ان يسمح للفرد بالاعتراف بأن هذا الأنا لم يكن الا بناء خيالياً .

ان مرحلة المرآة ليست الا خطوة اولى نحو الاستقلالية المتدرجة للفرد التي تقوده نحو التعرف على صورة قابلة لأن يتماهى بها وتسمح له بعد ذلك ، بأن يتكون كفرد وان يدرك الام كموضوع شامل . « ان عدم التوافق الظاهر بين اتجاه التماهي والوجهة المعرفية للأنا يمكن ان يحل من خلال المجهود المبذول من اجل توضيح العلاقات بين التماهي والادراك » (برابانت ١٩٧٠) .

انه لخطأ كبير الاعتقاد ان التقسيم بين الوعي واللاوعي يتلاءم مع التمييز بين الأنا والهو ، لأنه اذا كان كل ما يجري فعلياً في الهو يبقى لاواعياً ، فالانساق التي تجري في الأنا يمكن ان تصبح واعية ، ولكنها ليست واعية بالضرورة . من الناحية النظامية نستطيع القول بأن عناصر الهو تبقى لاواعية وان محتواها لا يمكن ان يقارن مع الواقع الا بفضل وساطة الأنا ؛ فهناك عناصر آتية من الهو يمكنها ان تدخل في الأنا وتبقى فيه بحالة ما « قبل الواعية »[1] . فإحدى وظائف هذا القسم اللاواعي من الأنا هي الأبقاء على بعض العناصر اللاواعية المعتبرة غير مقبولة من الأنا ، مكبوتة .

---

١ ـ يشير فرويد في مناسبات متعددة بأن نظريته التي تميز الاركان العميقة او السطحية ، تعمل على التعبير عن علاقة مكانية وذلك لهدف واحد هو التدقيق بترابط الوظائف . ان مثل هذه التصورات هي من مجال البنية الفوقية التأملية للتحليل النفسي وكل قسم منها يمكن حذفه او استبداله ، بدون تعويض او اسف ، بقسم آخر فوراً عندما يبرهن على عجزها (Gallimard, Mavie et la Psychanalyse ١٩٢٥) .

و« الذات » Soi ـ هو مفهوم ايضاً ادراكه اصعب . بينما الأنا هي ركن نفسي يعد مفهوماً تحليلياً ادخله وعرفه فرويد ، فإن مفهوم الذات الذي ظهر مؤخراً يفهمه الكتاب الذين يستخدمونه بأشكال مختلفة .

فالذات عرفه هارتمان عام ١٩٥٠ : فهو يدل بالنسبة اليه ، تصور الفرد لكامل شخصه الذي يشمل جسمه الخاص والاجزاء الجسدية وكذلك تنظيمه العقلي ومختلف العناصر النفسية التي تكونه : « ان نقيض التركيز أنغيري ليس تركيز الأنا ولكن تركيز شخصه الخاص ، اي تركيز الذات » . فيما بعد ادخل مفهوم الذات في اعمال متعددة حاولت كلها ان تدل على علاقة الفرد بالعالم المحيط . ان ميلاني كلاين واديث جاكوبسون Edith Jacobson ورينيه سبيتز وفينيكوت يستخدمونه لأمور مختلفة . فجاكوبسون تستند اليه في عملها حول Selfand the Objet World (١٩٥٤) فاستنادها على عبارة وصفية وذلك لتدل على « الشخص كذات » ، لتميزه عن عالم الأشياء ، فهي تدل عليه ايضاً بعبارات Mental self, Psychophysiological self, Physical self, body self التي تعني بالنسبة اليها تصوراً نفسياً للذات .

بالنسبة لرينيه سبيتز ، في le nom et le oui (١٩٥٧) ، تعرّف الذات « كمترسب معرفي للتجربة » : ان هذه الوظيفة تظهر عند الولد حوالي الشهر الخامس عشر ، فهو يشعر نفسه ككيان متميز عن محيطه ويناقض الاشياء المحيطة بالتعرف على امكانيته الخاصة في الاحساس والتحرك ، ان مثل هذا التمييز يفترض ليس فقط انفصالاً بين الولد وما ليس هو (يسميه سبيتز I, nom-Je, Je, Nom-I) : ولكن امكانية التقاط الآخر ، خاصة الأم ، كموضوع للحب .

فهذه التدقيقات تبدو اكثر اهمية اذا علمنا ان مفهوم الذات عند ميلاني كلاين يفترق عن هذه النظريات في نقطة اساسية : فالذات ليست وظيفة تكتسب وتتحسن ببطء خلال نمو الامكانيات الادراكية للولد ، بل تنشأ منذ الولادة . اذا كانت ميلاني كلاين تعرف الذات بأنها « الشخصية بكاملها ، وتحوي ليس فقط الأنا ، ولكن كل الحياة الغريزية التي يدعوها فرويد الهو » ،

يمكننا ان نلاحظ بأن هذه الذات هي هنا قبل اي انقسام وقبل اي تدخل للجهاز النفسي وانها تمثل الوحدة الاساسية للفرد . اما فينيكوت فيتحدث عن الذات على انها استمرار للكائن ويؤكد بدقة خاصة على الدور الذي تلعبه الذات في نمو ما يسميه (Psyché- Soma) النفس ـ الجسد . في النهاية ينكر فينيكوت النفسية (Mind) كجهاز متميز : ان النشاط العقلي ليس الا وظيفة لهذا « النفس ـ الجسد الذي يتعلق به تصور الذات » .

وهكذا ، عند ميلاني كلاين ، فالذات تمثل مجمل حياة الفرد العاطفية . وهذا ما يعطي للانقسام كل معناه : فهو لا يقسم الذات الى قسمين يتصادمان ، ولكنه يحدث شرخاً في الذات يصبح مكاناً للمأزم داخل النفسية . ان الحد من هذا الانقسام وحده يسمح للفرد بأن يجد نفسه كما كان في الاصل .

٨ ـ اواليات الدفاع

لقد اعترف فرويد بأن على الأنا ان يدافع عن نفسه ضد المخاطر الخارجية والتي يمكنه ان يفلت منها اما بالهرب ، واما ، اذا كان ذلك ممكناً ، بتغيير الظروف الخارجية بجعلها محتملة او غير مؤذية . ولكن ضد المخاطر الآتية من الهو ، اي المنبثقة من الدوافع الغريزية ، فإن ردود الفعل الحركية بالهرب والتأثير على الوسط تبقى غير فاعلة . وحدها الاواليات النفسانية هي التي يمكن ان تمنع او تعزل او تغير هذه الدوافع . فعندما يرافق الخطر بروز رغبة معينة ويوقظ القلق ، فعلى الأنا ان يظهر دفاعاته الموجهة بنفس الوقت ضد الدوافع وضد المؤثرات .

ان عبارة دفاع استعملها فرويد في كتاباته الاولى . واستبدلها بعدئذ بعبارة الكبت ، في كتابه inhibition, symptôme et angoisse (١٩٢٦) احتفظ فرويد لعبارة الكبت معناها الخاص وعين بعبارة دفاع كل الاواليات التي يستخدمها الأنا ليحمي نفسه من المتطلبات الغريزية . فاعترف بأن الكبت يسيطر في العصاب الهستيري ، بينما الدفاعات والعزل والتكوين الانعكاسي هي خاصة بالعصاب الهجاسي ، الخ . .

وآنا فرويد (١٩٣٦) في كتابها المخصص للأواليات الدفاع تشير الى اهمية

الدور الذي تلعبه هذه الاواليات ليس فقط في الامراض العصابية ، ولكن ايضاً طيلة العلاج التحليلي . لقد برهنت انا فرويد بأنه لا بد من تحليل العمليات الدفاعية اللاواعية للأنا عند كل المرضى ، بدل الاقتصار على التفسير « الرمزي » للرغبات الغرائزية والهوامات المكبوتة . ان هذه المسألة التقنية ستعالج فيما بعد عند معالجة الممارسة التحليلية . لقد ذكرت أنّا فرويد عشر اوليات دفاعية ؛ الكبت النكوص ، التكون الانعكاسي ، العزل ، الالغاء الاتجاعي ، الاسقاط ، الاجتياف ، الانكفاء على الذات ، التحويل الى الضد ، وانتقال الهدف الغريزي (اعلاء) .

وميلاني كلاين تضيف اواليات اخرى : الانفساخ ، الأمْثَلة ، الدفاع الاهتياجي ، التماهي الاسقاطي ، اننا لم نعتمد هنا الا بعض الاواليات الضرورية لفهم المعطيات التحليلية المطبقة على الولد .

فالكبت ، بمعناه الخاص كوسيلة للدفاع عن الأنا ، وصفه فرويد بأنه الاوالية الرئيسية . ان دوره الاساسي هو كبت المؤثرات المؤلمة في اللاوعي والاحتفاظ بها هناك وتغيير المحتوى الظاهر للانتاجات الواعية . ان فرويد يقارن هذا الكبت بتأثير رقابة نص معين ، حيث ان الكلمات غير المرغوبة اما يجري محوها واما تستبدل بكلمات اخرى لتغيير المعنى الاول للرسالة وجعلها مقبولة في اعين الوعي .

ان انكار الحقيقة الخارجية يشكل نقيض التحقيق الهلاسي المرغبة الذي يحاول الفرد بواسطته الحصول على مكافأة وهمية . ان هذه المحاولة للارضاء الوهمي سوف تفشل في مواجهة الواقع فيركن الأنا الى اوالية دفاع تعمل على الحفاظ على الوضع القائم اطول وقت ممكن وذلك بفضل انكار الحقيقة الخارجية . فالأمور تجري وكأن الحقيقة الخارجية ليس لها وجود بالنسبة للولد الذي هو غير مجبر على مواجهتها . فكلما نما تدريجياً وبشكل متزايد مبدأ الواقع ، فان هذا الانكار يصبح اصعب . الا انه يبقى في الالعاب والهوامات ويظهر من خلالها : « فالتصور المكبوت او الفكرة المكبوتة يمكنها ان تشق طريقاً الى الوعي شرط ان يجري انكارها . فالأنكار هو شكل من التعرف على

المكبوت ، فهو يشكل الى حد ما رفع الكبت ولكن هذا لا يعني بأن المحتوى المكبوت قد قبله الفرد » (فرويد ١٩٢٥)[١] .

فالفرد الذي على مستوى اللاوعي ، يقبل هذا الامر الواقع او هذا الحدس المؤلم ، لا يمكنه ان يقبله في الوعي الا على شكل انكار . ان المثل الذي يذكره فرويد عن العبارة التالية : « قد تعتقد بأنني اريد ان اقول شيئاً مزعجاً ، ولكن ليس ذلك هدفي » يمكنها ان تفسر على الشكل التالي : « لقد فكرت فعلاً (بشكل لا واعٍ) بشيء مزعج لأقوله ولكنني لم اقبل هذا الشيء في وعيي » . ان الانكار المشابه يمكن الولد من البقاء في الجهل ، خاصة فيما يتعلق بالحقيقة الجنسية التي عنده لها حدساً لا واعياً لا يمكن ان يقبله بشكل واعٍ . وبانكار الاختلاف في الجنس او حقيقة العلاقات الجنسية بين الاهل ، يستطيع الولد ان يبتعد مؤقتاً عن اي مأزم نفسي . فاستمرار او اتساع هذا الانكار يمكن ان يجتاح كل الاطار المعرفي ويصل الى رفض التعلم او الفهم اذا كان الاكتساب الفكري يساوي التعرف الواعي وقد يعرض للخطر بعض التوازن الغريزي .

وبفضل الاسقاط يمكن للفرد ان يواجه القلق الذي تحدثه بعض المشاعر التي يسعى لانكارها لأنها تبدو غير مقبولة في الأنا . وهكذا يمكن للفرد ان يسقط العداء الذي يشعر به : فعبارة « اكرهه » تنقلبُ الى صيغة عكسية : « يكرهني » . بدل ان يكون الفرد الذي يشعر بالكره ، يصبح موضوع الكره المسقط في الموضوع المكروه . بعد ذلك فالفرد المتخلص من القلق الآثم يمكنه ان يتحمل مشاعره العدائية الخاصة التي لا تحّس الا كرد فعل مبرر على مشاعر الكره التي يلصقها الفرد بالآخر تجاهه .

فميلاني كلاين ومدرستها استخدموا هذه الاوالية الدفاعية بشكل واسع ، وكذلك تكملتها الضرورية ، اوالية الاجتياف واعترفوا لها بأنها الادوات التي

---

١ ـ S. Freud, Die Verneinung (La négation) (١٩٢٥) . انظر ايضاً التعليقات حوله عند لاكان وهيبوليت Lacan- Hyppolite, Ecrits (١٩٦٦) .

يقدر الولد بها ان يجري تعديلات متتابعة او فورية على اقتصاده الليبيدوي[1] .
ان اسقاط واجتياف صور الاهل يظهران في الهوامات المتعلقة بمشاعرهم عن الحب والكره ، وبمخاوفهم ومتطلباتهم الليبيدوية وبدوافعهم الغريزية المكبلة والمدمرة ، ويتجهان نحو مواضيع علاقاتهم الهوامية الاولى . فإن عدوانيتهم الخاصة يمكن ان تقنّع خلف الخوف من العدوانية المهومة الآتية من الآخر . فالاسقاط والاجتياف ، باعتبارهما اوالية دفاع ، يجد ان ارضاً ملائمة بشكل خاص عند الولد ، وذلك بسبب وضعية الولد تجاه العالم الخارجي . ففي فترة لا يسمح التمييز بين الذات وغير الذات بالتمييز الواضح بين ما هو خاص بالولد وبين ما هو خارج عنه ، فإن « اختلاط المشاعر » هو امر ميسور بشكل خاص .

فضلاً عن ذلك فإن ميلاني كلاين تجعل للاسقاط وللاجتياف دوراً اساسياً في تكوين وتبنين حدود الأنا الذي يبنى شيئاً فشيئاً من خلال هوامات الاستيعاب والتدمير ، فكلما كان الأنا قادراً على ممارسة بعض التمييز بين الادراكات ، خاصة العميقة منها ، « فإن بعض المواضيع التي تبدو كمصدر للذة يستوعبها الأنا ، تُجتاف . . . ، بينما يرمي الأنا الى العالم الخارجي كل ما يولد الماً (اوالية الاسقاط) . » بهذا الشكل تندمج بعض المؤثرات المرتبطة بالتصورات الخارجية في مجال الجسم الخاص ، او على العكس ، تسقط على العالم الخارجي بعض المؤثرات التي يشعر بها . ان هذه « الجدلية » اللاواعية تسبق بناء التجربة العاطفية المعاشة ، وتضع ، منذ الشهور الاولى ، علاقات الولد مع العالم الخارجي ، الذي لا يميَّز عن الولد ولكنه ينقسم الى اشياء حسنة واخرى سيئة . فأوالية الدفاع اذا بقيت متجهة ضد القلق البدائي ، تساهم ، في النظرية الكلاينية ، بالبنينة الطبيعية لعلاقات الموضوع .

والتكون الانعكاسي يميل الى استبدال مؤثر او رغبة مكبوتة ـ وكرد فعل

١ـ Paula Heimann, certaines fonctions de l'introjection et de la projection dans la première enfance (1925)

ضد هذه الرغبة ـ بميل معاكس . وهكذا تتكون سلوكات ومواقف عقلية تتعارض بشكل مباشر مع تحقيق رغبة لا واعية . فالعدوانية المكبوتة يمكن ان تبدل بالطيبة والرقة ؛ والميول التدميرية او البرازية للغلمة الشرجية تتحول الى صفات تنظيم وعناية ونظافة . فالكره يمكن ان يبدل بحنان مفرط ؛ فالحياء والصد يمكن ان يحلا محل الرغبة والفضولية الجنسية . لقد اشار فرويد (١٩٠٥) الى الدور الذي تلعبه التكونات الانعكاسية ، الى جانب التسامي ، في اكتساب القيم الثقافية . ولكن قد تحصل في العصاب (الهجاسي ، الهستيري) تعويضات زائدة ومضرة : الاشمئزاز الجنسي او اللامبالاة تجاه اي اكتساب فكري يمكنها ان تدل على كبت قوي جداً للدوافع الغريزية التكوينية او النظارية .

والالغاء الارتجاعي يقترب من التكون الانعكاسي ، ولكنه يقترح ان يعمل او يفكر شيئاً معيناً مخصصاً لتصحيح عمل او فكرة معتبرة غير مقبولة من الأناء وذلك بشكل حقيقي او خيالي ، في هذا المفهوم ، ان بعض الاكراه الايمائي (حركات الوجه مثلاً) ذي المحتوى السحري يحاول ان يمحو رمزياً في الحاضر رغبة قديمة .

والتهوم الدائم الذي وصفه لوبوفيتشي Lebovici (١٩٥٠) يختص بانتاج عدد كبير من الهوامات ، غالباً ما تكون من نمط قديم ، وهي كما تبدو ظاهرياً لا يرافقها القلق . ان غزارة المقولات السابقة للتكوين ، السادية ـ الغمية والسادية ـ الشرجية تدفع الى تشخيص حالة سابقة للذهان عند الولد .

والتماهي مع المعتدي ، الذي ابرزته أنّا فرويد (١٩٣٦) ، يجب ان يمكّن الفرد من مواجهة خطر معين بتصور العدوان لصالحه ، او بالتماهي مع شخص المعتدي فيأخذ منه دور او اشارات قوته . ان هذه الاوالية تساهم في تكوين الأنا الأعلى .

يمكننا التعرف على سمات مشتركة لأواليات الدفاع (ويلدر R. Waelder ، ١٩٦٠) :

أ) تعمل على اخفاء كل المؤثرات المؤلمة او الصعبة الارضاء من الوعي .

ب) وهي غالباً ما تكون خاصة عند شخص معين ، اي اننا نجد نفس الاواليات دائماً مفضلة على غيرها ، عند نفس الفرد .

ج) واواليات الدفاع سوف تؤدي الى ظهور مكافآت بديلة ، غير متكيفة مع موضوعها الاصلي ، ولكنها تحل محل مكافأة ممنوعة او مستحيلة ، على شكل اعراض عصابية .

٩ ـ الهوام

لقد عرّف لابلانس وبونتاليس (١٩٦٨) الهوام بأنه نوع من « مخطط خيالي حيث الفرد يكون فيه حاضراً ويرسم ، بشكل مشوه قليلاً من جراء الأنساق الدفاعية ، تحقيق رغبة لاواعية » .

لقد اعتبر الهوام في البدء معادلاً للانتاج الحلمي وقامت عليه سلسلة من الابحاث من اجل اكتشاف خصوصيته . بالنسبة لفرويد ، الهوام تعبير عن رغبة ـ هوام رغبة ـ ولكن يجب تحديد تكوينه . هنا يمكننا التمييز بين مستويين :

أ) التهوم الواعي ، وهو حلم اليقظة ، غالباً ما يكون على علاقة بالواقع الخارجي المعاش كمسبب للاحباط : فالنزوة تخلق هكذا تحقيقاً (متهوماً) للرغبة وتؤدي الى تخفيض مؤقت في التوتر الغريزي . الا ان الفرد يدرك بوضوح الطابع الخيالي لنزواته ـ انه « المسرح الخاص » الذي تكلمت عنه احدى مريضات فرويد ، .Anna O (١٨٩٥) ـ مما يميزها تماماً عن « التحقيق الهلاسي للرغبة » الذي يندمج ، بالنسبة للفرد ، مع الواقع . يمكن الاعتراف للهوامات الواعية بوظيفة مهمة ، وهي جعل الفرد مستقلاً عن الواقع الخارجي لأنه يحاول ارضاء نفسه في عملية انساق داخل النفسية . فهذا النمط من العمل لا يمكن ان يأخذ مداه الا عندما يستتب مبدأ الواقع تماماً (فرويد ١٩٢٤) .

ب) الهوامات اللاواعية . في مواجهة الهوامات الواعية هناك هوامات لاواعية مبعدة في اللاوعي بسبب الكبت . وهي تعمل « كأثر ذاكري للارضاء الغريزي ويمكنها ان تعطي الدوافع الغريزية محتوى مثلاني . . .

فنسميها هوامات طالما انها تستعير محتواهـا من الهوامـات الـواعية او السابقـة للوعي » (ساندلر وناجيرا Sandleret Nagera ١٩٦٣) .

ج) في الواقع ان فكرة فرويد هي اكثر دقة واقل تصنيفاً . في كلامه عن الهوام اللاواعي يبدو فرويد (١٩٠٨) أحياناً انه يقصد « حلم اليقظة المتسامي السابق للوعي الذي يسترسل فيه الفرد وقد يعيه انعكاسياً ام لا » (لابـلانس وبونتاليس ١٩٦٨) . ان فرويد لا يصادم بين النوعين من الهوامات بل يعمل على استخلاص التقارب بينهما ، واشكال الانتقال من نوع لآخر ، والقربـى الدقيقة بينهما . « في التشكيلات الخيالية يمكن ان نجد نفس المحتوى ونفس الترتيب ، اكانت واعية او لاواعية ، فاعلة او متصورة ، مستوعبة من الفرد او مسقطة على الغير » (لابلانش وبونتاليس ، ١٩٦٨) .

لقد وضح فرويد التعبير الواعي تارة واللاواعي تارة اخرى للهوام وذلك في الهوام الاستمنائي الذي درسه في on bat un enfant (١٩١٩) . بالطبـع ان المستوى الواعي هو الذي يعرفه الشخص فالمعنى الحقيقي بقي غير معروف لأن المحتوى الذي يتضمنه تعرض لاعادة تبنين ولم يقبـل في الوعـي الا النتيجـة النهائية . ان تحليل المحتوى الظاهر من الهوام هو الذي يؤدي الى اكتشاف الهوام اللاواعي .

فالمثل الذي اعطاه فرويد (١٩١٩) يمكن من التقاط الانـزلاق في المعنـى الجاري . فالهوام الذي فات المريض هو حادثة يضرب فيها رجل ولداً . فاعادة التكوين التحليلي خلال العلاج يمكن من اكتشاف المراحل المتتالية لتشكله .

أ) في المرحلة الاولى ، حيث كان الولد خاضعاً للغـيرة الأخـوية ، كان الهوام يمثل العنف الذي يمارسه الأب على منافسه : « ابي يضرب الولد الذي اكرهه ، يضرب منافسي » .

ب) بعـد الذنـب المعلن ، تعـرض الهـوام لتغير مازوشي : « ان ابـي يضربني ، لأنني كنت فرحاً لأن يضرب منافسي واحب ان يضربني » . فالمعنى الكامن هو : « ابي يحبني لأنـه يضربنـي ، كما يضرب منـافسي (الـذي كان يحبه) » ، انه يمكن من فهم الغلمية المازوشيه الثانوية .

ج) فالتكون النهائي للهوام كما يبدو تحت تأثيرات الكبت : رجل (بديل الصورة الابوية) يضرب ولداً (بديل المنافس الاخوي) ، لا يتخذ معناه الا بإعادة تكوين اصله اللاواعي .

اعادة التكوين الهوامية للماضي - . فضلاً عن ذلك يسعى فرويد لاقامة علاقة بين الهوامات والنمو الجنسي للولد . فاكتشف ان هذه الهوامات الاولية ترتبط بالمراحل الاولى للتطور الليبيدوي : هوام الأغراء ، الخصي والنكاح الاهلي . فهذا الهوام الاخير ، الذي يدعوه فرويد « حدث بدائي » ، يشكل تمثيلاً للوضعية الاوديبية ، حيث اعتقد فرويد في البداية انه تعرف على ذكرى حقيقية . ولكن في L'homme aux loups (١٩١٢) لم يعد الحدث البدائي المكتشف خلف حلم المريض الا تكثيفاً خيالياً لذكريين آخرين صغيرين ، وكان من الضروري الاستخلاص ان الحدث البدائي ليس الا هواماً والتأكيد هكذا بأن الواقع النفسي يفوق الواقع المادي .

فعندما نقارن المقولات التي نجدها في الهوامات الاولية ، « فإننا نعجب للطابع المشترك : كلها تعود للاصل . . . وتدعي بأنها تقدم تصوراً وحلاً لما يبدو للولد بأنه لغز كبير ؛ وهي تمسرح كنقطة بروز ، وكبداية لتاريخ ، ما يبدو للفرد بأنه حقيقة وانه طبيعة يتطلب تفسيراً ونظرية » (لابلانش وبونتاليس ١٩٦٨) . فهذه الهوامات الاصلية تطرح مشكلة اصل الهوام كما برهن على ذلك بوضوح لابلانش وبونتاليس (١٩٦٤) .

وهكذا يدخل مفهوم اعادة التكوين الهوامية للماضي . فليست تأريخية الحوادث التي تستخدم آثارها الذاكرية كمواد للهوام ، هي التي تهم ولكن اعادة تكوين الماضي ، من خلال التجارب المعاشة بشكل متأخر .

في هذا العالم الهوامي ، فإعادة التكوين المهومة للماضي تلعب دوراً اهم من معطيات التجربة المعاشة . لقد اشار فرويد عدة مرات ، بأن جميع الانساق العقلية لها اصلها في اللاوعي ولا تصبح واعية الا في بعض الشروط . فهذه الانساق تنبثق مباشرة من الحاجات الغريزية ، او انها تظهر كجواب على المثيرات الخارجية . اننا نفترض ، يقول فرويد (١٩٣٣) ، ان الهو « ينفتح في

بعض الاحيان على الجسدي ، ويجتذب منه الحاجات الغريزية التي يستوعبها ويعطي منها تعبيراً عقلياً » .

ان تحليل الهوامات يشكل احدى الطرق الرئيسية للوصول الى اللاوعي . هذا يعني المركز الذي يعطى لها في الممارسة التحليلية واهمية التكوين النظري لموقعها . في الوضعية التحليلية ان الهوام الذي هو نمط لعلاقة غيرية من بين علاقات اخرى لا يمكن مواجهته خارج الشرط العلائقي (Benassy et Diatkine ١٩٦٤) . فالهوام لا يمكن اذن ان يفسر كمعطى خام تنتجه التجربة المعاشة للولد ، ولكن يجب ان يفهم كتشكيل تسوية بين تجربة الدوافع الغريزية وتدامج العلاقات الغيرية والانساق الدفاعية . وهكذا ، كما سوف نرى لاحقاً ، يشكل الهوام احدى الركائز بالذات لتقنية ميلاني كلاين التي ترى في الهوام تعبيراً عقلياً عن الدافع الغريزي . ان تنظيرها ، الذي يبتعد حول بعض النقاط عن النظرية التقليدية ، يفسر ، الى حد كبير ، الخلافات بين اتباع كلاين والمحللين من مدرسة أنّا فرويد .

١٠ ـ الثبات والنكوص .

ان مفهوم المراحل التطورية تؤدي في النظرية التحليلية الى نتيجة دينامية : اذا كان حدث معين او وضعية معينة معاشة قد طبعت بشدة مرحلة تطورية معينة ، الى حد جعلت الانتقال الى المرحلة التالية صعباً او ممنوعاً ، فإننا نواجه ثباتاً عاطفياً . ان هذا الثبات يطال في نفس الوقت اختيار الموضوع الليبيدوي واشكال المكافأة او الدفاعات المستخدمة لابعاد القلق . فخلال التطور العادي لا يجري التخلي تماماً عن اية مرحلة ، ولكن المرحلة تترك دائماً للمرحلة التالية بعض الخصائص التي تمنحها لوناً خاصاً . ان امكانية النكوص ، بالنسبة للفرد ، الى مرحلة سابقة عندما يصطدم بعوائق مهمة جداً ، تتعلق بما يطبع في هذه المرحلة وهو اصلاً من المرحلة السابقة .

فلتوضيح مفهوم الثبات والرواسب العاطفية استخدم فرويد (١٩١٦) مجاز الهجرة : « عندما يترك شعب مهاجر خلال الطريق مفارز كبرى في بعض اماكن هجرته ، فإن العناصر المتقدمة ، اذا هزمت او اصطدمت بعدد قوي ،

تميل الى التراجع على هذه المفارز . لكن العناصر المتقدمة تتعرض لخطر الهزيمة كلما كان عدد المتروكين في المؤخرة كبيراً » .

ان بعض العوامل تشجع الثبات العاطفي وتهيء للنكوص . من بين هذه العوامل تجدر الاشارة الى :

أ) اهمية الارضاءات المفرطة في مرحلة معينة والتي تعطي لهذه المرحلة قيمة خاصة ؛ ويصبح بعد ذلك من الصعب التخلي عن هذا النموذج من المكافأة الليبيدوية ؛

ب) العوائق التي تواجه اثناء حل المأزمات العاطفية في المرحلة التالية ، تحدد ، الى حد كبير ، شدة الاحباط وتشجع العودة الى اشكال من الارضاء اكثر قدماً .

١١ ـ الأنا الاعلى

ان مفهوم الأنا الاعلى الذي استخلصه فرويد (١٩٢٣) اثناء تركيز الثنائية الثانية ، عرض على انه يشكل جانباً من الأنا . فالأنا الاعلى يتوافق مع القوى القمعية التي واجهها الفرد خلال نموه ، وهو يعارض المكافأة غير المشروطة للدوافع الغريزية . لكن الطابع الرئيسي لهذه القوى القمعية ، التي كانت في البداية خارج الفرد ، انها تستبطن فلا تعود تعتبر كفرائض خارجية ولكن يُشعر بها كأنها سبب داخلي . « فالأنا ، قبل ان يرضي الدوافع الغريزية ، يجد نفسه مجبراً على الأخذ بعين الاعتبار ليس فقط الاخطار الخارجية ، ولكن ايضاً متطلبات الأنا الاعلى ، ويصبح له اسباب اكثر للتخلي عن ارضاء معين . ولكن في حين ان التخلي لأسباب خارجية لا يحدث الا الكدر ، ان التخلي لأسباب داخلية ، لاطاعة متطلبات الأنا الاعلى ، له تأثير اقتصادي مختلف . فإلى جانب الكدر الذي لا يمكن تلافيه ، فهو يؤمن ايضاً ربحاً في اللذة ، نوعاً من ارضاء التعويض . فالأنا يشعر بأنه ممجد ويعتبر تخليه عن الدفاع الغريزي كعمل اهل للتقدير » (فرويد ١٩٣٩) .

فالأنا الاعلى المستبطن يعمل كركن مستقل عن الوسط الخارجي ، وبهذا الوضع يكون في موقع خلق مأزمات جديدة داخل النفسية اما بمعارضته

للمكافآت الغريزية المنبثقة من الهو ، واما بتناقضه مع الدفاعات التي يستخدمها الأنا ضد الدوافع الغريزية .

يمكننا ان نرى في الأنا الاعلى خَلَف وممثل الاهل الذين فرضوا على الولد خلال سنواته الأولى نظراتهم الخاصة : فالأنا الاعلى يمكنه ان يستمر بممارسة هذه الرقابة نفسها يفرض الوصاية على الأنا وبممارسة الضغط المستمر عليه . وتجدر الاشارة ايضاً ، كما فعل فرويد (١٩٢٣) ، الى ان المبادىء التربوية للأهل تتوافق مع فرائض الأنا الاعلى الخاص بهم . فالأنا الاعلى للولد لا يتكون باتخاذ صورة اهله كنموذج ولكن صورة الأنا الاعلى للاهل .

لقد قيل بأن الأنا الاعلى هو وريث المأزم الاوديبي ، لأنه حول الاوديب تظهر للمرة الاولى القوى القمعية للشخص الثالث الذي يمثل العائق ، والحكم والمنع الذي يقف بين رغبة الفرد وموضوع رغبته . ان الأب هو الذي يصبح الحامل الطبيعي للمنع الرمزي للرغبة الاوديبية ، والحامل اذن لكل ركن اخلاقي الذي يتخذ اي امر منه المنع الاصلي كنموذج .

ان السلطة او القانون التي يمثلها الأب تصبح مستبطنة في المرحلة الثانية من خلال اوالية التماهي بالأب وتعميم صورة الأهل المثالية . ان تكوين نظام الأنا الاعلى واشكال عمله تحدد شكل حل المأزم الاوديبي . فخلال التطور ، على الأنا الاعلى للفرد ، حسب عبارة فرويد ، ان يصبح موضوعياً بما فيه الكفاية ؛ ولكن في العصاب فإن هذا الأنا الاعلى يحتفظ بقساوة الصورة الأبوية البدائية .

وهكذا يمكننا ان نعتبر الأنا الاعلى كنظام يظهر نشاطه في المأزم مع الأنا في كل اشكال الانفعالات « التي ترتبط بالضمير الاخلاقي ، وخاصة بالذنب » (لاغاش ١٩٥٥)[1] . هذه المأزمات موجودة في الذهان الخوازي ، على شكل نقد ذاتي او اتهام ذاتي ، على شكل دفاعات للذات ومنع اي ارضاء ليبيدوي ،

---

١ ـ الا انه يجب تلافي اقامة قربى وثيقة بين الأنا الاعلى والضمير الاخلاقي . فكما يلاحظ ، ريكروفت Rycroft (١٩٦٨) يختلف الأنا الاعلى عن الضمير الاخلاقي بأنه : (أ) ينتمي الى اطار مرجعي مختلف ، اي ما وراء علم النفس وليس الاخلاق ؛ (ب) ويضم العناصر اللاواعية (ج) وان الاوامر والموانع التي تنبثق عن الأنا الاعلى تتصل بالماضي الطفلي للفرد ويمكن ان يوجد في ازمة مع القيم الاخلاقية التي يبشر بها .

وهي تجعل حياة الفرد لا تطاق بالقلق الذي توقظه . لكن هذا الشعور بالاثم المرضي يمكنه ايضاً ان يشكل جزءاً من بعض بنيات الطباع المدموغة بالمازوشية التي تظهر في عصاب الفشل او القصاص الذاتي ، او توجد بشكل مهيمن او عرضي خلال العصاب الهجاسي او الخوافي .

فالأنا الاعلى المعتبر تقليدياً كمرتبط بتصفية المأزم الاوديبي لا يتكون فقط من اجتياف المشاعر الناشئة من هذا المأزم . بعض الكتاب ، مثل ميلاني كلاين ، يعتبرون ان تكون الأنا الاعلى يأتي بشكل مبكر ليس على صورة مبنينة لضمير اخلاقي وانما كبعد لاواعي ومتهوم لدور الاهل المانع والهدام . ان ميلاني كلاين ترى ظهور الأنا الاعلى المبكر في هوامات الاولاد الصغار : هوامات التقطع والابادة التي تبدو انها تلعب دوراً مهيمناً في انشاء الروابط بين الولد والمواضيع الأهلية[1] .

١٢ ـ ما وراء علم النفس

ان علم النفس التحليلي لا يمكن ان يعطي من الواقع النفسي تفسيراً طولياً . فتنظيم الظواهر جعل من الضروري استخدام اطار مرجعي من اجل بناء مفاهيم مرضية ، سماه فرويد ما وراء علم النفس[2] .

ان العبارة تدعو الى الاشكال خاصة في بنيتها الظاهرة التي تقربها من ما وراء الطبيعة او ما وراء النفس التي ليس لها معها اية قربى . فالامر لا يتعلق « بعالم آخر لعلم النفس » ، بل بما يعتبره فرويد كتجهيز نظري للتحليل النفسي . « فما وراء علم النفس يبنى كمفاهيم نظرية تعمل على نماذج بهدف التفسير السببي وتكوين الفرضيات » (لاغاش ١٩٥٥) . على هذا الاساس تعتبر ما وراء علم النفس نظريات العمل العقلي ونظرية اللاوعي ونظرية

---

١ ـ انظر مقال Paula Heimann (١٩٥٢)

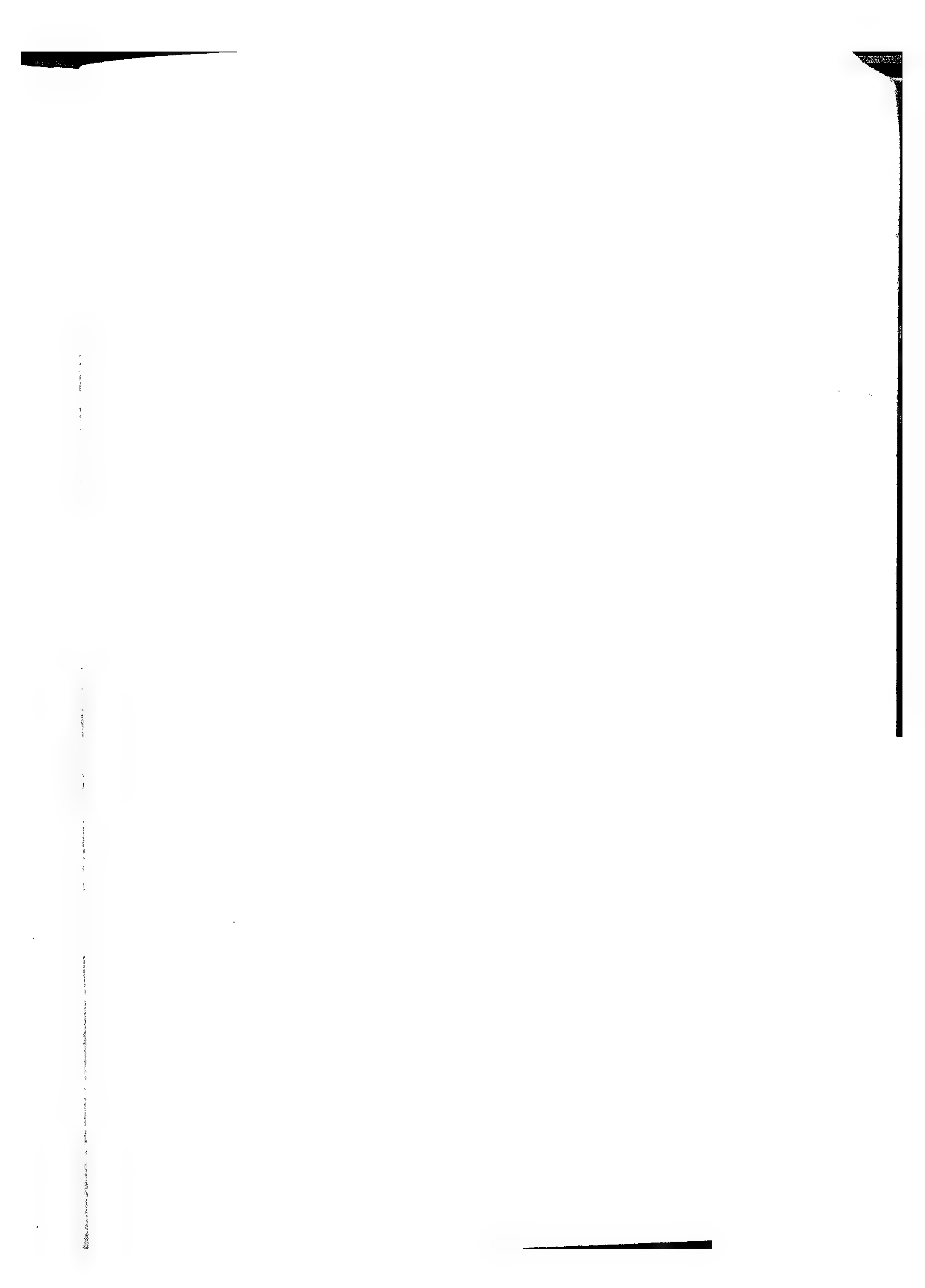
٢ ـ في التاريخ الراهن لعلم النفس يمكن القول ، حسب لاغاش ، ان ما وراء علم النفس الفرويدي يتعارض مع علم النفس الاكاديمي ، غير التحليلي . ولكن ما وراء علم النفس يتعارض ايضاً في اطار التحليل النفسي ذاته مع المجالات المدعوة بشكل عام عيادية ، تقنية وتطبيقية ، باعتبار انه يغطي حقل التحليل النفسي النظري .

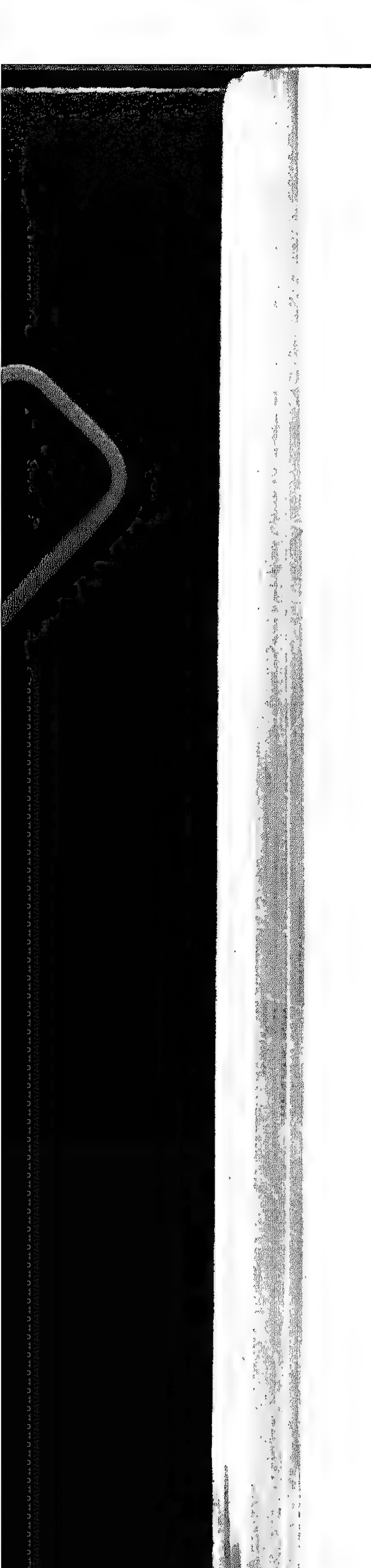
الدوافع الغريزية بقدر ما تتدخل لتفسيرها وجهات النظر الموضعية والدينامية والاقتصادية .

فوجهة النظر الدينامية تعبر عن الاحداث النفسية بعبارات المأزمات : التعارض بين الدوافع الغريزية والدفاعات الاجتماعية للأنا ، اي بمفاهيم التفاعل والتعارض بين القوى المتواجهة . ان جميع دوافع السلوك الانساني هي مأزمية ، واستبدال مبدأ اللذة بمبدأ الواقع يشكل احدى اوجه التكيف الذي تتقلب ديناميته بين الارضاء المباشر للدوافع الغريزية والشعور بالأمان الحياتي ، او اذا فضلنا ، تغليب الهو والأنا .

ووجهة النظر الاقتصادية تواجه الظواهر النفسية بالناحية الكمية للقوى المتواجهة . فالمسائل تطرح بعبارات الطاقة : فتتكلم هكذا عن قوة الدوافع الغريزية او الحاجات ، عن قوة او ضعف الأنا ، عن الشحن الطاقي للصدمات والمأزمات ؛ عن قوة العوامل الخارجية او الدوافع الغريزية ؛ عن طاقة اواليات الدفاع (الكبت) . وتستند ايضاً الى قوة التركيز العاطفي . فعبارة التركيز هي ترجمة للعبارة الالمانية Bezetzung (cathexis بالانكليزية) : وهي كون « طاقة نفسية معينة تصبح مرتبطة بتصور معين وبجزء من الجسد ، وبالموضوع » . (لابلانش وبونتاليس ، ١٩٦٨) . فطابعها انها متغيرة من الناحية الكمية ، ومتحركة ، يمكنها ان تنتقل من تصور او من موضوع الى آخر .

ووجهة النظر الموضعية تتناول المسائل التي تطرحها بنية الجهاز النفسي . اكان ذلك في تعارض الوعي واللاوعي ، او بالنسبة لاركان الشخصية (الأنا ، الهو ، الأنا الاعلى) فإن وجهة النظر الموضعية تعالج الدور الذي تلعبه في المأزم والشكل الذي تتدخل فيه لتكوين الشخصية . فلكل جزء تخصص وظيفة خاصة في علاقة ثنائية معينة مع الاركان الاخرى . اننا نرى مفهوماً مثل الكبت يمكن ان يواجه من هذه الناحية ولكنه يطرح ايضاً مسائل دينامية واقتصادية . ان هذه التوجه المتعدد المراجع هو الذي يطبع ما وراء علم النفس الذي دعاه فرويد « البنية الفوقية النظرية للتحليل النفسي » ، وهو يشكل الوصف الاكمل للوقائع النفسية الذي يمكن الآن ان نواجهه .





الفصل الرابع

الحياة الجنسية الـطفلية :
الدوافـــع الغـــريزية والصـــيرورة الليبيدوية

ان تعريف التحليل النفسي كمحاولة للتعرف على مستقبل الكائن البشري يجبرنا لمواجهته على طريقين .

الاستقصاء الاول يجب ان يعلمنا عن مراكز القوى الـذي يتنظـم النمـو الغرائزي بالنسبة لها ، اي يجب تحديد المراحل الاولى للتركزات الليبيدوية في الحياة الجنسية الطفلية .

والطريقة الثانية تمكننا من متابعة البروز التدريجي للولد الذي يقـوده من الطفيلية الـرحمية الى موقعـه كفـرد مستقـل واجتماعـي ، اي اقامـة العلاقـات الموضوعية . ان هذا الطريق يحوي ثلاثة مفارق : قبل كل شيء ، **انفصـال الولد عن امه** حيث يتخلى الولد شيئاً فشيئاً عن تجربته الاندماجية ويتعرف على نفسه مقابل الغير . ثم المأزم العقدي **لعقدة اوديب** حيث يُدخل الولد في المثلث العائلي وحيث سوف يساهم ، بسبب محاولاته للتماهي ، في عالم مبنين حسب مجموعة من الرموز . واخيراً **ازمـة المراهقـة** ، حيث يصبـح على الفـرد ان يضطلع بخياراته واشيائه في جهوده للتخلي عن التركزات الاوديبية .

اننا سوف نبدأ بوصف المراحل الاولى للبلوغ النفس ـ جنسي : المناطـق

المغلمة والمراحل الليبيدوية . ثم نكتشف الوضعيات التي تجعل الولد يجتاز على درجات متتالية المراحل التي تقوده من الوضعية الثنائية الى علاقة اجتماعية : تكوين العلاقة الغيرية . واخيراً سوف نعالج الفترات حيث يجري اندماجه في عالم مبنين حسب مجموعة من الرموز : الاوديب اولاً ، ثم الوضع المراهق .

١ ـ نظرية الدوافع الغريزية

ان مفهوم الحياة الجنسية الطفلية يجب ان يوضع في اطار مرجعي اوسع ، هو نظرية الدوافع الغريزية[1] .

لفترة طويلة ، كانت المسألة في النظرية التحليلية تدور حول الغرائز . الا ان العبارة الالمانية التي استعملها فرويد Trieb لا تغطيها عبارة الغريزة التي يستعملها الاحيائيون الا جزئياً فكلمة Trieb تعني دافعاً غريزياً لا يقاوم كما هو موجود في المجال الاحيائي حيث نجده في ظواهر الجوع ، كما في الظواهر الجنسية والحفاظ على الذات . فالدافع الغريزي يبقى مرتبطاً بشكل وثيق بالمصادر الجسدية التي تولده ؛ فهو ينبثق من داخل الجسم بالذات (ويختلف بذلك عن الاثارة النفسية التي تحدثها المثيرات الخارجية) . هذا يعني بأن الامر لا يتعلق بقوة مؤقتة ولكن بقوة ثابتة لا يمكن للفرد ان ينفلت منها بالهرب ، فهي تختص بشعور الحاجة التي يجب ان تكافأ بفضل موضوع يفتش عنه الفرد في الوسط الخارجي .

ان مختلف الدوافع الغريزية ليست متعادلة من حيث ثباتها ومن حيث الطابع التي تسم به السلوكات المعدة لمكافأتها . ان مرونة السلوكات تزداد كلما كان الدافع الغريزي المناسب اقل اهمية لبقاء الفرد . وهذا واضح بشكل خاص فيما يتعلق بالدافع الجنسي، حيث تبدو المرونة في التفسير الكبير للسلوكات الهادفة الى ارضائه .

فالدوافع الجنسية ، التي تنضج متأخرة ، تبقى خاضعة لمبدأ اللذة ، بدون ان تتلاءم مع الاشياء الحقيقية . فهي تبقى خلال وقت متغير تحت هيمنة

---

١ ـ Les Pulsions et leur destin, S-Freud (١٩٧٥) .

الهوامات القابلة اكثر من غيرها للحصول على ارضاء هلاسي وقابلة ان تكافأ على اية حال بشكل علمي ذاتي . كل هذه الخصائص تجعلها تقع بسهولة اكبر في الكبت ، على الاقل خلال قسم كبير من نمو الولد . فهي تشكل « نقطة ضعيفة » في التنظيم النفسي ولذلك تشكل عاملاً مهماً تفضيلياً في « اختيار العصاب » .

فالدافع الغريزي ، كمفهوم طاقي ، يمكن ان يعرف ببعض الخصائص : مصدره الذي يتشكل « بالنسق الجسدي الجاري في عضو معين . . . فالأثارة في الحياة النفسية يعبر عنها بالدافع الغريزي » ؛ **وهدفه** ، الذي يحدد مكافأة الدافع الغريزي بازالة حالة التوتر الداخلي التي تولده ؛ **وموضوعه** ، الذي بفضله يتوصل الدافع الغريزي الى مكافأته . « فالدافع الغريزي يبدو لنا كمفهوم فاصل بين النفسي والجسدي ، كممثل نفسي للاثارات المنبثقة من داخل الجسد » .

ولكن من بين كل الدوافع الغريزية فالدافع الجنسي هو الأكثر مرونة : خاصة بسبب كون المواضيع التي يمكن ان ترضيه متغيرة جداً وحتى قابلة للتبادل . هذه التغيرات تجعل الدافع الجنسي يظهر بأشكال تجعله احياناً غير معروف[1] .

---

١ ـ خلافاً للسلوكات الغريزية المسماة احيائية ، التي يعالجها علم الاخلاق ، والتي تؤدي الى سلوكات على شيء من الصلابة والثبات ، والتي تبقى قليلة التكيف والتحسن خلال كل الحياة (وتبقى هي نفسها بشكل عام من جيل لآخر) ، فإن السلوكات الدوافعية التي يتكلم عنها التحليل النفسي تختص بمرونتها وبتكيفها ، وحتى بزوالها في بعض الظروف .

بالفعل ان الطابع الفطري والجامد وغير المتحسن والثابت للسلوكات الحيوانية يجري هدمه في اعمال الاحبائيين الذين يعترفون لهذه السلوكات ببعض التغير وبامكانية التكيف (Environmental Influences D. Gloss, ed. ، ١٩٦٨ ؛ K. Lorenz, L'agression ، ١٩٦٣) . اننا نبتعد ، كما يبدو ، عن مفهوم « الغريزة العمياء » .

ان مفهوم الغريزة في علم النفس الحيواني قد خسر من صلابته منذ ان اشارت مفاهيم تعلم المهمات عند الحيوانات المتقدمة واثر إيحاء الجماعة عند الحيوانات المتخلفة الى دور المحيط الذي لابأس به في انضاج الغريزة . لقد لاحظ مالسون Malson (١٩٦٤) ان الغريزة « لا تستمر بالظهور كأولية بالنسبة للجنس الذي كان يعبِّر كل عن قوته الرائدة بشكل دقيق حتى في حال العزلة المبكرة . بهذا المعنى ان سلوكاً حيوانياً معيناً يدل على شيء معين كما يدل على غيره » . اما عند الانسان فإن الغريزي يخضع باستمرار لضغط الظروف الثقافية .

ان فرويد يعترف للدافع الجنسي بجوهر طاقي : الليبيدو ، وهو مفهوم نوعي وكمي بنفس الوقت : « فالليبيدو هو طاقة هذه الدوافع الجنسية التي تعمل في كل ما يسمى الحب » ، هذا ما قاله فرويد عام ١٩٢١ في Psychologie collective analyse du moi . فالطابع الجنسي كطاقة اعتمد على الدوام من قبل فرويد الذي كان يؤكد ان الليبيدو لا يغطي كل الحقل الغريزي ، لذلك فهو لا يعادل « الطاقة الحياتية » التي اراد بعض الكتاب فيما بعد دمجه معها . فهو كان يميزه ايضاً عن الاثارة الجنسية الجسدية معتبراً هكذا ، بأن الامر يتعلق « بالمظهر الدينامي في الحياة النفسية للدافع الجنسي » . فالليبيدو ، كقوة متغيرة كمياً ومميزةنوعياً عن الطاقات الغريزية الاخرى ، كان يناقض ، في البداية شكلاً آخر من الطاقة النفسية المتعلقة في الأنا والتي تشكل ليبيدو الأنا (او الليبيدو النرجسي) : فهذا الاخير « يبدو لنا اذن بأنه يشكل خزاناً كبيراً تخرج منه التركزات النفسية على الاشياء . . . فالتركز الليبيدوي للأنا يبدو كحالة اصلية متحققة في الطفولة » (فرويد ، ١٩١٤) . الليبيدوي لا يصبح قابلاً للتحليل الا عندما يستطيع ان يستأثر بالمواضيع (ليبيدو غيري) ويركزها نفسياً . وهكذا فإن فرويد ، في بداية ابحاثه ، كان يعترف بالثنائية الغريزية .

عام ١٩٢٠ ، في Au-delà du principe de plaisir ، ادخل فرويد ثنائية جديدة مقيمة في وجه الدافع الغريزي للحياة دافعاً غريزيا للموت . فالدافع الغريزي للحياةاعتبر كقوة « تعمل على الابقاء على تماسك جوهر الحياة » ، وهو يشمل الدوافع الجنسية ودوافع بقاء الذات والليبيدو النرجسي . لذلك فهو يتعارض مع الدافع الغريزي للموت (Todestrieb) الذي يهدف الى ايصال المادة الحية الى وضعها اللاعضوي والذي تشكل المازوشية وحاجة التكرار مظاهرها العيادية الاساسية . ان نظرية الدافع الغريزي للموت تبقى ، الى اليوم ، المفهوم الفرويدي الأكثر عرضة للنقاش .

٢ ـ تعريف الحياة الجنسية الطفلية .

من الجوهري ازالة سوء التفاهم القائم حول الحياة الجنسية الطفلية التي جرى تجاهلها وقتاً طويلاً بسبب الاحكام المسبقة الهادفة الى الحفاظ على اسطورة « براءة الطفل » ، وبسبب عدم معرفة مظاهر هذه الحياة الجنسية ايضاً . ان

فقدان الذاكرة الذي يمحو كل ذكريات الطفولة الاولى تقريباً ومن بينها ، بصورة انتقائية ، المظاهر الجنسية الطفلية ، يخلق نوعاً من ما قبل التاريخ الذي يخفي بداية الحياة الجنسية وادى « الى اهمال الاخذ بعين الاعتبار اهمية الفترة الطفلية في الحياة الجنسية عامة » (فرويد ١٩٠٥) . وتجدر الاشارة منذ الآن ان مفهوم الحياة الجنسية الطفلية يحوي على وقائع لا تذكر ، للوهلة الاولى ، بالحياة الجنسية التكوينية للبالغ ، واننا نحدد هكذا بعض السلوكات الشهوانية التي يتوقف على مستقبلها وحده الحكم اذا ما كانت تنتمي الى الحياة الجنسية .

وببحثه عن نماذج طفلية للامور الجنسية الفاضحة عند البالغ ، اكتشف فرويد علاقة تشابه بين بعض الممارسات الشاذة للبالغ والسلوكات الموجودة عند الطفل خلال النمو الطبيعي .

لقد ابرز فرويد بأن مفهوم الحياة الجنسية يتعدى بكثير المعنى الذي يعطى لهذه العبارة التي تدل بشكل عام على النشاط واللذة التناسلية فهو يتكلم عن لذة العضو (Organlust) التي تثار منذ الطفولة بأية فاعلية جسدية . وقد لاحظ بأن مشاعر اللذة في هذه النشاطات ترتبط بالحاجة الاحيائية وتشحن بالتالي بقيمة ليبيدوية .

أ) فالحياة الجنسية الطفلية تساعدها وظائف فيزيولوجية . منذ الطفولة تشحن الوظائف الحياتية بشحنة ليبيدوية . صحيح ان هذه التراكيب الجنسية في البداية هي غلمية ـ ذاتية ولا تتجه نحو موضوع خارجي . وهكذا يجري وصف مختلف المناطق المغلمة (الجلدية ، المخاطية ، الغمية ، الشرجية ، الخ . .) التي توقظ اثارتها المستمرة لذة ظاهرة ـ واحياناً مثارة ـ عند الولد اثناء بعض النشاطات (المص ، الحبس الشرجي ، الدغدغة ، المداعبة) ، في الحياة الجنسية للبالغ تلعب هذه المناطق المختلفة دوراً مهماً في الغالب في التفتيش عن اللذة ، اما « كألعاب جنسية » قبل او خلال العلاقات الجنسية ، واما على شكل شذوذ يعتبر مرضياً . « نستطيع القول بأنه ، عند اي فرد طبيعي ، لا ينقص عنصر يمكن ان نعده شاذاً ، ويضاف الى الهدف الجنسي الطبيعي . . . فعندما يبعد الشذوذ في كل المناسبات الحياة الطبيعية ويستبدلها ، في هذه الحال حيث

يوجد حصرية وثبات ، نستطيع عن حق اعتبار الشذوذ كعرض مرضي »
(فرويد ١٩٠٥) .

وهكذا فإن فرويد حدد بعبارة الحياة الجنسية الطفلية « كل ما يتعلق بنشاطات الطفولة الاولى الهادفة الى المتعة المحلية التي يمكن لهذا العضو او ذاك ان يحصل عليها » ، والتي يجب ان نضيف اليها الدوافع الغريزية الجزئية . ان مفهوم الحياة الجنسية في التحليل النفسي لا يقتصر لا على وظائف الانجاب ، ولا على النشاط التناسلي بحد ذاته ، ولكنها تشمل مجموعة من السلوكات المرتبطة ، بمصيرها اللاحق ، باللذة التناسلية وبالرغبة .

وهكذا فإن اللذة التي يشعر بها الطفل على مستوى المناطق المغلمة يمثل ما سوف يصبح فيما بعد جزءاً ملازماً لأي سلوك جنسي ، ويفسح المجال امام الهوامات ـ الواعية او اللاواعية .

ب) لقد اشار فرويد الى انه يوجد عند الولد حالة شاذة متعددة الاشكال ، اي ان رغبات الولد الجنسية لا تسير بشكل صارم بنفس الاتجاه . ان الدوافع الجنسية ، الآتية من مناطق مغلمة مختلفة (وتلائم مراحل مختلفة من النمو الليبيدوي) تتعايش طول فترة حياة الولد . وهكذا فإن عناصر فميّة او شرجيه تلعب دوراً مهماً فيما يتعدى المرحلة الغمية او الشرجية . ان الدوافع ما قبل التناسلية تستمر في حياة الراشد .

ج) وتجدر الملاحظة ايضاً ، بأنه رغم سيطرة المناطق المغلمة واللذة الغلمية الذاتية ، فإن الحياة الجنسية الطفلية « تحوي على تراكيب تدفعها للبحث ، منذ البداية ، على اشخاص آخرين كموضوع جنسي » . وهكذا فالميول الى الهتاك والنظار والعدوان والتوحش ، تظهر كدوافع مستقلة عن اية منطقة مغلمة : لقد دعاها فرويد دوافع جزئية . هذه الميول يمكن ان تندمج في الحياة الجنسية للراشد ، ولكن يمكن ملاحظتها بسهولة عند اي طفل .

٣ ـ المراحل الليبيدوية

خلال نمو الولد جرى تمييز مختلف مراحل التجربة الدوافعية خاصة وان

حدة وموضوع وهدف الدافع الجنسي تتطور كلما تطور البلوغ .

انها احدى المحاولات الاولى لتنظيم المعرفة التحليلية ، اي استخلاص مفهوم المرحلة الليبيدوية التي عرفت بأنها « مرحلة نمو مختصة بتنظيم الليبيدو تحت اولوية منطقة مغلمة وبسيطرة نمط من العلاقة الغيرية » (لابلانش وبونتاليس ١٩٦٨) . ان تتابع هذه المراحل المختلفة قد نظمه فرويد في Trois essais sur la sexualité : لقد قابل في البدء الحياة الجنسية للراشد التي تسيطر عليها الاولوية التناسلية ، بالحياة الجنسية الطفلية التي هي بشكل اساسي شاذة ـ متعددة الاشكال ؛ فيما بعد ميز فرويد المراحل ما قبل التناسلية (فمية ، شرجية ، قضيبية) التي تدل على هيمنة مختلف المناطق المغلمة . ولنلاحظ ان مفهوم المرحلة ، كما يبدو في النظرية التحليلية ، لا يتضمن تحسيناً تدريجياً للاجهزة والوظائف ، ولكنه يرتكز على تتابع المناطق التي يركز عليها الليبيدو بالتناوب ، واشكال العلاقات القائمة على هذا الاساس والتي تتراوح بين الغلمة ـ الذاتية الاولية والغلمة ـ الغيرية ، بين الحياة الجنسية السابقة للتناسلية والحياة الجنسية التناسلية[1] . ولنشر ايضاً ان مختلف تراكيب الحياة الجنسية لا تتطور بالمقابل وبلوغها ليس متزامناً . فهذا القطاع قد يسبق بنموه القطاع الآخر ، وعندما يشارف تطوره على النهاية فإن مرحلة اخرى تبدأ تطورها .

ان تنسيق المراحل الليبيدوية قام به عدد من الكتاب شيئاً فشيئاً : لقد صاغ

---

١ ـ هناك آفاق اخرى للابحاث في مجال علم النفس جعلت بعض الكتاب يقترحون تنسيقات مختلفة . وهكذا فإن ارنولد جيزيل Arnold Gesell يواجه تطور الولد انطلاقاً من بعض الصميات الحركية ومن تنظيمها في مختلف الاطارات الحركية ، الكلامية ، التوافقية ، الخ . . . واعمال هنري فالون Henri Wallon تصنف المراحل التطورية المتميزة اكثر فأكثر : المرحلة النزوية ، الانفعالية ، الحسية ـ الحركية ، الاسقاطية حتى الوصول الى مرحلة الشخصانية ، ان آراء فالون التي تستند الى المادية الجدلية تعطي اهمية اساسية لارتباطات النمو الفردي مع الوسط . وجان بياجيه Jean Piaget في دراساته عن نظرية المعرفة التكوينية يهتم قبل كل شيء بتحديد التطور بعبارات الانساق الذكائية ، فكل مرحلة تتوافق مع مستوى من التكامل المهنين والمتوازن .

لقد جرت محاولات لربط هذه التنسيقات المختلفة وانشاء المقابلة بينها : يمكن الرجوع الى اعمال ندوة جنيف (١٩٥٦) ، والى كتاب Bergeron (١٩٦١) ، والى اعمال Tran- Thong (١٩٧٠) التي تحاول اقامة ارتباط بين وجهات النظر المختلفة .

فرويد اسسه في Trois essais sur la théorie de la sexualité [1] ؛ وابراهام Abraham قادته ابحاثه الى l'esquisse du developpement de la libido [2] ؛ وميلاني كلاين اخيراً ، التي حاولت تحديد المقولات الهوامية[3] .

١ ـ المرحلة الفمية .

ان الولادة تضع حداً للوضعية الطفيلية الامية التي كان يعيش فيها الطفل . والانفصال الاحيائي عن المصدر الحياتي الذي كان يتعلق به من الناحية الغذائية يقيم علاقة جديدة بين الام والولد . فالعلاقة الاتحادية الوثيقة التي تربط الطفل بنهد امه تنظم المرحلة الاولى من الحياة العاطفية حول الوظيفة الغذائية .

فالتغذية بالفعل يجب ان تغطي منذ نشوئها وظيفة مزدوجة . فالوظيفة الغذائية تجيب فعلاً على حاجة فيزيولوجية طاقية ؛ لكن ارتياح حالة التوتر التي خلقتها هذه الحاجة يجب ان يُحس كإرضاء . فهذه الوظيفة ، **الارضاء الليبيدوي** ، يجب ان تميز عن الوظيفة الغذائية الصرفة ، لقد اعتبر فرويد (١٩٠٥) ان لهذا الارضاء قيمة جنسية : « ان لذة الرضاعة تسترعي كل انتباه الطفل ، ثم تجعله ينام ، ويمكن ان تؤدي ايضاً الى ردود فعل حركية ، الى نوع من الرهز . . . فعندما نرى الطفل المشبع يترك النهد ويتراخى بين ذراعي امه بوجنتيه الحمراوين وينام بابتسامة سعيدة ، لا يمكن التواني عن القول ان هذه

---

١ ـ فرويد Les trois essais sur la théorie de la sexualité ، الذي كتب نصه الاول عام ١٩٠٥ ، وعدله المؤلف عدة مرات حتى عام ١٩١٥ ، اننا نجد اذن في النص النهائي صياغات نظرية تنتمي لفترات مختلفة من تكوين المفاهيم . فالترجمة الفرنسية ، التي ظهرت عند Gallimard ١٩٦٢ ، تستعيد ترجمة السيدة Reverchon- Jouve ولكن راجعها لابلانش وبونتاليس اللذين اشارا الى التعديلات المتتالية لهذا الاثر الاساسي .

٢ ـ K. Abraham- Esquisse d'une histoire du developpement de la libido (١٩٢٤) ، ظهر في Œuvres complètes

٣ ـ Klein, Melanie, La psychanalyse des enfants، PUF ، وهو ترجمة الكتاب الذي صدر عام ١٩٣٢ ، ان هذا الكتاب يحوي الطروحات الرئيسية للمؤلفة ولكنه يجب ان يكتمل ببعض مقالات ميلاني كلاين ومساعداتها . يمكن مراجعة اعمال Paula Heimann في Developpements de la psychanalyse Isaacs Susan .

الصورة تبقى نموذج الارضاء الجنسي الذي سيعرفه فيما بعد . ولكن بعد ذلك ستنفصل هذه الحاجة لتكرار الارضاء الجنسي عن الحاجة للغذاء » .

ان هذا الاتحاد الوثيق بين الام والولد خلال السنة الاولى يتوافق مع بعض الخصائص التي تحدد المرحلة الفمية . في هذه المرحلة تتكون المنطقة المغلمة والحساسة المستخدمة للبحث عن اللذة من الشفاه واللسان والتجويف الفمي بمجمله . فالمص يترافق بحركات مختلفة لليد التي تحاول لمس او التقاط النهد : بهذا المعنى استطاع سبيتز (١٩٥٥) ان يتكلم عن وحدة ادراكية تتكون من تجويف اليد والتجويف الفمي المرتبطين في ادراك غير مميز ، ومركز كلياً على المكافأة الفمية ، وهو ما يدعوه التجويف البدائي ، فهذه المرحلة من النمو الليبيدوي تتوافق مع نمط من علاقة الولد بالشيء ، علاقة غيرية تشير الى استناد الولد الى الصور الليبيدوية الاولى (فرويد ١٩٠٥) .
فالشفاه والتجويف الفمي تشكل المنطقة المغلمة الاولى التي تحدث اثارتها ، في ظروف خاصة من التواتر ، احساساً باللذة ، او على الاقل مثيراً قد يقارن باللذة طالما انه يتوافق مع الارضاء الضمني للحاجة .

ان احدى المظاهر الاكثر وضوحاً للتركيب الليبيدوي الصرف في المرحلة الفمية يبدو في مص ابهام الولد ، خارج الرضعات . فالارضاء ينحرف من نشاط مرتبط في الاصل بأخذ الغذاء ، ولكن ينفصل عنه بسرعة ليصبح البحث عن لذة مستقلة عن الوظيفة الغذائية .

فالمرحلة الفمية قسمت الى مرحلتين ثانويتين عالجهما ابراهام (١٩٢٤) .

أ) الحقبة الاولى ، المسماة السابقة للتعارض الوجداني ، تتعلق كلياً بالمص . فهي تتلاءم مع الدمج التهومي للشيء ولكن هذا الدمج لا يهدف الى تقويضه . فالطفل ليس قادراً بعد على تمييز الشيء الخارجي عن جسمه الخاص ، ولا يوجد اذن تمييز بين الطفل الرضيع والنهد الذي يغذي . فالطفل لا يعبر لا عن حب ولا عن حقد ، والنفسية حرة من اي تمزق عاطفي . فهذه المرحلة تتوافق مع المرحلة اللاغيرية عند سبيتز .

ب) الحقبة الثانية تبدأ عند ظهور الاسنان الاولى ، حوالي الشهر

السادس . فالمص يكتمل شيئاً فشيئاً بالعض ، فالاسنان هي الاداة الاولى التي يملكها الطفل لمجابهة العالم الخارجي بحيوية . في هذه الحقبة لا يتوقف استعمال الفم على المص وحده بل يتعداه الى العضعضة ، وحتى الى العض . وتسيطر في هذه الحقبة ما يسميها فرويد « الدوافع الآدمية » . وتتوافق هذه الحقبة السادية ـ الفمية مع ظهور المشاعر المتناقضة والمتعارضة ، تجاه الموضوع الذي يصبح بنفس الوقت موضوع الارضاء الليبيدوي وموضوع العدوانية .

ولنشر ان الذي يحافظ على وحدة المرحلة الفمية هو اولوية المنطقة المغلمة ؛ فالانقسام الى مرحلتين يدل على تطور العلاقة الغيرية . فهذا التطور يطبع الانتقال من موقف سابق للتعارض ـ حيث لا يدرك الطفل الشيء الخارجي حقيقة ـ الى ظهور اول مأزم تجاه موضوع خارجي ، في هذا المأزم يتخذ التركيب العدواني مكاناً مسيطراً .

هذه المرحلة السادية ـ الفمية تتوافق مع هوامات الاندماج وتمزيق جسد الام[1] . فالموضوع المدمج يقوض ، يشوه ، يهاجم ، يستوعب ويقذف خلال الهوامات التي يعيشها الطفل . فهذه الهوامات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحاجة الغذائية وبالدافع الليبيدوي المرافق لها .

وفي انتهاء المرحلة الفمية يظهر مأزم خاص هو مأزم الفطام . هذا المأزم يمكن الطفل من تثبيت علاقة التغذية ويبدأ هكذا بالشكل الاولي لصورة الام (لاكان ١٩٣٨) التي ترتكز عليها المشاعر الأكثر بدائية التي تربط الفرد بعائلته ومن ثم بالمحيط الاجتماعي بالمعنى الاوسع .

ان ازمة الفطام ترتبط بايقاف الحليب الذي يبدو للوهلة الاولى يرتكز على معطى احيائي ، وبالتالي غريزي ، للنوع . في الواقع ان الفطام لا ينفصل عن الامومة التي يشير لاكان (١٩٣٨) الى بعدها الثقافي[2] :

---

١ ـ انظر حول هذا الموضوع الهوامات التي ينتجها الاولاد خلال التحليل في كتاب ميلاني كلاين ، La psychanalyse des enfants (١٩٣٢) .

٢ ـ بهذا الشأن يمكن مراجعة ، ليس فقط الابحاث الاناسية ، ولكن ايضاً الدراسات التي تهدف الى تمييز كل ما يتعلق بالعوامل الثقافية في النمط الغذائي للولد وفي الفطام .

« في الواقع ، ان الفطام بما يحوي من امكانيات عملياتية هو في الغالب صدمة نفسية » . ولكن ان يكون صدمة ام لا « يترك الفطام في النفسية الانسانية الاثر الدائم للعلاقة الاحيائية التي يوقفها . فهذه الازمة الحياتية ترافقها فعلاً ازمة نفسية ، وهي الاولى ولا شك حلها ذو بنية جدلية » .

ان رفض الفطام يميل الى الحفاظ على صورة العلاقة الغذائية ، هذه الصورة التي لا يمكن فهمها الا بالارتباط بمحتويات السن الاولى النفسية (الشعورية) ، السابقة اذن للتصور الواعي للموضوع . من بين هذه المحتويات ، يميز لاكان تلك التي تكيّف ، بالنسبة له ، صورة الام .

هذه الصورة تتكون من شكل ادراكي خارجي ، هو الوجه الانساني ، وقد تمكنت المدرسة الشكلية التي اكتشفته فيما بعد ، من ملاحظة الاختيار المبكر لردود فعل الطفل امام الوجود الانساني شرط ان يعرض عليه في ظروف معينة ، والتي اوضح سبيتز (١٩٤٦) من خلال رد فعل الابتسامة ، في اقامة العلاقات مع الموضوع الامي .

ان الارضاء الذاتي بالمص والاخذ الفمي ، بارتباطه بهذا الشكل البصري ، يدل على الاندماج الفمي الذي يمكن ان يكون مغلماً - ذاتياً (لأن الأنا لم يتشكل بعد) ولا نرجسياً (لأنه لا وجود بعد لصورة الأنا) ولا حتى غلمياً فمياً لأنه ، كما يقول لاكان (١٩٣٨) ، « فالحنين الى النهد لا يأتي من عقدة الفطام الا من خلال تغييرها بواسطة عقدة اوديب » . في هذا الدمج الفمي ، يرى لاكان « آدمية صاهرة » يدل عليها افراط هوامات التقطيع والادماج في الذات والاستئثار والرفض التي وجدتها ميلاني كلاين في تحليلها للاولاد ، والتي تبقى حية فيما بعد في الالعاب والتعبيرات الكلامية الرمزية .

ان العلاقة الاولية التي يضع الفطام حداً لها تدور حول الاحساس في هذه السن الاولى . ان صورة نهد الام تسيطر على كل حياة الفرد وقد يجري اشباعها بالنسبة للمرأة في مرحلة الامومة : خلال فترة الرضاعة تتلقى الام وترضي اكثر رغباتها بدائية ان الشكل الذي تحل به « عقدة الفطام » عند الام يؤثر على اقامة اولى العلاقات الغيرية للولد . ان تأثيرات هذه العقدة نجدها في اشكال

الامومة ، وهذا ما برهنته كل من هيلين دويتش Hélène Deutsch (١٩٤٦) وسيلفيا برودي Sylvia Brody (١٩٥٦) ورينيه سبيتـز (١٩٦٥) وفينيكوت (١٩٦٥) .

ان تأثير التجارب الفمية على تكون الطبع جرت ملاحظته من قبل كارل ابراهام (١٩٢٤) الذي اشار الى ان اللذة الفمية لا تختفي ابداً تماماً ؛ فالمكافآت الليبيدوية المرتبطة بالاطار الفمي مثل المص والعض والقبلة ، تبقى بأشكال مختلفة في سلوك الراشد ، فالنمط الغذائي الذي اخضع له الولد وتجربة الفطام تؤثر ، من خلال المكافأة او الاحباط ، على تكون طبع الفرد . لقد استطاع ابراهام ان يكتشف طبعاً فمياً تختلف اشكاله من سمات الشخصية المطبوعة بالتفاؤل والثقة والدماثة ، الى مظاهر التبعية والعدوان وقلة الصبر والاهتياج ، وذلك حسب التجربة العاطفية المعاشة في الممارسات الفمية الاولى .

٢ ـ المرحلة الشرجية

ان المرحلية الشرجية لا تبدأ الا عندما تبدأ السيطرة على العضلات الصارة ؛ اي عندما تصبح عملية البراز، وبالتالي لذة الخروج او الاحتفاظ بالبراز ، خاضعة لتحكم الولد على هواه . ان السيطرة على العضلات الصارة التي تخضع لبلوغ الاعصاب والعضلات ، تظهر عند الطفل في اواخر السنة الاولى ، في نفس الوقت الذي تبدأ فيه الخطوات الاولى ، اي عندما يصبح للسيطرة على العضلات الصارة ولاكتساب المشي معنى مشابهاً يعبر عن بداية الاستقلال .

ان الغشاء المخاطي الشرجي يمثل في هذه المرحلة المنطقة المغلمة ، مكان كل احاسيس الغلمة الشرجية ، التي تثار اول الأمر بمرور البراز . ان التبرُّز يثير المنطقة المغلمة الشرجية و« يستخدم الولد هذه الاثارة المغلمة بحبس البراز حتى يحدث تراكمها تقلصات عضلية قوية ، وعند خروجها من الشرج تحدث اثارة قوية للغشاء المخاطي . يمكننا الافتراض ان شعوراً باللذة يضاف الى هذا الاحساس المؤلم » (فرويد ١٩٠٥) .

ان السيطرة التي يمارسها الولد على جسده وعلى العالم الخارجي بنفس

الوقت ، يرافقها ارضاء على صعيد الحياة الجنسية الطفلية : « فالطفل الجالس على المبولة ، يرفض ان يفرغ امعاءه وبدون ان يطيع اوامر امه يدعي بأنه سيقوم بهذا العمل عندما يحلو له . . . فما يهمه هو ان لا يدع لذة التبرّز تفوته » (فرويد ١٩٠٥) .

ولكن هذا المحتوى الامعائي ، الذي يلعب دور المثير ، له دلائل اخرى مهمة . فالولد « يعتبره بالطبع كجزء من جسده الخاص ؛ بالنسبة له ؛ فهو يشكل هدية يستخدمها ، اذا اعطاها ، للدلالة على طاعته ، وحتى على حبه ، واذا رفضها ، تعبر عن عناده وحتى عن عدائه » . فهذه السلعة تصبح موضوعاً للتبادل وللتعبير الرمزي .

لقد دعيت هذه المرحلة السادية ـ الشرجية للدلالة على تركيبها العلائقي : فإلى لذة السيطرة تضاف رغبة الأخضاع ، وممارسة السلطة ، ليس على الجسد ، وانما على المحيط ايضاً . وقد اشار فرويد الى ان المرحلة السادية ـ الشرجية تدخل عند الطفل التمييز بين الفاعل والمنفعل ، ويرافق هذه المرحلة حياة هوامية غنية جداً .

في المرحلة الشرجية ترتبط الغلمة بسلوكات سادية تعبر ، على شكل مشاعر عدائية ، عن الرغبة في تقويض الموضوع . لقد برهن ابراهام (١٩٢١) ان التركيبين الغلمي ـ الشرجي والسادي ـ الشرجي ترتبطان بوظائف مختلفة . اذا كان التبرّز يمكن ان ترافقه احاسيس باللذة من جراء اثارة الغشاء المخاطي الشرجي ، فإن الحبس الارادي للبراز قد يحدث لذة ايضاً للطفل .

في هذه المرحلة يتكون علاقة الطفل بالموضوع بمفاهيم التملك : فكل موضوع لرغبته هو شيء يمارس عليه حقوقه وكل موضوع قد يتحول الى ملكيته الاكثر بدائية ، اي برازه . فالرابط الذي ينظم علاقته بالموضوع يحمل علامة التناقض : انه ، من جهة ، يمكن ان يحاول الاحتفاظ بهذا الموضوع لنفسه ، ان يمتلكه او ان يحبسه ، باللغة الشرجية ؛ ومن جهة اخرى يمكنه ان يرفض هذا الموضوع بنبذه وابعاده .

اننا نجد في التركيب السادي لليبيدو الطفلي ميلين متناقضين ، كلاهما يؤمن

المكافآت : الميل الاول هو تقويض الموضوع الخارجي ؛ والثاني الاحتفاظ به والسيطرة عليه .

وهكذا تختلط التراكيب الشرجية ، الغلمية والسادية ، في الحقبتين : الاولى حيث يحبس الفرد الموضوع ويسيطر عليه ، والثانية حيث يبعده ويقوضه .

ان اهمية « الشرجية » كبنية طباعية عند الراشد وجدها فرويد من خلال تحليل الامراض العصابية الهجاسية[1] . فالمرحلة الشرجية قد تترك آثاراً طالما انها تنظم انماطاً معينة من علاقة الطفل بأمه ، قد نجد هذه الآثار فيما بعد في علاقاته مع الوسط . لقد عالج فرويد بعض سمات الطبع التي تظهر عند الاشخاص الذين لعبت عندهم المرحلة الشرجية دوراً خاصاً ، وهي البخل ، النظام ، العناد ، التصلب في الرأي ، الشعور بالاستعلاء الاخلاقي . فالتقتير هو استمرار لعادات الحبس الشرجي ؛ والنظام هو استداد لطاعة متطلبات الاهل ؛ والتصلب في الرأي يشكل انتفاضاً ضد الممنوعات ؛ والعناد هو تسوية بين العدوانية والسلبية (قدرة العجز) . والاستعلاء الاخلاقي يظهر اما لأن الفرد يشعر بأنه يعامل بطريقة غير عادلة ، واما بجعل الآخر مذنباً بمعاملته له لكي يحاول اثارة عطفه (فرويد ١٩٠٨) .

٣ ـ المرحلة القضيبية

عندما يتخلى الولد عن التركيز الليبيدوي على المنطقة الشرجية ، يأتي مجال مغلم جديد لينوب عنها . فالتخلي عن المأزمات العاطفية المركزة على الشرجية ، او حلها ـ وهو يأتي في التطور العادي حوالي نهاية السن الثانية ـ يستبدل باهتمامات جديدة تؤكد اهتمام الولد بالمنطقة التناسلية وبكل الوظائف المتعلقة بها . فالملاحظة العادية ، دون افكار مسبقة ، تمكن من ايجاد هذه المظاهر عند كل ولد منذ هذا العمر .

---

١ ـ Caractère et ésotisme anal, S. Frend (١٩٠٨) انظر ايضاً L'homme aux rats (١٩٠٩) ؛ compléments à la théorie du caractère anal, K. Abraham (١٩٢١) .

فالاستمناء الطفلي يدل ان الجهاز التناسلي بلغ مركز المنطقة المغلمة . ان اهتمام الولد بالاعضاء التناسلية الخارجية يتبع المص والعض اللذين يطبعا الغلمة الفمية ، والوظائف العضلية للسيطرة على الحبس والابعاد التي تتوافق مع التركيز الشرجي .

« وباعتبار الوضع الشراحي لهذه المنطقة ، وسيلان الافرازات ، والعناية بالجسد ، وبعض الاثارات التي تأتي صدفة ، فإنه لا مناص من كون الاحساس باللذة الذي تعطيه هذه المنطقة من الجسد موجودة عند الطفل الصغير وهي تثير الرغبة في التكرار » (فرويد ١٩٠٥) .

هذا الاستمناء يمثل ما يدعوه فرويد المرحلة الثانية للاستمناء الطفلي . فهو « يترك آثاراً عميقة لا واعية في الذاكرة ويبدو انه احد الاسباب الرئيسية لفقدان الذاكرة الطفلية التي ترتبط بفاعلية هذا السن وبهواماته الجنسية » (فرويد ١٩٠٥) .

يجب تمييز هذا الاستمناء عن النشاط الاستمنائي الاولي الذي نجده عند الرضيع ويظهر بانعاظات وقد يجري باستعمال اليد . وزوال الانعاظ في العضو الجنسي ويحدث ما يشبه الرهز ، وهو امر تعرفه الامهات جيداً . هذا المظهر الجنسي يختفي بسرعة . فعودته الى الظهور حوالي سن الرابعة توافق الاستمناء الذي يرافق المرحلة القضيبية ويستمر حتى مرحلة ما قبل البلوغ . عندها يزول ولا يعود يظهر الا عند المراهقة عند بلوغ الغدة التناسلية .

فالمرحلة القضيبية تنتظم حول هذا النشاط للمنطقة المغلمة التناسلية . ان الحياة الجنسية للولد ، العابه ونوادره ، اهتماماته وعلاقاته الغيرية سوف تتمحور باستيقاظ الاحساس الجنسي التناسلي .

الفضولية الجنسية للولد . ـ تستيقظ خلال هذه المرحلة فضوليات تتعلق بالحياة الجنسية : اختلاف الجنسين ، الانسال ، الولادة والعلاقات الجنسية للاهل . « هذه الفضولية لا تنشأ فجأة نتيجة الحاجة السببية . فكل اكتشاف يتعلق بالقوى الدوافعية الغريزية » (فرويد ١٩٠٨) . بالاضافة الى ان حياة الولد لا يمكن اعتبارها ببساطة كمظهر خارجي لدافع غريزي احبائي ـ لأن

التركيـب العلائقي يرتبط به ارتباطاً وثيقاً في كل المراحل ـ فالدافع الغريزي لا يصبح عنصراً جدلياً الا عندما يتخذ معناه في المأزم الذي يضع الولد في مواجهة ممثلي العالم الخارجي .

ولفهم علاقات الولد بموضوعه يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ان بين الولد وامه يوجد دائماً فريق ثالث ، وسيط في علاقـة الام بالولـد : فإذا وجدنـا في المرحلة الفمية ، حسب عبارة تيس B. This « المحور المتدفق بالحليب بين الفم الجشع ونهد الام » ؛ واذا كان البراز المحبوس او المبعد يشكل محور العلاقة في المرحلة الشرجية ؛ ففي المرحلة الثالثة ، التي نسميها قضيبية او تناسلية ، تنتظم الجدلية اللاواعية للولد بالنسبة للقضيب . فالبحث عن القضيب هو الذي يوجه مظاهر هذه الفضولية الجنسية التي تحاول اكتشافه حيث هو بالضبط وتفسـير وظيفته .

مـن الضروري التمييز بـين تعبـيرين ، Phallus, Pénis (القضيب) ، اللذين يبدوان مرادفان . فعندما يتكلم المحللـون عن Pénis يقصـدون عادة العضو الجنسي في حقيقته الجسدية ، او ايضاً تصوره في الهوامات . بعكس ذلك يستخدم Phallus خاصة في المرجع الرمزي ؛ فهو يعني بالنسبة للاكان ، **الدال** الذي يوضح كل ما يتعلق باقامة وتأسيس القانون : فالقضيب Phallus يدخل في علاقة الولد بأمه عنصراً وسيطاً تنتظم حوله جدلية الفرد ورغبته « فالقضيب Phallus في النظرية الفرويدية ليس هواماً ، اذا كان يراد بذلك فعل خيالي . وهو ليس موضوعاً بحد ذاته (جزئي ، داخلي ، صالح او سيء ، الخ) طالما ان هذا التعبير يعمل على تقييم الحقيقة المعينة في علاقة معينة . وهو بالطبع ليس العضـو ، القضيب Pénis او البظـر ، الـذي يرمـز اليهما . . . لأن القضيب Phallus هو دال يعين تأثيرات المدلول بمجملها ، باعتبـار ان الـدال يحددهـا بوجوده كدال » (لاكان **١٩٥٨**) . بهذا المعنـى يلاحـظ لا بلانش وبونتـاليس (**١٩٦٨**) بأنه لا يمكن ان ننسب للقضيب Phallus معنى رمزياً محدداً ، كما لا يمكننا تحويله الى رمز القضيب ـ العضو Pénis : فالقضيب Phallus يعتبر ذو معنى ، هو الذي يرمز اليه في التصورات المتنوعة . ولكن هذا التمييز في الفكر التحليلي يدعو الى الالتباس الخصب : فعندما يُحكى مثلاً عن الرغبة بالقضيب

Pénis ليس بالامكان غالباً التمييز بوضوح ما تعنيه هذه الرغبة : التمتع بالقضيب الحقيقي للرجل في عملية النكاح ؛ ام امتلاكه بذاته ؛ ام امتلاك القضيب Phallus كدليل على القوة او الرجولة .

النظريات الجنسية الطفلية . ـ اصل الاولاد ، التناسل والحمل هي الألغاز الاولى التي تطرح في هذا السن . فالتفسيرات التي يعطيها الأهل عادة يقبلها الولد بتحفظ ، وحتى بتشكيك كلي : فهي تشكل غالباً الاعتراف بالضيق الذي يشعر به البالغون ويؤكدون بذلك بأن هذا المجال يشكل ممنوعاً . فالولد يلاحظ ، في سن ابكر مما نعتقد ، تغيرات الشكل التي ترافق الحمل ويظن بوجود علاقات غريبة بين الاهل يبقى هو خارجاً عنها . فهو يكتسب بذلك « معرفة لاواعية » ، نتيجة حدس معين يأتيه تارة « بالاشارات الخفية والمبهمة التي تفضح علاقات الاهل امام حساسيته وتارة بالصدف غير المتوقعة التي تكشفها له (لاكان ١٩٣٨)[1] .

وبما ان الولد لا يتلقى الاجوبة المرضية ، يقوم بتفسير الوقائع على هواه ، ويبني نظرياته الجنسية الخاصة بالعلاقة مع تجربته الليبيدوية المعاشة .

أ) اختلاف الجنسين واولوية القضيب . ـ لقد لاحظ فرويد (١٩٢٣) في هذه المرحلة حيث تخضع الدوافع الغريزية الجزئية للتركيز على المناطق التناسلية ، بأن العضو التناسلي الذكري هو وحده الذي يسترعي الاهتمام وذلك بالنسبة للصبي والبنت في نفس الوقت : فالامر يتعلق بشكل خاص بأولوية القضيب . بالنسبة للصبي اليافع الذي يميز جيداً بين الرجال والنساء ، ليس من سبب يدفعه للاستنتاج بأن هناك فرق في عضويهما التناسليين . فالشك ينشأ شيئاً فشيئاً ؛ وحتى لو واجهته تجربته مع الواقع ، فإن هذا الاخير يقع دائماً

---

١ ـ ومن الملائم ايضاً اعتبار العنصر الذي يدفع الى الفضولية الجنسية للولد من طبيعة مختلفة . يبدو عند البنت ان ملاحظة الفرق بين الجنسين هو امر حاسم . اما بالنسبة « للحادثة البدائية » من الصعب التأكيد ان الولد يمكنه ملاحظتها حقيقة بالثبات المطلوب . ان فرويد (١٩٢٥) يتكلم ايضاً عن هوام اصلي (Urphantasie) وهو مفهوم استعاده لابلانش وبورتاليس (١٩٦٤) .

تحت الجهل الاولي . في الفترة الاولى يعمد الولد الى انكار الحقيقة ، ثم الى الاطمئنان بفضل التمني بالتصحيح السحري الذي سيمكن البنات فيما بعد من الحصول على القضيب . ولكن حتى عندما يدرك الولد ويقبل الفرق بين الجنسين ، اي بشكل اساسي غياب القضيب عند البنت ، فهو يعيد هذا النقص ليس الى التكوين الاساسي ، ولكن الى البتر الذي تعرض له : فهوام الخصي (تقويض القضيب ، اضاعته او قطعه) هو تاريخ مجازاة خيالية يفرضها الاهل . فالولد يعيش هذا الهوام مسقطاً دوافعه الجنسية السادية الخاصة على الاهل ، فهو يحملهم بذلك مسؤولية ابادة القضيب .

الا ان الولد يرفض تعميم فقدان القضيب على جميع النساء : فالنساء اللواتي تلقين هذا المصير هن المذنبات نتيجة دوافع غريزية غير مقبولة . فالولد يبقى فترة طويلة على اعتقاده بأم ذات قضيب ، وهي لكونها مثالية لم يلحقها الخصي . وهي هكذا تحفظ بالنسبة للولد ، القضيب الوهمي رمز قوة الراشد ووقفاً عليه وحده .

ولا تتعادل الانوثة مع فقدان القضيب الا فيما بعد ، وذلك دون ان يستطيع الولد اكتشاف وجود عضو تناسلي انثوي . ان تمييز الجنسين لا يفهم الا من زاوية الاولوية القضيبية البدائية ، اي التعاقب بين امتلاك القضيب او الخصي .

ب) نظريات الاخصاب . ـ ان جهل المني ، كجهل المهبل ، يقود الولد الى تكوين هوامات عن الاخصاب تستعير عناصرها من المرحلة الفمية او الاحليلية . فالاعتقاد باخصاب فمي عن طريق الادخال في المعدة او عن طريق القبلة هو على علاقة بالتركيز الغلمي في المنطقة الفمية . هذه الاعتقادات منتشرة اكثر عند البنات حيث تستمر احياناً حتى المراهقة الاولى . هناك نظريات اخرى تستخدم البول حيث لا يحدد جيداً الدور المتبادل للزوجين (التبول بنفس الوقت ، او التبول في المرأة) ، او تعيد الاخصاب الى هتك الاعضاء التناسلية . كل هذه النظريات تدل على مفهوم نكوصي للعلاقات الجنسية وليست الا انعكاساً عن الهوامات الملازمة للدوافع الغريزية الجزئية السابقة للحياة التناسلية .

ج) المفهوم السادي للنكاح يتوافق مع تفسير العلاقة الجنسية على شكل فرض ارادة الاقوى على الاضعف . حتى ولو لاحظ الاولاد « الحادثة البدائية » فإنهم يفسرونها بالتعبير عن الهوامات العدوانية . صحيح ان الخلاف الزوجي او سلوك الام الباردة جنسياً يمكن ان يعطي اساساً لمثل هذا التفسير ، ولكن التركيب السادي يتعلق بالبقايا الهوامية للمرحلة الشرجية اكثر من تعلقه بحقيقة معينة كان الولد شاهداً لها .

د) الولادة الشرجية . - ان مبدأ القبول بحمل المرأة للولد في بطنها يطرح مسألة الولادة . فالاعتقاد بأن الاولاد يخرجون من الشرج هو على علاقة بهوامات المرحلة الشرجية .

هذه النظريات تستبدل فيما بعد بأخرى اكثر تطوراً . فالولادة تحصل من السرّة او بعد عملية استخراج قسرية ودامية من بطن الام . فالتفسير الشرجي يتعرض عندئذ للكبت : « لقد كان الكلام في السابق عن البراز يحدث دون خوف او حياء ؛ فالولد لم يكن قد ابتعد عن ميوله
ان الخروج الى العالم كما يخرج البراز لم يكن يشكل انحطاطاً ، لأن البراز لم يكن مقرفاً بعد . فنظرية الخروج من مكان الاوساخ كانت نظرية طبيعية وهي الوحيدة التي تبدو واقعية بالنسبة للولد » (فرويد ١٩٠٨) . اننا نرى كبت الدوافع الغريزية الجزئية يتقدم على تكون الهوامات التي تحاول التعبير عن الحياة الجنسية .

هـ) الاعلام الجنسي - . ليس الامر ، كما يشير برج Berge ، متعلقاً بمعرفة ما اذا كان من الملائم اعلام الاولاد ام لا ، بل اذا كانت للتربية الجنسية يجب ان ترتكز على الحقيقة ام تتكون من اكاذيب وتفسيرات كيفية . بالنسبة لنا يبدو ان دورها لا يتوقف على كشف السر وانما على خلق الوعي لما يقترب منه الولد بشكل من المعرفة اللاواعية . بالنسبة للولد يقتضي موافقة هذه المعرفة الكامنة عن الحياة الجنسية مع التحفظ الذي يعتقد انه يشعر به ، وحتى مع الموانع التي تأتيه بسبب مواقف الأهل . مع ذلك فالتفسير البسيط لا يكفي ، لأن الولد لا يستطيع دائماً ان يستوعب الوقائع التي تقدم اليه . والتفسير

الاعلامي الصرف لا يأخذ بعين الاعتبار الحاجات الداخلية والدوافع الليبيدوية . وقد يحصل ان التفسيرات المنطقية لا ترضي الولد الذي ينتفض بتشكيك كلي . فالولد لا يستطيع غالباً ان يستوعب التفسيرات المقترحة بسبب الفارق بين تطوره الغريزي ومستوى تجربته . فإذا نسي الولد ما اعلمناه به ، فذلك يعود لكونه لم يستطع استيعابه عاطفياً . لقد اشار برج (١٩٥٢) الى ان « اية تجربة يجب ان تحصل على تصديق عاطفي حتى يجري استيعابها حقاً من قبل الشخص » . فالولد يرفض التفسير الذي لا يستطيع ان يسجله بلغة الظرف الانفعالية . ولكن هناك عامل آخر يشكل عائقاً امام التعرف على الحياة الجنسية : منذ ما قبل المرحلة الاوديبية بالتحديد بأبي الولد ، على اثر مشاعر معينة تجاه اهله ، ان يقبل بأن تكون له حياة جنسية . فإذا كان الصبي لا يتحمل فكرة قبول امه طوعاً لعروض الأب ، فالبنت لا يمكن ان تسمح بأن يتمكن ابوها من اعطاء الأم موضوع رغبتها . من هنا يأتي كبت المفهوم السادي ـ المازوشي للنكاح ، وامتداداً لهذا الكبت ، كبت الحب .

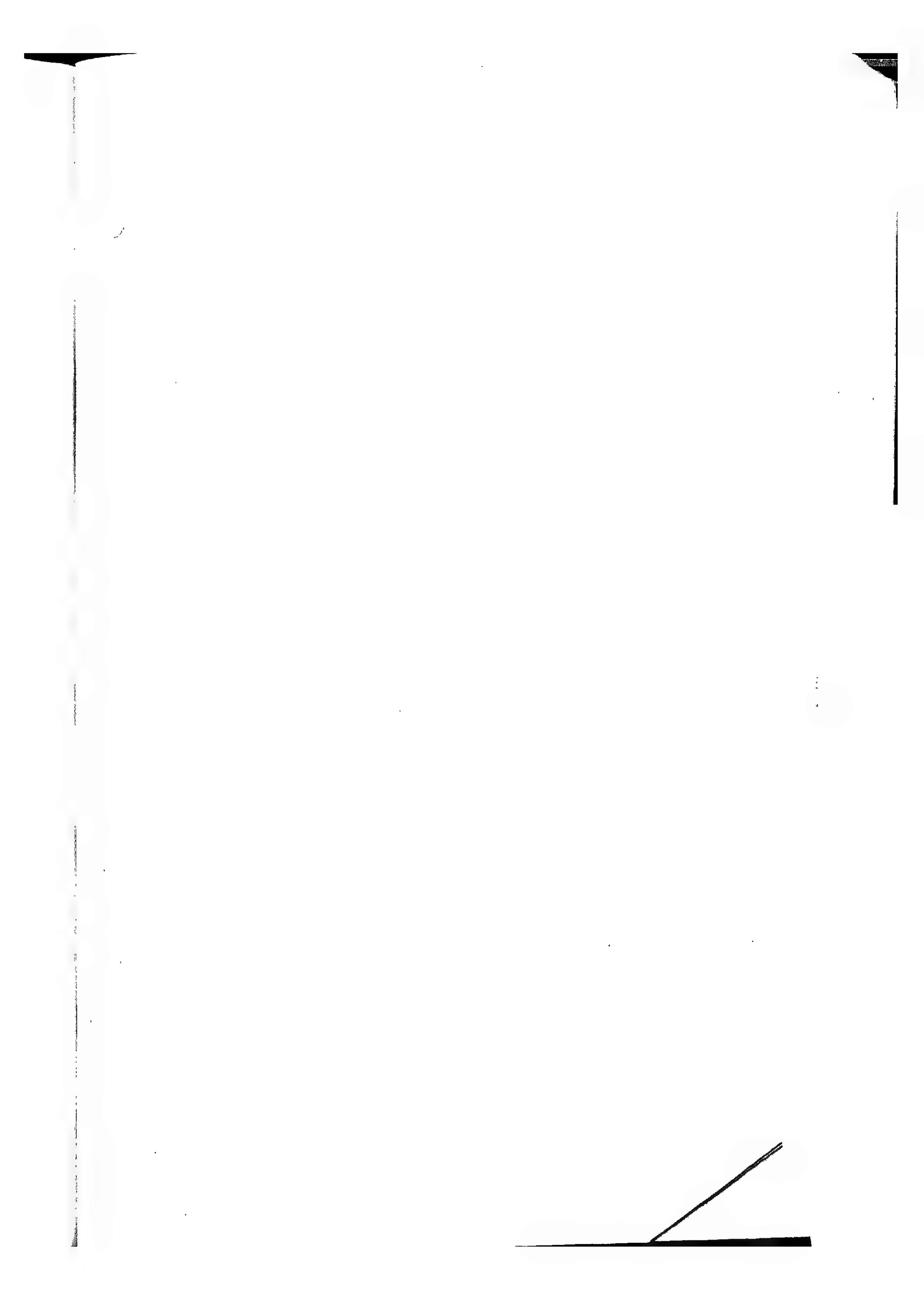
ان فيرنزي (١٩٢٧)Fernezi يعطي سبباً اضافياً لهذه المقاومة ضد الاعلام الجنسي . بالنسبة له ، كل تفسير فيزيولوجي صرف مهما كان معداً ، يهمل البعد الغلمي او الشهواني للعملية الجنسية . فالولد لا يفتش عن اعلام علمي ، ولكن عن التأكيد بأن العضو التناسلي يملك وظيفة ليبيدوية . ان احاسيسه الخاصة جعلته يكتشف الوظيفة الليبيدوية للعضو الجنسي ويستنتج من ذلك اللذة التي يحسها الأهل في علاقتهما . لكن الولد يبحث عن التأكيد اذا ما كان الأهل يستطيعون تحمل اللذة التي تمنحهم اياها الحياة الجنسية . فطالما ان الاهل يربون الولد على النكران الواعي او اللاواعي للذة الجنسية ، فالولد سيشعر بأنه مذنب في مكافآته الليبيدوية الخاصة . فالأهل اللذين يعيشون ، نتيجة الشعور بالذنب ، في نكران اللذة الجنسية يبنون عند الولد صورة عن الاهل « الطاهرين وغير المدنسين » ـ وغالباً ما يتوافقون جيداً مع هذه الصورة . ولكنهم يخفون عنه بنفس الوقت حقيقة حياتهم الجسدية والنفسية ويطلبون من الولد ثقة بلا قيد . فالتربية الجنسية تصبح هكذا مشكلة تربوية لا

أكثر ولا اقل ، نظراً لأنها يجب ان تقدم للولد امكانية للتماهي مع صور الاهل المقترحة كنموذج لا واعي .

فعلى مستوى الزوجين ، في حياتهما الجنسية ، بالمعنى الواسع للكلمة ، يبدأ بالنسبة للولد المأزم الاساسي الذي سوف يحدد مجرى تطوره : عقدة اوديب .

و) معنى ومصير الحياة الجنسية الطفلية . ـ ان اكتشاف ووصف مختلف المراحل النفسية ـ الجنسية تشكل معطيات اساسية للتحليل النفسي . فهذا ا المفهوم لم يدخل فقط في العلوم الانسانية بعداً جديداً ، بل مكّن ايضاً من ادراك المستقبل الفردي باقامة علاقة ضاغطة بين النفسي والجسدي .

فالليبيدو ، بتركيزه التدريجي على مختلف المناطق المغلمة ، يساهم بتكوين صورة عن الجسد الذي ليس تصوراً بسيطاً ولكنه يصبح مكاناً معاشاً تتقابل فيه الحاجة مع اللذة . بعد ذلك يستطيع الفرد ان يحقق فرديته ويقيم مع اشيائه علاقات منظمة بالرجوع رمزياً الى فترة الاوديب . فالمراحل الليبيدوية ، والمناطق المغلمة والمواضيع المتركزة تكتسب في تاريخ الفرد قيمة قابلة للترميز من خلال اوالية بعد فوات الاوان (Nachträglichkeit) . هذا يعني ان ما نصفه بعبارة المستقبل الليبيدوي يستخدم كمرجع مزدوج في كل تاريخ نمو الفرد ـ راهن ومستقبلي ـ باعطاء التصورات الرمزية ، خلال الفترات الرئيسية لسيره . وهي التي تمكن من التعرف على البنية المعينة . بهذا المعنى ، ان الحياة الجنسية الطفلية ضرورية لادراك البعد العلائقي والتوصل الى النظام الرمزي ، وذلك من خلال الليبيدو ـ المفهوم القائم عند الحد بين الجسدي والنفسي .



الفصل الخامس

علاقة الموضوع والتجربة الطفلية المعاشة

لقد حاولنا في الفصل السابق تركيز الصيرورة الغريزية حسب المراحل المختلفة لتطورها والصعوبات التي يصطدم بها هذا البلوغ بسبب طبيعته بالذات : فالدافع الغريزي ، المتجه نحو هدف والذي له موضوع خاص ، ينفذ على علاقات الفرد مع العالم الخارجي . فحسب محور صيرورته الغريزية يتوصل الفرد تدريجياً ، انطلاقاً من التجربة الاندماجية لعلاقته الاتحادية الاولى ، الى نمط من الادراك الرمزي لعلاقاته مع العالم .

لقد استعرضنا حتى الآن هذا التطور باتخاذ صيرورة الدوافع الغريزية كثابتة معينة . يبقى ان نقول كيف يبرز موضوع الدافع الغريزي وكيف يتكون ويتبنين ويكتسب مقاماً رمزياً لا بد منه للقيام بوظيفته . وان نرى اذا كان هذا الموضوع يتدخل من نفسه بفعالية في تكوين هذه العلاقة ، ويأتي شكل يسمح للفرد بالوصول الى الاوديب ، وبالانتقال من الحاجة الى الرغبة .

وبمفهوم علاقة الموضوع ، حاول علم النفس التحليلي ان يعالج علاقة الذو بموضوعه ـ وليس علاقة الذو ـ الموضوع ، فخلال المراحل المتتالية للتطور ، يقيم الذو شيئاً فشيئاً روابطه مع مواضيعه ، التي يمكن ان تكون

خارجية او داخلية . وبعبارات اخرى ، تعالج نظرية علاقة الموضوع الانتقال من الفيزيولوجي الى النفساني ، من الطفيلية الرحمية الى اقامة علاقة اجتماعية متراتبة .

فالموضوع ، بالمعنى التحليلي للكلمة هو الذي يؤدي الى ارضاء الدافع الغريزي . « بالنسبة للدافع الغريزي ، الموضوع هو العامل الاكثر تغيراً ، والذي لا يرتبط به بشكل بدائي والذي لا يتصل به الا بقدر ما يسمح بالارضاء . والموضوع ليس بالضرورة خارجياً ، ولكنه يمكن ايضاً ان يشكل جزءاً من الجسد الخاص » (فرويد ١٩١٥) .

حسب هذا الوصف يمكن للموضوع الليبيدوي ان يتغير خلال التطور ، حسب فترة بلوغ الدوافع الغريزية وتميزها التدريجي . بهذا يعتبر الموضوع هنا مختلفاً تماماً عن الموضوع الذي يعالجه علم النفس التقليدي ، حيث يمكن للموضوع ان يتحدد بشكل دائم ، من خلال تعريفه الزماني - المكاني . فالموضوع ، كما يعنيه المحللون لا يبقى مساوياً لنفسه . فهو يعرف باستمرارية وظيفته مهما كانت تبدلاته طيلة تطوره .

١ - البحث التحليلي والمقترحات التكوينية

ان قدوم النظريات التحليلية برهن على تقصير طرق البحث في علم النفس التقليدي . فقد كان يكتفي اما بالاستبطان ، مركزاً آماله على التمييز المتزايد بين الظواهر النفسية المدركة من خلال الحدس ، واما بعلم النفس الفيزيولوجي الذي دل توجهه التجريبي على عدم قدرته للاحاطة بالوقائع النفسانية في جوهرها . لقد كان على التحليل النفسي ان يبني جهازا مفهومياً جديداً . لقد كان مفهوم السلوك والتصرف يسمح بمواجهة علم النفس بالوصف والملاحظة .

ان مفهوم علاقة الموضوع يعطي التحليل النفسي حقلاً خاصاً للتحقق من فرضياته . فدراسة العوامل المحسوسة وتأثير العالم الخارجي على تكوين الشخصية يمكن ان تبدو ملائمة بشكل خاص لمثل هذا البحث .

لقد حاولت نظريات نفسانية اخرى ان تأخذ هذا المفهوم بعين الاعتبار ، ولكنها توقفت عند معالجة السلوك الاجتماعي وعند مفاهيم تفاعل الذو مع

الوسط ، دون ادخال المأزم النفسي الداخلي والذاتي الداخلي ، الذي يستند اليه بالضبط علم النفس التحليلي .

لقد شجعت عدة عوامل ظهور هذا البحث في التحليل النفسي . فتوضيح المفاهيم البنيوية ، حوالي عام ١٩٢٠ (الضبط ، اواليات الدفاع) واستكشاف التجربة المعاشة السابقة للاوديب (ميلاني كلاين) اعطت لحقل الاستكشاف هذا دعائمه العيادية . وادخال المقترحات التكوينية في النظرية التحليلية (هارتمان ، كريس ، لوبنستاين) التي حاولت تحديد ظروف نشوء المأزم وربط علاقته ببنية وسلوك الذو ، قدم فرضيات العمل . واخيراً مكنت افكار دانيال لاغاش (١٩٤٩ ، ١٩٥٦) وكريس (١٩٥٠) من توضيح مباديء وطرائقية « البحث التحليلي » .

فالنظرة التكوينية حددها عام ١٩٤٥ كل من هارتمان وكريس اللذين وضعاها مقابل النظرة الدينامية . فإذا كانت الدينامية تكشف تفاعل القوى المعبأة في المأزم النفسي ، فإن النظرة التكوينية يجب ان تدقق كيف ينشأ ميزان قوى معين او مأزم معين في الماضي ولماذا تستمر خلال الحياة كلها . فبينما النظرة الدينامية تحدد اسباب واشكال تصرف الفرد في ظروف معينة ، فإن التوجه التكويني يهتم بتوضيح التصرف بالاستناد الى اصله التاريخي او الى معطيات سوابقية : ليس فقط في الفترة التي يعتمد بها الفرد شكلاً معيناً من التصرف ، ولكن ايضاً لماذا قبل حل معين خلافاً لحل آخر ؛ وما هي العلاقة السببية القائمة بين هذه الحلول والتطور اللاحق .

ويشير الكتاب الى ان المقترحات التكوينية هي بين المقترحات التي تبدو قابلة ، اسهل من غيرها ، للتدقيقات الموضوعية ، وشكلت موضوعاً لأعمال متعددة ، خاصة من قبل علماء النفس الذين يعملون على توفيق النظريات التحليلية ونظريات التعلم بمحاولة صياغة مفاهيم الاحباط والنكوص والعدوانية بعبارات علم النفس الاختباري[1] .

---

١ ـ حول هذا الموضوع نذكر بعض النصوص ، اشهرها : Frustration and, Dollard et al. Agression (١٩٣٩) ، Mouvrer Dyuamig, personality and theory Learning (١٩٥٠) ، Yates, Frustration and conflict (١٩٦٢)

وبالفعل ان صعوبة هذا العمل لم تكن لتغرب عن بال الكتاب وقد لاحظ سيرس Sears [1] (١٩٤٤) المسافة التي تفصل الاحباط المعاش عن الاحباط الاختباري . لأن النظرة التحليلية ببحثها عن اصل القلق تربطه تارة بالتجربة المعاشة للولد ، وتارة اخرى بعلاقات الولد مع امه ، التي يتحدد قلقها الخاص بتجاربها السابقة . ان هذا الافق كان يغيب بالضرورة عن التفسيرات التي يقترحها اولئك الذين لم يكن باستطاعتهم بلوغ هذا البعد التكويني ، فقلق الراشد يمكن ان يحدث من جراء ظروف تم تجاوزها منذ فترة طويلة ولكنها بقيت فاعلة : فهل تجدر الاشارة الى ان الظروف المشابهة لا تعني بالضرورة وضعيات مماثلة ، والامر لا يتعلق بالنسبة للراشد باستمرارية بسيطة او باحياء الوضعيات الطفلية القديمة ، ولكن بانتقال حقيقي ذي دلالة .

فالنظرة التكوينية تدخل تمييزاً اضافياً ، هو الذي يفصل نتائج النمو الليبيدوي عن الانساق التي يحددها تأثير المحيط . فهذه النظرة تؤكد على عوامل النمو ، كما قمنا بتحديده ، وتتجه لاعطاء اهمية خاصة اما للاحداث ، واما للاستعداد الفردي لتركيز معنى خاصاً على بعض الوضعيات . مهما يكن من امر ، يجري التأكيد على استعداد الفرد لمواجهة الوضعيات المعينة والتوترات التي يجد نفسه خاضعاً لها . وهكذا يتركز الموقف على طاقات الأنا في تلاؤمه مع الظروف الخارجية ، مما يؤدي الى توجه نظري مزدوج .

من جهة يعتبر هارتمان (١٩٦٤) الأنا كنظام نفسي مختص بمراقبة ادراك ونشاطات الفرد في حل المسائل التي تواجهه ؛ ان بعض هذه الوظائف تصبح ، بالنسبة له ، خارج حقل المأزم النفسي وتشكل الأنا غير المأزوم . فهذا المؤلف يميز في الأنا وظيفتين حسب ما يكون على الأنا ان يحل المشاكل التي تطرحها الدوافع الغريزية ، او ان يواجه الصعوبات التي تبرز بسبب المحيط .

من جهة اخرى ـ ومن حيث ان اهمية التجربة المعاشة والاتجاه الذي تطبعه مثل هذه التجربة في حياة الولد تتعلق بالمرحلة الخاصة للنمو الذي يوجد فيها ـ

---

١ ـ Eyperimental Analysés of psychanalytic phenomend, R. Sears in J. MeV. Hunt, personality and the Behavior Disorders, Vol I, Neu York, Ronald press 1944

وإن الحدث يعاد تقييمه كعامل فعال ومكون للوضعيات الاساسية . فالامر يتعلق جوهرياً بمأزم : اما بين دافعين غريزيين متناقضين ، واما بين متطلب غريزي والأنا ، ويثار هذا المأزم تارة بأثر بلوغي وطوراً بسبب ظهور متطلبات جديدة يفرضها الوسط الخارجي . فالنظرة التكوينية ، التي تعتبر ان كل ظاهرة نفسية خاضعة لقوانين السببية وان تاريخ هذه الاسباب يجب ان يلاحق حتى اصولها ، قد اعطت دفعاً لطرق الملاحظة المباشرة .

فموضوع الملاحظة في التحليل النفسي ليس الولد كفرد منعزل ، وبهذا تختلف عن النظرية المعرفية التكوينية ، كما تظهر مثلاً في اعمال بياجيه . فالملاحظة التحليلية تهتم بالولد كفرد يشكل جزءاً من وسطه . ولكن الملاحظة لا يمكن ان تتحول الى تسجيل بسيط ، مهما كانت دقته . يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ذاتية الملاحظ الذي ليس فقط شاهداً موضوعياً ، ولكن تقع عليه مسؤولية تفسير الوقائع الملاحظة . فهذا التفسير قد تلحقه بعض الاخطاء لأن الملاحظ قد يسقط على الولد افكاره المسبقة ؛ ان نزعة تفسير السلوكات من وجهة نظر الراشد تبقى دائماً قائمة .

فالتوجه التكويني في التحليل النفسي اعطى الابحاث التي استندت اليها اتجاها خاصاً ، لقد اهتم عدد كبير منها بتحديد العلاقات المتبادلة بين الام والولد بشكل اكثر دقة ، وباستخلاص طبيعة العلاقة الغيرية ، وبمعالجة اي تأثير يمكن ان يمارس على شخصية الولد وعلى التجربة المعاشة من قبل بعض نماذج سلوك الام ، وحتى من قبل بعض الظروف الاجتماعية او الثقافية . فعندما « نبحث عن المرتكز الاساسي للتجارب ولحياة الطفل ، بتبيان كيف ان المراحل المختلفة ترتبط فيما بينها وكيف ان تاريخ الفرد يتنظم بوأسطة شخصيته وهو ينظمها بدوره » ، فإننا نصطدم بالصعوبات التي هي مشتركة بين جميع الابحاث في مجال العلوم الاجتماعية (كريس ١٩٥١) . وهنا ، اكثر من اي مجال آخر ، ان الفرق بين البحث الصافي الذي يهدف الى بناء قوانين عامة والبحث الفاعل الذي يهدف الى استخلاص قواعد للعمل الاكثر فعالية ، هذا الفرق هو صعب التطبيق . الا ان التحليل النفسي ، في سيره العلمي يقترب من البحث الفاعل .

فالبحث التحليلي يبني قواعده النظرية انطلاقاً من التجربة العلاجية المكتسبة مع الراشدين ، ومن الوسائل العيادية التي حصل عليها في الممارسة النفس علاجية للاولاد .

فهو يسعى للتأكد من مبادئه ولتوسيع حقل تفكيره العلمي بواسطة ملاحظة الولد في مواجهة وسطه :

ـ الوسط الطبيعي ، اما المقتصر على العائلة ، واما الممتد الى المحيط الاجتماعي ؛

ـ الوسط المتغير من جراء العوامل المختلفة التي تشوش بنيته (الامراض العائلية ، التغيرات الاجتماعية الكثيفة : الحرب ، النزوح ، الاقتلاع) ؛

ـ الوسط المصطنع حيث يوضع الولد بسبب بعض الظروف الخاصة (الابحاث حول فصل الولد عن الام ، حادثة الدخول الى المستشفى او المرض ؛ العيش في مؤسسة داخلية ، الخ . . .) .

فالبحث التحليلي يعطي تفسيراً لهذه المعطيات بالنسبة للعوامل الخارجية والمأزمات النفسية الداخلية ؛ فهو عليه ان يبرمجها في الجسم المشترك للمعارف حول النمو النفس اجتماعي والبلوغ العصبي ـ الفيزيولوجي للفرد .

واخيراً عليه ان يثبت نتائجه بواسطة مقابلة التغيرات المدخلة بسبب الفوارق الثقافية (علم الانام) .

لكن البحث التحليلي لا يمكن ان يستخدم الاختبار ولا يمكن ان يتابع الا في ظروف نصف اختبارية ، لأنه لا يستطيع تخفيض لاعدد المتغيرات ، ولا تفاعل العوامل المختلفة . بالاضافة الى ذلك يستحيل عليه ان يفصل وجهة نظر الملاحظ الذي غالباً ما يكون له هدف علاجي او تربوي . فالبحث في التحليل النفسي لا يمكن ان يتابع الا في مكان عمله بالذات : فإذا كنا نبغي اخضاع هذا البحث للدقة العلمية ، لا يمكننا تغيير ظروف البحث اعتباطياً ، دون ان نخاطر بتغيير معناها .

ان استكشاف علاقة الموضوع يبين افضل من غيره تعقيد المشاكل وتعدد

التوجهات الممكنة . وهو يوضح ايضاً الصعوبات التي يحتويها كل بحث في مدة الملاحظة التي تمتد غالباً الى عدة اشهر ، وحتى الى عدة سنوات (الطريقة الطولية) وفي النقاط التي يوجه اليها التفسير مختلف الكتاب ، وفي الاختلاف الظاهر للنتائج الجزئية حسب هذا النظام المرجع او ذاك . وقد لا يجري التثبيت الحقيقي لمعطيات الملاحظة المباشرة الا فيما بعد ، عندما يصبح ممكناً ، بواسطة التحليل النفسي للفرد ، إيجاد الشكل الذي تندمج وتتبنين به التجارب الطفلية المعروفة .

٢ ـ تكون العلاقات الغيرية

ان احدى المهمات الملحة هي اقامة وتنظيم الوقائع التي تؤكد على البناء التدرجي للعلاقات التي يقيمها الولد مع حقيقته . من الوجهة التكوينية ان دراسة علاقة الموضوع تعطي معنى الاستمرارية التاريخية وتسمح بالبرهنة على الدور المبنين الذي تلعبه الحقيقة الخارجية على مستوى تكامل الوظائف العصبية ـ الاحيائية خلال النمو (Lebovici ١٩٦١) .

اننا ندين لرينيه سبيتز في سلسلة من الابحاث قام بها ابتداء من ١٩٣٦ ، وهي تشكل العمل الأكثر تنظيماً في هذا المجال . لقد اهتم الكاتب بتأكيد التنظيم البنياني للعلاقات التي يقيمها الولد مع المواضيع ، وباستخلاص الفترات الخصبة التي تسبق اقامة هذه العلاقات . فانطلاقاً من ظهور الابتسامة ، التي تدل على العلاقة الاولى « الواعية » حقاً بالام المعروفة ، بقلق الشهر الثامن الذي يطبع علاقته بالام موضوع التماهي وباكتساب الاشارة الدالة على الانكار ـ الذي يدخل الطفل في شبكة الاتصالات الانسانية ـ تابع سبيتز (١٩٦٨) تكون العلاقات الغيرية خلال السنتين الاوليين من حياة الطفل .

لقد ذهب سبيتز من عدد معين من المبادىء الاساسية . لقد قبل بعدم قدرة الرضيع على تأمين استمرار حياته بوسائله الخاصة . فالنمو يجب ان يمكنه من التحرر من هذه التبعية الكلية .

من جهة ، يعتبر سبيتز ان المولود الجديد هو في حالة غير متميزة . عند الولادة لا يملك الطفل اي ملكة للادراك والتصور والارادة ؛ فالفكر ، بمعناه

الحقيقي لا وجود له . « جميع هذه الوظائف ، ومن ضمنها الغرائز ستتميز فيما بعد بعملية تجد لها اصلاً اما في البلوغ واما في النمو » . فسبيتز لا يقبل بوجود اركان نفسية عند الولادة ، ويبدو مستحيلاً الكلام عن الأنا ، وخاصة عن الأنا الاعلى عند الرضيع . « كذلك فالرمزية لا وجود لها وبالتالي لا وجود لأي تفسير رمزي . فالرموز ترتبط باكتساب اللغة » .

واخيراً فإن سبيتز لا يتصور بحثه الا بالاستناد الى المفاهيم الفرويدية : التقسيم الضابط للجهاز العقلي الى نظام واعٍ ونظام لا واعٍ ؛ وجود مراحل ليبيدوية ومناطق مغلمة ؛ المأزم النفسي ، وجهات النظر الدينامية والتكوينية ، الخ . .

فطريقة البحث التي يتبعها سبيتز تستخدم في نفس الوقت الملاحظة المباشرة والطريقة الطولية . وبملاحظة مجمل السكان في وسط معين دون اي اختيار ، فإن المؤلف يحاول الابقاء على اكبر عدد من الشروط الثابتة ولا يترك الا متغيراً واحداً : موضوع التجربة نفسه .

في بحثه ، يخضع كل ولد لاربع ساعات من الملاحظة اسبوعياً ، تارة من قبل رجل وطوراً من قبل امرأة ، وذلك باستخدام طرق ملاحظة موحدة النمط ، ومستكملة بتسجيلات سينمائية ، وبروائز ومقابلات مع الاهل .

لكن الاصالة الحقيقية لهذه الملاحظة الدقيقة تنتج من كونها تجري ، ليس على نمو او استيعاب هذه الملكة او تلك ، كما في الابحاث التكوينية المعرفية عند بياجيه ، بل على نمط علاقة الولد بالأم كموضوع علائقي بدائي ورئيسي ، لكي لا نقول الوحيد .

١) المرحلة النرجسية (فرويد) ، المرحلة « اللاغيرية » (سبيتز)

لقد جرى وصف الولادة بأنها الوضعية الصدمية الاولى التي يعيشها الفرد ، وهي تجربة الانفصال الاصلية التي تبقى محيطة على الدوام . فصدمة الولادة التي وصفها رانك O. Rank (١٩٢٤) ، والتي اعتبرت كتجربة اولى للقلق ، كانت تعمياً جريئاً ومذهلاً بشكل خاص ، ولكنها مع ذلك لا تبدو

متوافقة مع الواقع النفساني . وفيما بعد ، ارادت مرغريت ريبل Ribble (١٩٢٤) ، بالاستناد الى فرضية عبر عنها فرويد (١٩٢٥) ، ان ترى في ردود الفعل على نقص الاوكسيجين عند الولادة ، نموذجاً لمظاهر القلق الفيزيولوجية . مهما يكن من امر ، فإن الولادة تدشن بالنسبة للولد نمطاً للوجود الجديد ، الذي يضع حداً للطفيلية الرحمية وحيث يوجد مرتبطاً بالعالم الخارجي فيما يتعلق بحاجاته الحياتية .

ولكن عند الولادة لا يمكن لهذا الوسط الضروري ان يبدو خارجياً بالنسبة له ، لأن الرضيع لا يقدر على تمييز النفس والجسد ، جسده الخاص عما يحيط به ، ولا يوجد بعد تمييزاً بين الأنا والهو (سبيتز ١٩٥٩) . فهذه المرحلة من عدم التمييز لا تقبل ، كنظام طاقي ، الا الفطام الثنائي توتر - غياب التوتر (السكون) الذي يعمل حسب مبدأ الثبات وحيث تمتزج الحاجات الفيزيولوجية والمؤثرات الاولية : « فخلال الايام الاولى للحياة ، لوحظ مظهر واحد يمكن ان يعتبر من الانفعال . انها حالة اثارة ذات نوعية سلبية ظاهرياً. فهذا يحصل عندما يخضع الرضيع لاثارة قوية نوعاً ما لكي يتجاوز عائق عتبته الادراكية المرتفعة . . . ولكي ابسّط استخدم عبارة الكدر للدلالة ايضاً على الاثارة السلبية عند الرضيع » (سبيتز ١٩٦٥) . فالكدر هو المؤثر الوحيد الذي يمكن ملاحظته ، اما نقيضه فليس اللذة وانما الطمأنينة (السكون) .

في هذه المرحلة ان التفاعل بين المولود الجديد والعالم الخارجي يتحدد في سير الاواليات العصبية - الاحيائية ، ولكن يمكن ان نتعرف فيها على دلائل تكامل بين القشرة العصبية وما دونها بشكل متماسك : وهذا ما نراه مثلاً في المنعكس الفمي - اللساني للاتجاه (Rooting Behavior) ، حيث تؤدي الاثارة الجلدية لمحيط الفم الى حركات مص والى توجيه الرأس . من الملاحظ ان هذا السلوك الانغراسي قد يخف ، وحتى يزول تماماً عند امتلأ المعدة ، اي عندما يزيل الشبع الظواهر الاحيائية للجوع . « حتى بداية الشهر الثاني من حياته يعرف الرضيع اشارة الغذاء فقط عندما يكون جائعاً » . لقد قدم سبيتز فرضية بأن مثل هذا السلوك يرتكز على اوالية فطرية من الافراغ ، ضرورية لاستمرار الحياة : انه السلوك الوحيد الموجه الذي يملكه الطفل عند الولادة .

من المسموح القول انه عند هذه المرحلة اللاغيرية يساهم احساس الفرد بالعمـل المشهـي . ولـكن اذا كان صحيحاً ان المولـود الجـديد يجيب لبعض الاثارات ، فهو بالمقابل غير قادر على ادراك طابعهـا الـداخلي او الخارجي ، وبالتالي ان يعطي الموضوع الذي يهدىء التوترات ، مقام الموضوع المدرك .

ولكن ، منذ هذه اللحظة ، تدخل ردود فعله في شبكة من الاتصالات مع الام . فالرضيع الذي يحاول التخفيف من توتر خلق من جراء البرد والجوع ، يصرخ أو يبكي دون ان يكون في حركاته اية نية للاتصال . ان الام هي التي تسمـع صراخـه وتفسره وتجيبـه عليه كما يجـري بالنسبـة للدعــوة . وهــكذا فالمؤشر[1] ـ اي المظهر الذي يدل على حالة من التوتر دون نية اتصـالية ، على نسق من الافـراغ دون تحـديد خاص ـ تدركه الام كإشـارة[2] ، فيبلـغ بذلك هدفه ، فهذا المؤشر لا يتخذ بالنسبة للولد قيمة الاشارة المشحونة بالمعنى ، الا بشكل ثانوي وبتأثير العودة ، وذلك بسبب التعلم .

في هذه المرحلة لا يمكن للـرضيع بعـد ان يدري شيئـاً،ولكن بعض مظاهره الافراغية غير المقصودة ، تحدث ردة فعل من قبل المحيط وتدخل في حياة الولد معنى يصبح مستعداً للتعرف عليه فيما بعد .

فهذه المرحلة اللاغيرية تتوافق مع ما وصفه فرويد (١٩١٤) تحت اسم النرجسية الاولية .

في بداية الحياة النفسية ، عندما تتركز في الأنا دوافعـه الخاصـة ، يمكنـه ارضاءها جزئياً بنفسه . « اننا ندعو هذه الحالة نرجسية ونطلق غلمية ـ ذاتية على امكانية الارضاء التي تحتويها » . بالنسبة للرضيع لا يمثل العالم الخارجي اية اهمية لأنه لم يعرف بعد كمصدر للارضاء . « ولنعرف الحب بالقول انه علاقة الأنا مع مصادر اللذة ؛ فالوضعية التي لا يحب فيها الأنا الا نفسه ويبقى غير مكترث للعالم الخارجي ستكون اذن اولى العلاقات التي قد نجد فيها الحب .

---

١ ـ وهي تقارن بالحرارة التي تسمع عندما ترفع سماعة الهاتف ، وتدل عن حالة الجهاز

٢ ـ وهي تقارن بجرس الهاتف الذي يشكل اشارة استدعاء .

فالأنا لا يحتاج للعالم الخارجي عندما يكون غلمياً ـ ذاتياً ، ولكنه يستخرج منه مواضيعه بعد تجارب غريزة البقاء ولا يستطيع بالتالي ، ولبعض الوقت ، ان يمتنع عن الاحساس بالمثيرات الغريزية الداخلية بانزعاج . فالتطور اللاحق يجري اذن تحت سيطرة مبدأ اللذة . فهو يستبدن المواضيع المقدمة ، طالما انها تشكل مصادر للذة ، يجتافها . . . او يرفضها (اسقاط) عندما تصبح في داخله سبباً للكدر » (فرويد ١٩١٥) .

ان وصف النرجسية الاولية ، او الاصلية (فرويد ١٩١٤) التي عُرِّفت بغياب علاقات الموضوع الليبيدوية ، يطبع المرحلة الاولية للحياة النفسية حيث لا يعي الرضيع بعد العالم الخارجي ، وحيث يتركز كل الليبيدو على نفسه . ان بالانت (M. Balint) (١٩٣٧) لم يرد ان يرى في هذا الوصف الافرضية محدثة من خلال معطيات عيادية . فهو يؤكد على ان النرجسية هي تكوين ثانوي : وانه ، منذ المرحلة الاولى للنمو ، يوجد علاقة بين الرضيع والام ، الحب الموضوع الاولي ، الذي لا يرتبط بأية منطقة مغلمة . اما اليس بالانت (١٩٣٩) فتتكلم في هذا الاطار عن « الارتباط المتبادل بين الام والولد في اطار الوحدة الثنائية » .

٢) المرحلة الغيرية الأولى (فرويد) : مرحلة الموضوع السابق (سبيتز) . العلاقة ما قبل الغيرية . بين الاسبوع الثامن والاسبوع الثاني عشر يبدأ الرضيع بادراك العالم الخارجي بصرياً ، مدشناً بذلك المرحلة ما قبل الغيرية . فخلال هذه المرحلة تتمحور ايضاً علاقات الرضيع حول الحاجة . ولكن يضاف الى التقاط المثيرات الداخلية ادراك المثيرات الآتية من العالم الخارجي . في العالم غير المميز يدخل شيئاً فشيئاً التنظيم البدائي الذي يمكن الطفل من ادراك بعض الاشارات ، من بينها تأتي بالدرجة الاولى الاشارات المتعلقة بالوضعية الغذائية .

حوالي نهاية الشهر الثاني يدرك الرضيع بصرياً اقتراب الكائن البشري ولكن ردة الفعل الخاصة هذه لا تأتي الا في حالة الحاجة الفيزيولوجية ، عندما يكون الطفل جائعاً . فعندما يقترب شخص راشد ، في وقت الرضعة ، من

الطفل الباكي ، فإنه يهدأ ويدير رأسه باتجاه الذي يقترب ، يفتح فمه ويقدم شفاهه

« وبعبارات اخرى انه يجيب ، في هذه الفترة ، على مثير خارجي بارتباطه فقط بإدراك باطني ، بارتباطه بادراك دافع غير مشبع » (سبيتز) . ان مثل هذا السلوك يجب ان يميز عن السلوك الذي عالجناه تحت اسم منعكس فمي ـ لساني للاتجاه ، بالاضافة الى ان مصدر الارضاء سيتعرف عليه الطفل بحد ذاته وان السلوك الحركي الذي ينتج عنه يجيب على الادراك البصري .

هذا التصرف الاشتهائي المرتبط باحكام بالحاجة ، يتحسن : وخلال الشهر الثالث يصبح الطفل قادراً على متابعة الوجه الانساني في تنقلاته بانتباه وبواسطة عينيه .

لقد أعطى حيزيل Gesell فرضية ان الوجه الانساني يكتسب مقاماً مفضلاً في العالم الادراكي للطفل لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالارضاءات الاحيائية . لقد اكد سبيتز هذه المقولة ولاحظ انه خلال الرضعة ومختلف حركات اليد ، تبقى عينا الطفل مثبتة على وجه الام الذي يشكل المثير البصري الاكثر ثباتاً خلال الاسابيع الستة الاولى ، فسبيتز (١٩٤٦) يصف الوجه الانساني باعتباره الاشارة الاولى ، المرتبطة بانخفاض التوترات التي يعبر عنها الرضيع .

بالفعل ، انطلاقاً من نهاية الشهر الثالث ، يقدم الطفل مظهراً يحدد الانتقال من السلبية الى الفعالية الناشئة : انه رد الفعل بالابتسامة (The smiling response) الذي يثيره عند وجه الراشد ، شرط التعرف بوضوح على بعض السمات الشكلية ؛ فالوجه يجب ان يُرى مواجهة بحيث تصبح العينين والأنف والخط الافقي للحاجبين مرئية بشكل جيد ؛ فهذا الوجه يجب ان يكون حياً بالايماء[1] . على هذا الشكل الحقيقي Gestalt ، يجيب الولد بابتسامة ، بينما

---

١ ـ « منذ ان يتغير هذا الشكل Gestalt فالموضوع لا يعود معروفاً : لقد خسر صفته الغيرية » (سبيتز) . لقد دلت الابحاث الاختبارية ان الوجه الجانبي لا يحدث ردة الفعل ـ الابتسامة ، بينا تقديم القناع مواجهة يعرف « كإشارة » من الطفل .

في نفس السن لا يحدث اظهار الرضاعة نفس رد الفعل . بعض الاطفال يحاولون مد الذراعين نحو الرضاعة ، ولكنهم لا يبتسمون لها . فما يتعرف عليه الطفل في هذا الشكل هو اشارة ، لا تحدد بالصفات الاساسية للموضوع ، ولكن يتم التعرف اليها لصفاتها السطحية .

لهذا السبب يفضل سبيتز ان يتكلم عن موضوع سابق مرتبط بالوضعية الغذائية ، وهو يربط وجه الام باللمس الفمي وبارضاء الحاجة . وبفضل وجه الام ، المعتبر كشكل - اشارة ينجح الرضيع « بفصل عنصر ، في محيط الاشياء المبهمة وبدون معنى ، يصبح اكثر فأكثر ذا دلالة » (سبيتز ١٩٥٤) . في هذه الظاهرة يرى المؤلف الانتقال الذي يقود الطفل من المرحلة النرجسية الاولية الى المرحلة الغيرية ، وذلك باستبدال الموضوع « الانطوائي » لشخصه بالذات بموضوع خارجي مكون من شخص امه .

فالموضوع السابق ، الذي ينبثق هكذا من العالم المبهم المحيط ، يشكل نقطة رئيسية في النمو . فظهور الابتسامة الاجتماعية يدل ان الولد وصل الى درجة معينة ، يدعوها سبيتز منظمة[1] فالاهمية التي يعطيها هذا المؤلف لهؤلاء المنظمين تكمن في انها تشكل فترة لا بد منها لاجتياز مراحل النمو المتتالية . « انطلاقاً من هذه النقطة يبدأ شكل جديد من الحياة ، هو مختلف بشكل اساسي عن السابق » . فالطفل الذي يقلع عن الالتقاط الداخلي للتجربة ، يواجه الادارك الخارجي لمحيطه . فهو ينتقل ، حسب عبارة سبيتز (١٩٥٩) ، من الالتقاط الحسي - العضوي الى الادراك التشكُّلي ويضع المقدمات الضرورية لكل علاقة اجتماعية لاحقة . هذه التجربة تبرهن على وجود آثار ذاكرية يستخدمها الفرد ، واذن على انقسام محتمل للجهاز النفسي الى نظام واعٍ ونظام لا واعٍ وعلى تمييز بين الأنا والهو . وهذا ما سمح لسبيتز ان يجعل من ظهور الموضوع السابق بداية انساق الفكرة ، ويرى فيها اول دلالة

---

١ - ان مفهوم المنظم يستعيره سبيتز من علم الاجنّة حيث تعني هذه الكلمة « بنيات تنمو الى نقطة معينة حيث تتجمع عدة خطوط للنمو . فقبل نمو هؤلاء المنظمين يمكن لنسيج معين ان يقتلع . . . وينمو بنفس الوقت الى جانب الانسجة التي تحيط به . . . ولكن اذا اقتلعنا نفس النسيج بعد ان يكون المنظم قد نما ، فالنسيج المقتلع ينمو بالاتجاه الذي كان يقوده اليه موقعه الاصلي » .

على تكون الأنا « كتنظيم قائد مركزي » ، وسيط بين الدوافع الغريزية والفعل الارادي .

٣) تكون الموضوع الجزئي

من الملاحظ في هذه المرحلة ان النهد ، كموضوع حقيقي للدافع الغريزي ، لا يعرف هكذا من قبل الطفل . ولكن ما من شك بأن نهد الام هو المرتكز الحقيقي لمكافأة الحاجة ، وهو يدرك كذلك من خلال الفم واليد ، التجويف الذوقي والاخذي يشكل كلاً من الزاوية الادراكية ، وهو ما وصفه سبيتز (١٩٥٥) تحت اسم « التجويف البدائي » . فبين النهد ـ الذي يملأ هذا التجويف ويشبع بالتالي الحاجة الفيزيولوجية ـ ووجه الام ، تقوم علاقة ذات دلالة ، يصبح وجه الام بفضلها الممثل الرمزي للارضاء المعاش .

فالنهد لا يتخذ قيمته كموضوع جزئي الا بسبب التركيز النفسي المرتبط بالمؤثر الغريزي .

ان العلاقات الغيرية الاولى تعقد في اعادة التكون الخيالي لهذا الموضوع الجزئي ، باعتباره مرتكزاً للاحباط او للمكافأة .

فالموضوع الجزئي ، من زاوية الهوام اللاواعي ، يشكل عنصراً اساسياً في بناء العالم الخارجي والداخلي . في مرحلة الموضوع الجزئي لا يعتبر الطفل نفسه بأنه يشكل كائناً موحداً ، وهذا ما يشير اليه مفهوم الجسد المقطع الذي عمقه لاكان (١٩٣٨) . اننا نجد هذا التقطيع الى مواضيع جزئية في مفهوم التجويف البدائي حيث تصور مختلف العناصر (اليد ، الفم ، النهد ، وجه الام) ، على تباينها ، صورة متقطعة للثنائية ، في عدم تمييز ما يخص الواحد والآخر ، الام والطفل . لذلك ، ولكون الاثنين لم يتكونا بعد كموضوع وذو ، فإن التعرف عليهما ليس ممكناً بعد . ولكن ، كما سوف نرى ، فإن ميلاني كلاين تعمقت اكثر في بلورة الوظيفة الخيالية ، حيث يبدو ان الموضوع الجزئي يستخدم كمرتكز للحياة الهوامية للطفل في مرحلة معينة من تطوره .

٤) المرحلة الغيرية

ان الانتقال من الموضوع الجزئي الى الموضوع الكلي المتكون سيشكل مستوى آخر في تنظيم العلاقات الغيرية . فخلال النصف الثاني من السنة ، تدرك الأم كموضوع كامل يمكن للطفل ان يتعرف عليها خارج فترات الحاجة . فالارضاء الذي يعبر عنه الولد عندما يرى وجه امه يعتبر استمراراً للطمأنينة التي يشعر بها بعد اشباع جوعه . في هذا الوضع من المبرر الحديث عن التركيز الفمي على الموضوع الامي . ولكن عندما تتكون الام كموضوع كلي ، تنفصل العلاقة الغيرية عن غائيتها الاحيائية ،فالطفل يعبر عن ارضائه حتى ولو لم يكن هناك احساس بحاجة ، واللذة تدل على تجاور مكافأة الحاجة .

٥) قلق الشهر الثامن

ففي سلوك الولد عندما يواجه التكدر الذي يشعر به عند تخلي « شريكه » الانساني عنه ويرى سبيتز ان الأم تصبح موضوعاً يحتفظ بنوعيته الليبيدوية خارج الوضعية الخاصة بالتغذية . بين الشهر السادس والثامن يصبح الولد قادراً على التمييز بين الاشخاص وتستبدل الاستجابة الى شكل الوجه الانساني برد فعل خاص تجاه شخص غريب : « اذا اقتربت من الطفل بشكل مفاجيء دون ان يعرفك ، يبدي سلوكاً متميزاً جداً ، فهو قد يتراوح بين تخفيض العينين بخجل والبكاء ، وحتى الصراخ . . . يمكن ان يختبيء تحت الاغطية ؛ وقد ينطرح على بطنه ويخبي رأسه تحت الشراشف ؛ ويمكن ان يرفع قميصه امام وجهه او يخبيء عينيه بيده ؛ على كل حال بامكاننا رؤية الافلام عن مثل هؤلاء الاطفال التي تدل بأنهم يرفضون الاتصال مع الغريب ، وانهم يعرضون عنه ، ويخافون منه » .

يعتبر سبيتز ان رفض الاتصال مع الشخص الغريب بشكل اول مظهر للقلق[١]

---

١ ـ يميز سبيتز في تكوين القلق ثلاث مراحل : أ) النموذج الفيزيولوجي لمظاهر القلق ، الذي حاول فرويد ان يكتشفه في فترة الولادة ، والذي اعتبره سبيتز بأنه حالة بسيطة من التوتر . ب) ردود فعل التلاقي والهروب التي يعبر عنها الطفل امام بعض الوضعيات وبعض المواضيع التي تكون اساس التجارب المكدرة وتكون في اساس الخوف . ج) واخيراً قلق الشهر الثامن الذي يعترف له بأنه ادراك نفسي داخلي خاص .

فالامر ، بالنسبة لسبيتز ، يتعلق بخيبة امل الطفل في مواجهته لشخص غريب لم يجد فيه امه ، ويشعر بأنه حرم منها . فإدراك الشخص الغريب يقارن كوجه مع الأثار الذاكرية لوجه الام . ان وظيفة التمييز تدل بأن الطفل قد حدد خياره على موضوع مفضل ، بمعزل عن كل المواضيع الاخرى ، وانه اقام معه علاقات غيرية حقيقية : وبعبارات اخرى ، لقد اصبحت الام موضوعاً ليبيدوياً مركزاً لا يمكن مزجه مع اي موضوع آخر . فهذه الظاهرة الرئيسية في نمو العلاقات الغيرية ، تدل على ذوبان الدوافع الليبيدوية والعدوانية في نفس الموضوع.

يمكن الاعتبار ان سير الغرائز يتقدم على تكون علاقات الموضوع . في مرحلة عدم التمييز النرجسي ، ، تبقى الدوافع الليبيدويه والعدوانية مختلطة ولا تنفصل خلال الاشهر الاولى الا تحت تأثير تجارب الارضاء وعدم المكافأة التي يعيشها الطفل في علاقاته مع الام . فما دامت الدوافع الغريزية تستند الى الحاجات الغمية للطفل - والى مكافأتها - تبقى الام ، في المرحلة ما قبل الغيرية ، المرتكز الوحيد لدوافع الطفل الغريزية . فعند التكامل التدريجي للتجربة ، بفضل جهاز ادراكي اكثر نشاطاً ، سوف تتلقى الدوافع بلورة اكبر . فالام لا يعيشها الطفل كموضوع كلي ، وانما كمجزأة الى مواضيع « حسنة » تتجه نحوها الدوافع الليبيدوية ، ومواضيع « سيئة » تقع عليها الدوافع العدوانية[1]

٦) الام كموضوع

وبفضل وظائف تكامل الأنا يركز الطفل ، بمواجهته التجربة المعاشة والادراك المميز تدريجياً لمساحته العاطفية ، الموضوع الامي ويبنيه باعتباره المرتكز الوحيد للدوافع التي تتصادم على مستواه . فالام لا تعود متقسمة الى

---

١ - كما سوف نرى لاحقاً ان هذا التقسيم الى مواضيع جزئية « حسنة » و« سيئة » يعود الى اواليات الاسقاط والاجتياف ، التي لا تجعل فقط الدوافع تتجه نحو هذه المواضيع الجزئية ، ولكن تخلقها في هوام الطفل (ميلاني كلاين) .

مواضيع جزئية ، ولكن تصبح موضوعاً واحداً تتلاقى عنده الدوافع الغريزية المتعارضة ، التي تحرف ، بفعل تركيب معين ، الموضوع الليبيدوي الحقيقي الذي يركز عليه الحب وعدوانية الطفل ، في نفس الوقت .

في الافق التكويني ، الذي هو افق سبيتز ، فإن هذا الذوبان الدوافعي على موضوع وحيد يجب ان يعاد الى وظيفة التنسيق في الأنا : « لقد تبين لنا ان حرمان او تشجيع احد الدافعين يجب ان يؤدي بالضرورة الى تشويه العلاقات الغيرية . فلأن الام هي التي تحرم او تشجع ، فسيكون سلوك الام هو الذي يحدد الشكل الذي تتوصل اليه العلاقات الغيرية » (سبيتز) . فالتجربة المعاشة ترتبط اذن بالتجربة المعاشة للام التي قد تقوي بسلوكها القيمة المحيطة او المكافئة لكل فترة[1] . من هذا التأرجح يجب على الطفل ان يكتسب شيئاً فشيئاً طاقة تحمل الاحباط ويتكيف تدريجياً مع مبدأ الواقع .

ان تعليق الارضاء المباشر لصالح ارضاء متأخر ، ولكن اكثر موافقة ، يشجع الانتقال من العمل النزوي الى النشاط الموجه ، وذلك بوضع ركن ضابط بين الدافع وتعبيره الحركي ، وحتى ركن للتكيف تمثله الأنا . فالعدوان يمكن من الان فصاعداً ان يفرغ على شكل موجه وقابل للاستغلال ، من اجل ان يمارس سيطرة متزايدة على الوسط الخارجي . ان سبيتز يعتبر اقامة هذه العلاقة الجديدة مع العالم كالمنظم الثاني لتطور الولد .

لكن سبيتز ايعترف لاقامة هذه العلاقة الغيرية ايضاً اهمية اخرى : هي دخول الطفل في نظام اجتماعي منظم من خلال الاتصال . « ان فهم الاشارة الاجتماعية كوسيلة اتصال متبادلة يصبح مؤكداً بشكل خاص فيما يتعلق بفهم الممنوعات والاوامر . . . انها الاشارات العاطفية التي تلقاها الولد من الأم ؛

---

١ ـ انا نجد هنا تعبيراً اوضح لاحدى التعارضات بين النظرتين التحليليتين . الذين ، مع المدرسة التكوينية ، يجدون في حقيقة سلوك الام المصدر المباشر لنمو الطفل ، ويعطون لتصرفات الامومة المختلفة دوراً حاسماً في المستقبل النفسي للولد ، ويحملون الام الحقيقية المسؤولية الاخيرة في الانساق التكونّية . وهناك على العكس الذين ، مع المدرسة الانكليزية (ميلاني كلاين ـ سوزان اسحق) يجدون في الهوامات البدائية المرجع الرئيسي لاقامة العلاقات الغيرية ، ويبعدون حقيقة سلوك الام الى الصعيد الثاني عن قصد ، وذلك لكي يدعموا اولوية التجربة النفسية الداخلية المعاشة والهوام ، مهما كان تصرف وسلوك الاهل .

فإن نوعيتها وثباتها واليقين والثبات التي تقدمها هذه الاشارات للولد ، تؤمن نموه النفسي الطبيعي . فهذه الاشارات العاطفية التي تعبر عنها الأم تتحدد بموقفها العاطفي اللاواعي - اي ان سلوكها يظهر بأشكال لاتنتبه لها بالضرورة » .

فسبيتز يؤكد اذن على وجود الأم والجو المطمئن الذي يخلقه هذا الوجود الذي يسمح بادخال الممنوعات والمسموحات ، ويضع الولد على طريق النشاطات الاجتماعية في اللعب والتربية واكتساب وظائف جديدة ذات طابع ادراكي، حركي ومعرفي . ودور الأم لا يفهم فقط في اطار الطمأنينة ، ولكن ايضا في الامكانية التي توفرها لكل تماهي الذي سوف يغير ويعدل الصورة الجسدية والنمط العلائقي للطفل شيئاً فشيئاً ، من خلال تقليد الحركات . وهكذا تنشأ مجموعة رموز معينة تتعدى التمثل الحركي البسيط او الايحائي : فمجموعة الرموز هذه تنشأ على مستوى التجربة الجسدية المعاشة وتمكن الولد من التماهي بمواضيعه الليبيدوية .

اننا نرى المركز الذي تخصصه النظرة التكوينية لواقع العلاقة بين الأم والطفل . فتنشأ داخل الثنائية الروابط الدالة التي تحوي في حناياها كل النمو اللاحق للعلاقات الاجتماعية ، وذلك باقامة نماذج لا يؤدي تعلمها البسيط الى فهم ما يجري، اذا اهملنا الدور الذي يلعبه التماهي في سجل اللاوعي . واذا كان سلوك الأم ينبع من المواقف اللاواعية للأم ، فهو يعبر بنفس الوقت عن بعض المعطيات الثقافية التي يحملها الاهل .

ولكن يمكننا ايضاً ان نقول مع ليبوفيتش Lebovici (١٩٦١) ان « الولد يعي الموضوع تدريجياً مع بلوغه في ثقافة معينة ؛ ولكن التعرف على الموضوع هو بحد ذاته دافع على البلوغ » .

٧) ظهور العوامل المنظِّمة

وهكذا ، خلال السنة الاولى ، تشكل نقطتان عُقديتان تكامل بعض وقائع النمو الذي يؤدي الى اعادة تبنين الجهاز النفسي على مستوى اعلى من الفعالية : هاتان النقطتان يدعوهما سبيتز العوامل المنظمة .

أ) ان علامة المنظم الاول التي يمكن ملاحظتها هي ظهور الاستجابة ـ الابتسامة : فهي تدل على الانتقال من المرحلة النرجسيه (ما قبل الغيرية عند سبيتز) الى مرحلة ما قبل الموضوع خلال الشهر الثالث . وهي تدل ان الطفل قادر على ادراك المثيرات الخارجية وتشير الى توطيد مبدأ الواقع الذي يمكن الولد من تأجيل الارضاء المباشر . وتدل ايضاً عن الانتقال من السلبية الى الفعالية ، وعلى بداية العلاقات الاجتماعية .

ب) وقلق الشهر الثامن هو الدلالة على بروز المنظم الثاني ، اي توطيد الموضوع الليبيدوي . فهذه الفترة تدل على بداية تبنين الأنـا ، الـذي يصبح متميزاً عن الهو والعالم الخارجي بنفس الوقت ؛ وهو يعنـي ايضـاً ان الميول العدوانية تتميز شيئاً فشيئاً عن الليبيدو .

ج) وحوالي الشهر الخامس عشر نلاحظ ظهور منظـم ثالـث : الاشـارة الدالة على الرفض (لا) ؛ فانطلاقاً من هذه الفترة يتعرف الولد على نفسه في هويته الخاصة (الذات) .

هذه العوامل المنظمة التي وصفها سبيتز تشكل محاولة لانشاء نموذج وصفي للنمو النفسي من الوجهة الموضعية والتكوينية .

وقد قاد طريق التماس آخر بعض المحلليـن الى محاولـة اعـادة بنـاء هوامات الولد اللاواعية ، وذلك كما سوف نراه في اعمال ميلاني كلاين .

٣ ـ الهوامات اللاواعية وتكوُّن الموضوع في اعمال ميلاني كلاين .

ان توجه ميلاني كلاين[1] يختلف تماماً عن توجه رينيه سبيتز ، فبينما هذا الاخير يجهد بشكل خاص لاستخلاص الظروف التي تنشأ فيها العلاقة الغيرية خلال السنة الاولى ـ اي تحديد شروط البلوغ والنمو ـ فإن ميلاني كلاين تعمل على تركيز تكون الموضوع في حياة الولد الهوامية . برأيها يتكون الموضوع انطلاقاً

١ ـ اننا نجد عرضاً واضحاً ومنظماً لاعمال ميلاني كلاين في كتاب Hanna Segal (١٩٦٤) وفي مقال John Lindon (١٩٧٢) .

من الهوام المعتبر كواقع نفسي رئيسي . سوف نستند الى عمل سوزان اسحق Isaacs (١٩٤٣) التي اعطت العرض الاكمل لنظرية كلاين عن الهوام .

١) الهوام كتعبير عن الدافع

لقد عرفت سوزان اسحق (١٩٤٣) الهوام اللاواعي بأنه التعبير العقلي عن الدافع . « ليس هناك من دافع او حاجة او استجابة غريزية لا تعاش كهوام لا واع » . وهكذا تعتبر المدرسة الانكليزية الهوام كجوهر اولي لكل حياة نفسية : كممثل عقلي للدوافع ، الهوام ايضاً وسيلة لرقابة القلق واحداث الارضاء الهلاسي للرغبة : رغبة استبد ان نهد الام ، رغبة العدوانية ضد الأم التي ينظر اليها كمُحبطة ، رغبة ابعاد ورفض نهد الأم المعتبر كخطر او كمضطهد . هذه الهوامات تتعايش خلال الاشهر الاولى في النفسية ، رغم كونها متناقضة ، دون ان يميز الطفل بين الرغبة والعمل الفعلي .

اما عن طبيعة هذه الهوامات ، فإن سوزان اسحق تشير بأنها ليست كلمات او فكرة علائقية واعية . فالهوامات تتحدد « بمنطق الانفعال » ولها فعالية نفسية مستقلة : فهي معطى مباشر للتجربة المعاشة[1] . والهوامات تمثل نشاطاً بدائياً للحياة العقلية التي لا تجد صياغة كلامية الا في مرحلة لاحقة من النمو .

« فالهوامات الاولى تولد اذن من الدوافع الجسدية وتمتزج بشكل دقيق بالمشاعر المادية وبالمؤثرات . وهي تعبر بدائياً عن واقع داخلي وذاتي ؛ ولكن ، منذ البداية ، ترتبط بتجربة حقيقية لواقع موضوعي ، مهما كانت محدودة ودقيقة ، فالتجارب الاولى ، المستخدمة لتكوين الذكريات الاولى والوقائع الخارجية تدخل تدريجياً في تركيب الهوام . وبسرعة كبيرة يمكن لهوامات الولد ان تستند الى الصور الطبّعة كما الى الاحاسيس : الصور البصرية ، الصوة ، الحسية ـ الحركية ، اللمسية ، الذوقية ، الشمية ، الخ . . وهذه الصور الطيعة ، شأن التصورات المسرحية للهوام ، تنشأ تدريجياً ، بموازاة ترابط

---

١ ـ « ان بعض احلامنا مثلاً تدلنا على عالم مأسوي كامل لا نعيشه الا بتعابير بصرية . . . هذه الاشياء التي ندركها ونتخيلها ونشعر بها تشكل جوهر التجربة المعاشة . فالكلمات هي وسيلة للرجوع الى التجربة الحقيقية او الخيالية ، ولكنها لا تساويها ، ولا يمكن ان تحل محلها » (سوزان اسحق ـ المرجع المذكور) .

ادراكات العالم الخارجي . لكن الهوامات لا تنبع من المعرفة المتمفصلة للغالم الخارجي ؛ فمصدرها داخلي ، في الدوافع[1] . . . »

٢) الهوام والدافع الفمي .

لا شك بأن الهوامات الاولية يجب ان تربط بالتجارب الحسية الاولى للرضيع ، خاصة تلك التي لها علاقة بالوضعية الغذائية . فالهوامات تتناول العلاقات التي يقيمها الطفل مع الموضوع (الجزئي) لحاجاته الاولى ، أي مع نهد الأم . فالطفل يبدأ بهلوسة الحلمة ، ثم النهد وفيما بعد الأم كشخص بكامله من اجل لذته .

واذا حاولنا ان نترجم ما يحسه الرضيع بلغة الراشد ، يمكننا القول ان العبارة (لي رغبة للاحتفاظ بداخلي ، بنهد امي) التي تعبر عن رغبته ، يرافقها تحقيق هو امي ل (امتلك في ادخلي نهد امي) . ان الطاقة على الهلوسة لا تتحد برغبة الامتلاك والتفويض والابعاد والتقطيع ،ولكنها تحقق هواميا هذا الامتلاك او هذا التقويض . وتجدر الاشارة مرة اخرى ان الهوامات لا تتلقى صياغة خيالية وبصرية ولكنها تنتمي لتجربة جسدية معاشة .

ان محاولة كلاين التعبير كلامياً عن تجربة انفعالية معاشة ، مرتبطة بالجسد ومعبر عنها بتعابير جسمية ، فسرت على الغالب تفسيراً سيئاً ، لذلك لا نشير هنا الا الى طابعها الخاص جدا [2] .

---

١ ـ Susan Isaacs ـ المرجع المذكور .

٢ ـ ان سوزان اسحق (١٩٤٣) تعمل على تمييز هوامات الاستبدان او النبذ والاواليات النفسانية للاجتياف او للاسقاط . فالاواليات النفسية هي « شكل خاص تعمل به الحياة العقلية في استخدام التوترات الداخلية والمأزمات . . . والاواليات النفسية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببعض الهوامات المتجذرة في الاعماق » . فما يستوعب بذاته (يستبدن) هو الموضوع الداخلي الذي يشكل صورة وليس موضوعاً حقيقياً . فهذه الاحاسيس والصور تشكل تجربة جسدية معاشة من الصعب ربطها بموضوع خارجي ذي ابعاد مسافية . وهي تعطي للهوام صفة جسدية محسوسة ؛ احساساً معاشاً ، ينعكس في الجسد . لكن هذه الصور تنفصل بصعوبة عن الاحاسيس والادراكات الحقيقية ، ما دام لا يُحس بالجلد على انه حاجز يفصل الفرد عن الحقيقة الخارجية . فالصور البصرية الاولى تبقى حية ومحسوسة وقابلة للاستحضار فترة طويلة (حتى السنة الثالثة) وتبقى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاستجابات الجسمية وبالانفعالات . فالعناصر البصرية لا تسيطر على التجربة الجسمية المعاشة وتتميز عنها الا فيما بعد . فهي تصبح عندئذ صوراً ، بالمعنى الضيق للتصورات الخيالية والبصرية للمواضيع الخارجية ، المعروفة كذلك . عندها فقط يقوم التمييز بين المواضيع وصورها العقلية .

٣) الهوام ووظيفة الواقع

من الممكن اعتبار الهوام بأنه « اللغة » التي تعبر بها الدوافع الغريزية . فالادراكات الخارجية (حتى ولو لم تكن تعرف في البداية كذلك) تؤثر على الانساق النفسية . فالنفسية يجب ان تستخدم عدداً كبيراً من المثيرات ، منها ما هو خارجي ومنها ما هو دوافعي ، وهي تقوم بذلك بفضل اواليات الاجتياف والاسقاط . فإذا كان العالم الخارجي لا يرضي ، يحبط او يتقاطع مع الرغبات والحاجات ، فهو يُرفض او « يُبغض » . وهذه الاحباطات الاولى ستؤدي الى محاولة تخفيض التوتر الداخلي الناشيء ، وذلك بفضل الارضاء الهلاسي للرغبة التي تطلق الهوامات البدائية الاستبدانية او النبذية .

فالارضاء الهلاسي الخائب يشكل النزوة الاولى للتكيف مع الواقع وهو يساهم بذلك في نمو الأنا . فالجوع لا يرضى بهلاس النهد او الغذاء ، رغم ان انتظار الارضاء يمكن ان يسمح به من خلال المكافأة الهوامية . « ان الم الاحباط يوقظ فيما بعد رغبة متزايدة ، وهي استبدان النهد بكامله والاحتفاظ به كمصدر للارضاء . . . اننا نفترض استبدان النهد مرتبطاً بالاشكال المبكرة للحياة الهوامية[1] » . ان هذه المكافأة الهلاسية تعمل وتبقى فاعلة خاصة عندما لا يلاحظ التوتر الدوافعي جيداً . ولكن الرغبة لا تلبث ان تصبح قوية فيفشل الارضاء الهلاسي ويجري تجاوزه ويُستبدل اما بهوامات عدوانية ، واما بتكيف مع الظروف الخارجية الحقيقية .

ولكن كل واقع يبقى خاضعا ومدعوماً بهوامات لاواعية . فالاكتسابات المبكرة المرتكزة على الدوافع الفمية « تتحول تدريجياً الى مواضيع اخرى ، فاليد والعين لا تحصلان الا ببطء على استقلالهما بالنسبة للفم ، وذلك كادوات لاستكشاف ومعرفة العالم الخارجي » (س . اسحق) . ان عالم الرضيع يُركَّز بواسطة الليبيدو الفمي ؛ والنشاطات الذكائية واليدوية تحتفظ طيلة الحياة

---

١ ـ S. Isaacs ـ المرجع المذكور .

بمعنى فمي ، اكان ذلك في الهوام اللاواعي ام بالاستخدام المجازي للمخاطبة[1]

٤) الموضوع الجزئي

خلال الاشهر الاولى من حياة الطفل ، تتبلور حاجاته في النطاق الفمي فنهد الأم يرضي هذه الحاجة الفمية بشكل اختياري . وباعتباره موضوعاً جزئياً يمكن للنهد ان يهلوس او يهوم من قبل الطفل ، ويُجتاف : فالموضوع الجزئي (نهد الأم) يتمسك به الطفل باعتباره يشكل جزءاً من نفسه . ان مثل هذا الاجتياف يحصل لأن الصفة الخارجية لا يمكن ادراكها في هذه المرحلة .

فطالما ان الهوامات تستخدم مرتكزاً لتصور الحاجة ، فإن الموضوع المهوّم والمجتاف يعيشه الولد كنهد سيء او حسن ، حسب ما تكون حاجته (الفمية) مكافأة او محبطة . فهذه التجارب من المكافأة والاحباط لا يمكن عيشها بعد كأحداث خارجية : فهي تغلف بشكل خيالي في احساس الطفل غير المميز بعد . يوجد بالفعل مواضيع عديدة مجتافة ، وكل واحد مطبوع بالمؤثر المرتبط بالتجارب المعاشة او المهومة ؛ في هذه المرحلة تتقدم المكافأة والاحباط على النشوء المتزامن لنهد حسن او نهد سيء .

الا ان نهد الأم ليس وحده الموضوع المجتاف . وكما سوف نرى لاحقاً ، فإن ميلاني كلاين تعتبر ان الطفل بين ٦ اشهر وسنة قد بدأ ينخرط فعلاً في مرحلة اولى مبكرة للاوديب . فالأم لا تمتلك فقط الغذاء الجيد ، لقد امتلكت ايضاً (بالاستبدان الفمي) « قضيب الأب » ، رمز الاحباط الاوديبي .

فقضيب الأب ، الموجود في بطن الأم يصبح ، على اثر التغيرات الهوامية . موضوعاً مرغوباً ومهدداً في نفس الوقت ، وهكذا يصبح منقسماً الى قضيب حسن وسيء .

فنهد الام وقضيب الأب يمكن ان يطبعا بصفة مكافئة او مضطهدة ، ولكن

---

١ ـ لقد لاحظت اسحق وغيرها الى اي حد تحمل عبارات مثل « التهم بالعينين » ، « استوعب بالاذنين » و« هضم المعلومات » طابع التركيز الفمي على عدد كبير من النشاطات .

وظيفتها ليست متشابهة . فبينما النهد ، الحسن او السيء ، لا يزال ينتمي ، ولبعض الوقت ايضاً ، الى مجال الحاجة ، فإن القضيب قد يدخل الطفل الى مجال الرغبة[1] .

وهكذا بالنسبة لميلاني كلاين كل واقع خارجي يجتاف على شكل احساس فردي ، يلعب دور الحقيقة الداخلية وهو ضاغط مثل الاول ان لم يكن اكثر . فإقامة علاقات الـذو مع مواضيعه الـداخلية او الخـارجية ، يصبح خاضعـاً باستمـرار لهـذه الهوامـات . والمأزم النفسي لا يعـارض بـين الدافـع والقـوى القمعية ، وانما يجري في التصادم المستبطن بين الدوافـع اللبيدوية ودوافـع التهديم[2] .

---

١ ـ ان مثل هذه النظرية تشكك بمقام هذا الموضوع .فهل يتعلق الامر بموضوع حقيقي او موضوع خيالي ؟ اننا نجد هنا انقساماً في وجهات النظر . بالنسبة للمحللين التكوينيين فإن الموضوع الحقيقي هو الذي يلعب دوراً مبيناً بسبب وجوده او غيابه ، وذلك بالمكافآت التي يمنحها او الاحباطات التي يفرضها ، اما ميلاني كلاين والمدرسة الانكليزية فلا ترى في حقيقة الموضوع الا طابعاً اضافياً : فما يهم قبل كل شيء هو الموضوع الخيالي المسبب للمأزم النفسي الداخلي . فكما يلاحظ سيغال Segal (١٩٦٤) ، هذه المواضيع ليست « اشياء » يمكن موضعتها في الجسد او في النفسية ولكن هوامات لاواعية تتعلق بالمحتوى . ان نمو الطفـل يتأثر الى حد ما بالتجارب الحسنة او السيئة بعلاقتها مع العالم الخارجي . ولكن الشكل الذي تعاش به هذه التجارب من قبل الولد ـ وتتكامل فيما بعد ، في نفسية الراشد ـ يتعلق بهذه الهوامات اللاواعية .

٢ ـ اننا نقبل بوجود نوعين من الدوافع ، مختلفين جوهرياً : الدوافع الجنسية ، كلمة جنسية مأخوذة بمعناهـا الواسع ، وغلم ودوافع العدوان التي تهدف الى الهدم . . . مما يدفعنا للقبول عند الرجل بوجود غريزة العدوان والهدم ، وهي بعض الاعتبارات العامة التي توحيها ملاحظة ظاهرتي السادية والمازوشية : فالمازوشية ، اذا تركنا جانباً تراكيبها الغلمية ، تكشف لنا عن وجود ميل لتدمير الذات . اذا كان صحيحاً ، في حالة دافع التدمير ايضاً ، ان الأنا يشمل كل الدوافع ، فإن ينتج عن ذلك ان المازوشية هي اقدم من السادية ، ولكن السادية هي دافع التدمير المتجه نحو الخارج الذي يحوي بالتالي طابعاً عدوانياً . ان جزءاً معيناً من دافع التدمير البدائي سوف يستمر داخلياً » (فرويد ، ١٩٣٣) .

ان هذا الدافع البدائي للتدمير هو الذي يدعوه فرويد ، في نفس هذا النص ، دافع الموت وهو بذلك يتعارض مع جميع الدوافع الليبيدوية

« بالتعرف في هذا الدافع على التدمير الذاتي الذي تتكلم عنه نظريتنا ، فإننا سوف نعتبره كمعبر عن دافع الموت الذي يظهر في جميع انساق الحياة على الاطلاق . وهكذا يمكننا ان نقسم الدوافع التي قبلنا بوجودها الى مجموعتين : الدوافع الغلمية التي تعمل دائماً على تجميع المزيد من المادة الحية لتكون منها اكبر وحدات ، ودوافع الموت التي تتناقض مع هذا الميل وتدفع بالمادة الحية الى حالتهـا اللاعضـوية » (فرويد ١٩٣٣) .

ان المواضيع المجتافة تبرز هذا الصدام بين الدوافع : فالمواضيع الحسنة والمكافئة تمثل الدوافع الليبيدوية ، بينما المواضيع السيئة المحبطة ، تتوافق مع دوافع التدمير . فنهد الأم ، بقدر ما يشبع الحاجات ، يصبح المرتكز الهوامي للموضوع الحسن . ولكن في المرحلة السادية ـ الفمية يتعرض الولد لاحباطات فمية تكون اشد ألماً كلما كانت حاجاته الفمية اكثر حدة ومشحونة بالعدوانية : فنهد الأم ، المرتكز الهوامي للاحباط ، يصبح الموضوع السيء الذي يشكل سنداً للدوافع والهوامات الهدامة . فالنهد السيء يصور هنا الركن المحبط ، وفي نفس الوقت المكان حيث تتوجه عدوانية الطفل . وهكذا تقوم ، بفضل اواليات الاجتياف والاسقاط علاقات الطفل بالمواضيع الجزئية .

وبقدر ما يصبح الطفل قادراً على مواجهة الشحنات الدوافعية ، تعتبر ميلاني كلاين انه يملك منذ الايام الاولى انا اولياً ـ مختلف جداً عن الأنا الاكثر تنظيماً لولد متقدم العمر ـ ولكن تسمح له بالتعبير عن القلق ، ويدافع عن نفسه تجاهه ويقيم علاقات غيرية . فالأنا يتعرض للقلق الذي تحدثه الثنائية الدافعية ، وكذلك للتأثيرات الخارجية . « بمواجهة القلق الذي يحدثه دافع الموت ، يقوم الأنا بتحويله . هذا الانحراف يشكل جزئياً اسقاطاً وبجزء آخر تحول دافع الموت الى عدوانية . فالأنا ينشطر ويسقط على الخارج ، على الموضوع الخارجي الاساسي ، النهد ، القسم من ذاته الذي يحتوي على دافع الموت . وهكذا يبدو النهد سيئاً ومهدداً للأنا ، اذ يوقظ شعوراً بالاضطهاد . . . والجزء الباقي من دافع الموت الذي يبقى في الذات يتحول الى عدوانية موجهة ضد المضطهدين » (سيغال ١٩٦٤) .

بنفس الطريقة يُسقط اللبيدو على موضوع خارجي ، ليخلق موضوعاً مثالياً : النهد الحسن . منذ هذه المرحلة يقيم الأنا اذن علاقة مع موضوعين

تابع ان هذه النظرية حول دافع الموت قد جرى نقاشها والتشكيك فيها كثيراً . لقد اشار ويلدر Waelder (١٩٦٠) بأنه يجب التمييز بين نظرية دافع الموت ومظاهر دافع التدمير : فالاولى تنتمي الى مجال الفرضيات الاحيائية ، والثانية هي نظرية عيادية او نفسانية . بالنسبة لويلدر وغيره ، ان نظرية دوافع التدمير تبقى صحيحة ، حتى ولو لم يجر التحقق من فرضية الدافع البدائي للموت (Thanatos) .

ينتجان عن انشطار الموضوع الاولي : النهد المثالي والنهد المضطهد . فهوام النهد المثالي يندمج مع تجارب الحب المكافئة ، بينما الهوامات المضطهدة تتوافق مع التجربة المعاشة في الحرمان والكدر التي يعيدها الطفل الى النهد السيء . فالطفل يسعى للاحتفاظ بالموضوع المثالي في ذاته ، ولأن يتماهى به ، لأنه يحسه كحماية له . وهو يحاول من جهة اخرى ان يبعد الموضوع السيء الذي يشكل تهديداً . الا انه تجدر الملاحظة بأن الموضوع الحسن يمكن ان يُسقط على موضوع خارجي ليضعه بمعزل عن الدوافع العدوانية ، وبأن الموضوع السيء يمكن ان يُجتاف حتى تجري السيطرة على قدرته الهدامة . في هذه الوضعيات المقلقة « يتسع الانشطار ويُستخدم الاسقاط والاجتياف لابقاء الموضوع المضطهد بعيداً قدر المستطاع عن الموضوع المثالي ، بينما الاواليتان تبقيان تحت الرقابة » .

٥) الموقع شبه العظامي ـ شبه الفصامي .

ان هذا التحديد المزدوج ـ القلق الاضطهادي وانشطار الأنا والموضوع ـ قد قاد ميلاني كلاين الى تعيين علاقة الموضوع هذه بعبارة موقع شبه عظامي ـ شبه فصامي[١] .

بهذا الموقع ترتبط بعض اواليات الدفاع : الاجتياف الذي يحاول الاستئثار بالموضوع الحسن ، والاسقاط ، الذي يعمل على ابعاد الموضوع المضطهد هما الاواليتان الاكثر بدائية .

ولكن يجب اعطاء اهمية خاصة لأوالية انشطار الموضوع التي تحمي الموضوع المثالي ضد الموضوع المضطهد ، فهذا الانشطار يلعب دوراً مهماً في تنظيم الأنا فيمكنه من تصنيف التجارب المعاشة بالتسلسل ، مع تمييز المواضيع الحسنة والسيئة ، الخ . مهما كان نسق الانشطار قوياً خلال الاسابيع الاولى ، فهو سيستخدم فيما بعد ، عندما تخف حدته ، كقاعدة عاطفية لأنساق التمييز

---

١ ـ من الضروري هنا ازالة سوء التفاهم حول استخدام ميلاني كلاين لتعابير موقع شبه عظامي ـ شبه فصامي وموقع خواري . في نظريتها لا يتعلق الامر بحدث ذهاني وانما بمراحل طبيعية وضرورية خلال تطور اي ولد . هذه المواقع تشكل نقاط ثبات : فإذا نكص الفرد عن هذه المراحل المبكرة في تطوره ، يفقد معنى الواقع ويصبح ذهانياً . ان ميلاني كلاين تعتبر ان العصابي ، خلافاً للذهاني لا ينكص حتى هذه المراحل البدائية .

والمحاكمة ، وسيساهم بتكوين اوالية الكبت ، فميلاني كلاين تستخلص ايضاً من بين الاواليات ، التماهي الاسقاطي : فهو يمكن الفرد ، المتماهي مع بعض اجزاء اناه المسقطة على مواضيع خارجية ، من ان يتماهى مع مشاهر هذه المواضيع .

فهذا الموقع شبه العظامي ـ شبه الفصامي يجب ان يوضع في السياق الشامل للتجربة الطفلية المعاشة . فالمكافآت المحصلة بالغذاء او الطمأنينة تسمح للولد بالشعور بلذة حقيقية وتجعل الارضاء الهلاسي لرغباته امراً معقولاً . بفضل ذلك ، يمكن للولد ان يتمثل المواضيع المثالية ويتكامل معها . ولكن مهما كانت الظروف ملائمة ، فكل الاولاد يشعرون بفترات من القلق سوف تكون النواة الاولية للموقع شبه العظامي ، والتي تبقى آثاره فاعلة طيلة الحياة بكاملها ، حتى عند الفرد المتكيف تكيفاً جيداً . فالموقع شبه العظامي الذي يستخدم للدفاع ضد القلق يحقق قاعدة انطلاق لا بد منها للنمو اللاحق .

فالموضوع الحسن يشكل المطية الاولى للموضوع المثالي . والموضوع المثالي والموضوع المضطهد يشكلان في اجتيافهما العناصر الاولية التي يبنى انطلاقاً منها الأنا الاعلى في المراحل اللاحقة .

فالنهد السيء المفترس ، الموضوع المضطهد ، يُعاش كركن مشترع رهيب ، هو الأنا الاعلى ، مصدر الممنوعات والعقوبات ؛ بينما النهد الحسن المجتاف ، الموضوع المثالي ، يستخدم كقاعدة للمثل الأعلى للأنا الذي مهما كان ضاغطاً ينشيء صورة الكمال المثالي ، الذي لم يُحقق مطلقاً .

فعندما تكون الظروف ملائمة ، وتتفوق التجارب الحسنة على التجارب السيئة ، يقتنع الولد شيئاً فشيئاً بأن موضوعه المثالي والدوافع الليبيدوية يمكن ان تتغلب على الموضوع السيء ودوافع الموت[1] . وتماهي الفرد بالموضوع المثالي

---

١ ـ فعندما تستند ميلاني كلاين الى الظروف الملائمة او غير الملائمة ، فإنها تأخذ بعين الاعتبار العوامل الخارجية والداخلية بنفس الوقت . فهي تقر بأن الحرمان او الاحباطات ، اكانت من طبيعة مادية او نفسانية ، تمنع التجارب المكافئة . ولكن حتى عندما تكون عوامل الوسط هذه ملائمة ، فالمكافأة يمكن ان تخفف او تلغى بسبب تدخل عوامل داخلية ، واهمها ما تدعوه ميلاني كلاين الاشتهاء الذي تعتبره كأحد الانفعالات الاساسية وهو يختلف تماماً عن الغيرة او الجشع . للتوسع بهذا المفهوم ، راجع ميلاني كلاين Envie et gratitude (١٩٥٧) .

يحميه ضد القلق الاضطهادي ويقوي الأنا الذي يستطيع ، بعد الآن ، مواجهة القلق دون الركون الى اوالية الانشطار . فالأنا يتسامح اكثر مع دوافعه العدوانية الخاصة ويشعر اقل بضرورة اسقاط هذه الدوافع على مواضيع اخرى . وهكذا يبدأ التمييز بين ما ينتمي للذات وبين ما يعود للمواضيع . وبعبارة اخرى يصبح الفرد مستعداً لتمييز جسده الخاص عن العالم الخارجي .

٦) الموقع الخواري

في التطور الطبيعي يجري التخلي تدريجياً عن الموقع الاضطهادي لصالح نسق مكامل دعته ميلاني كلاين الموقع الخواري . في هذه المرحلة يصبح باستطاعة الطفل ان يتعرف على الموضوع المكتمل وليس المجزأ ، فالموضوع الاول الذي يجري التعرف عليه هو الأم . « التعرف على امه كموضوع كلي يعني بالنسبة لنا ان هذا يختلف عن علاقات الموضوع الجزئي وعلاقات الموضوع المنشطر ؛ وبعبارات اخرى ان الرضيع لا يتموضع فقط اكثر فأكثر بالنسبة لنهد ويدي ووجه وعيني امه التي يراها كمواضيع منفصلة عنه ، بل يتعرف عليها ايضاً كشخص كلي يمكنه ان يكون صالحاً احياناً واحياناً سيئاً ، تارة حاضراً وتارة غائباً ويمكن ان يحب او يكره . فهو يبدأ برؤية ان مشاعره الحسنة والسيئة لا تأتي من نهدٍ حسن او سيء ، من ام صالحة ام سيئة ، ولكن من ام واحدة تجمع ما هو حسن وسيء بنفس الوقت » (سيفال ١٩٦٤) .

فالتعرف على الأم كشخص كامل يفترض بالتالي التعرف عليها كمستقلة ، كما يكتشف الطفل عجزه وتبعيته وغيرته . ان مثل هذا التعرف يفترض بأن انا الطفل لا ينشطر ، بل يبقى واحداً ، كالموضوع نفسه[1]

ان تكامل الأنا يتماشى مع البلوغ الفيزيولوجي والنفساني وتوطيد انساق الفكرة والذاكرة ، ومثل هذا التطور يؤدي الى الوعي بأن الولد يحب ويكره بنفس الوقت شخصاً واحداً فقط ـ الأم .

في هذهالمرحلة تختص العلاقة بالموضوع بالتجاذب الوجداني . فقلق

---

١ ـ بالرغم من انه يجري بعبارات مختلفة ، فالموقع الخواري يتوافق مع ما يسميه سبيتز قلق الشهر الثامن .

الاضطهاد ، الموجود اثناء الموقع شبه العظامي ، يستبدل في المرحلة الخوارية بقلق مركز كلياً على الخوف من ان تتمكن دوافعه التدميرية من تقويض الموضوع الذي يحبه وهو يتعلق به كلياً الى هذا الحد .

ان الحاجةالى تأمين امتلاك هذا الموضوع الذي يشعر بأنه يفلت منه ، يقوي انساق الاجتياف . فباستبدان الموضوع يحميه ضد دوافعه المريرة . فالموقع الخواري يتركز عند المرحلة السادية ـ الفمية حيث ترتبط الحاجة والحب بالدوافع العدوانية في العض وبهوامات الالتهام . فالاجتياف يمكن من حماية الموضوع الحسن ضد الدوافع المدمرة الممثلة ، ليس فقط بالموضوع السيء الخارجي ، وانما ايضاً بالموضوع السيء المستبطن .

وكذلك فالطفل ، في ذروة تجاذبه الوجداني يشعر باليأس الخواري ، وبالحزن على هذا الموضوع الضائع او المهدم ، وبالذنب كونه هو نفسه الذي هدم هذا الموضوع الداخلي ، الذي يحيشه الولد بعد ذلك كموضوع مجزأ ، وبسبب تماهيه مع هذا الموضوع ، يشعر بأنه هو نفسه مجزأ .

ان الهدم الهوامي للموضوع يحدث عند الطفل رغبة في اصلاحه لكي يجده حياً وكاملاً ، فالمأزم الخواري هو صراع مستمر بين الدوافع الهدامة وميوله الاصلاحية التي تؤثر على صعيد الجبروت الوهمي الذي يعيده الولد لرغباته .

فالموقع الخواري يشكل فرتة حاسمة في النمو، لان الولد، باكتشافه حقيقته النفسية الخاصة يصبح قادراً على تمييز الهوام عن الواقع . وفي الظروف الملائمة ، عندما يواجه الولد دوافعه الهدامة مع الواقع الذي تمثله امه ـ ظهورها بعد غيابها ، استمرار تضحيتها ، ومواصلة حبها ـ عليه ان يتخلى تدريجياً عن ايمانه بجبروته ويتعلم ان يقدر حدود قدرته وحبه وبغضه بشكل افضل .

« ان الموقع الخواري لا يوضح غالباً بشكل كامل . فالقلق الذي يحدثه التجاذب الوجداني والشعور بالاثم ، وكذلك وضعيات الضياع ، التي توقظ تجارب معاشة من الخور ، هذا القلق لا يتركنا ابداً . فالمواضيع الحسنة الخارجية في حياة الراشد ترمز دائماً الى الموضوع الحسن الاولي ، الداخلي

والخارجي ، وهي تحوي منها على اوجه معينة ، بمعنى ان كل ضياع لاحق يحيي قلق ضياع الموضوع الحسن الداخلي ، ومعه كل اشكال القلق المعبر عنها اصلاً في الموقع الخواري . فإذا استطاع الرضيع ، بثقة نسبية ، ان يكوّن موضوعاً حسناً داخلياً في الموقع الخواري ، فإن وضعيات القلق الخواري لا تؤدي الى المرض ، ولكن الى ارصان مثمر يقود الى اغناء وابداعية لاحقة » . ويتابع الكاتب فيما بعد :

« فحيث لم يجرِ بلورة الموقع الخواري بشكل كاف ، وحيث لم يتم الاعتقاد بطاقة الحب وابداعية الأنا ، وكذلك بإمكانيته على استعادة المواضيع الحسنة الداخلية والخارجية ، فإن النمو لا يكون ملائماً . فالأنا يصبح ملاحقاً بالخوف الدائم من تضييع مكتسباته الحسنة الداخلية كلياً ، وعلاقاته مع الواقع يمكن ان تكون دقيقة ، ويبقى الخوف الدائم واحياناً التهديد الحقيقي بالنكوص المؤدي الى الذهان » .

« ولنلاحظ ان الموقع الخواري لا يُحل ابداً بشكل كامل . والشعور بالاثم والتجاذب الوجداني يمكن ان تزيد فعاليتهما خلال التجارب الخوارية اللاحقة . ان فقدان كائن محبوب ـ الذي يمثل الموضوع الحسن الاولي في الطفولة الاولى ـ يوقظ كل قلق الموقع الخواري . فإذا سمح هذا الموقع الخواري توطيد موضوع حسن داخلي ، فإن الفرد يصبح قادراً ان يواجه ردود الفعل الخوارية في حياته الراشدة . ولكن اذا لم يوطد هذا الموضوع الحسن بشكل صلب ، فإن الفرد يصبح مهدداً على الدوام بخسارة مواضيعه المحبوبة بشكل نهائي . ان هذا الشك لا يمكّن الفرد من ان يصبح فعلاً سيد واقعه ، ويبقى دائماً تحت رحمة النكوص الذهاني اللاحق » (سيغال ، ١٩٦٤) .

٧) المراحل المبكرة للمأزم الاوديبي .

عندما تتكون الأم كموضوع كلي ، يدرك الطفل انه يوجد علاقات بينها وبين الأب . الا ان هذه العلاقات لا يمكن ضبطها الا عبر الميول الغيرية ؛ فالعلاقات بين الاهل (الحادثة البدائية) تهوم كتتابع الافعال المكافئة ـ فمية ، شرجية وتناسلية ـ وتوقظ عند الولد مشاعر حادة من الغيرة والابعاد . ان هوام

الاستبدان الفمي لقضيب الأب من قبل الأم يشكل احد المقولات الأكثر شيوعاً[1] .

ولكن في المرحلة السادية ـ الشرجية وفي الاحباطات الشرجية ، يسعى الولد بواسطة الهوام ، للاستئثار بمحتويات امه (البراز ، قضيب الأب والاولاد الخ . .) بتقويضها ليتمكن من الدخول في جسده . والعلاقات بين الاهل نفسها يعيشها الولد كعدوان متبادل عن طريق اسقاط الميول العدوانية .

فاذا كان من المستحيل ، في اطار هذا العرض ، استكشاف جميع تعرجات الهوامات الاوديبية ، فانه يمكننا على الاقل اعطاء صورة عن تسلسلها :

ـ بواسطة هوام الاستبدان الفمي لقضيب الأب ، تصبح الأم مالكة له وهي تريد الاحتفاظ لنفسها بهذا الموضوع الذي يشتهيه الولد في المرحلة المبكرة من الاوديب . هذه الأم ، المالكة لقضيب داخلي تصبح الشكل الاول « للمرأة القضيبية » ؛

ـ وبالهوامات العدوانية يحاول الولد بالهجوم والهدم وتقطيع الموضوع الأمي ان يصبح سيد النهد الحسن والقضيب الحسن بنفس الوقت ؛

ـ وبسبب دوافعه السادية ـ الفمية يُسقط الولد على المواضيع الجزئية عدوانه الخاص فتصبح ا لمواضع مشحونة بصفة اضطهادية ؛

ـ بهذا الاسقاط تهدد المواضيع السيئة المواضيع الحسنة المجتافة ويصبح الفرد معرضاً هكذا لقلق التجزئة الذي يصارعه بنشاط هوامي متزايد .

ان ميلاني كلاين تعلق اهمية كبرى على هوام الاهل الموحدين : فالأم تبدو كموضوع كامل ، ولكنها تحتوي الأب بمجمله او جزءاً منه (القضيب) . فالولد لا يستطيع بعد ان يميز صورة الأم عن صورة الأب ، وبمثلنة الأم يمثلن الولد كل ما تحتويه . وباسقاط ميوله العدوانية يمكن لصورة الاهل المختلطين ان تتحول الى مضطهد مرعب .

---

١ ـ ان هذه النظرة تفترض ، منذ الصغر ، معرفة معينة ـ ولوحدسية ـ بالشراحة الجنسية . ومهما كانت القاعدة العصبية ـ الفيزيولوجية لهذا النشاط العقلي فإن التحليلات المبكرة تصل فعلاً للحادثة البدائية ، الهوام البدائي الثابت العامل لصالح النشاط الخيالي منذ الطفولة الاولى . انظر لابلانش وبونتاليس (١٩٦٨) .

فالمأزم الاوديبي ، كما تعتبره ميلاني كلاين ، يوجد طالما الزوجان المتحدان او المميزان ، يمثلان الموضوع المحبط . وباسقاط عدوانيته ، يمكن للولد ان يصبح نفسه موضوع العداء الهوامي للزوجين ؛ وبالاجتياف يستبدن الطفل ، في المرحلة الخوارية ، ليس فقط نهد الأم المهدَّم ، وانما ايضاً الأم والأب المقوضين والهدامين . فقلق التجزئة الذي كان قائماً في المرحلة الاضطهادية يستبدل بعد ذلك بقلق الخصي .

في هذه المرحلة المبكرة من المأزم الاوديبي يصبح الولد بمواجهة رغبته في تقويض الاهل وخطر تقويضه من قبلهما . وللاحتماء من مشاعر الحرمان والاشتهاء والهوامات الهدامة التي توقظ القلق والشعور بالاثم ، يلجأ الولد الى اواليات دفاعية مختلفة مثل الانكار والانشطار والمثلنة . فالانشطار يعمل على فصل القريب الحسن عن السيء فهو يمثلن قريباً ويجعل من الآخر كعامل اضطهادي : وهذه العلاقة تبدو ايضاً كتمثيل مسبق للمأزم الاوديبي التناسلي . فالمرحلة المبكرة من المأزم تختص بالتجاذب الوجداني وبأولوية المقولات الفمية وبالشك في الخيار الغيري ، لأنه من الصعب القول أي واحد من الأهل يبدو مرغوباً بالنسبة للولد واي منهما مكروهاً .

ان الانتقال من الوضعية الفمية الى الوضعية التناسلية محكوم بتقلبات متعددة . فإذا كان موضوع الرغبة البدائي يتمثل بنهد الأم ، فلا يمكن للأب ان يعتبر الا كمنافس . وبسبب القلق الاضطهادي والخواري ، يصبح قضيب الأب موضوع الرغبة الفمية بشكل ثانوي ، وبالتالي موضوعاً للاخضاع ، للاستبدان او للتقويض . فقضيب الأب يصبح موضوع الرغبة التناسلية بفضل التنقلات والانزلاقات .

بالنسبة للصبي ان هذا التركز لقضيب الأب يشكل ميلاً لواطياً ، ولكن في نفس الوقت يسمح هوام استبدان قضيب الأب للصبي بأن يتماهى مع الأب ويقوي بذلك موقفه الجنسي المتغاير. على العكس بالنسبة للبنت فإن التركز يشكل بداية لموقفها الجنسي المتغاير . ان رغبتها بامتلاك قضيب هي التي تساهم بسحاقيتها (مثلانيتها الجنسية) وبطلبها للقضيب . وبمعرفة جنسه يستطيع

الولد ان يحدد خياره الغيري على القريب من الجنس الآخر وان يتخلى عن القريب من نفس الجنس . ولكن خلال النمو اللاحق تبقى الآثار الفمية والشرجية فاعلة دائماً وتحمل الوضعية الاوديبية التناسلية اثرها بشكل دائم ، وذلك على شكل تصورات رمزية .

فالعمل التناسلي يمكنه هكذا استبدان وترميز كل الاشكال البدائية للعلاقة البدائية ، وكل خيار غيري يبقى متجاذباً وجدانياً الى حد ما .

وبفضل الحل التدريجي لهذا الاوديب المبكر ولامكانية التماهي بأحد الوالدين ، سوف يفقد الأنا الاعلى وجهه الاولي المرعب ويمتزج بصورة الزوجين المجتافين . فالأنا الاعلى البدائي لا يعود يُشحن فقط بالشعور الآثم ، ولكنه يجب ان يمكن الولد من تجاوز دوافعه الهدامة .

ان عمل الحزن في الفترة الخوارية وميول الاصلاح التي تحاول اعادة الموضوع الداخلي المفقود ، هي مصدر اية ابداعية واي تسامي . فالتسامي بالنسبة لفرويد يشكل نهاية التخلي الناجح الذي يتخلى عن هدف دوافعي بدائي لصالح هدف جديد اكثر كسباً واكثر قبولاً ، بالنسبة لمتطلبات الأنا والاقتصاد النفسي . فالميل الاصلاحي يحقق هذه الوظيفة المزدوجة التي تقود الولد الى رغبة ابداع او اعادة ابداع ما قد انشطر او انهدم ، واعلاء دوافعه الهدامة للحفاظ على الموضوع المحبوب . ان هم الحفاظ على الموضوع يحول الهدف الدافعي باتجاه جديد ويصد الدوافع البدائية للهدم وللهدم الذاتي .

انطلاقاً من هنا تعتبر ميلاني كلاين انه يجري التخلي عن اواليات الدفاع « الذهانية ، مثل الانشطار وتستبدل بدفاعات « عصابية » : مثل الكبت والانتقال والصد .

ان ميلاني كلاين تضع في هذه المرحلة الخوارية اصل تكون الرموز . فانتقال الهدف الغريزي يؤدي الى استبدال الموضوع الاصلي للدافع بمواضيع بديلة : فالكاتبة ترى في هذا رابطاً بين التسامي والتكون الرمزي .

فالحزن وحده هو الذي يمكّن من التخلي نهائياً عن موضوع ليبيدوي ، مثل

نهد الأم في نهاية المطاف . ولكن لا يمكن التخلي عن الموضوع الا اذا وجد مكانه في أنا الذو ، وذلك بسبب ابدال رمزي . ان هذا الانتقال من النظام الخيالي الى البعد الرمزي يدشن انساق الفكر التجريدي ويمكّن من ضبط الواقع .

اننا نرى ، في نظرة كلاين ، ان الموضوع لا يُتخذ بمعنى « تكويني » ، ولكن ينتج من ارصان تدريجي للهوامات . ان ميلاني كلاين لا تنكر التجربة الحسية المعاشة للولد . فهي تقيم هذه التجربة فعلاً معلقة اهمية اساسية على التجارب الحسنة والسيئة في انبثاق الوضعيات المأزمية الاولى . ولكنها تضيّق المدى المباشر لهذه التجارب ، او انها لا ترى فعاليتها الا بمقدار ما تخضع هذه التجارب لارصان خيالي يدخل الولد في البعد الرمزي .

٨) نقد اعمال ميلاني كلاين

ان الجدال بين ميلاني كلاين وانّا فرويد ادى الى سلسلة من النقاشات داخل الجمعية البريطانية للتحليل النفسي عام ١٩٤٣ ، بهذه المناسبة اجرت سوزان اسحق وبولاهايمان وميلاني كلاين سلسلة من المحاضرات ، جمعت في كتاب جماعي : Developpement de la psychanalyse (١٩٥٢) . فكما كتب جوان ريفيير Joan Rivière (١٩٥٢) في مقدمته ، يؤخَذ على ميلاني كلاين « اما بشكل ضمني ، ولكن احيانا بقوة ، ان فرضياتها للعمل لم تكن من التحليل النفسي . والبعض الآخر يعتبر ان عملها يشكل نظرية نفسانية مستقلة » .

فالمدرسة الانكليزية ، دون ان تنكر بأن بعض مقترحاتها تبتعد عن مقترحات معارضيها ، تعتبر انها متصلة بأعمال فرويد وتدعي بأن عملها يستند الى النظريات الفرويدية . وهي تشير الى انها لم تتخل عن نظرية الدوافع ، ولا عن المفاهيم الاساسية للتحليل ، وانها حافظت على الرابط الذي يجمع علم النفس بالمعطيات الاحيائية .

في هذا الاطار ، من الضروري التساؤل ما هو معنى القبول غير المشروط للنظريات الفرويدية ، ان اعمال فرويد ، التي تمتد على حوالي خمسين سنة ، خضعت ، حتى من قبله ، الى تبدلات مستمرة . ويجب الاعتراف بأنه كان

مستعداً للرجوع عن بعض الصياغات وانه فضل الابقاء على بعض التناقضات والشكوك بدل ان يحسم بعض المسائل بشكل معتقدي . وصحيح أيضاً بأن النظرة الكلينية ليست منزهة عن النقائص . « ان مهمة حل هذه التناقضات متروكة للمستقبل ويجب ان تكون نتيجة ملاحظات جديدة واستبصار جديد . والمهم ، بالنسبة له ، ان لا ينكر اي جزء من الحقيقة حيثما يراه » (ريفيير ١٩٥٢) . الا ان كل المحللين يدعون الانتماء حرفياً الى فرويد . « في هذه الجدالات نشعر احياناً بانطباع هزلي : فكل فريق يدعي بأنه اكثر فرويدية من الآخر ، بمعنى ان كل فريق يبرز بالحاح احدى اوجه مقولات فرويد ويلتزم بها ؛ الاول ، الشكل الاولي لأفكاره ، والثاني شكلها المتغير او اللاحق » (ريفيير ١٩٥٢) .

اننا نجد هذا الجدل حول دافع الموت ونظرية القلق . ان مفهوم دافع الموت ، كما اقترحه فرويد عام ١٩٢٢ اعتبره بعض المحللين بأنه تخيل فكري محض فرفضوه وادعوا بأنه بالامكان تجاوزه (وبهذا رفضوا ضمنياً جزئاً مهماً من النظرية الفرويدية التابعة لادخال هذا المفهوم) . على العكس من ذلك ، فإن ميلاني كلاين ترى في هذا الدافع ضرورة اساسية وان قسماً كبيراً من نظريتها ينبثق عنه ، خاصة كل ما يتعلق بالقلق المنبثق مباشرة عن دافع الموت . عندما نعلم ان القلق الطفلي يشكل بالنسبة لابحاث كلاين خط التوجيه الذي يسمح لها باتباع كل تطور النفسية ، اننا نفهم بشكل افضل المقام المخصص لدافع الموت في البناء النظري .

هذه الاختلافات لا تتعلق فقط بالبنية ا بة النظرية ولكنها اثرت على وجهات النظر التي تستند اليها الممارسة . سوف نرى فيما بعد الى اي حد تحور الاختلافات ، المعتبرة لأول وهلة ثانوية ، في ممارسة التحليل بالذات .

ان الانتقادات الموجهة لنظريات كلاين هي ذات ابعاد متعددة . الا انه تجدر الاشارة بأن بعض المفاهيم ادخلت شيئاً فشيئاً في النظرية التحليلية ، حتى من قبل المحللين الذين لا يعتبرون انفسهم اتباعاً « للكلاينية » .

ان انتقاد غلوفير E. Glover (١٩٥٤) يدور حول الاسقاطات ما وراء

النفسانية التي ادخلتها ميلاني كلاين . بالنسبة لغلوفير ، ان المدرسة الانكليزية، بكلامها عن الهوام تهمل الفرق بين الصورة الذاكرية والتصور المهوم ، وتخفف التمييز الموضعي بين مختلف الاركان . فالأنا الفمي ـ القضيبي الذي يناقض الأنا الاعلى البدائي ، هو وحده الذي يبرز . فهذا الكاتب لم يستطع القبول بالتعميم الذي قاد ميلاني كلاين لاستنتاج تأريخية المواقع الاضطهادية والخوارية انطلاقاً من الهوامات المكتشفة خلال التحليلات المبكرة . اما غلوفير فيبغي التمسك بالنظرة القائلة ان الهوام هو نتيجة احباط ، وهو اذن يتبع ارصاناً مكوناً من ثلاث مراحل : أ) فشل الارضاء الهلاسي للرغبة ؛ ب) التعرف على موضوع ليبيدوي ؛ ج) كبت الدوافع .

وهناك انتقادات حديثة (كيرنبرغ Kernberg ١٩٦٩ ؛ كليفوردبورك Clifford Yorke ١٩٧٢) اوضحت عدة نقاط اختلاف بين مواقع ميلاني كلاين ومواقع معارضيها . بالنسبة لهذين الكاتبين ان ميلاني كلاين تبتعد عن النظريات التقليدية في النقاط التالية :

ـ المأزم النفسي ، بالنسبة لميلاني كلاين ، لا يواجه الاركان النفسية المختلفة (الأنا ، الهو ، الأنا الاعلى) ولكنه ينتج من تعارض اصلي بين دوافع الحياة ودوافع الموت .

ـ ونموذج الجهاز النفسي يختفي في مفاهيم ميلاني كلاين ، فحسب كليفورد يورك ، يوجد في نظرية كلاين خطأ لغوي : هناك استبدال للأنا ، وهو ركن تنفيذي وتركيبي للنفسية ، بالذات (Self) ، الذي هو مفهوم اوسع ، واقل تحديداً .

ـ الانساق الدفاعية التي عالجتها كلاين واتباعها (الاسقاط ، الاجتياف ، المثلنة ، التماهي الاسقاطي ، الانشطار ، الدفاعات الاهتياجية) تتعلق بالنشاط الهوامي ولا تعتبر كأنساق طاقية في خدمة الأنا . وهكذا فإن استبطان التجارب الحسنة والسيئة المعاشة يتقدم على توطيد اواليات الدفاع التي تؤكد عليها أنّا فرويد ؛ ان ازالة انساق الكبت لصالح الاسقاط ـ الاجتياف يحد من التمييز بين النظام الواعي والنظام اللاواعي .

ـ تصادم المراحل التطـورية ، ووصف الاوديب المبـكر ، تخفض الى حد كبير من مفهوم المراحـل الليبيدوية بالـذات . وهـكذا فإن مفهومي الثبـات والنكوص تفقدان قسماً كبيراً من اهميتها .

ـ نظرية القلق عدلتها ميلاني كلاين بنفسها فهي تعتبر انبثاقاً مباشراً عن دافع الموت .

هذه الانتقادات تهدف الى البرهنة بأن ، في ما وراء علم النفس الكليني ، النظرة الاقتصادية قد خفضت الى مجرد تصادم دافعي ؛ وان النظرة الموضـعية ونظرية الأنا تزولان لصالح تجربة معاشة هوامية ؛ وان مراحل النمو استبدلت بتتابع المواقع ، شبه عظامية ـ شبه فصامية وخوارية .

وهكذا اتسعت الهوة بـين « المدرسـة الانـكليزية » ، ، مدرسـة ميلانـي كلاين ، ومحللي Hampstead clinic ، يمكننا القول بأن المأخذ الرئيسي الذي يوجهه المحللون التكوينيون لأبحاث كلاين يظهر بشكل مثـالي حول مفهـوم العلاقة الغيرية بالذات . فبينما ميلاني كلاين تقبل بتبنين نفسي منذ الاسـابيع الاولى ، مما يؤدي الى انقسام بين الموضوع الحسن والموضـوع السيء ، وذلك بشكل مستقل عن طبيعة الموضوع بحد ذاته ، فإن منتقديها يعتبرون بأن النشاط المبنين هو ثانوي بالنسبة لاقامة العلاقـة الغـيرية التـي يقومـون بالبرهنـة على ارصانها .

« ان كل علاقة غيرية متميزة تتركز انطلاقاً من الفترة التي لم يعـد فيهـا الموضوع الأمي وظيفياً وحسب ، وحيث يمكنـه ان يكون مهلوسـاً . الى الآن والعلاقة ما قبل الغيرية ، الاتحادية في البدء ، ثم على طريق التميز ، لا تقوم الا في فترات الحاجة » (لوبوفيتشي ١٩٦٢) . وهـكذا فإن ما يرتفـع الى واجهـة النقاش هي حقيقة الموضوع نفسه وتتطلب ادخـال تميز اسـاسي بـين النظـام الواقعي ، الخيالي والرمزي .

٤ ـ صورة الجسد

حتى يصبح الولد قادراً على ادراك امه كموضوع كامل ، عليه ان يستطيع

ادراك نفسه كفرد ، وذو كامل ، كلي وغير مجزأ . وبعبارات اخرى عليه ان يكتسب صورة عن جسده الخاص تمكّنه من التعرف على نفسه في هويته .

فالصور الجزئية ، المتغيرة باستمرار حسب التركزات الليبيدوية لكل مرحلة نمو ، وهذه « الشراحة الهوامية » التي يتكلم عنها لاكان (١٩٤٩) والتي يطلق عليها اسم الجسد المجزأ ، يجب ان تترك المكان لصورة كلية وموحدة للجسد الخاص التي ستسمح للولد بأن يتكون كذو . ان مثل هذه الصورة تستند الى :
أ) وعي الاحاسيس الحسية ـ الحركية والحشوية وانساق الفكر التي ترتبط بها ،
ب) الادراك غير المباشر لذاته الجسمية والنفسية بفضل التماهيات ، التي تشجع ارصان الادراك للذات باعتبارها كياناً .

فبالنسبة لصورة الجسد لقد جرى وصف مرتكز فيزيولوجي تنتظم حوله البنية الليبيدوية والمعنى الاجتماعي (شيلدر Schilder ١٩٣٥) . هذه القاعدة الاحيائية تعطي هكذا العناصر الحسية ـ الحركية ؛ والليبيدو يعطي للصورة معناها كتجربة جسدية معاشة ؛ والوسط بدوره ، يمكّن الفرد من تنسيق تجربته المعاشة بالنسبة للمرجع الاجتماعي .

ان الآثار الذاكرية للتجارب الحسية يمكن ان يدمجها الولد بفضل الارضاءات الغلمية ـ الذاتية التي ترافق استكشاف الجسد الخاص : وهكذا تنشأ نواة صورة الجسد . والتركز الليبيدوي للوظائف الفيزيولوجية المختلفة يلعب دوراً حاسماً في تكوين هذه الصورة التي يجب ان تستطيع التخلص من الغلاف الاتحادي الذي تشكله ثنائية الام ـ الولد ، والجسد الخاص يجب ان يُدرك منذ الآن لكيان موحد وليس كمجموعة قطع او اجزاء . فصورة الجسد اذن تدفع الولد للتخلي عن تجربته المعاشة حول « الجسد المجزأ » بغية ادراكه ككيان جسمي يشكل كلاً متماسكاً .

وهذا ما يدفع فينيكوت (١٩٦٠) للكلام عن التجربة المعاشة النفس جسمية عند الولد اليافع ، عن « الجسم المسكون بالنفس » . فالولد يدرك جسده كأنه محدد بغلاف ـ مثل المساحة الغشائية التي تفصل الداخلي عن

الخارجي : « فالرضيع ينتقل من حالة الاندماج الكلي مع الأم الى حالة التميز او العلاقة معها ، باعتبارها شخصاً منفصلاً و« لا ـ أنا » . »

وتجدر الملاحظة ان صورة الجسد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو الأنا وخاصة بوظائف الادراك واختبار الواقع . لقد كان فرويد (١٩٢٣) يؤكد بكلامه عن نشوء الأنا على اهمية الادراكات . « ان الجسد الخاص للفرد وقبل كل شيء سطحه يشكلان مصدراً تنبثق منه الادراكات الخارجية والادراكات الداخلية بنفس الوقت . . . ؛ فجسدنا الخاص ينبثق من عالم الادراكات . فالألم يبدو هو الآخر انه يلعب دوراً مهماً في هذا النسق والشكل الذي نحصل به ، في الامراض المؤلمة ، على معرفة جديدة لاعضائنا قد يعطينا فكرة عن الشكل الذي نرتفع به الى تصور جسدنا عامة » . وهكذا يواجه فرويد الأنا « ككيان جسدي ، وليس فقط ككيان سطحي ، ولكن كياناً متوافقاً مع اسقاط السطح » .

وليس غريباً ان تتكون صورة الأنا ، خلال الاشهر الاولى ، انطلاقاً من الاحاسيس الفمية واللمسية والحسية ـ الحركية التي تشكل جوهر التجربة الجسدية المعاشة للرضيع . وقد اشار فرويد (١٩٠٥ ، ١٩٢٣) وميتلمان Mittelmann (١٩٥٧) وغيرهما الى التركز الليبيدوي للحركة . كما اشارت مساهمات هوفر W. Hoffer (١٩٤٩ ، ١٩٥٠) وسبيتز (١٩٥٥) الى الرابط الوثيق بين وظيفة الاستكشاف والمعرفة التي تلعبها اليد والفم والمص في ارصان الأنا الجسدي والتكون الليبيدوي التدريجي للجسد . يجب ان نذكر ايضاً التجارب البصرية واللمسية التي يتكلم عنها غريناكر ph. Greenacre (١٩٥٨) الذي يؤكد على ان بعض المناطق الجسدية ، خاصة الوجه والجهاز التناسلي ، تلعب دوراً حاسماً في تعرف الفرد على جسده الخاص : « البصر مهم جداً ، ليس فقط لطابعه الالتقاطي ، ولكن ايضاً لاتساع حقل عمله . فالبصر ، اكثر من اللمس والحركة ، يستطيع استبدان الوسط المحيط بتمييز عجيب . فصورتنا عن جسدنا تتكون انطلاقاً من احاسيسنا الداخلية ، ومن التماس مع العالم الخارجي ومن رؤيتنا لجسدنا الخاص . لكن بعض المناطق الجسدية لا تخضع لاستكشافنا البصري ، وفي هذه الحالة فإن الاحاسيس الداخلية والاستكشاف

اللمسي يجب ان تكتمل بالانطباعات البصرية لجسد الغير . ومن المؤكد ان المنطقة التناسلية والوجه ، وهما جزءان متميزان من الجسد ، لا يمكن استبدانهما حقاً بواسطة البصر . فالوجه يفلت منه تماماً تقريباً . بينما الاعضاء التناسلية يمكن ادراكها جزئياً من قبل الصبي وقليلاً جداً من قبل البنت ؛ ولكن ، على كل حال ، لا يمكن رؤيتها بوضوح من قبل الفرد نفسه ، ولكن من السهل رؤية الجهاز التناسلي لشخص آخر . ان هذه الصعوبة قد تفسر لماذا يلعب الوجه والاعضاء التناسلية دوراً مهماً في اكتساب معنى حقيقة وهوية الذات . فالمساحة التناسلية قد تكون اكثر اهمية من الوجه بسبب اختلاف الجنسين : فالفوارق المحتملة تدرك وتستوعب بشكل اكثر فعالية عن طريق رؤية جسد الآخر اكثر من رؤية الجسد الخاص » .

ان ادراك هذه الصورة للجسد الموحد قد عالجه فالون H.Wallon (١٩٣٤) عندما يتكلم عن وعي الجسد الخاص ، وهو مفهوم يقترب مما يسميه المحللون صورة الجسد[1] .

ان ڤالون يلاحق تطور هذا الوعي للجسد الموحد بردود فعل الولد في مواجهة صورته في المرآة . فهو يلاحظ ان اجزاء الجسد لا تندمج دفعة واحدة من قبل الولد في فردانيته الجسدية ، فالولد لا يفهم علاقات الاشياء وصورته في المرآة . حتى ولو كان قادراً على ادراك علاقة تشابه وتلازم بين الصورة ونموذجها ، فهو لا يستطيع بعد ادراك علاقاتها الترابطية الحقيقية . فعدم الكفاية هذه ليست حسية ، لأن الولد لا يدرك مطلقاً التطابق بين الصورة والشخص .

في احدى الامثال التي يذكرها فالون ، ان الولد البالغ ٣٥ اسبوعاً ينظر الى صورته في المرآة كلما ندعوه باسمه ، بينما يستمر الوهم حول حقيقة هذه الصورة

---

١ ـ اننا نتكلم هنا عن صورة الجسد وليس عن التصور الجسدي (Schéma) ، لأن هذا المفهوم الاخير مقتصر لاستخدام علم فيزيولوجية الاعصاب . ان اعمال هيد Head وهيكان Hécaen واجور ياغيرا AJuriaguerra تواجه التصور الجسدي من زاوية الادراك الحسي للجسم ، بينما المحللون يحاولون ادراك الهوامات التي يعيشها الفرد والمتعلقة بجسده الخاص وبغيزيولوجيته الليبيدوية .

التي يضحك لها ويمد لها ذراعيه . فهو لا يلصق اسمه بالأنا المدرك ذاتياً ، ولكن بالصورة المدركة خارجياً التي تعكسها المرآة .

« اية صورة مدركة خارجياً يمكنه ان يتصور بها نفسه ، اذا لم تكن الصورة الخارجة بالضرورة عن الذي يدركها ؟ لا شك بأنه يمكن ان يبصر مباشرة جسده الخاص ، لكنه يبصر بعض الاجزاء فقط ، وهي غير مجتمعة ابداً . فبين التجربة المباشرة وتصور الاشياء يجب ان ينشأ التمييز الذي يفصل الصفات والوجود الخاص عن موضوع الانطباعات والاعمال بالذات الذي تورط به منذ البدء واعطاه خاصته الخارجية من بين الخصائص الجوهرية الاخرى . لا يوجد تصور معقول الا بهذا الشكل . . . ما إن يرى صورته الخاصة ، حتى تتوقف عن مطابقة جسده في المساحة وعليه ان يعتبرها كحقيقة ؛ وما ان يفترض حقيقة منظره المدرك خارجياً ، عليه ان يعتبره غير خاضع لحواسه الخاصة » (فالون) .

فهذا يتضمن ان مفهوم الوجود لا يعود يرتبط بدون تمييز بأي انطباع حسي ، وان معطيات التجربة المباشرة هي تابعة للتصور الصافي : وهكذا تنشأ ، بفضل تكاثر التصورات ، شبكة من التمييزات والمشابهات ، من الفوارق والمعادلات التي تشكل بداية النشاط الرمزي .

اننا مدينون لعمل لاكان (١٩٤٩) في تفسير ما يعنيه تعرف الولد على هذه الصورة في المرآة التي يواجهها . في مرحلة المرآة يجب فهم التعرف كأنه عملية تماهي . « هذا الفعل ينشأ عند الولد فوراً بسلسلة من الحركات حيث يعبر باللعب عن علاقة الحركات المرتبطة بالصورة مع محيطه المنعكس ، ومن هذا العقد المضمر مع الواقع الذي يضاعفه او مع جسده الخاص والاشخاص ، وحتى مع المواضيع القائمة بقربه » . هذا « الصعود الابتهاجي لصورته في المرآة من قبل كائن لا يزال غارقاً بالضعف الحركي والتبعية الغذائية » يشكل بالنسبة للاكان القالب الرمزي حيث يقفز الأنا الى شكل اولي ، Gestalt ، حيث يبدو الشكل الكلي للفرد » « في بعد القامة الذي يجمده في تناسق يعكسه ، وبالتعارض مع اضطراب الحركات التي يختبر تنشيطه » .

« ان وظيفة مرحلة المرآة تبدو لنا كحالة خاصة لوظيفة الصورة المثالية ، التي هي اقامة علاقة الجسم مع واقعه ـ او كما يقال ، بين Innenvelt و Unnvelt » .

وبتماهيه مع هذه الصورة ، التي هي ليست الولد نفسه ، يستطيع الولد ان يتعرف بها على نفسه وذلك ، كما يشير لانج J.-L. Lang (١٩٥٨) ، على صعيد الخيالي : « وباعتبار نفسه بغير ما هو عليه ، وباقامة علاقة بين جسده وهذه الصورة ، يردم الولد هذه الهوة بين عنصري العلاقة . . . والتي تحدد الأنا » . وهكذا يستطيع الولد ادراك الفارق بينه وبين الغير ، والتماهي كذو والتعرف على الآخر كموضوع .

ان ظهور الموضوع الكلي في حقل التجربة المعاشة يغير العلاقات القائمة بين الذو ومواضيعه . فمحل العلاقة الثنائية ، الخيالية ، القائمة بين الجسد الخاص المعاش بشكل مجزأ والمواضيع الجزئية التي يحتويها هذا العالم الهوامي ، تحل علاقة جديدة بين الجسد الخاص الموحد والموضوع الشامل . فعلاقات المرحلة السابقة ، التي كانت متعلقة بإرضاء الحاجة الاحيائية وكانت تهدف للتخفيف من التوتر ، تستبدل بالبحث عن اللذة حيث يتابع الفرد اشباع الرغبة التي تصبح قابلة للتبادل بقدر ما يعتبر الفرد ان هذه الرغبة هي رغبته هو ، ولكن ايضاً خاضعة لتعرف الغير بأنها هكذا .

وهكذا ، بالنسبة للاكان ، فإن مرحلة المرآة تمكّن الولد من التخلص من صورته المجزأة وتقوده الى تصور جسده الخاص كجسد موحد . لكن هذا الاكتساب ينتهي بالتماهي النرجسي السالب . في صورة المرآة ، شأن العلاقة مع الأم ، لا يتعرف الولد الاعلى مشابه يستطيع ان يتماهى معه : لذلك فإن مرحلة المرآة هي الشاهد على علاقة ثنائية ، خاصة بالخيالي ، علاقة التماهي النرجسي السالب (التماهي الاولي) حيث الذو هو نده المزدوج . فقبل ان يتوطد البعد الرمزي ـ مع مانع المحرم ـ يخضع الولد لأمه : فهو متخذ بشكل شامل في رغبة امه وعليه ان يتماهى مع موضوع رغبة الأم . فهذا الاغراء الخيالي يستمر طالما لم

يأت عنصر ثالث في المرحلة الاوديبية ليقيم في هذه العلاقة الثنائية . هذه العلاقة الثالثية تسمح للولد بأن يتموضع في ذاتيته بادخاله نظاماً معنياً في علاقته بالعالم ويبدأ بالوصول الى مقام الذو بادئاً بذلك امكانية التبادل الاجتماعي الحقيقي .

٥ ـ علاقة الموضوع والاتصال

داخل العلاقة الثنائية بين الأم والولد يقوم ، منذ الولادة ، اتصال ينظم علاقاتهما . لقد برهنا ان الأم في المرحلة ما قبل الغيرية تجيب على المظاهر غير المقصودة للولد (مؤشر) كما لو كانت بعض السلوكات مشحونة بالمعنى (اشارة) . فالامر يتعلق باتصال سابق للكلام ينطلق من الرضيع نحو الأم .

لقد دلت الابحاث التي اهتمت بتوضيح تأثير وضعية الرضاعة على سلوك الطفل بأن هذا الاخير حساس ، منذ الاسابيع الاولى ، تجاه بعض مواقف الأم وتجاه النبرة العاطفية التي تنتج عنها . لقد اطلق اسم اتصال فوق ـ الكلامي على هذا التبادل المنطلق خاصة من الأم نحو الطفل ، لقد اعرب سبيتز عن فرضية بأن الأم ، في هذه المرحلة ، تكون « الأنا الخارجية » ، الملحقة ، للولد : « بانتظار نمو بنية منظمة للأنا ، فإن الأم هي التي تتكفل بوظائف أنا الطفل . . . فالأم تعمل وكأنها ممثلة للولد ، أكان ذلك بالنسبة للعالم الخارجي ام بالنسبة لعالمه الداخلي . . . فهي تنفذ الاعمال للطفل وترضي رغباته كما تفهمها . وكذلك فإن افعالها توصل مقاصدها للولد (سبيتز ١٩٦٨) .

ولكن لن يقوم الاتصال على نمط رمزي الا في المرحلة الغيرية ، خلال السنة الثانية ، عندما تتوطد العلاقة مع موضوع شامل ومحدد وموحد في صورته الجسدية . فعند اكتساب المشي تستبدل المبادلات الصوتية للمرحلة ما قبل الكلامية ـ كلام الأم مع نفسها ، زغردات الطفل ـ شيئاً فشيئاً بأنظمة وخاصة المنع : الأم تقول « لا » وهي تهز رأسها وتمنع الطفل من ان يقوم ببعض الاعمال . فالولد يفهم هذه الممنوعات بأوالية تماهي ويبدأ بمحاكاة حركة النفي

التي تصبح رمزاً وأثراً للاحباط الذي تفرضـه الأم[1] . ان احتـواء النفـي على دلالة ، القول « لا » بواسطة الرأس ، يدل ان الولد اصبح لديه امكانية اعطاء معنى لرفضه ، ليس بالهرب ـ المعتبر كفعل افراغ عاطفي ـ ولكن بحركةٍ اتخذت معنى الرمز الحركي والكلامي فيما بعد ، وذلك لأنها اكتسبت دلالة منفصلة عن النموذج الحركي الاولي ـ هذه الايماءة ، التي تظهر بين ١٥ و١٨ شهراً ، تدل ان الفرد يستطيع ان يمارس بعد الآن رقابة على العالم الخارجي : بفضـل نظـام الاتصال (الرمزي) الذي حل محل العمل المباشر .

لقد حاول سبيتز ، في Le non et le oui (١٩٥٧) ، ان يكشف اصـول الدليل اللفظي الاول الذي يشكل الذو كذو للحوار المتبادل .

وبحثه عن نموذج سابق لايماءة الرأس بالنفي ، اوجد لها سبيتز سوابق في بعض السلوكات البدائية .

ـ التفتيش عن نموذج حركي ، مكوّن من سلسلة حركات دوران الـرأس التي تستمر حتى يقابل فم الرضيع حلمة النهد . في وظيفة استكشاف الفـم لالتقاط النهد تحوي الحركة على معنى اشتهائي (تأكيدي اذن) ولكنها تصـور المخطط الحركي للنفي .

ـ حركة التجنب ، عندما يشبع الولد ويدير رأسه عند نهـاية الرضعـة ، يجب تفسيرها على انها سلوك الهرب (اي الرفض) . فهو الذي يعطي للنفي بالرأس المعنى العاطفي للرفض .

ـ الايماءة الدالة على النفي يمكنُ تفسيرها على انها تبليغ (رسالة) . فحوالي

---

١ ـ فلنذكر بتعريفات التعابير كما استخدمها سبيتز :

أ) الدليل هو مؤشر مرتبط بشكل تجريبي بالاختبار (شأن النبرة التي تُسمع عند رفع سماعة الهاتف ، فهي تدل ان الجهاز مستعد للعمل .

ب) الاشارة هو رابط يُقام بالاصطلاح بين الدليل والتجربة (مثلاً جرس الهاتف)

ج) الرمز هو دال يمثل وضعية شاملة او فكرة : فمعناه مستقل عن وجهـه الشكلي (الحـركات ، الكلمات ، الشعارات هي الرموز الأكثر بساطة) .

الشهر الخامس عشر يوضع المخطط الحركي في خدمة مفهوم مجرد للنفي . فيصبح للايماءة الدالة اصل مزدوج ، ولكنها ترتبط بالرضاعة وتظهر وكأنها اثر للوضعية الغيرية الاولى .

يجب ايضاً التأكد من وجود علاقة خاصة تسمح بالانتقال من المؤشر الحركي (التفتيش) الى الاشارة (حركة الرأس للتلافي) والى الرمز الدال (ايماءة النفي) . فال « لا » هو رمز لأنه ايماءة توصل دلالة بشكل مقصود ، وهي في الاصل لم تكن حاوية لها . فلأن التفتيش ، الارتكاس الانتهائي الذي اكتسب معنى الاثبات ، تلقى تغيراً في الوظيفة ، فإنه يمكنه ان يستخدم نموذجاً لايماءة تُشحن لاحقاً بدلالة معاكسة .

ان تغير المعنى هذا يمكن اكتسابه بفضل التماهي . في نهاية السنة الاولى يقلد الطفل بعض حركات اهله ، لكنها تشكل استعادة بسيطة ، « صدى » ، دون محتوى دليلي . فيما بعد ، يقلد الولد المواقف ، حتى في غياب الراشدين ، وانطلاقاً من هذه الفترة ، يتعلق الامر فعلاً بنسق للتماهي : « لقد استبدن الولد في نظام الأنا الذاكري الافعال التي يلاحظها عند الموضوع الليبيدوي » . وحوالي هذه الفترة ايضاً ، بين ٩ و١٢ شهراً ، عندما يتركز التماهي الايمائي ، يصبح الطفل قادراً على التقاط معنى الانظمة والموانع .

كل ممنوع يشحن بمعنى عاطفي يدل على الرفض وبالتالي على الاحباط . والآثار الذاكرية المتعلقة به تحمل شحناً مماثلاً يجعل هذا الاثر ثابتاً . كذلك يدفع المنع الولد نحو سلبية يعمل على الخروج منها . واخيراً فإن كل منع يعاش كتكدر ، وبهذا يحدث دافعاً عدوانياً : فالأثر الذاكري للمنع يصبح مشحوناً بهذه العدوانية .

وهكذا يجد الولد نفسه مجزءاً بين حبه لأمه ومشاعره العدوانية ؛ بين رغباته ومنع الأم ، بين الكدر في الخضوع لاوامر الأم والخوف من فقدان حبها . فهو يلجأ الى حل تسوية : التماهي بالمعتدي .

بالنسبة لأنّا فرويد (١٩٣٧) ان التماهي بالمعتدي - اي بعامل المنع - يستبطن المأزم الذي يعارض الأنا مع الموضوع الخارجي . بالنسبة لسبيتز يمثل

ال « لا » رابطاً للتماهي مع الموضوع الليبيدوي الذي يظهر كمُحْيط من خلال ممنوعاته وهذا الاحباط ، الذي يظهر في حالات عدة ، يعطي للايماءة صفتها العاطفية من الكدر . فيما بعد يصبح ال « لا » بالنسبة للولد وسيلة للعدوان لأنه يمكنه من التعبير فجأة عن رفضه .

فال « لا » ذو الدلالة يشير الى ان مرحلة جديدة من الاستقلال قد بدأت ، وهي المرحلة التي يدرك الولد فيها الآخر ويتعرف على نفسه كذات .

ان الفترات المنظمة الثلاث تطبع المراحل المتتالية في تفرُّد الذو بالنسبة للموضوع .

حوالي الشهر الثالث تدل استجابة الابتسامة ان هناك شيء تعرف عليه الولد باعتباره خارجاً عنه ، ويسميه سبيتز اللا ـ أنا . هناك تنظيم معرفي اول للتجربة التي تمكن من تمييز العالم الخارجي عن التجربة الشخصية المعاشة ، والتي يبرز منها الأنا تدريجياً باعتباره تجربة جسدية معاشة ومحددة .

وقلق الشهر الثامن ، المتزامن تقريباً مع الفطام ، يدل ان الولد يستطيع تمييز الموضوع الليبيدوي بين جميع المواضيع الاخرى المحيطة به : لقد عينّ في العالم الخارجي موضوع الحب ، امه التي يعتبرها متميزة عنه .

بين ١٢ و١٥ شهراً تفتح الايماءة الدالة للنفي مجال العلاقات الاجتماعية امام الولد ، فيتعرف الفرد على نفسه كذات[1] ، مستقلة عن الموضوع الليبيدوي .

هذه العلاقة الجديدة تبلغ حدها الاقصى في التماهي مع المحيط (او المعتدي) الذي يمكّن الفرد من اظهار رفضه ، وحتى عدوانيته من خلال الاتصال . بينما تنتمي الفترتان الاوليان المنظمتان الى دائرة الافراغ الدافعي ـ اي الى العمل ـ فال « لا » تقيم الاتصال الذي يعمل حسب مبدأ الواقع .

---

١ ـ ولنشر بالنسبة لسبيتزان الأنا والذات هما شكلان لضبط العلاقة بين الفرد والآخر خلال ارصان العلاقات الغيرية . اما الأنا في النظرية التحليلية تختلف تماماً عن هذين المفهومين وهي تستند الى ركن نفسي ، المكان الوظيفي حيث يجري وعي الذات .

فالاتصال ، الذي كان انوياً عند المولود الجديد ، يصبح غيرياً بادخال استخدام الرموز الكلامية والايمائية

في اقامة هذا الاتصال تدخل التجارب المعاشة المختلفة للولد ، اكان ذلك في الواقع الخارجي لعلاقته بالأم ، ام في الواقع الداخلي لحياته الهوامية .

ان دائرة الاتصال يجب ان تبقى مفتوحة باستمرار بين الاهل والولد حتى تستطيع العلاقة الغيرية ان تتطور . وهذا التطور يفترض مساهمات عاطفية وحسية ثابتة قد يؤدي فقدانها الى اعراض احباطية سنعالجها لاحقاً .

وقد اشار ليدز Lidz (١٩٦٤) يمكن الانسان من نقل تجربته التقنية وتنظيمها في مؤسسة . يمكن اعتبار ان الاستعداد للكلام هو فطري ، ولكن الشكل الذي تتكون فيه اللغة يتعلق ، في الحضارات المختلفة ، بكيفية مواجهة الولد وادراكه للحقيقة الخارجية .

من المؤكد ان اكتساب المدلولات اللفظية لا يتعلق فقط بالبلوغ الجسدي ، ولكنه يرتكز الى حد بعيد ، على طبيعة التجربة الطفلية المعاشة . فالولد يتعلم ان يعرف الكلمات كتعبير عن تجربته المعاشة الخاصة ، ولكن ايضاً كجزء من الارث الثقافي (الدلالة المعجمية) . فالمعنى الشخصي ، المتغير بسبب تنوع التجارب الفردية المعاشة ، يجب ان يغطي لاحقاً المعنى الثقافي العام . ان الفارق الكبير بين المعنيين ، الناشيء بسبب المأزمات العصابية للأهل ، يؤدي عند الولد الى ابهام دلالي يقوي التفكك في الدائرة العاطفية .

اذا لم تدرك الأم الحاجات العاطفية لولدها ، واذا بقيت مغلقة على المؤشرات غير الكلامية التي تترجم هذه الحاجات ، فإنها تصبح غير قادرة على الاتصال معه . فهي يمكن ان تكون مغلقة بسبب حاجاتها الخاصة ودفاعاتها العصابية ، وقد تعامل الولد كما لو كان انبثاقاً منها وحسب : فهي مثلاً تغذيه او تلبسه حسب احاسيسها الخاصة بالجوع او بالحرارة ، دون ان تأخذ بعين الاعتبار الحاجات الحقيقية للولد . كذلك فإن بعض الاهل الذين يبدون بأنهم يخصصون انفسهم لأولادهم ، تدل تدخلاتهم المستمرة ورقابتهم القاسية التي يمارسونها عن عدم قدرتهم على تحديد أناهم وانا الولد . ان مثل هذا الموقف لا

يسمح للولد بأن يثق بإشاراته الفيزيولوجية الخاصة ، ويطبع اي اتصال بطابع عدم فعاليته .

يحدث نفس الشيء عندما يعمد الاهل الى المحافظة على صورة معينة لهم ، او الى اخفاء وضعية عائلية معينة يريدون تغطيتها . فإن كلامهم اذ ذاك يصبح مناقضاً للوقائع ، والولد ، مع وعيه للانحراف ، لا يجروء على ذكره ولا على طلب التفسيرات .

فالولد قد يفقد الثقة بالكلمات المستخدمة من قبل الاهل ، او يشك بقدرته على الفهم . على كل حال فإن فعالية الاتصال الكلامي قد تبدو منخفضة جداً بالنسبة للولد . ان مثل هذه الانحرافات في الاتصال داخل العائلة تنعكس على تكوّن الأنا .

فاللغة تمكّن الولد من تأجيل مكافأة الدوافع واستبطان صفات الاهل والموانع والتعليم . وبفضل التصنيف الذي يصبح محتملاً باللغة يكتسب عالم الولد وحاجاته وسلوك محيطه نظاماً معيناً ويصبحون قابلين للتوقع .

فالولد يجب ان يستطيع الاعتماد على اسمرارية بعض المعاني الكلامية ويجعلها آلية لكي يحرر طاقته لاهداف اخرى . ولكي يستطيع الولد العودة للمؤشرات الكلامية في جهوده للسيطرة على الواقع يجب ان تبدو له الكلمات كأداة اكثر فعالية من المؤشرات غير الكلامية . فإذا كانت كلمات الراشدين تناقض سلوكهم او اذا كانت الوعود المعقودة لا تنفذ ، فإن الولد لا يعود يثق بقيمة توقع الاتصال .

وهذا التناقض يمكن ايضاً استخدامه من قبل الأهل كوسيلة للضغط عن قصد او عن غير قصد ، او انه يوجد بشكل مستمر في خطاب احد الأهل المصاب بالفصام . ان مجال الابهام وعدم التماسك قد يكون متغيراً . ولكنه في كل الاحوال يعبر عن اضطراب عميق في الاتصال بين الاهل والاولاد .

وهكذا فإن دراسة علاقة الموضوع تقودنا لأخذ الموضوع نفسه بعين الاعتبار ، للاهتمام بوجوده او بغيابه ، او بتغيرات سلوكه وذلك نظراً لكون

صفات هذا الموضوع تلعب دوراً في اقامة هذه العلاقة . ان مجال الاتصال قد دفعنا لمواجهة انحراف هذا الرابط من زاوية خاصة .

٦ ـ الحرمان العاطفي المبكر والنقص في عنايات الأم .

ان اهمية عنايات الأم في النمو العاطفي للولد يمكن معالجتها من زاوية مزدوجة . من جهة ، تنظم الأم وضعية عاطفية تلعب فيها دور الموازن والمطمئن والحامي ، استجابة لحاجات الولد النفس فيزيولوجية ؛ ومن جهة اخرى ، تمكن الولد من ارصان علاقته الاولى بالموضوع وذلك بإقامة الحدود شيئاً فشيئاً ، ومن خلال تأثير الاحباطات وازالة الوهم ، التي تدفع الولد الى التعرف على نفسه كذو مستقل عن الموضوع الأمي .

فالدراسات حول غياب الأم وحول النقص العاطفي تبرز الدور الضروري الذي تلعبه الأم . ان انفصال الولد والأم خلال السنة الاولى يشكل تغيراً كثيفاً لشروط حياة الطفل . والنتائج الناجمة عن هذا الغياب تظهر على صعيد البلوغ الفيزيولوجي كما على صعيد النمو النفس اجتماعي ، وذلك بسبب تعقيد انساقهما . فكل ما يمس اشباع حاجات المولود الجديد والرضيع يدخل نقصاً نفس فيزيولوجياً اساسياً .

١) حاجات الطفولة الاولى

ان البلوغ الفيزيولوجي المبكر للمولود الجديد يحدد تبعيته الكلية تجاه المحيط . ان عرضية قدرته الحركية وعدم كفاية ضوابطه الغذائية وهشاشة توازنه التمثلي للغذاء تضع المولود الجديد تحت رحمة العدوانات السامة او الضارة والفوارق الغذائية والتغيرات الحرارية ، الخ . . هذا البلوغ المبكر هو قاعدة الضعف الاساسي للمولود الجديد ، وهو يدفع للاعتقاد ان الحاجات الفيزيولوجية يجب اشباعها عن طريق توفير الاوكسيجين الضروري والغذاء المناسب ، والحفاظ على التوازن الحراري ، وتأمين الحماية ضد الامراض . ولكن وراء اشباع هذه الحاجات الضرورية لحياة الطفل ، تظهر حاجات نفسانية ليست اقل الحاحاً .

فحاجة المص ، المستقلة عن وظيفة الامتصاص الغذائية ، تشكل بحد

ذاتها مصدراً مهماً للاثارة الحسية وتؤثر على تنظيم الوظائف الهضمية ، ويبدو انها تؤثر على النمو . يمكننا اعتبار حاجة المص كالموازي الليبيدوي لأخذ الغذاء ، وهي بذلك خاضعة لتأثير سلوك الأم خلال فترة التغذية[1] .

هذا يتوافق مع ما عالجه ريبل M. Ribble ١٩٣٥ تحت اسم « جوع المثيرات » (Stimulus Hunger) ويتعلق بحاجات الاثارة الحسية (البصرية والسمعية والحسية ـ الحركية) التي تشبعها بشكل طبيعي الأم التي ترضع وتغسل وتهدهد وتغني وتتكلم مع طفلها . وتجدر الاشارة بشكل خاص الى اثارة المنطقة الجلدية المغلمة : فعنايات النظافة والمداعبات اللمسية تحتوي على درجة عالية من الارضاء ويمكنها ان تخفض او تزيل التوترات الفيزيولوجية التي يشعر بها الطفل .

وحاجة الاستقرار يجب ان تواجه ايضاً من الزاوية الفيزيولوجية والنفسية على السواء . والتنظيم المكاني ـ الزماني ضروري لكي يستطيع الرضيع انشاء بعض النماذج الفيزيولوجية . فالجو العاطفي الذي يتعدى التنظيم الروتيني (تواتر الوجبات والنوم ، ثبات صورة الأم) يبقى العنصر الاساسي للطمأنينة . فالولد يجيب دائماً بشكل غير ملائم لقلق الأم . فالأم القاسية في ملاحظة الانظمة الغذائية والمهتمة بشكل هجاسي بقواعد الصحة ، والعديمة المهارة في عملها او غير القادرة على التقاط المؤشرات اللاكلامية التي يعبر بها الرضيع عن انزعاجه الفيزيولوجي ، هذه الأم تشيع جواً قلقاً ينعكس على الطفل . فهذا النقص في الأمان يظهر في البكاء المستمر او المتكرر او في تشوش النوم والغذاء : هذه النتائج نجد اثرها النفس جسدي في تغيرات الوزن وفي الاضطرابات المعوية ، الخ .

ان مفهوم الحرمان في التحليل النفسي يعرّف بالنسبة للحاجات الاساسية .

---

١ ـ لقد حاولت بعض الابحاث في علم نفس الحيوان ان تدرس بموضوعية هذه الحاجة الى الرضاعة ، لقد جرت تغذية جراء كلاب بالمصاصة وقورن نموها بنمو الجراء التي ترضع الأم ، فلوحظ ان المجموعة الاولى تنمو بشكل ابطأ من المجموعة الثانية (انظر حول هذا الموضوع ابحاث ليفي D. Lévy ، Animal psychologiy in its relation to psychiatry, in- Alexander et Ross, Dynamic psychiatry, 1952

هذه الحاجات لا يمكن ان تكون مقتصرة على الحاجات الضرورية للحياة ، ولكنها تشمل ، وبنفس الاهمية ، حاجات النمو العاطفي ـ لذلك ، كما تقول راكاميه (١٩٥٣) فالأمومة ليست فقط نشاطاً مكافئاً ، ولكن يجب اعتبارها نشاطاً اعدادياً ، وهذا ما جعل ريبل ١٩٤٣ يتحدث عن حقوق الطفولة الاولى . ان كل ما ندعوه احباطاً مبكراً هو اذن ذو طابع حرماني يظهر على صعيد التقصير .

فإحدى الشروط الرئيسية ، التي تؤمن صحة الولد العقلية ، هي اقامة علاقة عطف مستمرة ومطمئنة بين الأم والولد ، وهي ضرورية لرقابة القلق والشعور بالاثم التي يجب ان لا تتعدى الدفاعات النفسانية الطبيعية . فعندما تغيب هذه العلاقة عن الطفولة الاولى يمكننا ان نتكلم عن الحرمان العاطفي المبكر (بولبي Bowlby ١٩٥١) .

٢) نتائج الحرمان العاطفي المبكر .

فالابحاث الاولى التي عملت على ابراز تأثيرات مثل هذا الحرمان اتخذت موضوعاً لها دراسة انفصال الولد عن الأم[١] . فاعمال بورلينغام Burlingham وانّا فرويد (١٩٤٩) حول الاولاد المنفصلين عن اهلهم ، وغولد فارب W. Goldfarb (١٩٤٥) وسبيتز (١٩٤٦) حول الاستشفاء ، واوبري J. Aubry وابيل Appel (١٩٥٥) حول التدجين الاستشفائي ، بالاضافة الى الوثائق الغلمية التي قام بها روبرتسون Robertson للاولاد المستشفين ، كلها ، بالملاحظة المباشرة ، مكنت من ادراك تأثيرات الانفصال المبكر والطويل الذي قد يؤدي الى تأخر عاطفي خطير ، ليصل في الحالات المتطرفة ، الى نقص عقلي قد يصبح دائماً[٢] .

---

١ ـ انا نجد عند بولبي (١٩٥١) اختصاراً لهذه الاعمال ؛ وهناك تعديلات اخذت بعين الاعتبار الاعمال الأكثر حداثة ، ظهرت في Cahiers de l'O.M.S. (١٩٦١) .

٢ ـ اننا لا نستطيع هنا ان نعالج مسألة علاقات التخلف العقلي بالتأخر العاطفي . ونشير بأن البعض يرفض اعتبار التخلف العقلي كمعطى جبلي ويعتبرونه نتيجة لشذوذ حقيقي في العلاقة بين الأم والولد (مانوني M. Mannoni ١٩٦٤) .

لقد عالج روبرتسون (١٩٥٣ ، ١٩٧٠) ردود فعل الاولاد المنفصلين عن امهاتهم ، خلال الاستشفاء . فهو يميز تتابعياً سلوكات « الاحتجاج » و« اليأس » و« الانسلاخ » التي تحدث عند فقدان عنايات الأم . بالرغم من ان هذه المظاهر تذكر بردود الفعل الحزينة (بولبي ١٩٦٠) فقد لوحظ بأن عرض الانفصال ، خلافاً لادعاءات بولبي ، يجب ان لا يعتبر عملاً حزيناً : فردود الفعل على الانفصال عن الأم ، اذا لم يكن من الممكن تلافيها ، يمكن على الاقل تخفيفها باقامة علاقة بديلة في حال الانفصال (روبرتسون ١٩٧٢) .

سوف لا نركز هنا على النتائج العملية لهذه الدراسات في مجال طب الاطفال ، التي ادت بسرعة الى فهم جديد للمشاكل الناشئة عن استشفاء الطفل ، انما سنكتفي بالنتائج النفسانية لقصور العناية وللحرمان العاطفي ولانفصال الأم عن الولد .

اذا كان غياب الأم ، او بديل الأم ، يرتبط بنقص العنايات الأمية ، فإنه تجدر الملاحظة بأن النقص قد يظهر ايضاً في وضعيات تكون الأم فيها موجودة ، ولكن تكون العلاقة بين الأم والولد مشوشة بسبب الاختلال الاساسي في العلاقة : هناك تقصيرات ، تدعى حامية ، يمكن ان تقوم في المنزل العائلي بسبب نقصان او انحراف العلاقات .

سنعالج قبل كل شيء آثار الانفصالات الكثيفة والمبكرة والطويلة التي عالجها سبيتز في عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦ تحت اسم الاستشفاء ، وهي تظهر كنتيجة للحرمان العاطفي عند الاولاد الذين يعيشون في مؤسسات الاستشفاء . لقد دارت هذه الدراسة حول نمو الاطفال الرضع الذين وضعوا في دور للحضانة حوالي سن ستة اشهر . عندما يبقى هؤلاء الاطفال منفصلين عن امهاتهم ، خاصة اذا كان للأم خلال الاشهر الستة الاولى سلوكاً مكافئاً ، فإنهم بعد ثلاثة اشهر من الانفصال يبدأ عندهم عرض نفساني يسميه سبيتز ، الخور ما قبل الغيري[1] . ان سلوك الطفل يتناقض مع مظهر « الطفل السعيد » الذي كان له

---

[1] ـ هذا الخور ما قبل الغيري ، وهو عرض تقصيري اكتشفه سبيتز ، لا علاقة له بالمرحلة الخوارية التي وصفتها ميلاني كلاين والتي تعتبر مرحلة تطورية طبيعية وضرورية في نمو الولد خارج اي مفهوم حرماني او تقصيري .

عند قبوله في المؤسسة . فالطفل يبدو حالماً ولا مبالياً ولا يهتم برضاعته ، هيئته واهنة ونشاطه الحركي ضعيف : فلا يلعب بيديه ، ولا يمص ابهامه ويستجيب بصعوبة للاثارات الحسية .

وتجدر الاشارة الى الطابع التطوري لمثل هذا الجدول العيادي . في مرحلة الخور ما قبل الغيري التي وصفناها يمكن للاضطرابات ان تنعكس بسرعة . ولكن اذا طال هذا التقصير الانفعالي الى ما بعد الخمسة اشهر ، فإنه يحصل ذهول عضوي ونفسي ينطبق عليها تماماً تعبير الكساد ، والذي يمكن ان يؤدي ، في بعض الحالات الاستثنائية ، الى الموت ، وتبقى تأثيراته ، في كل الحالات ، قليلة الانعكاس .

فآثار الانفصال عن الأم تظهر بسرعة في نكوص عام لكل طاقات الطفل ، ولكنها تمس في البداية المكتسبات الوظيفية القريبة الأكثر تعرضاً . فاللغة تتأثر هي الاولى وكذلك كل دائرة التوافق كما يدعوها جيزيل Gezell ـ فيشوش الاتصال مع محيطه ، والالعاب ، وكل ما يدل على بدء التاهيل الاجتماعي . ولكن اذا استمر القصور العاطفي ، فإن هذا النكوص يجتاح تدريجياً القطاعات الأكثر بدائية ، وفي مرحلة لاحقة تنهار المتكسبات الحركية (المشي) وتظهر النماذج البدائية (التمايل) . وفي مرحلة قصوى تتأثر الوظائف الغذائية (الهضم والتنفس) وضعف الدفاعات الفيزيولوجية يعرض الولد للضغط وللاصابة بالامراض . هذا النكوص يزيد من سرعة العطب الذي قد يشكل ، حسب راكاميه (١٩٥٤) عاملاً مهيئاً لبعض الأمراض ، فيما بعد .

ولكن النتائج الأكثر خطراً هي التي تظهر على الصعيد النفساني ، فالنقص العاطفي قد يؤدي الى تأخر ذكائي معين يجب تمييزه عن التخلف العقلي الحقيقي . فالتأخر التقصيري شامل يطال كل اصعدة النمو النفس ـ حركي ، ولكنه يمس بشكل اكثر فعالية طاقات تكوين المفاهيم وطاقات التجريد (غولد فارب ١٩٤٥)[1] . فعدم ادماج الولد للتجارب المعاشة ، وتأخر (او نكوص)

---

١ ـ يعطي بولبي (١٩٥١) التقديرات المختلفة لنسبة النمو . فتخفيض نسبة النمو هو معطى ثابت ، رغم اهميته المتغيرة ، وهو الى حد ما قابل للانعكاس .

اللغة ، وعدم العاطفة التي تحل محل الاقبال الاولي على التماس الاجتماعي ، كلها تشوش علاقات الطفل مع الغير ويمكن اعتبارها كعوامل اساسية لعدم التكيف ، وحتى للمواقف اللااجتماعية فيما بعد (بولبي ١٩٤٦ ، ١٩٥١ ؛ بيرس Beres واوبيرس Obers ١٩٥٠) . ان عدم البلوغ المكتسب هذا يدل على عجز في الأنا وفي وظيفته كوسيط بين الفرد ومحيطه . ان هذا الافكار للأنا ، في تركزاته النرجسية ام في تركزاته الغيرية ـ عدم القدرة على الحب وعدم القدرة على تلقي الحب ـ اطلق عليه راكامييه (١٩٥٤) اسم عدم التشخصن apersonnalisation ، وهو يفسره بصعوبة تماهي مثل هؤلاء الاولاد مع صورة الاهل .

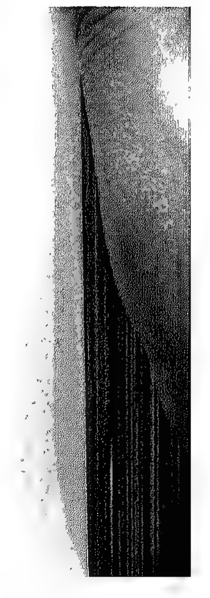
ان نشوء وتطور العرض التقصيري تخضعان لبعض العوامل :

أ) هناك رضّعٌ اكثر حساسية من غيرهم لهذا التقصير العاطفي . فراكامبيه يعيده لمستوى التكامل الغريزي ـ النباتي الذي يجعل منه عاملاً فطرياً : بعض الرضع لهم عتبة متسامحة مع الاحباط منخفضة نسبياً .

ب) ان تأثيرات الحرمان العاطفي تكون اكثر بروزاً كلما اتى هذا الحرمان باكراً في حياة الطفل . لذلك اشير بأن التأثيرات القصوى تمارس خلال الفصلين الثاني والثالث وتكون اكثر حدة كلما كان الرضيع يعيش في ظروف اكثر مكافأة في البداية .

ج) وتكون التأثيرات اكثر بروزاً كلما استمر ا الحرمان فترة اطول .

د) والامومة ، بأشكالها المختلفة (العودة الى الأم ، وجود بديل للأم ، علاج نفساني امومي مكثف) تمكّن غالباً من عودة النمو الطبيعي[1] . ولكن فيما يتعدى الفترة المعينة والحدّة الكبرى ، فإن الانفصال المبكر يحدث تأثيرات لا تمحى وتؤدي نتائجها الى نقص نهائي ، اذ ينخرط العجز في بنية التنظيم النفسي والجسدي للفرد . فسبيتز يؤكد ان تقصيرات العلاقات الغيرية تسهّل انفلات



١ ـ ان اهمية الامومة لا تكمن فقط ، من خلال التعويض على التقصير العاطفي الاولي ، في امكانية تمكين الولد من اقامة علاقات غيرية ، ولكنها يجب ان تدخل في حياة الطفل بعداً رمزياً لا شك بأنه ينقصها .

الدوافع العدوانية والليبيدوية: فالعدوان « يعود الى شخص الولد ؛ في هذه الحال لا يستطيع الليبيدو ان يتجه نحو الخارج » .

هـ) الا ان الانفصال والتقصير العاطفي ليسا مرتبطين بالضرورة . من جهة ، يمكن ان يجد الولد خلال استشفائه بديلاً للأم يقدم له العنايات الضرورية ويمكن بقربه اشباع حاجاته العاطفية . من جهة اخرى ، يكون للانفصال تأثيرات اكثر صدمية كلما اتى في فترة توطيد العلاقة الغيرية بجعل الأم موضوعاً شاملاً، اي حوالي الشهر السادس الى الثامن؛ ولنذكر هنا بالاهمية التي يعلقها سبيتز على مفهوم قلق الشهر الثامن ، الذي يدل ان الأم توطدت كموضوع ليبيدوي ، مميز عن اي موضوع آخر .

و) الا انه تجدر الملاحظة ان كل تقصير مطول يؤدي الى تأخر النمو النفسي ـ العاطفي ، ويشكل التأخر الذكائي فيه عنصراً ثابتاً ؛ فهذا التأخر ذو الاهمية المتفاوتة يؤثر بشكل خاص على المجالات المعرفية ، وعلى اكتساب اللغة والتكامل الاجتماعي فالعودة عن هذا التأخر قد جرى تبيانها في الحالات التي يمكن فيها احلال الامومة بدون تأخر كثير (اوبري Aubry ومساعدوه ، ١٩٥٥) .

ان اهمية وجود الأم وتأثيرات الحرمان منها اوحت بعض المبادىء التي يرتكز عليها حالياً تنظيم دور الحضانة[١] . ولكن العامل الحاسم لهذا التقصير ولرابطه النفسي ـ الجسدي ، وكذلك طبيعة ما تقدمه الأم ، تبقى اموراً صعبة التحديد[٢] .

---

١ ـ يمكننا العودة لأعمال جاكسون وكلاتسكين Jackson, Klatskin ومساعديهما (١٩٥٢) حول التنظيمات الاستشفائية الجديدة .

٢ ـ نتذكر اعمال ليديل Liddell (١٩٥٢) الذي يقدم التجربة التي جرت جديين تؤمين ترضعهما امهما ، فأحدهما كان يفصل عن امه ساعة كل يوم . ثم اخضع الجديان بعد ذلك ، وعلى فترات متناسقة ، للظلمة (الشبيه بتجارب الحرمان الحسي) . فالجدي الذي لم يفصل عن امه تكيف جيداً ، بينما الجدي المحبط امتنع عن الرضع ومات . فالحرمان الحسي كما اجري اختبارياً على افراد راشدين (جميعهم من المتطوعين تقريباً) يهدف الى الحصول على عزلة بتخفيض كلي او جزء لجميع المثيرات (بالتغطيس او الظلمة او السكون الخ . .) فأدى الى ما يمكن تسميته « عدم النقل العصبي نحو المركز » . ان هذا الحرمان الحسي المتابع خلال عدة ساعات ، وحتى عدة ايام ، يحدث اولاً ردود فعل قلقة ومرعبة ، ثم

لكن التقصير لا يكون دائماً كثيفاً على هذا الشكل . وهكذا امكن الكلام عن تقصيرات حامية في حالات عدم اشباع حاجات الرضيع ، رغم وجود الأم الفعلي . وهكذا يدخل مفهوم المرض العائلي الناتج عن تشويش عام وعن تقصير انفعالي في علاقات الاهل بالولد . ان هذا التشويش قد نجد تعبيراً له في الاضرابات التي تؤثر على النواة العائلية : انقسام المنزل ، محيط عائلي غير ملائم ، غياب الأب ، الخ ، او يتطور ببطء عندما يكون نمط العلاقات العائلية معرضاً في منزل مكون ظاهرياً بشكل طبيعي . لقد جرى الكلام عن اطفال مصابين بعصاب التخلي (غيكس Guex ١٩٥٠) ، او عن المجوعين عاطفياً (ليفي D. Lévy ١٩٤٣) ، الخ .

من الناحية العبادية سيتعرض هؤلاء الافراد الى شعور ثابت بالاحباط ، الى جوع عاطفي يحدد النهم العاطفي او الانسلاخ الظاهر ، ويمكن ان يتبلور بمواقف كثيرة التطلب ، او بتبعية كاملة نسبياً تجاه المجتمع او تجاه القرين .

هذه المواقف تعمل على تعويض النقص الذي ترك اثره الراسخ في حياة الفرد[1] .

٣ ـ) مفهوم التقصير العاطفي

ان الابحاث حالياً تدور حو النتائج البعيدة لهذه الحرمانات المبكرة . في الحالات الخطرة يصبح احياناً من المستحيل تعويض هذا النقص الاساسي الذي يتبلور في سقوط جسمي او في استحالة اقامة علاقات اجتماعية مع شخص آخر (الحب او تلقي الحب) .

يؤدي الى حالة هلاسية حقيقية . [اننا نجد في كتاب اجورياكيرا Ajuriaguerra (١٩٦٤) معالجة ممتازة للمسألة] . ثم تظهر ايضاً تدريجياً اضطرابات من النوع النكوصي المؤدية الى تحديد الحقل النفسي ، والى جمود يذكر بالجدول الاستشفائي عند سبيتز ؛ بالرغم من ان هذا الكاتب يشير الى عدم مساواة الحرمان الحسي بالحرمان العاطفي المبكر ، فإن التجارب تلمح الى بعض الاواليات المشابهة للحالات التقصيرية . ويلاحظ سبيتز ان تأثيرات الحرمان الحسي تكون اشد قساوة كلما كان أنا الفرد نامياً وقادراً على اقامة علاقات موضوع متميزة .

١ ـ بالانت M. Balint (١٩٦٨) استطاع ان يتكلم عن عيب اساسي (Basic defect) .

ان الخطورة من هذه المواقع ، حيث يثبت الفرد « في شكل من الاضطرار المأسوي » رافضاً تعويض النقص الاصلي حيث يصعب انتشاله ، تظهر بوضوح عندما نواجه العوامل النفسانية للجنوح (بولبي ١٩٥١) .

هناك بعض الملاحظات تفرض نفسها حول استخدام مفهوم التقصير في التحليل النفسي .

من جهة فإن راكامبيه يميز بوضوح المرض التقصيري عن العصاب . فالحرمان يُدخل في الحياة تقصيراً اولياً لا يخرج منه الفرد الا منتقصاً . فلا يعود ممكنا ، في حال الاحباط المأزمي للرغبات ، تجاوز الحالة بأن يكون حلها تجربة اعدادية كما في عقدة اوديب[1] .

فالاحباط الذي نجده عند العصابي ليس له ابداً اصالة هذا التقصير الحقيقي . من جهة اخرى ، فإن العلاقة مع الأهل ، التي تبقى في العصاب ، تسمح للفرد بأن يدخل مجال التماهيات الخيالي ، بينما الولد المقصور يبقى خارج هذه العلاقة .

واخيراً يجب الاشارة الى خطر اعطاء مفهوم التقصير دوراً مهيمناً ، او حصرياً في علم النفس المرضي التحليلي . فهذا يعني العودة الى النظرة الصدمية للعصاب ، بينما هناك عوامل عديدة اخرى تتدخل . لقد كان لعلم المرض التقصيري فضل اظهار العلاقة المتبادلة النفسية - الجسمية في مستقبل الولد ، والضرورة الملحة لصورة الأم - اكان ذلك من الأم الحقيقية ام من بديلتها - حتى يستطيع الولد اقامة علاقات غيرية . الا انه ما من شك بأن التغيرات النوعية لهذه العلاقة الاولية قد تشوش نمو الولد في العمق ، بقطع النظر عن اي عامل تقصيري بحت .

٧ - السلوك الأمي والعلاقات الغيرية

اذا كانت الدراسات المتعلقة بالحرمان العاطفي المبكر والحالات التقصيرية

---

١ - بالنسبة لراكامبيه (١٩٥٤) « تظهر الرغبة ولا تبقى الا اذا تم ارضاء الحاجة اولاً » .

تسمح بالتأكيد ان وجود الام (او بديل عنها) ضروري للنمو النفس - عاطفي ، فإنها تؤكد ايضاً ان هذا الوجود يجب ان يرتبط ببعض الصفات ليتلاءم مع حاجات الولد . اننا نعلم ان اعراضاً تقصيرية قد تظهر اذا تقاعست الأم ، وان كانت موجودة ، من الناحية العاطفية . ان هذا الشرط ضروري لاقامة علاقة الموضوع التي لا يمكن ان تتحول الى بلوغ بسيط لصفة فطرية : فهي تفترض فعلاً رابطاً بين الذو والموضوع : فسلوك الموضوع الليبيدوي يجب ان يتدخل بفعالية . لذلك يجب تأكيد جانب العامل الامي في العلاقة المتبادلة بين الأم والولد . وقد اشار فرويد (١٩٠٨) ان بعض المأزمات النفسانية عند الأم قد تحول علاقتها بالولد .

وقد لاحظ فرويد ان المرأة غير المرضاة جنسياً يمكن ان يكون لها سلوك حنان مفرط وقلق تجاه طفلها ، « فهي تلقى عليه حاجاتها للعطف وقد توقظ عنده بشكل مبكر البلوغ الجنسي . والاتفاق السيء بين الاهل يمكن ان يثير الحياة العاطفية للولد ويجعله يعبر منذ سن مبكر عن مشاعر حادة من الحب والكره والغيرة . لكن التربية القاسية التي لا تسمح بأي تعبير عن الحياة الجنسية الطفلية ، تقمع مشاعره ؛ ان مثل هذا المأزم ، الذي يحصل خلال الطفولة الاولى ، يحوي كل ما يمكن ان يكوِّن العصاب لاحقاً ، وهو قد يمتد طيلة الحياة » .

ان الاقتراحات التكوينية تعطي قيمة بلوغية او عصابية لبعض الوضعيات العصبية المعتبرة كنقطة انطلاق للعصاب او لبعض سمات الطبع .

فالتحليل النفسي ، بملاحقته اصل الشخصية الى ابعد ما يكون ، اي حتى المرحلة الفمية ، اراد ان يدقق بمواقف الأم التي تلعب دوراً اعدادياً او مسبباً للمرض[1] .

لقد دارت ابحاث كثيرة حول الوضعية الارضاعية مستندة الى فرضية ان

---

١ ـ بما اننا لا نستطيع هنا ان نعالج المشاكل النفسانية الخاصة بالامومة والمواقف التي تسببها ، ولا ان نعالج الدوافع العصابية لبعض تصرفات الأم . فإننا نكتفي بارشاد القارىء الى كتاب هيلين دويتش -Deutsch la psychologie des femmes. PUF 1947.

مواقف الأم خلال الارضاع تعطي عينة ممثلة عن موقف الأم تجاه مطالب ولدها الغريزية . فالملاحظة يمكن ان تُعلمنا اذن عن النمط العام لردود فعلها ، ليس فقط في هذا المجال الخاص ، ولكن ايضاً فيا يتعلق بحاجات الولد الاخرى .

فالوضعية الارضاعية تشكل الارضية التي يجري عليها المأزم العاطفي الاول ، وتعني الفطام .

فهذا المأزم ، ببساطته الظاهرة ، يبدو بشكل خاص خاضعاً للملاحظة المباشرة ويمكنّ من استكشاف استجابة الأم امام المطلب الغريزي ، والنتائج الخاصة للمواقف المختلفة في تكوين شخصية الولد .

لقد عالجت مرغريت ريبل Margaret Riblle (١٩٤٤) نموذجين من ردود الفعل عند الرضّع الذين يُطبع نمط الغذاء عندهم ببعض التفكك ؛ فهو رد فعل يختص ببعض السلبية مع رفض النهد ، الخلفة ، التصلب العضلي ، والتنفس السطحي وفترات من قطع النفس ؛ وهناك رد فعل آخر ، يدعى النموذج الخواري طابعه جمود الشعور ونقص التوتر العضلي والاصفرار والاضطرابات المعوية .

كل هذه الاضطرابات قد تنعكس وتنخفض عندما تتغير بعض العادات الغذائية ، واذا زادت الأم المداعبات واطالت فترة الرضعات وخصصت وقتاً اكثر للطفل .

ان عمل سيلفيا برودي Sylvia Brody ، Patterns of Mothering (١٩٥٦) ، يبين اهمية وحدود مثل هذا البحث . فهي تهتم بأكثر ما يكون من الدقة ، بتحديد وضعية الارضاع ، باستعراض اشكال التغذية : الارضاع بالنهد او بشكل اصطناعي ، الاوقات المحددة او المرنة (حسب الطلب) ، عدد الوجبات ، الموقع المعتمد من قبل الأم والطفل ، المداعبات والكلام التي ترافق الوجبة الخ . . فالكاتبة تقترح تناول المعطيات الخارجية للرضعة بموضوعية تامة .

بالاضافة الى ذلك ، تحاول بعض المقابلات مع الأم استكشاف موقفها الذاتي تجاه وضعية الارضاع وادراكها للشبع (بالمكافأة الحاجة ، وكذلك افكارها

حول نمط وفترة الفطام . وفي نهاية بحثها خلصت برودي الى ان الولد الذي يرضع بالنهد وفي اوقات مرنة وبين ذراعي امه خلال الارضاع هو في تجربة غذائية ليست بالضرورة مرضية ـ اكان ذلك من جانب الولد او من جانب الأم . من الممكن ان بعض المعايير ـ المعتبرة بشكل عام كدليل على العلاقة الحسنة بين الأم والطفل ـ تُحترم بينما الأم لا ترضى بها الا قليلاً والطفل لا يكافأ بشكل كامل . لا يبدو ممكناً قياس صفة الوضعية الارضاعية الا بناء للمعطيات التالية :

- كون الأم حساسة لحاجات طفلها ؛
- كونها قادرة على اقامة علاقة جسدية وكلامية اثناء الارضاع مع طفلها ؛
- وخاصة لكون الدوافع العميقة تتقدم على اختيار الاشكال المعتمدة .

ان الشكل الذي يعيش فيه الطفل هذه الوضعية الارضاعية يتعلق اذن ، في نهاية المطاف ، بالمواقف اللاواعية للأم . فقد استطاعت برودي ان تصنف الامهات الى فئات مختلفة حسب مواقفهن وتوجهاتن ، ولكنها بقيت متشككة فيما يتعلق باعطاء هذه المواقف قيمة تشخيصية دقيقة في تكوين شخصية الطفل . ان بحثها الدقيق يدل على صعوبة الحكم : من زاوية الملاحظة المباشرة ، على معنى ونتائج موقف بارز معين . فوراء هذا السلوك الظاهر يجب استكشاف المعنى الكامن للسلوك من اجل اعطاء الدلالة الكاملة للعلاقة بين الشخصين .

وقد اجرى سيرز وماكوبي ولفين Sears, Maccoby, Levin (١٩٥٧) ابحاثاً مشابهة حول الممارسات التربوية تهدف لتوضيح الانعكاس العاطفي للفطام « فتجربة النهد » حتى ولو تداعجها الولد واتخذت معناها في نمط علاقته مع الآخرين ، فإن هؤلاء الكتاب يعتقدون ، بأن الأمر يتعلق بالشكل الخاص لعيش هذه التجربة المرتبطة بالواقع المعاش لكل طفل وليس بالنمط الخاص للفطام . هناك ظروف ملائمة اكثر من غيرها لتخفيض الصدمة الى ادنى درجة ممكنة : بداية الفطام بين خمسة وعشرة اشهر ، تخفيض فترة الانتقال والتحضير

للفطام بتقديم الاطعمة المختلفة تدريجياً . لكن هذه المعطيات لا تكفي لاقامة علاقة ذات دلالة بين مواقف وتقنيات الارضاع والبنية النفسانية للطفل .

كل هذه الدراسات تصطدم بصعوبة تقييم دور الواقع الموضوعي . فمهما كانت الملاحظة دقيقة ، فالواقع لا يمكن تحويلـه الى ارصـان احصائـي صرف وحتى ولو لم يتوضح المحتوى الكامن والهوامي .

ان الدور الذي تلعبه الأم خلال هذه التجارب الفمية ، مهما كان ظاهراً ، ليس من السهل الاحاطة به نظراً لتعدد عوامله . فتقصير الأم لا يمكن تحويله الى مظاهره الاكثر كثافة . لقد حاول عدد كبير من الكتاب توضيح معنى الامومة في مصير المرأة من الزاوية التحليلية[1] .

والبعض الآخر ابرز دور التغيرات النوعية لسلوك الأم ولانعكاسها على نمو الولد . لقد عالج سبيتز (١٩٦٥) الاثار النفسية السامة لبعض المواقف حيث يميز النبذ الاولي والعدوان الخوافي والتبدلات السريعة في المزاج ، والرقة المتبادلة مع العدوانية والعدائية المعوضة ، الخ . . والتي يعترف لهـا بنتائـج معينـة في المجال النفسي ـ الجسدي .

اما ليفي Lévy فقد فتش عن الدوافع اللاواعية وراء تصرفات الأم المفرطة بالحماية . فالقساوة والقلق او الابراز المستمر للعطف يمكن ان تكـون ناتجة عن القلق والعداء والنبذ وتعمل على اشباع عدم الارضاء الاساسي الذي تشعر به الأم في علاقاتها بالولد .

فإذا كان ارصان الشخصية ، خلال السنة الاولى ، يمكن ان يعرِّفه سيرز

---

١ ـ اننا ندل القارىء على كتاب هيلين دويتش La psychologie des femmes (١٩٤٧) ، الـذي من المهـم مقارنته ، لاختلاف وجهات النظر التي تفصلهما ، بكتاب سيمون دوبوفوار Gallimard, le deuxième sexe, de Beauvoir ١٩٤٩ . فالأمومة التي اعتبرت لفترة طويلة بأنها المصير الطبيعي للمـرأة ، جرت معالجتها حالياً على ضوء المعطيات الاجتماعية ـ الثقافية : فغريزة الامومة التي تكون ، بقسم كبير منها، نتاج الثقافة التي تأتي لتساند ـ بل لتستغل ـ الدور الذي تلعبه المرأة في الانسال والارضاع ؟ انه تساؤل قديم ولكنه منذ بعض الوقت اتخذ منحى جديداً . يمكن العودة الى منشورات بيتي فريدان Betty Friedan (١٩٦٣) وسوزان ليلار Suzanne Lilar (١٩٦٩) وجرمين كرير Germaine Greer (١٩٧٠) اللواتـي يعملن على تحرير المرأة من « مصيرها » .

بأنه « تعديل مستمر لسلوك الولد تحت تأثير اوامر الأم » ، فعلى الولد ان يتعلم ان يرغب ما يرضي حاجاته ، ولكن ان يرغب ايضاً حسب حاجات امه او حسب رغبتها . ان غموض عبارة (رغبة امه) يحتوي على الاشكال المختلفة للعلاقة بين الذو والموضوع : ان يكون موضوع رغبة الأم ، ان يصبح التعبير عن رغبة الأم ، ان يجعل من الأم موضوعاً لرغبته (غرانوف Granoff ١٩٥٦) . ان هذا الغموض يدل بنفس الوقت على صعوبة تحديد الولد لمقامه كذو او موضوع .

فإذا كان هناك نقص او تقصير او انحراف ، فهي ليست قائمة فقط على مستوى واقع الأم ، ولكنها ترتبط بصورة الأم كما تتكون تدريجياً خلال تطور الولد .

فالعلاقات الاولى تختص اساساً بالتماس الجسدي بين الأم والرضيع . وقد لاحظت روث ماك برونشفيك Ruth Mack Brunswick (١٩٤٠) ان كل الحياة العاطفية للرضيع مرتبطة بشكل وثيق بالعنايات الجسدية التي يخضع لها : التغذية ، الاثارات الجلدية ، الرفاهية العضلية تشكل النماذج الاساسية عن الحاجات المباشرة ، والتي تؤدي مكافأتها او احباطها الى احساسات اللذة او الكدر . « فالتحقيق الهلاسني للرغبة » يشكل الملجأ الداخلي الوحيد لابعاد الم الاحباط المعاش . في هذه المرحلة فإن الموضوع الليبيدوي المستخدم لمكافأة الحاجة لا يمكن ان يكون له الا مقاماً نفعياً .

في مرحلة ثانية ينتقل التركّز الليبيدوي من التجربة المكافئة الى الموضوع الذي يمكّن من المكافأة . بعد ذلك ، تصبح تجارب اللذة والكدر مرتبطة بتصور الأم المعبأة بقدرة منح او رفض الارضاء المُشتهى . فإن صورتها تصبح مقسومة حسب ما ترتبط بالرفض او بالعطاء ، بصورة الأم الحسنة او بصورتها السيئة .

في هذا الانقسام الثنائي الاساسي حيث تتتابع وتتعارض او تتداخل الصور الجزئية في علاقة تارة ايجابية ، وتارة سلبية ، ولكنها متجاذبة وجدانياً بشكل اساسي .

على اثر تماهيه مع هذه الصورة يتخذ الولد لصالحه الدور الذي تلعبه

الأم التي تُدرك بأنها ناشطة . ان الانتقال من السلبية الى الفعالية يمكنّ الولد من التحرر مْن وصاية الأم . يمكنه ان يتخلى عن الموضوع الهلاسي لارضائه من تمييز الموضوع الحقيقي : وهكذا ينشأ مفهوم الذات كشخص مستقل . وبفضل التجربة المؤلمة لتخلّيه عن الأم ، يتخلى الولد تدريجياً عن مبدأ اللذة بتعلمه التعرّف على صورته الخاصة ، حدودها ومحدداتها . فعندما يتكلم فينيكوت Winnicott عن الأم الصالحة بما فيه الكفاية ، فهو لا يستند لا الى سلوك الأم ولا الى صورة معينة ، ولكن الى نموذج للعلاقة التي تسمح للولد بإرصان اول موضوع يملكه ملكاً خاصاً وهو بالتالي لا يشكل جزءاً من نفسه . ان مثل هذا الموضوع له مقام خاص : فهو ينتمي بكامله للولد ولو كان مستعاراً من الاشياء المحيطة به (قطعة الصوف ، الخرقة ، الخ .) ، ولكن هذا الموضوع لم يُعطَ له : فهو اول ما يشعر به الولد بأنه خلقه بنفسه كما هو . فهذا الموضوع الانتقالي (فينيكوت ١٩٥٣) يخطط ويحدد المساحة العاطفية الوسيطة التي تنتمي للولد ويمكنه ان يشحنها فيما بعد بنشاطاته الذكائية الفنية او الابداعية .

ولكن التبعية والطلب البدائي لا تمحى ابداً بالكامل ، ويمكن للآثار ان تظهر في جميع العلاقات الغيرية اللاحقة . وهكذا امكن ، في مجال الشذوذ ، اعتبار الموضوع الانتقالي كمطية اولى للموضوع ـ الحرز (غريناكر (١٩٧٠) Greenacre ؛ سمير نوف ١٩٧٠) .

ان هذا الطلب الطفولي لا يمكن مطلقاً اشباعه حقاً من قبل الأم ، مهما كانت تضحيتها . وهذا ما سمح لأنّا فرويد (١٩٥٤) بفضح مفهوم « النبذ الأمي » المعتبر مسؤولاً عن نشوء العصاب الطفلي بقدر ما يعتبر هذا الاخير كناتج عن الاحباط الحقيقي المفروض على الطفل . « فالأم قد يشعر بها الولد نابذة لأسباب عديدة مرتبطة اما بالمواقف الواعية او اللاواعية ، واما بأخطائها الجسدية او النفسية ، واما بوجودها او غيابها الفعلي ، واما باهتماماتها الليبيدوية المحتومة ، باعتداءاتها ، بقلقها ، الخ . . فخيبة الأمل والاحباطات لا تنفصل عن علاقة الأم بالولد . . . فالأم ليست الا ممثل ورمز الاحباط الفمي الذي لا مفر منه ، بنفس وضع الأب ، في المرحلة الاوديبية ، الذي هو ممثل الاحباط

القضيبي المحتوم الذي يعطيه دور الخاصي الرمزي . فالمفهوم الجديد للأم النابذة يجب ان يفهم بنفس معنى المفهوم القديم عن الأب الخاصي ، اما تجريم نقائص الأم خلال المرحلة الفمية لتفسير اصل العصاب الطفلي ، فهو ليس الا تعمياً مغايراً للواقع . . » .

فمهما كانت محاولات تحويل تكوين الشخصية الى تفاعل العوامل الموضوعية ناشطة فإنها تلاقي دائماً غلبة الخيالي . في الطلب الموجه للصورة الأهلية يتوطد المعنى الرمزي لكل لغة ولكل سلوك : وهكذا تتكون ، في الحياة الفردية لكل واحد ، مجموعة الدوافع اللاواعية والسلوكات التي ندعوها الشخصية .

٨ ـ التجربة الطفلية المعاشة ونسق التفردن .

فيما يتعدى الدراسات الاخذة بعين الاعتبار ، بصورة موضوعية ، مواقف الأم وردود فعل الولد ، فإن سلسلة من الاعمال خصصت لعلاقة الحب الاصلي في الثنائية . كل هذه الابحاث تحاول ابراز الانبثاق الذي يخفف تدريجياً من الترابط الوثيق المتبادل الاولي ، فالوصول الى مقام الاستقلال الاحيائي والعاطفي يقود الطفل الى ان يتأكد شيئاً فشيئاً في فردانيته .

١) الحب الاولي

ان الطابع المطلق والشامل والذي ليس له قياس للحب الذي يكنّه الولد لأمه قد جرت الاشارة اليه من قبل فرويد (١٩٣١) : « فالحب الطفلي هو بدون قياس ، فهو يطلب الاطلاق ولا يكتفي بالنتف . ولكن له طابع ثانٍ : فهو حب بدون هدف ، لا يمكن ارضاؤه تماماً ولذلك فهو محكوم دائماً بالخيبة وبأن يفسح المجال للموقف العدائي . . . فهذه الاثارات الليبيدوية الاولية تحوي حدة تبقى اقوى من حدة الاثارات اللاحقة ويمكن اعتبارها بأنها غير قابلة للقياس » . اننا نجد كل هذه الخصائص في وصف نفسية الطفل : فالاولاد متطلبون ، نهمون ، جشعون ؛ يخلق الولد في حالة من النرجسية الاولية وتظهر الدوافع العدوانية (المشتقة عن دافع الموت) اما عفوياً ، واما بسبب عدم الارضاء الناتج عن الاحباطات التي يفرضها العالم الخارجي . الا ان بالانت Balint

(١٩٣٧) يعتبر ان الحالة الابكر للنفسية لم يكن لها طابع نرجسي : فعلاقة الحب من اولها « متجهة نحو المواضيع ، ولكن علاقة الموضوع هذه هي علاقة سلبية : يجب ان أُحب وارضى دون ان اعطي اي شيء بالمقابل . فهذا هو الهدف النهائي لكل رغبة غلمية ، وسيبقى هذا الهدف على الدوام » . بالنسبة لبالانت النرجسية هي التفاف ، دفاع ضد موضوع سيء ومتردد . كل علاقات الموضوع اللاحقة تشتق من هذا الحب للموضوع الاولي غير المرتبط بأية منطقة مغلمة .

فالحب الذي يكنّه الولد للأم هو شكل بدائي للحب ، يتجه نحوها كلية ، ولكنه لا يأخذ بالاعتبار المصالح الحقيقية للموضوع . فالفرد لا يدرك الطابع التجاذبي لهذا الحب ، فهو يخلط مصلحته الخاصة بمصالح الأم : فالولد لا يرغب بأن تمرض امه ، ليس لأنه يهتم بصحتها ، بل خوفاً من ان يفقدها في حالة مرضها . وقد اشارت اليس بالانت الى الفرق بين حب الولد للأم وحبه للأب . حتى ولو اعتمد هذا الاخير موقف الأم ، فإن الرابط البدائي بين الولد والأم يبقى ناقصاً . فعلاقة الولد بالأب تخضع لمبدأ الواقع لأن هذا الرابط لم يرتكز ابداً على تشابه المصالح . فكون الاولاد يطيعون صاغرين اوامر الأب لا يفسر فقط بالسلطة الابوية ، ولكن ينجم عن شعور بأن الأم لا يمكن ان تريد شيئاً منافياً لرغبة الولد .

وقد اشارت اليس بلانت (١٩٣٩) الى ان طبيعة حب الأم تكمن في توجهه للطفل الصغير ، الذي يتعلق بها في جميع حاجاته الجسدية . وكون بعض الامهات تستمر باعتبار اولادهن صغاراً ، حتى في سن المراهقة ، واحياناً في سن الرشد ، يدل الى اي حد لا يخضع حب الأم للواقع ، لأنه يشكل المكمل الحقيقي لحب الولد للأم . بهذا المعنى يعتبر الولد بالنسبة للأم موضوعاً للمكافأة الليبيدوية ، موضوعاً تعتبر الأم حاجاته مماثلة لحاجاتها . فالعلاقة تقوم هكذا على ترابط متبادل للاهداف الغريزية بين الاثنين .

٢) تجربة الولد المعاشة .

لقد حددت سيبيل ايسكالونا Sibyl Escalona (١٩٦٣) التجربة الطفلية

المعاشة بأنها تجربة ذاتية بشكل اساسي تمكّن الولد من التعرف على وسط خارج عنه ومن توطيد علاقة خاصة مع الأم : « فوظائف الأنا تبرز وتتميز خلال هذه اللقاءات وهذه التكيفات المتتابعة » . وبتأكيدها على مفهوم التجربة المعاشة - بدل التأكيد على تجربة البلوغ او التعلّم - تتلافى ايسكالونا الجدال العقيم الذي يحاول ان يقيِّم في اساس كل علم نفس - مرضي - مثلاً في الانطواء الطفلي - الجانب الذي يعود للأمومة الناقصة او للنقص الفطري . فالكاتبة تؤكد فوراً على النقص في التجربة المعاشة التي تلعب بهذا الوضع دور العامل المسبب للمرض . فهذا النقص في التجربة المعاشة قد يأتي من كون الأم ليست قادرة على تأمين « محيط كامل » ؛ او انه قد ينتج ايضاً عن كون الولد غير قادر على المشاركة في العلاقة المقدمة له . فمهما كان السبب ، تقول لنا الكاتبة « فالنقص في التجارب المعاشة ، خلال الطفولة الاولى ، الذي هو ذو اهمية حيوية ، هو ضروري جداً لكي يتحقق تركيب الأنا » ، الذي يعتبر مسؤولاً عن كل ما يعوق عملية النمو .

٣) الأم ، عامل للتسهيل

ان الفضل يعود لفينيكوت الذي حدد الجهاز العاطفي الضروري لاقامة علاقة ضرورية وكافية بين الأم والولد . فهو قد اطلق مفهوم « المستند » الذي يعني بالاضافة الى الواقع الجسدي للأم التي تمسك الولد ، كل ما يقدمه الوسط المحيط للولد كمرتكز . في هذا المستند يوضع الرضيع في حالة من التبعية التامة : فهو لا يستطيع تقدير نوعية العناية التي تغدقها عليه الأم ؛ فهو ، على اكثر تعديل ، يستطيع ان يتمتع بها او يتعذب من نقصها . خلال هذه المرحلة ، على المحيط ان يجيب على الحاجات الفيزيولوجية والنفسانية للطفل بشكل يهيء اطاراً وعلاقة يستطيع الولد الاعتماد عليها . فالعنايات التي تقدمها الأم يجب ان تكون ، حسب عبارة فينيكوت (١٩٤٥) « صالحة بما فيه الكفاية » لاشباع حاجات الرضيع : ونشير بأن فينيكوت يستند هنا الى صفات لا يمكن تعليمها : اننا نلاحظ بأن هناك امهات تعرف كيف تمسك ولداً واخريات لا يعرفن ذلك ؛ فهؤلاء الاخيرات يحدثن بسرعة عند الولد شعوراً بعدم الاطمئنان . الا ان هذه العنايات ، بالنسبة لفينيكوت ، هي حاسمة بالنسبة

لصحة الفرد العقلية ، لأن تعرض الولد للذهان ام لا متوقف بشكل اساسي على هذه العنايات .

هذه الأم « الصالحة بما فيه الكفاية » يجب اذن ان تستجيب بشكل فاعل لحاجات الرضيع . في البداية ان مثل هذا التكيف شامل . ولكن شيئاً فشيئاً ، اي كلما اصبح الولد قادراً على مواجهة ثغرات هذا التكيف والتسامح مع الاحباط ، تستطيع الأم - بل من الواجب عليها - ان تتكيف بشكل اقل دقة مع حاجات ولدها : فهذا يتطلب من الأم استعداداً ثابتاً تجاه الولد ويتعلق بما يسميه فينيكوت - التهيؤ لمعرفة الغير - وليس بنسق الفهم الذكائي الصرف .

في مرحلة اولى ، يسمح التكيف الشامل للطفل بأن يتوهم بأن نهد أمه يشكل جزءاً منه . وفي مرحلة لاحقة ، عندما يسحب النهد منه شيئاً فشيئاً وتصبح العنايات اقل شمولاً تدريجياً ، اي عندما يصبح التكيف اقل اكتمالاً ، يصبح ممكناً بالنسبة للولد ان يكوّن الأم كموضوع حقيقي له صفة الخارج عن الذات : موضوع يمكنه بعد الآن ان يحبه او يكرهه . اما اذا استمر تكيف الأم هذا ، لسبب من الاسباب ، ولم يتطور باتجاه التناقص ، فإن الولد لن يستطيع اقامة علاقة مع الواقع الخارجي . وهكذا يعتبر فينيكوت ان ازالة الوهم هي مهمة جوهرية للأم ، وعملية ازالة الوهم تهيء الولد للاحباط النهائي في الفطام . فإذا لم يستطع الولدان يعيش تجربة ازالةالوهم ، يصبح الفطام انفصالاً صدمياً لم يهيأ له بأي عمل ، بدل ان يكون نهاية طبيعة لتطور تدريجي في ازالة الوهم . ان قطع الولد عن نهد امه ليس فطاماً : فهو مأساة لا يبقى منها الا صفتها المؤلمة والمأزمية ، دون اية قيمة اعدادية .

خلال فترة الاستناد هذه يتبنين الأنا بفضل التجارب التي تمكنّ الولد من تكوين عالمه الداخلي وعلاقاته مع المحيط . وبتحديد صورته للجسد ، وبتمييز نفسه عن الغير وبتمييز اشيائه عن اشياء الأخرى ، يكوّن الولد حقيقته النفسية ويصبح قادراً على الاحساس بالقلق . فخلال هذه المراحل الاولى يتعارض قلق الابادة مع الشعور باستمرارية الكائن . فهذا التعاقب هو وحده المعقول في

فترة عدم وجود اي معنى للموت . بالنسبة لفينيكوت لا يتخذ الموت معنى الا عندما يظهر شعور الكره .

وهكذا بالنسبة لفينيكوت يشكل الاستناد التجربة المعاشة التي يرتكز عليها تكامل الأنا وتكوّن المواضيع . فعنايات الأم لا تقتصر فقط على امساك الولد والاعتناء به ، ولكن يجب ان تحدد كتجربة ذاتية وشاملة للأمومة . فهذه التجربة يجب ان تعطي الولد الثقة الضرورية لتحمل مسؤولية استقلاله .

ان روبرتسون (١٩٦٢) تؤكد على ارضاء الأم : فهي تلاحظ ، في عيادات العناية بالاطفال ، ان تطور فترة التكيف تكون اكثر ملاءمة ، كلما احست الأم باللذة ، ليس فقط لأنه اصبح لها ولد ، بل عندما توفر لها العملية الفاعلة للأمومة ارضاء عميقاً . فعلى الأم ان تكون قادرة على ادراك انطباعات ولدها العاطفية وتتسامح مع قلقه الخاص ـ الطبيعي في هذه الفترة . هذا الارضاء وهذا التسامح يشكلان جزئاً من الاستناد الذي يتكلم عنه فينيكوت .

٤) الأم ، ستار واقٍ

فالأم يجب ان تستخدم ايضاً كحماية ضد المثيرات الخارجية والداخلية التي ، اذا كانت حادة كثيراً ، يمكن ان تكون صارمة . هذه المسألة التي طرحها فرويد (١٩٢٠) تناولها مسعود خان Masud Khan (١٩٦٣) الذي يتلكم عن الستارالواقي الذي تشكله الأم عندما تهيء وضعية الولد تجاه « المحيط غير الانساني[1] » ، ولكن ايضاً ضد بعض مواقفها الخاصة ، التي يتعلق بها الولد من اجل رفاهيته . هذا الستار الواقي يمكن في بعض الظروف ان يفقد من فعاليته اذا ازعجت مشاكل عاطفية خطيرة الأم عن ادارك حاجات الولد ؛ او عندما تواجه الأم مهمة مستحيلة ، عندما يكون عليها ان تواجه ولداً مريضاً او مصاباً بتشويه معين ، او ولداً اعمى ، الخ . . . فقد تظهر احياناً صعوبات لا يمكن تجاوزها بسبب شعور الولد بأنه معرض دون دفاع لاعتداءات المحيط .

هناك عيوب اخرى في النظام الواقي اقل كثافة : فهي لا تؤدي مباشرة لنتائج

---

١ ـ انظر H. Searles (١٩٦٠)

مأسوية . الا ان الفشل المتكرر لوظيفة الحماية ينعكس لاحقاً على بنية طباع الولد . هذه الصدمة المتراكمة (مسعود خان ١٩٦٣) تذكر ايضاً بأوالية كون الاحداث القديمة والمنسية غالباً تأخذ معنى جديداً عندما تحيا بواسطة المأزمات النفسية الحالية .

في الظروف الطبيعية يقوم الستار الواقي بعدد معين من الوظائف : فهو يحمي الولد من كره الأم اللاواعي ؛ يسمح للولد باسقاط تجاربه المعاشة المؤلمة على الأم ؛ وهو يساعد الولد على ان لا يعي تبعيته الكاملة ؛ واخيرا يساعد على التميز البطيء للأنا والهو ، وبالتالي يمكّن من توطيد النرجسية الاوليه واولى التركزات على الموضوع (مسعود خان ١٩٦٣) . هذا الانتقال من التبعية الكاملة الى التبعية النسبية يساعد على بدء الانفصال ويشكل النواة البدائية لازالة الوهم (فينيكوت ١٩٥٣) . بعد ذلك تبرز امكانية الانشطار العاطفي بين الحب الشامل والعدوانية .

ولكن تجدر الملاحظة ان العدوانية ليست رد فعل بسيط على ظروف الوسط او على الموقف المعين اللاواعي للأم . فالعدوانية تظهر ، مهما كانت الظروف ، كتعبير عن الهوامات اللاواعية : فدور المحيط هو جعل التعبير والتجربة المعاشة لهذه العدوانية امران محتملان . فإذا استندنا الى آراء كلاين حول هوامات التدمير ، نفهم ان صورة « النهد السيء » يمكن ان تُقوّى بالتجربة المعاشة التي قد تؤكد هكذا ان العالم الخارجي شرير ، ولكن قد تقوي ايضاً ايمان الولد بجبروته العدواني الخاص . وعلى نفس النمط ، فإن التجارب المعاشة الحسنة قد تؤثر في تغيير قلق الاضطهاد ، وفي تعبئة الحب والمعروف وتقوية صورة « الموضوع الصالح » في نهاية المطاف .

ان الأم بقدر ما تكون قادرة على التسامح مع العدوانية ، وحتى مع الكره - بالنسبة لها كما بالنسبة للولد - فإنها بذلك تمكّن الولد من ان يحيا عدوانيته . فهذا يقود مسعود خان (١٩٦٩) للاشارة الى الدور البلوغي للتجربة العدوانية المعاشة ؛ ففقدانها يمنع اي فطام متبادل : الأم لن تستطيع الانفصال عن ولدها ؛ والولد لا يمكنه اقامة المسافة الضرورية بينه وبين امه من اجل بناء العالم الخارجي . ان تجربة العدوانية التي يعبر عنها هي وحدها التي تجعل

الولد قادراً على اضعاف العدوانية لاحقاً او استخدامها لتجنب جمود الشعور العدائي او الشلل المنتشر اللذين قد يبعدانه عن مهمات التعلم والتكيف . فعندما لا تستطيع الأم ان تلعب دورها كحاجز واقٍ ، تؤدي الصدمة المتراكمة على امد طويل الى حالة يتعايش فيها الضغط والتبعية ، وهو ما دعاه مسعود خان الجبروت التعاضدي . كذلك لا يجب اعتبار دور الأم كعاملة على تأييد التبعية ، ولكن على العكس كستار واقٍ يمكن الولد في ظله ان يقبل ويستخدم عدوانيته الخاصة ويتسامح مع عدوانية الوسط المحيط به .

٥) انساق التفردن

في علاقته بالأم يكتشف الولد الموضوع الذي يرضي حاجاته : فهذا الموضوع الأمي سيصبح هكذا النواة التي تنتظم حولها التصورات النفسية لموضوع الحب .

فالاتحاد الأولي بين الولد وامه يعود لعدم البلوغ الاحيائي والعاطفي للمولود الجديد . فالانفصال يتم في نسق طبيعي من التفردن (ماهلر M. Mahler ١٩٦٣) ويؤدي الى توطيد العلاقة الغيرية . فالأمر لا يتعلق بانفصال صدمي ولكن بمرحلة تطورية يشعر الولد فيها بلذة الحصول على استقلاله النسبي بفضل وجود الأم المطمئن ليبيدوياً . فالتفردن والانفصال هما نسقان متداخلان وليسا متزامنين بالضرورة : فالتفردن يعني اكتساب الاستقلال النفسي الداخلي ، بينما الانفصال يستند الى التمايز واكتساب الحدود وانعتاق الفرد .

ان هذه المرحلة من الانفصال ـ التفردن تشكل شرطاً ضرورياً لكي يستطيع الولد اقامة هويته واكتساب معنى وحدته الاحيائية ـ العاطفية كفرد . ان ماهلر (١٩٦٣) يعرف شهور الهوية هذا بأنه « تركز منسجم لصورة الذات ، المستقلة والمتميزة ، كلما انعتق الولد من الغلاف التعاضدي » . فالصورة الجسدية للولد تبرز شيئاً فشيئاً وتنفصل عن صورة الأم : ان هذا الفاصل يشكل نواة نسق التفردن .

خلال هذا النسق تلعب الأم دوراً اساسياً ، لأنه يتوقف عليها وعلى موقفها

الواعي واللاواعي ، ان يتحقق التوازن في كل لحظة بين الاحباطات الضرورية وغير المجتنبة التي تشكل جزءاً من كل امومة ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، بين قبول الأم لوتيرة حاجات طفلها .

ان الدور الذي تلعبه علاقة الأم بالولد في اكتساب الهوية من قبل الولد كان موضوعاً لبحث اجراه ريتفو Ritvo وسولنيت Solnit في Yale university Child Studay center (١٩٥١) ، لقد قارن هذان الكاتبان نتائج سلوكات الأم المثيرة او الصادة. وقد اشارا الى ان الارتباط بين الاستعداد الاحيائي - العاطفي للولد (وهو ما يدعو انه عوامل التجهيز) وموقف الأم يحدد ما يعيشه الولد كإحباط .

هناك حالتان توضحان هذا الرأي . افلين Evelyne ، التي يمكن اشباع حاجاتها بسهولة ، كان لها اماً حساسة قادرة على ادراك حاجات الولد بحدثها المرهف وتستجيب لها ؛ لقد كانت قادرة ايضاً على فرض بعض الحدود وتمنح المكافآت ا لبديلة . فحاجات افلين لا يبدو انها تتطاول على المأزمات اللاواعية للأم ، في مثل هذه الظروف ، تخضع الأم ، باعتبارها موضوعاً ، لاجتياف - يسبق كل تماهي . اما مرغريت Marguerite فعلى العكس ، كانت متوترة ، مضطربة وغير مستقرة ، تبكي باستمرار ومن الصعب تهدئتها ، فأمها كانت قلقة وقاسية ولم تكن قادرة على تقدير حاجات طفلتها بالضبط . فالتجربة التي عاشتها مرغريت خلال الطفولة الاولى لم تعطها عن الأم الا صورة قليلة الطمأنة . وقد جرى التماهي بالأم حسب نموذج يمكنها من الدفاع ضد القلق ، ولكن باستخدام اواليات دفاع قاسية وقليلة الفعالية من اجل التكيف مع متطلبات الوسط .

ان مواقف الأم - اكان الأمر يتعلق بتأخر المكافأة او بالاحباطات - يجب ان تمكّن الولد من توجيه عدوانيته نحو مواضيع العالم الخارجي ، كما بينّ ذلك روبينفاين Rubinfine (١٩٦٢) . فالاحباط يمكّن من وعي ان الموضوع المرضي للحاجات ينتمي للعالم الخارجي ، وبذلك فهو ينفلت من رقابة وجبروت الولد . وهكذا يكتسب الولد شيئاً فشيئاً مفهوم مكافأة حاجاته والاحباط ؛ فهذه

التجارب المعاشة تؤدي الى ارصان تصورات نفسية عن مواضيع مرضية او محبطة[1]

ان اسناق التفردن هذه يمكن ملاحظتها منذ الشهر الرابع وتأخذ كل مداها خلال النصف الثاني من السنة الاولى ، عندما تظهر اولى صميات الحركة المستقلة . وكلما اصبحت حركات الولد متمايزة ، فإنها تتوطد كنمط للاتصال والتبادل . جميع الوظائف الحركية والحسية تصبح مشحونة بدلالة ثانوية لا واعية : طلب الحب والتأييد ، حاجة المساهمة وجعل الأم تساهم في اكتشاف الجدارة الناشئة . فالأم يجب ان تستخدم كحافز في نسق التفردن مع كونها قادرة على تفسير الاتصال الاولي والتكيف مع الاستقلال المتزايد لولدها . وهكذا يظهر نسق التفردن ليس كمؤشر بسيط عن بلوغ الولد ، ولكن كمرحلة نمو ترتكز بشكل اساسي على علاقة الولد بالأم . فردود فعل الأم العاطفية هي اذن ذات اهمية اساسية وهي تخضع للمعنى الذي يحمله الولد عن الأم وللهوامات التي يركِّز عليها . لقد برهن بيبرنغ Bibring ومساعدوه (١٩٦١) ان التهيؤ العاطفي للأم ، أكان ذلك خلال فترة الحمل ام خلال السنوات الاولى ، يلعب دوراً حاسماً في مثل هذا النسق . فالأم يجب ان تجد مكافآت في الامومة ، التي هي حماية وتسهيل في نفس الوقت . فما دام الولد لا يمثل بالنسبة للأم الا موضوعاً محبوباً ينتمي اليها بكامله وليس كائناً انسانياً على الأم ان تقوده تدريجياً الى الاستقلال المتزايد ، فإن نسق التفردن لا يمكن ان يجري بشكل طبيعي[2] فكما يشير ليتيل M. Little وفلارشهايم A. Flarsheim (١٩٧٢) ، « ان

---

١ ـ اننا نجد في علم الاخلاق تأكيداً اختبارياً لضرورة الاحباط . وهكذا استطاع هارلو Harlow (١٩٥٩ ، ١٩٦٠) ان يبرهن ان اطفال القردة المربين دون امهم ولكن مع بدائل للأم غير متحركة (نموذج اصطناعي) كانت دائما بتصرف الصغير ، اعطت سلوكات خاصة : فالصغار لم يعودوا يلعبون ولا يتنظفون ، ولا يتفلون من البراغيث . فسلوكهم كان غير اجتماعي وغير عملي وكانو يتسمرون في اوضاع غير عادية . وكانوا لا يتجامعون ، واللقاءات بين مختلف الافراد لا يبدو انها متبنينة . ان تفسير هذه الوقائع يبقى امراً دقيقاً : يمكن تفسيرها بوجود بديل غير نشيط ، او على العكس بغياب الامومة الفاعلة .

٢ ـ اننا نجد مثلاً متطرفاً عن عدم امكانية بلوغ هذا الاستقلال في ابحاث ماهلر (١٩٥٨) حول Les états psychotiques symbiotiques زولينيل وفلار شهايم (١٩٧٠) حول « les états »limites .

يكتسب الولد هويته الخاصة يعني انه يجب ان يفلت من الاتحاد غير المتمايز الاولي ويتخلى عن الجبـروت ا لبدائـي » . ان البلـوغ العاطفـي للأم وقدرتهـا على التكيف بفعالية مع حاجات الولد هي وحدها التي تمـكّن هذا النسـق من ان يجري بشكل مُرضٍ .

[illegible] the Alexan-

الفصل السادس

الاوديب : العقدة ،الوضعية ،البنية

ان ما يعالج في التحليل النفسي تحت اسم عقدة اوديب ليس مجرد مرحلة تكوينية اخرى تأتي لتتبع المراحل السابقة . ان فرويد ، عام ١٩١٨ ، كان يعتبرها كأحد المخططات النسبية ـ التكوينية الناتجة عن « مخلفات تاريخ الحضارة البشرية » . لقد اكد ، منذ ١٥ تشرين اول عام ١٨٩٧ ، في كتاب الى فليس W.Fliess ، على عمومية العقدة ، ليس فقط باعتبار الاوديب اسطورة ، ولكن ايضاً باعتباره مصيراً فردياً : « ان سلطان اوديب ـ الملك اصبح مدركاً بالعقل الانساني عامة . (. . .) ان الاسطورة اليونانية تبرز الاضطرار الذي يتعرف عليه اي فرد من خلال ادراكه لآثار وجوده داخل ذاته » . لقد اكتشف فرويد عناصر هذا الشعور خلال تحليله الذاتي : حبه لأمه والتنافس الغيور تجاه ابيه . الا ان فرويد لا يتكلم عن الاوديب كوضعية مأزمية لا واعية الا بعد عدة سنوات [1] . بعد ذلك ستتخذ عقدة اوديب معنى الوضعية العقدية كأساس لعلاقات تحكم كل الحياة الاجتماعية ، وتُدخل الفرد في العالم الرمزي .

---

١ ـ اننا نعني هنا بالعقدة الوضعيات التي تبنين العلاقات بين الاشخاص بشكل اساسي (عقدة اوديب ، عقدة الخصي) .

١ ـ عقدة اوديب

ان عقدة اوديب تعرّف كمأزم نفسي : فالولد يصبح ، للمرة الاولى ، منخرطاً في مثلث عاطفي حيث تتصادم رغبته الجنسية لأحد الاهل المختلف عنه جنسياً مع رغبته بازالة القريب من نفس الجنس باعتباره منافساً وعائقاً في وجه هذا الحب . هذا هو الشكل الايجابي للاوديب الذي قد يظهر ، في بعض الظروف بالشكل العكسي او السلبي . ولنشر ان هذين الشكلين يتعايشان ، بدرجات مختلفة ، في كل مأزم اوديبي وأن تجاذب الولد ، تارة تجاه الام وطواراً تجاه الأب ، هو عنصر ثابت خلال هذا المأزم . مأزم تتغلب فيه الهوامات اللاواعية على عناصر الواقع كما يمكن ادراكه .

« فالتخيل النموذجي نوعاً ما لعقدة اوديب هو شيء ، والمفاهيم النظرية التي تمكن من اخذه بعين الاعتبار هي شيء آخر » (اورتيغس Ortigues ١٩٦٦) . بالفعل ، ان الاوديب هو المفهوم العقدي الذي يتحد تاريخه بتاريخ التحليل النفسي ، كما اشار الى ذلك لابلانس وبونتاليس (١٩٦٧) ، ولم تفرض اهميته ودلالته الا تدريجياً خلال المحاولات المختلفة التي سعت لتحديد مداه .

١) توطيد الأوديب

من الممكن ذكر الشروط لتي تسهل نشوء عقدة اوديب . بعض هذه الشروط تعود للنمو الليبيدوي : المرحلة التناسلية حيث يمس التركز الدافعي حساسية المنطقة المغلمه التناسلبة ؛ اكتشاف الاستمناء وظهور الفضول الجنسي المشتق منه ؛ الهوامات المتعلقة بالحياة الجنسية وبالحادثة البدائية . كل هذه العناصر تساهم ولا شك بالترميز المتفوق للمرحلة القضيبية .

من جهة اخرى ، يجب اخذ بعين الاعتبار العوامل العلائقية ومن بينها التفردن التدريجي للشخص ، وتخلصه من العلاقة الثنائية واقامة الفرد في مواجهة موضوع معتبر كخارج عن الذات ، هذه العوامل تمكن الولد من الوصول الى علاقة موضوع متميزة اكثر فاكثر .

فما دام الولد يتبع احيائياً ووظيفياً لأمه ، فانه ، بسبب هذه التبعية يبقى

خاضعاً لسلطة امه ، وايضاً الى رغبتها . ان يصبح موضوعاً لرغبة امـه او ان يتماهى بهذه الرغبة ، هما الشكلان اللذان يملكهما الولد لتأمين ديمومة علاقتـه بها : اي يُبقي على امكانية ارضاء حاجاته ، المرتبطة على الدوام ارتباطاً وثيقـاً برغبة الأم . وهكذا لا يستطيع الولـد الـذي يصبـح موضوعـاً لرغبـة الأم ان يضطلع بدوره كفرد ما دام الارتباط الخيالي المتبادل لم يُمس وما دامت العلاقة الثنائية لـم تنته ، وهي تصبح سالبة في نتائجها اللاحقة .

فخلال الاوديب يعي الولد الذي يواجه العلاقات القائمة بين الاهل بان موضوع رغبة الام موجود فعلاً عند الاب . فامتـلاك القضيب يصبـح محـور العلاقة بين الام والولد . فالمالك الحقيقي ، الأب ، يجد نفسه داخلاً في علاقة مثلثة منذ الآن : الأم ـ الأب ـ الولد . وكمالك للقضيب يصبح الأب مجسداً للسلطة والقوة والقانون ؛ ولكن القضيب يعتبر ايضاً كموضوع لرغبة الأم .

٢) التماهي واختيار الموضوع

لقد اعطى فرويد اول صياغة نظرية لعقـدة اوديب عام **١٩٢١** في كتـاب Psychologie collective et analyse du moi . فهو قد استنـد الى مفهومـين ذُكرا في كتابه حول الحياة الجنسية وهما : اختيار الموضوع والتماهي . بالنسبـة للتماهـي يشـير فرويد الى الـدور الـرئيسي الـذي يلعبـه في ارصـان العقـدة الاوديبية[1] : « فالصبي الصغير يُظهر اهتماماًكبـيراً بأبيه : فهو يريد ان يصبح مثله ، ويحل محله في كل شيء . . . فهو يجعل من ابيه مثالاً له . ومع التماهي بالأب ، او بعد ذلك بقليل يبدأ الصبي بالتركيز على امه كموضوع (ليبيدوي) بشكل سابق للغيرية . فهو يُظهر هكذا نوعين من التعلق مختلفين نفسـانياً : تركز غيري واضح جنسياً تجاه امه ؛ وتماهي بالأب المعتبر كنموذج للمحاكاة . هذان التعلقان يتماشيان فترة من الزمن بدون انزعاج وبدون تأثير متبادل . وبعد التطور المضطرد للحياة النفسية التي تتجه نحو التوحُّد ، فان هذين الشعورين ينتهيان بالالتقاء الذي تنشـأ منـه عقـدة اوديب الـطبيعية . فالصبـي الصغـير يكتشف ان اباه يقطع عليه الطريق نحو امه ، فيتخذ تماهيه بالأب شكلاً عدائياً

١ ـ S. Freud : التماهي ، الفصل السابع من Psychologie collective et analyse du moi

وينتهي بالاندماج مع رغبة الحلول محل الأب ، حتى الى جانب الأم . فالتماهي هو تجاذبي اذن منذ البداية ؛ فهو قد يتجه نحو التعبير عن الحنان او التعبير عن رغبة الالغاء . فالتماهي يجري كمشتق عن المرحلة الاولى ـ القمعية ـ للتنظيم الليبيدوي ، التي يجري فيها استبدان الموضوع المشتهى والمقدر عن طريق الادخال في الجهاز الهضمي ، وبالتالي هدمه كما هو . »

ويشير فرويد بعد ذلك الى ان « هذا التجاذب تجاه الاب وميل الحنان الذي يعبر عنه تجاه الموضوع الليبيدوي الذي تمثله الأم بالنسبة له ، يشكلان عند الصبي الصغير عناصر عقدة اوديب . . . »

فخلال المأزم الاوديبي سيكون على الصبي ان يغير مواقفه العاطفية ان تجاه ابيه وان تجاه امه . وبمعرفته انه يملك قضيباً ، بينما هذا القضيب لا وجود له عند البنات ، يصبح هذا القضيب مشحوناً ليبيدوياً من قبل الصبي باعتباره رمزاً للتقدير النرجسي للذات . فليغزو الموضوع الأمي سيقوم الولد بكل محاولات الاغراء والعدوانية التي تؤكد موقعه القضيبي وذلك حسب التركيبات السادية التي يعبر عنها في هواماته والعابه . فهذه النشاطات التي يمكن ان تعتبر كمحاولة اولى للتماهي بالأب ، تهدف لتأمين امتلاك الأم . ولكن منذ هذه السن ، وبألتماس مع الواقع ، تتلقى العدوانية الدافعية الخام تحولاً وتظهر اما على شكل نشاطات في اللعب ، وأما على شكل ثقافي في التقدم المدرسي . ان دلتوDolto تشير بان هذا يمكن الولد من كسب احترام مواضيع حبه : يثير الاعجاب ويُرضي بسلوكه بدل ان يغزو بهوامات القوة السحرية .

فخلال محاولته غزو الموضوع الأمي يجد الصبي في شخص الأب منافساً يغار منه بسبب تفوقه الحقيقي ويجلّه بسبب دلالته الرمزية . ان الهوامات الاوديبية تقوي عناصر الخصي الهوامية . وهو ما دعاه لا كان « الحركة العاطفية المزدوجة للفرد » ، الذي في رغبته للأم يوجه عدوانيته ضد المنافس وذلك خوفاً من عدوان مشابه يحس به في المقابل ، فالولد ، بمواقفه ، يمكنه ايضاً ان يثير عقوبات حقيقية . فالهوامات الاوديبية تصطدم بواقع . فالوضعية تصبح مأزمية بالنسبة للولد اذا افصح الأب عن ارادته . ولكن اذا لم يأخذ الأب موقفاً وبات

لا مبالياً حيال المطالب الاوديبية للابن ، فالشعور بالاثم يزداد ، لأن الوجود الحقيقي او الرمزي لصورة الأب يكفي لتوطيد القانـون الـذي ينتفض الولـد ضده .

فإذا كانت صورة الأب قادرة على تحمل العدوانية اللاواعية للصبي ، فإن هذا الاخير باتصاله بها يسعى لحل الاوديب ، دون ان يستخدم العقوبـات الذاتية التي يوحي له بها شعوره اللاواعي بالاثم . فاذا كانت الام تمثل صورة الحب المشتهاة ، فالأب يصبح منافساً ، يجب ازاحته ونموذجاً ، يجب تقليده . فالأب يجب ان يكون قادراً على دعم التركز العاطفي للولد على كلا الصعيدين . فالأب يجب ان يُستخدم لتجنب الاتصال المحرم ، لأن « الاتصال المحرم ، كما يلاحظ دولتو ، هو ليبيدوياً خاصي » .

لكن التنافس الاوديبي الذي يناقضه مع الأب ليس تنافساً حقيقياً لأن الأم لا تستطيع ان تقدم للصبي الا دغدغات خالية من الليبيدو الغلمي . فالتأكد من عدم فائـدة جهـوده تدفـع الولـد نحـو مواضيع بديلـة . فالصبي يتخلى عن النشاطات الغلمية الغاوية وعن التنافس مع الأب في علية الغزو الاوديبي . فإذا كان التخلي عن الثبات الغلمي على امه يشكل بالفعل شرطاً لتصفية الاوديب ، فعلى الصبي ايضاً ان يتخلى عن كل موقف اغرائي تجاه المنافس ـ الأب[1] . « قد يحـدث ان تتلقـى عقـدة اوديب انعكاساً ؛ وان يصبـح الأب بعـد نوع من التأنيث ، موضوعاً تنتظر ميوله الجنسية الارضـاء : في هذه الحالـة ، يشكل التماهي بالأب مرحلة اولية بجعل الأب موضوعاً جنسياً . . . من السهل التعبير عن هذا الاختلاف بين التماهي بالأب والتعلق بالأب كموضوع جنسي بالصيغة التالية : في البدء ، الأب هو ما نريد ان نكون ؛ في الحالة الثانية هو ما نريد ان نمتلك » (فرويد ١٩٢١) .

---

١ ـ وهو ما تسميه دولتو (١٩٣٦) « التخلي عن الارضاءات اللواطية السلبية » . اذا جاءت فترة الكُمون قبل ان ينجز الولد انفصاله العاطفي تجاه الأب ، فإن كل نشاطاته خلال هذه المرحلة تهدف لاعجاب الأب وليس للتساوي به . ان دولتو ترى فيها اساساً للمواقف اللواطية اللاواعية والسلبية التي تصد العدوانية ويمكن ان تتعارض مع الحياة الجنسية الفاعلة ، ومع النشاطات الفكرية او الثقافية .

ان عقدة اوديب يمكن اعتبارها الفترة المؤسسة للحياة النفسية ، لكن ايضاً النقطة العقدية التي تترتب حولها العلاقات التي تبنين العائلة . لقد بين جاك لاكان (١٩٣٨) بانه اذا كانت « الدوافع تعطي للعقدة قاعدتها ، فان احباطها على العكس يشكل العقدة » . ان الولد المثبت برغبته على الموضوع الأقرب ، اي احد الأهل من الجنس المختلف ، يعيد احباط رغبته الى الشخص الثالث في المثلث الذي يعتبر وجوده عائقاً وهو عائق يُعاش كمانع يضاف اليه القمع التربوي الذي يمنع اية امكانية ارضاء للدافع ، ويحرِّم الوصول الاستمنائي ، اي كل مظاهر الحياة التناسلية الطفلية . « فالقريب من الجنس الآخر يبدو له بنفس الوقت كعامل للمنع الجنسي والمثل على انتهاكه » لاكان (١٩٣٨) .

منذ ١٩٠٥ ، لفت فرويد الانتباه الى ان الحياة الجنسية الطفلية ، في المرحلة القضيبية ، تقترب من الحياة الجنسية الراشدة : « غالباً ما يجري في مرحلة الطفولة اختيار موضوع من النوع الذي قدمناه على انه خاص بمرحلة النمو البلوغي : بهذا فان مجمل الميول الجنسية تتجه نحو شخص واحد وتعمل على الوصول الى اهدافها عند هذا الشخص » . في مقاله ، L'organisation génitale infantile (١٩٢٣) ، المخصص لتكملة الاطروحات الواردة في Trois essais ، يؤكد فرويد على ان الفرق بين التنظيم الجنسي الطفلي والراشد ينتج ليس من المحورة الجنسية ، ولكن من كون الولد يعيش حياته الجنسية في ظل اولوية القضيب . فالتعارض ليس بين المذكر والمؤنث ، ولكن بين تملك عضو تناسلي ذكري او ان يصبح مخصياً : فالتنظيم التناسلي الطفلي فيما يتعلق باختيار الموضوع بالذات ، قد انخرط في اشكالية الخصي .

٣) عقدة الخصي

فإذا كان بالامكان مواجهة عقدة اوديب من زاوية الوضعية المثلثة ، فالمأزم النفسي الاولي سوف يجري في ظل الاشكالية القضيبية . وهكذا فالهوام وعقدة الخصي هما في مركز المأزم الاوديبي الذي لا يمكن ادراك معناه الحقيقي خارج هذا الخصي الخيالي .

ان مشكلة الخصي ستحدد انطلاقاً من اكتشاف الفرق الشراحي بين

الجنسين . « اننا نعلم ردود فعل الاطفال على الانطباعات التي يحدثها النقص في القضيب . فهم ينكرون هذا النقص ويعتقدون بأنهم رأوا العضو رغم كل شيء ؛ فهم يلقون الستار على التناقض بين الملاحظة والحكم المسبق ، فيبررون بأنه لا يزال صغيراً وسوف يكبر بعد قليل وهم يتوصلون ببطء الى هذه النتيجة ذات المدى العاطفي الكبير : لقد كان هنا سابقاً ، ثم ازيل فيما بعد . فنقص القضيب يعتبر كنتيجة للخصي . . . » (فرويد ١٩٢٣) .

وهكذا يرتسم عند الصبي نوع من التهديد الدائم المحتمل . فالمرأة ، المدركة كمخلوق مبتور ، قد توحي الشعور بالرعب او ان تكون موضوع احتقار استعلائي . في حالات اخرى قد يحاول الصبي انكار هذه الحقيقة ويحتفظ لوقت طويل باعتقاده بالقضيبية الأنثوية (انكار الخصي) . عند البنت ، قد تجر ملاحظة هذا الفرق الى الأمل باختفائه بعد فترة ؛ او انها تقبل مصيرها على الفور الذي تعتبره كنتيجة لخصي ناجز : « فهي تعرف بانها لا تملك القضيب وتريد ان تحصل عليه » (فرويد ١٩٢٥) .

ان قلق الخصي يرتبط مباشرة بمسلمات المرحلة القضيبية التي يؤكد فرويد (١٩٢٣) على طابعها الخاص . إذ ان في هذه المرحلة هناك وجود للمذكر الذي يمكن التعرف عليه بالعضو التناسلي الذكري ، ولكن لا وجود للمؤنث بكل معنى الكلمة ، فالجهاز التناسلي للبنت الصغيرة (المهبل ، الرحم) ينفلت من اي استقصاء بصري وحتى يدوي (وبالتالي من اي تركّز ليبيدوي) : « فالتعاقب في الجنسين هو : عضو تناسلي ذكري او مخصي . » ان قلق الخصي موجود عند الجنسين : كتهديد هوامي دائم الاحتمال عند الصبي ، وكبتر خيالي عند البنت . ان وحدة عقدة الخصي ترتكز كلياً على العنصر المركزي للهوام : القضيب الذي تُطرح حوله مسألة تكامل الصورة الجسدية مع الجرح النرجسي .

لقد جرى تفسير عقدة اوديب بشكل مختلف . هناك اطروحة اولى تعترف بوجود تهديد حقيقي بالخصي ، قد يجري التفوه به تجاه الولد . مثل هذا الاحتمال موجود ، ولكنه يبدو حالياً اقل حدوثاً مما وصفه البعض تحت اسم المانع

الخاصي الذي يدل على كل الدفاعات الهادفة الى منع النشاطات التناسلية والفضوليات الجنسية عند الولد . هذا الطابع الخاصي قد يشمل كل الممنوعات الظاهرة او الكامنة التي تعمل على قمع النشاطات المركّزة بأية شحنة ليبيدوية . ان كل ما يحد او يثبط الفضولية وروح المبادرة والمغامرة والاستعدادات المقاتلة للصبي وغنج البنت الصغيرة ، يأخذ معنى المنع الخاصي (دولتو ١٩٣٦) ؛ وكذلك « كل تدخل غير ضروري في تخيلات الاولاد ومشاريعهم الخرافية (التي تخفي دائماً الهوامات الجنسية) من اجل تمريرها في غربال العقل » . وهكذا تزداد حدة قلق الخصي[1] التي تشير دولتو الى طابعها ما قبل الاوديبي ، وهو بالنسبة لها يعلن عن دخول الولد في الاوديب .

ان الوجود الثابت ـ لكي لا نقول العام ـ لعقدة الخصي لا يمكن ان يجد تفسيره الوحيد في التهديدات الحقيقية التي يعد حدوثها اقل احتمالاً مما يعتقد البعض . وهناك بعض التفسيرات اقترحت لتحديد اصل العقدة .

لقد رأى البعض في هوام الخصي احياء للتجارب الصدمية القديمة التي تعرضت لها حياة الطفل ، فبرزت في المرحلة القضيبية : متطلبات المرحلة الشرجية ، سحب نهد الام ، وحتى صدمة الولادة حيث ينفصل الولد عن الأم (رانكRank ١٩٢٤) . كل هذه التجارب تدور حول مواضيع (او تصورات مواضيع) اشار فرويد الى معادلتها الرمزية : « يعتبر القضيب شيئاً يمكن فصله عن الجسد شأن الرواسب التي هي اولى الاقسام من الكائن الجسدي التي يتخلى عنها » (فرويد ١٩١٧) . وكذلك فان سحب نهد الأم اثناء الرضاعة اعتبر خصياً بدائياً يبلغ حده الاقصى في فترة الفطام . ولكن كل هذه المحاولات

---

١ ـ ان دولتو (١٩٣٦) تميز بوضوح بين قلق الخصي وعقدة الخصي . فالقلق ، الذي يستيقظ بملاحظة اختلاف الجنسين ، هو قلق واعٍ او ما قبل الواعي ، ينشأ عندما يتبين للولد نقص القضيب عنده او عند الآخرين ؛ وهو ينطلق من تصور خاطىء للواقع (هوام البتر الخاصي) : انه تفسير لا يفلت منه اي ولد لأن الخطر الذي يخترعه يبرر من جهته بالقوة السحرية التي يعيدها للراشدين ، ومن جهة اخرى بدونيته الحقيقية تجاههم في هذا المأزم يعي الولد ضيقه ويحاول رفضه .

التي تسعى لايجاد نموذج بدائي لعقدة الخصي ، فقدان موضوع مقيّم نرجسياً ، لا تشكل الا نموذجاً : فالخصي القضيبي يحتفظ ، بالنسبة لفرويد ، بكل خصوصيته : « ان عبارة الخصي يجب ان تقتصر على الاثارات والتأثيرات التي هي على علاقة بفقدان القضيب » . هذا ما كتبه بشأن هانس الصغير Hans (١٩٠٥) الذي تظهر عنده بوضوح المقولة الخاصية .

ولنشر ايضاً بان فرويد يعتبر هوام الخصي بين الهوامات الاصلية : حتى ولو لم يكن قلق الخصي ، الذي لا يأتي الا في المرحلة القضيبية ، اول التجارب المقلقة ، فهو اصلي بمعنى ان « الخصي هو احد اوجه عقدة العلاقات بين الاشخاص حيث تنبع وتتبنين وتتحدد الرغبة الجنسية للكائن البشري » . فالدور الذي يعطيه التحليل النفسي لعقدة الخصي « لا يفهم دون ربطه بالاطروحة الاساسية للطابع الذري والمبنين للاوديب » (لابلانش وبورتاليس ١٩٦٧) .

مقابل الهوامات الاصلية نجد ما يسميه فرويد القصة العائلية للعصابي التي ترد بتواتر كبير عند جميع الافراد[1] . فالقصة العائلية تظهر كإرصان ثانوي يعمد الى اعطاء ترجمة جديدة لتاريخ الفرد بواسطة التخيل : هذه الترجمة ، بانكارها الحادثة البدائية والمأزم الاوديبي تبني ،اتبين وضعاً اسطورياً وتقيم تسلسلاً نسبياً وهمياً . فالقصة العائلية تفصل الأهل ، وتقيم مكان الأب الحقيقي اباً اخر عجيباً او غير معروف ، ولكنه كلي القدرة ولا يمكن خصيه . هذه القصة العائلية ، باعطائها ترجمة جديدة للمأزم الاوديبي ، تخفت الصدمات العاطفية وتخفف الشعور بالاثم المتعلق بها وتشكل دفاعاً ضد الاتصال المحرم : فهي تمكن من الحفاظ على الابطال الحقيقيين للوضعية الاوديبية . فهي تشكل حلاً للاشكالية الاوديبية ، ولكن انتقالاً يخفف المأزم ويحدد من بعض التعقيد

---

1 ـ يتكلم فرويد عن القصة العائلية في رسائله مع فليس Fliess ، مرات عدة . فمقاله سنة 1909 نجده في الطبعة الالمانية لكتاب اوتورانك Le mythe de lanaissance du heros: otto Rank

الدافعي . فالقصة العائلية التي هي خرافة وليست هذياناً ـ وان كانت تظهر كمقولة هذيانية خلال العظام ـ لها علاقات وثيقة بالخلق القصصي ، وهو ما برهنت عليه مارت روبير Marthe Robert (١٩٧٢) ، وتدخلنا الى التغير الرمزي الذي يحاول حل المسائل المطروحة على الفرد بضرورة تماهيه .

٤) الاوديب الانثوي .

« ان الاوديب الانثوي ليس موازياً لاوديب الصبي . فعند الصبي فقط تقوم هذه العلاقة التي تطبع مصيره ، بين الحب لأحد الابوين ، وبنفس الوقت ، الكره للآخر كمنافس » (فرويد ١٩٣١) . ان اكتشاف الفرق بين الجنسين هو الذي يقيم عند البنت الاشكالية الاوديبية . بعد فترة من الانكار والأمل تضطر البنت على قبول هذا الغياب لأن هذا النقص القضيبي ليس تهديداً بالخصي الخيالي ، ولكنه حقيقة فيزيولوجية . بينما عند الصبي يظهر قلق الخصي في نقص مأزمه الاوديبي ، فالبنت تلاحظ نقصها الحقيقي مع توطد الأوديب فالعنصر الأول الذي يظهر هو ذو طابع مطلبي ، اشتهاء القضيب : « فهي تعرف انها لا تملكه وتريد ان تملكه » (فرويد ١٩٢٥) . فلا يمكن لأي انكار ان يزيل عندها النقص الحقيقي ، وهذا الاشتهاء للقضيب سيؤدي الى عدد معين من النتائج . في البدء تعيش البنت غياب القضيب وكأنه جرح نرجسي ، مما يؤدي الى شعور بالدونية على الصعيد الجسدي والتناسلي . من جهة أخرى تؤدي هذه الملاحظة الى ارتخاء الرابط الحنون بالأم التي تعتبرها البنت مسؤولة عن هذا النقص القضيبي . واخيراً تتخلى غالباً في هذه المرحلة عن اي استمناء بظري ، لأنها تشعر بعدم قدرتها على منافسة الصبي و « التعرف على هذا الفارق الشراحي يبعد البنت عن اي مطلب ذكري وعن الاستمناء القضيبي . . . فليبيدو الصبية ينزلف طيلة المعادلة : القضيب = الولد» وهي تتخلى عن رغبة امتلاك القضيب لصالح رغبة الحصول على ولد من الأب . وهكذا تنتخب البنت الأب موضوعاً للحب ، متخلية عن موضوعها الليبيدوي الاول ، الأم التي تصبح موضوعاً لغيرتها . « ان عقدة اوديب عند البنت هي تشكيل ثانوي . فتأثيرات عقدة الخصي تسبق وتحضر للاوديب . فيما

بالعلاقة بين عقدة اوديب وعقدة الخصي هناك تعارض اساسي بين الجنسين . فبينما عقدة اوديب عند الصبي تفشل بسبب عقدة الخصي ، فان عقدة الخصي عند البنت تجعل عقدة اوديب محتملة وتدشنها . فهذا التناقض يفسر اذا اعتبرنا ان عقدة الخصي تعمل باتجاه محتواها ، الذي تصده وتضيق الذكورة ، لكنها تعلي شأن الأنوثة » (فرويد ١٩٢٥) .

وهكذا يبدو اختيار الموضوع في المرحلة الاوديبية مختلفاً جداً عند الجنسين . فالصبي والبنت يجب ان ينفصلا عن الأم موضوع تركزهما الليبيدوي الاول . لكن اختيار الموضوع الثانوي سيكون مختلفاً . فالصبي يجب ان ينقل الحب الذي يكنّه لأمه الى شخص آخر من نفس الجنس : فان خياره الجنسي المتغاير يستعيد اذن ، من بعض الوجوه ، تعلقه الليبيدوي الاولي . بالنسبة للبنت يتضمن النقل انتقالاً الى الجنسية المتغايرة التي لم تتهيأ لها : فعليها ان تتخلى عن الموضوع الأمي في العلاقة الاصلية ؛ فاختيار الموضوع الاوديبي يوطد فعلاً تغايرها الجنسي باختيار الأب كموضوع للحب . فهي لا تتخلى فقط عن موضوع الحب لتبعيتها المطمئنة ، ولكن ستدخل ايضاً في تنافس مع هذا الموضوع .

بعد ذلك ستطرح مشكلة التماهي بعبارات بالغة الصعوبة . فالاحساس تجاه الأم سيقوي عند البنت الاعتراضات السابقة في تجارب الانفصال : فالأم لا تستطيع فعلاً ان تعطيها ما لا تملكه هي ، اي القضيب . ان تماهيها سيجري اذن بصورة انثوية تعيشها وكأنها محرومة ومخصية ، اي قليلة القيمة . لذلك لا يمكن للأم ان تركز ليبيدوياً الا اذا رغبت البنت مساواتها بما تستطيع ان تفعل : تعطي الاولاد ؛ فاشتهاء القضيب يُبدل باشتهاء ولد ، فتنشأ بذلك امكانية التماهي الانثوي . فهذا التماهي يفرض مع ذلك بان لا تقلل الأم من صورة الانوثة . فاذا لّمحت الأم بان حياة الامومة هي سلسلة آلام ، والحياة الزوجية هي سلسلة واجبات دون افراح تعويضية ، فان مشاعر الاثم اللاواعية عند البنت لا تسمح لها بالتركز ليبيدوياً على المنطقة المغلمة المهبلية ، ولا تعود طموحاتها الانثوية تشحن باي ارضاء .

وهكذا فإن دور الأب مختلف تماماً تجاه كلا الجنسين . بينما بالنسبة للصبي يبدو الأب كمعارض لرغبة الاتصال الحرام ، فبالنسبة للبنت عليه ان يشبع هذه الرغبة . لكن الأم لا يمكنها ان تلوح بقصاص الخصي لأنه امر حاصل فعلاً : « ان المانع الأمي بالنسبة للبنت يبدو اقل سهولة من المانع الابوي في نظر الصبي ، فكأنه انبثاق لقانون متعالي لا يتعلق بشخص معين . فتصفية عقدة اوديب عند البنت ستكون ابطأ بشكل عام واقل جذرية ، فالتخلي الليبيدوي عن الأب لن يكون ملحاً كما يتطلب قلق الخصي التخلي عن الأم عند الصبي » (بارانت . ١٩٧٠) .

ان عقدة الخصي عند البنت تؤثر اذن على فترتين : اما ان تُرفض الدونية القضيبية فلا تعود تسبب الحزن الناجم عن اشتهائها للقضيب : فهي ستبقى عصابياً ثابتة عند المواقع الرجولية ، غير قادرة على الدخول في المأزم الاودبي (وليس على تصفيته) وتركِّز ليبيدوياً على المنطقة المهبلية المغلمة . واما ان يكون التركز على المنطقة المهبلية المغلمة مستحيلاً لأن البنت لا يمكنها ان تتماهى بصورة الأم القليلة القيمة .

٥) زوال عقدة اوديب وتعديل الدوافع .

ان عقدة اوديب « تقع في الكبت . . . ولكن لا نعرف حتى الآن بوضوح لأي سبب تزول ؛ فالتحليلات تدلنا ان ذلك يحدث اثر خيبات امل مؤلمة . فالبنت الصغيرة ، التي تريد ان تعتبر محبوبة من ابيها اكثر من غيرها ، ستتلقى لا محالة في يوم من الايام قصاصاً قاسياً من قبل والدها وتصبح كأنها مطرودة من الفردوس . والصبي الذي يعتبر امه ملكاً له يتبين بأنها تصرف حبها عنه . . . وعندما لا تاتي احداث كالتي ذكرنا ، فإن غياب الارضاء المؤمّل والاحباط غير المنقطع للولد المرغوب سيدفعان المحب الصغير للانصراف عن ميله الذي لا امل فيه . وهكذا تزول عقدة اوديب بسبب فشلها ، نتيجة استحالتها الداخلية » (فرويد ١٩٢٣) .

ولكن بسبب الرابط الموجود بين هذا التمحور العاطفي والتنظيم القضيبي ، فإن المأزم الاوديبي يمكن ان يجد حلاً له عندما تُصد الدوافع

الليبيدوية من قبل القلق الذي توقظه هوامات الخصي ، او لأن الولد ، تحت تأثير هذا التهديد ، يتخلى عن بعض مواقعه الليبيدوية التي لا تعود تتلائم مع مبدأ الواقع : « فقبول امكانية الخصي ، وفكرة ان المرأة مخصية ، يضع حداً لامكانيتي الارضاء في اطار عقدة اوديب . فالاثنتان تحتويان على فقدان القضيب : فالامكانية الذكرية كنتيجة للقصاص ، والاخرى الانثوية ، كمسلّمة . فاذا كان الارضاء بالحب على مستوى عقدة اوديب يجب ان يؤدي الى فقدان القضيب ، فاننا نصل بالضرورة الى المأزم بين المصلحة النرجسية لهذا الجزء من الجسد والتركّز الليبيدوي على مواضيع الوالدين . في هذا المأزم من الطبيعي ان تتغلب القوة الاولى ؛ وهكذا ينحرف أنا الولد عن عقدة اوديب » (فرويد ١٩٢٣) .

لكن فرويد يشير بأنه لا يجري كبت ، وانما تدمير حقيقي وهدم للعقدة . فاذا لم يُدمر الاوديب ويبقى مكبوتاً فقط ، فإن استمرار البقايا المسببة للمرض سوف تقلق مجمل التطور اللاحق .

فالحياة الجنسية ، قاعدة عقدة اوديب ، تجد فيها ايضاً ذروتها : فالدوافع ، وهي جزء من الغلمة الذاتية النرجسية ،سوف تتجه الآن نحو مواضيعها . اثناء تراجع عقدة اوديب يسير الدافع باتجاه مختلف عند الصبي وعند البنت . فالصبي يجب ان يتخلى عن الموضوع الاصلي لرغبته ، ولكنه ينشط بذلك الصدمات التي تلقاها اثناء تجارب الانفصال السابقة والتي تهيؤه لنكوص دافعي . اما عند البنت ، على العكس من ذلك ، فإن الموضوع الأمي يبقى مقيّماً ويحرف قسماً من رغبتها الاوديبية للأب ، بحيث تستهلك طاقة المأزم . في الحالتين ، كما يلاحظ لاكان (١٩٣٨) ، ان الاوديب الذي يشكل قمة الحياة الجنسية الطفلية ، يعلن ايضاً عن زوالها المؤقت الذي يطبع فترة الكمون بالهدوء الغريزي النسبي .

يمكننا في الاوديب ان نعاين المحور الذي تتطور الحياة الجنسية الطفلية على اساسه ويتَبَنْيَنُ الواقع : لقد برهن لاكان (١٩٣٨) على تفاعل هذين الحقلين . ان المأزم الاوديبي يساهم فعلاً بتكوين حقيقة الموضوع الذي يُشحن برغبة

الفرد . فالموضوع يتكون كموضوع كلي ، كامل وجنسي ، فيحل هكذا محل الموضوع الجزئي للدوافع ما قبل التناسلية . فهذا الموضوع الجنسي لن يكون وجوده الا مؤقتاً على الأقل في شكله الاوديبي ، لأن مصيره سيكون الاهمال : فإعادة احيائه لا تكون على شكل صورة الاهل ، وانما بانتقال هذه الصورة الى مواضيع اخرى . غير ان الموضوع الاهلي لن يضيع ، فهو يستمر حياً بفضل التماهي بتشكيلات الأنا الاعلى والمثل الاعلى للأنا . ولنلاحظ بأن « موضوع التماهي ليس موضوع الرغبة وانما الموضوع الذي يتعارض معه في المثلث الاوديبي » (لاكان ١٩٣٨) . وهكذا يمكن للواقع الاوديبي ان يتسامى .

عند حل الاوديب تطرأ على الدوافع الجنسية تبدلات بنيوية تجعل من الممكن استعمال الطاقة الدافعية بتوظيفها في مواضيع اخرى وباتباعها اهدافاً اخرى .

لقد رأينا بأنه ، عندما يستحيل اشباع دافع معين بسبب الظروف الخارجية ، يجب ارضاء التوتر المتزايد بشكل بديل . فهذا الانتقال لا يحول الدافع ذاته بل يجعل له موضوعاً آخر ، وذلك على حساب اللذة المبتغاة ، فيؤدي ذلك الى بعض التغير في نشاط الدافع . هذه الاولية تتدخل عند حل الاوديب ، اي عندما يجري التخلي عن الموضوع البدائي للدافع لصالح مواضيع بديلة .

اما عندما يبدأ الفرد بالصراع ضد دوافعه الخاصة ، يمكن ان نرى بروز مشاعر جديدة يبدو انها تعبر عن الميل المعاكس : وهكذا فالقرف والخجل والشفقة او الادانة الاخلاقية تستعير طابعها من المنع او من ارتداد الدافع الى عكسه : لقد سميت هذه الاوالية التكوين الانعكاسي . فهي تتميز بكون الشعور الذي تعبر عنه قد اصبح مساوياً بقوته للحاجة الدافعية التي تنبثق منها ، والتي تستعير منها الطاقة المستخدمة في محاربتها . فالتكوين الانعكاسي ينطبع بشكل خاص خلال المرحلة السادية ـ الشرجية حيث يتخلى الولد شيئاً فشيئاً ، تحت ضغط المتطلبات الخارجية خاصة من قبل الأم ، عن التقييم العاطفي للبراز ويعتبره مقرفاً ، وكل ما يتعلق بالتبرُّز يرافقه شعور بالخجل . كذلك تتحول الدوافع السادية او العدوانية الى شفقة او خجل . في المأزم

الاوديبي يساهم خطر الخصي والتماهي بأحد الوالـدين من نفس الجنس بتغيير اتجاه الدوافع الجنسية .

في الواقع ان التكوين الانعكاسي يتطلب كميات هائلة من الطاقة ليفشل الدافع ، ونستطيع القول ان هذه الأوالية ليست اقتصادية تماماً ، بالمقابـل ، يتحدث فرويد (١٩٠٥) عن « ابنية تستطيع الوقوف في وجه الميول الجنسية » التي تتكون « بمعزل عن هذه الميول وتستمر موجودة اثناء فترة الكُمون ، ولكنها كلياً او جزئياً حُوِّلت عن استعمالها الخاص من اجل اهداف اخرى » . فالأمر يتعلق بتغيير موضوع وهدف الدافع على السـواء وهـو ما نسـميه التسامـي . فالدوافع البدائية ، وخاصـة الدوافـع الجـزئية ، تخضـع للتحـول ، فحاجـة الاســتئثـار تستبدل باكتساب المعارف ، والفضولية الجنسية والميل الى الهـواية المعرفية تستبدلان بالبحث الفكري ، والتنـافس المدرسي يحـل محـل التنـافس الاوديبي . هذا التسامي يشكل بالنسبة لفرويد « احد أهم العوامل لاكتساب الحضارة » . لقد اكد جميع المحللين على قيمة التسامي وعلى الدور الذي يلعبه في تكامل الفرد مع الجماعة ، وفي تكوين المعايير الاخلاقية وفي انتاج الاعمال الفنية والابحاث العلمية . ان الـزوال النسبي للدوافـع الجنسية خلال فتـرة الكُمون يجد اكتمالاً له في التسامي الذي يمحور الطاقة الدافعية ، التي تصبح متوفرة ، على النشاطات الاجتماعية وعلى القدرة الخلاقة وعلى التعلُّم .

ويجب ان نضيف بأن الميول الليبيدوية تخضع للصد في اهدافها وتتحول هكذا الى انفعالات رقيقة . وهـي بفقدهـا للطابـع التهـوكي المرافـق لحالتهـا البدائية ، تحول خطر الخصي الذي يهدد الاعضاء التناسـلية وتصـد الوظيفـة التناسلية . لذلك لا يرى فرويد في فترة الكُمون كبتاً بسيطاً ، ولـكن اعـادة توزيع حقيقية للطاقات الدوافعية .

٦) تكوُّن الأنا الاعلى

اذا استطاع فرويد (١٩٢٤) ان يقول بان الأنا الاعلى هو وريث عقـدة اوديب ، يجب ان نفهم ذلك بمعنى الاجتياف المتماهي . هناك تمايز داخل الأنا ، وسوف يأتي ركن جديدليلعب دورالرقابةتجاه الأنا . لكن المفهوم ،وهناايضاً ،

بلوره فرويد تدريجياً . بالفعل ، منذ ١٩١٤ ، تكلم فرويد عن المثل الاعلى للأنا ، وهو ركن مستقل يتكون من التقييم النرجسي والتماهي بالوالدين ، وهو يقترح بذلك على الفرد صورة عن نفسه تشكل نموذجاً يستطيع الفرد ان يتكيف معه . فالأنا الاعلى كركن مراقب يظهر مع الاوديب واجتياف الممنوعات الاهلية ، فالمثل الأعلى للأنا يدعم الفرد ويقابله بصورة عن الذات يمكن للآخر ان يحبها ويرغبها .. فالولد يجب ان يخضع في رغباته ليس فقط الى صورته المقيمة نرجسياً ، بل ايضاً الى الصورة التي يعكسها حب الوالدين . بعد ذلك تصبح الممنوعات وجميع متطلبات الاهل ، بسبب التماهي ، مجتافة من قبل الولد . وهكذا يتكون النموذج اذن من الممنوعات والاحكام الاخلاقية المنظمة كركن مستقل نسبياً ، وقد دعاه فرويد (١٩٢٣) الأنا الاعلى . ان هذا التغيير هو فترة رئيسية في التنظيم الموضعي للفرد . لا شك بأن ارصان هذا الركن كان تدريجياً ، وهو يتكامل مع الاوديب ، لأن الممنوعات المختلفة التي تعلم الولد ان يعرفها في ماضيه تضاف اليها الدفاعات التي تعمل على تحديد دوافعه الجنسية ، وتقف بينه وبين موضوع الحب الاقرب (مانع الاتصال المحرم) .

هذا الدفاع المستبطن ينهي تكوين الأنا الاعلى . « فسلطة الأب او الوالدين المجتافة في الانا تشكل نواة الأنا الاعلى . . . الذي يستعير السلطة من الأب ، ويؤبّد منع الاتصال المحرم ويؤمن الأنا ضد عودة التركُّزات الليبيدوية للموضوع » (فرويد ١٩٢٤) . فعندما يجري التخلي عن الصورة المثالية للوالدين كموضوع ليبيدوي ، فانها تُجتاف كركن اخلاقي وبعد الآن لا يعود يهم الوجود الفعلي والمجازي للراشد ، لأن الشعور بالاثم عند الفرد يستند الى نموذج مستبطن . فقد يكون الأنا الأعلى اشد قساوة من متطلبات الاهل ، لأن فوق صورتهما المجازيه تأتي العدوانية الخاصة للولد التي يسقطها عليهما . وعلى وجه الدقة فان التماهي المشكوك به في تكوين الأنا الاعلى لا يتخذ نموذجاً مبسطاً الصورة الحقيقية التي يقدمها الأهل للولد : « فالأنا الأعلى للولد لا يتكون على صورة الوالدين وانما على صورة الأنا الاعلى للوالدين ؛ فهو يُعبأ بنفس المحتوى ، ويصبح ممثلاً للتقليد ولكل احكام القيمة » (فرويد ١٩٣٣) . بهذا المعنى . ويجب اعتبار الأنا الاعلى على انه تماهي بركن الوالدين

وليس تماهياً بسيطاً بالوالدين . فالمثل الأعلى للأنا والأنا الأعلى يمكن اعتبارهما كتشكيلين متكاملين : واحد يمثل الصفات المطلوبة من الحب ، والآخر المتطلبات المنبثقة من الممنوعات . ان مفهومي الاثم والانتهاك تأخذان كل معناهما بالنسبة للأنا الأعلى .

فالأنا الأعلى الذي ينشأ من التخلي عن رغبات الحب والعداء في المأزم الاوديبي لا يمكن ان يكون تشكيلاً نفسياً نهائياً . بقدر ما يمارس المجتمع الذي يعيش فيه الولد تأثيراً مستمراً على الفرد فإن الانا الأعلى يُغنى بدمج القيم التي تحملها الثقافة : فالمعايير الاخلاقية والدينية والتربوية تأتي اما لتقوي الركن المانع ، واما لتعديل بعض المطالب . ولكن يجب الحذر من اعتبار الأنا الأعلى مجموع الممنوعات او الأوامر الحقيقية واخذ النقل الهوامي بعين الاعتبار ؛ فالأنا الاعلى يعكس عمل الهوامات اللاواعية ، وليس الواقع الثقافي العادي .

فعقدة اوديب عند الانسان لم يجر كبتها ببساطة ، وانما تفجّرت تحت صدمة تهديد الخصي . « تركُّزاته الليبيدوية تُركت ، تعففت ، وتسامت بقسم منها . ومواضيعه استبدنت في الأنا ، حيث تشكل نواة الأنا الأعلى . . . في الحالة المثالية لا تحيا عقدة اوديب حتى في اللاواعي ، فإن الأنا الاعلى قد تكفل بوراثتها » . فلأن القضيب يتضمن مثل هذا التركز النرجسي يمكننا اعتبار ان تأثيرات عقدة اوديب ـ وخاصة منع الاتصال المحرم وانشاء الاخلاق ـ تشكل انتصاراً للنوع على الفرد (فرويد ١٩٢٥) .

٧) الاوديب : الوصول الى الرمزي

« ان عقدة اوديب هي مجموع التحولات التي تنقل الولد من علاقة اولية مع الأم الى علاقة متميزة مع ابيه : اغراء محرم للأم وقتل هوامي للأب » (اورتيغس Ortigues ١٩٦٦) . بالنسبة للاكان يجب عدم تحويل عقدة اوديب الى ظاهرة نفسانية (Psychologiser) . فما يهم ليست علاقة مختلف الاشخاص وانما وساطة علاقتهم المستندة الى دال اساسي ، هذا يعني ان لاكان يجهد لابراز الضرورات المنطقية للبنية التي يمكن من خلالها ضبط معنى العقدة .

بالنسبة للاكان ينتقل الولد من علاقته الثنائية لعلاقة مثلثة فيها وساطة ، وهي تدشن السجل الرمزي الذي يمكن من تنظيم العناصر الدالة [1] . فعقدة اوديب تأتي لتُبدل مرحلة مكوِّنة اخرى ، دعاها جاك لاكان « مرحلة المرآة » ، وفيها يرغب الولد ان يكون مكملاً لنقص الأم ، اي القضيب الذي يتماهى به . فظُهور الأب في الاوديب يأتي ليحرم الولد من موضوع رغبته ـ وهو الأم ـ ويحرم الأم من موضوعها القضيبي : الولد . وهكذا يبدو الأب الممثل للمانع المزدوج ، كحامل القانون . هذه الوظيفة تقود الولد للتماهي بالركن المانع : التماهي (الثانوي) بالأب . لكن الأب لا يمكن ان يحتل هذا الموقع بالنسبة للولد الا اذا كان حاملاً للسلطة : اي اذا كانت الام تعترف بكلامه كقيمة مقنَّنة . وهكذا ، بالمفهوم اللاكاني ، على الولد ان يعترف بالأب كحامل للقانون وللكلمة ، وبنفس الوقت للقضيب : فهو يجب ان يستطيع التماهي بهذا الأب القضيبي ، وبهذا التماهي يصل الى الاوديب . فامتلاك القضيب ، بدل التماهي به (كما يحدث اثناء المرحلة الثنائية ، ينقل الولد من الموقع الاولي « ان يكون قضيباً » الى الموقع الاوديبي ، ان « يمتلك القضيب » .

لذلك يسمي لاكان القضيب « دال الدلائل » الذي يأمر كل مرجع رمزي ، وهو يظهر في منع الاتصال المحرم كما في عقدة الخصي . « فمتى تنشأ الشروط الضرورية لوجود بنية في المؤسسة العائلية او في عقدة اوديب ، يجب ان يكون هناك اربعة عناصر على الأقل ، اي عنصر اضافي عما هو ضروري طبيعياً » (اورتيغس ١٩٦٦) . فهذا العنصر الرابع يمكن ان يتماثل بالصورة

---

1 ـ لقد رفض لاكان على الدوام ، في حلقاته الدراسية وفي كتابه Ecrits ، ان يعرض افكاره بشكل منظم . وقد حدد موقعه بالنسبة للدروس الجامعية بما يلي : « ان كتاباتي لا تتلائم مع الاطروحة وخاصة الجامعية منها : فهي من طبيعتها نقضية لأن ما تعرضه اما ان يؤخذ واما ان تهمل » (لاكان 1969) . هناك آخرون غيره حاولوا الاحاطة بهذه الافكار : مثل هذه المحاولة نجدها في كتاب ريفيلت ـ لومير A. Rifflet-Lemaire (1970) وفي معالجة ويلدين A. Wilden الممتازة The language of the self (1970) . فالاوديب في اعمال لاكان يأخذ حيِّزاً مركزياً . لقد اعطى له المؤلف وصفاً في مقاله عن العائلة (1936) . ومؤخراً عرض اورتيغس (ماري ـ سيسيل وادمون (Marie- Cecile Edmond) في كتابهما المخصص للاوديب الافريقي (1966) الاطروحات اللاكانية .

القضيبية التي لها وظيفة تحديد « المكان الفارغ » الذي يمكن ان يُملأ حسب تخيل كل واحد . « هذا الطابع الرمزي هو التحديد الأدنى للانسانية . . . فدون هذا المكان الفارغ ، والمدموغ بهذه الصفة ، من المستحيل النكوص دون خرق الشرط الضروري لوجود البنية الرمزية المعينة : فلوصل الانثى بمولودها ، اذا وضعت فقط مكوِّناً ذكراً ، فانك تحصل على تحديد الحيوانية او الطبيعية . . . فالصورة القضيبية تحدد مركز الأم بما ينقصها بالضبط ؛ هذه الصورة هي البديل عن القضيب الحقيقي ، ولكن الابدال يخلق معنى ؛ فالصورة القضيبية هي ممثلة الدَّيْن الرمزي الاساسي لعلاقة الزواج ، ولكنها كذلك على النمط الهوامي لارادة كون موضوع رغبة الآخر » (اورتيغس ١٩٦٦) . وهكذا يبدو الأب كفاصل بين الأم والولد ، ولكنه ايضاً كحارس للقانون الاجتماعي حول التبادلات[1] .

ان مركز الأب يتعلق بأسرار الاصل : فاخصاب الأم يبقى بالنسبة للولد « الشيء المبهم الذي يجبر على تصديق الكلام . فالأب الملقِّح ، الفرد الطبيعي لا يمكن للولد ان يصل اليه مباشرة . فالأب ، في علاقة كل واحد مع اصله الخاص ، لا يمكن التعرف عليه الا بسلطة الكلام والايمان » (اورتيغس ١٩٦٦) . وهكذا لا يمكن التعرف على الأب بالمركز الذي يحتله كملقِّح ، ولكن بما ينتمي الى النظام الرمزي ، مثل الاسم الذي يحمل ويُورث ويمكن الفرد من ان يعرف نفسه في السلالة . وهذا ما دفع لاكان للكلام عن « اسم الأب » الذي يحدد الشخص كنظام للقانون ، وكمدخل لكل البناء الرمزي . هذا القانون الاولي « يبدو مماثلاً لنظام اللغة لأنه ليس من قدرة ، خارج تسميات القرابة ، يمكنها ان تقيم نظام الافضليات والمحرمات » (ج . لاكان) . فالفترة الرمزية تدخل مجال الثقافة ، مجال التحادث واللغة التي تبنين العلاقات الانسانية .

لقد اكتشف فرويد ركيزة البنية الاجتماعية في منع الزواج بالمحرم في كتابه

---

11 ـ الا ان لاكان يميز بشكل اساسي بين الأب الحقيقي ، الشخص في المثلث الاوديبي ، والأب الميت باعتباره مرجعاً رمزياً اولياً . يمكن العودة الى اعمال روزولاتو Rosolato (1967, 1969) حول هذا التمييز .

Totem et tabou. فمنع الزواج بالمحرم هدفه اقامة علاقة تزاوج ترتكز عليها العائلة [1] .

« ان منع الزواج بالمحرم هو نتيجة لمنطق التعاقبات التي تفرضها قاعدة اللغة ؛ في نظام التسميات يجب ان يؤدي اختيار بعض المركبات الى منع الأخرى ؛ فمنع الزواج بالمحرم ، بتحديده العلاقات الموافقة وغير الموافقة ، يقوم بوظيفة منطقية بدونها يقع كل شيء في اختلاط حيواني مبهم ... فالبنية متلازمة مع الذاتية التي تهدف لأن تعي نفسها في علاقاتها مع الآخرين » (اورتيغس ١٩٦٦) . فمن خلال الاوديب يكتشف الولد « الأب الميت » ، الصورة التي يرتبط بها الأب الحقيقي وذلك لاستمرارية الاسم ، كما يشير روزولاتو Rosolato (١٩٦٩) الذي يبين ان سلسلة الاموات التي تقودنا من الجد الرمزي الى الأب الحقيقي تتبع سلسلة اسماء الآباء . فلاكان يقول بان منع الزواج بالمحرم « ليس الا المحور الذاتي للقانون الاولي الذي ، بتنظيمه للزواج ، يراكم نظام الثقافة (الزواج) فوق انظمة الطبيعة (التزاوج) » .

ان انحلال الاوديب يجب ان يؤدي الى تخلي مزدوج : عدم البقاء كموضوع لرغبة الأم للقبول بالتعاقب « يملك او لا يملك » ما يملكه الأب . وتجاوز قلق الخصي يعني التخلي عن هوام قتل الأب وقبول الواقع المطبوع بالفروقات الرمزية والحقيقية بنفس الوقت . « القبول بامتلاك القضيب الحقيقي ، القوة المحدودة ، يعني القبول بقانون الأب ، القانون الرمزي للتبادلات الذي يحدد لكل واحد ما عليه ... فنقول عندئذ ان عقدة اوديب قد تحللت ، بالرغم من ان الواقع الذي ينكشف يفرض لكل الحياة ضرورة الغاء النقص في الكائن الذي لا يمكن معالجته . فالاسطورة تتحلل ليس لان مشكلة الحياة قد حلت ، بل لأننا اخذنا على عاتقنا طرحها » (اورتيغس ١٩٦٦) . وهكذا في نهاية

---

1 ـ ان كتاب روبين فوكس Robin Fox : Anthropologie de la parenté une analyse de la consauguinité et de l'alliauce (1967) يقدم ، حول مسائل الزواج الخارجي والبنوة والتبادل ، معطيات تسمح بمقارنة النظرة التحليلية بالبحث الاجتماعي . انظر ايضاً سيرج موسكوفيتشي serge Moscovici : La société contre nature (1972) .

المطاف حول الخصي المستوعب يضع لاكان اشكالية وحل عقدة اوديب . فاستيعاب الفارق والنقص وعدم الاكتمال والخصي يقود الفرد الى الدخول في العالم القابل للترميز .

٨) المسألة الاناسية للاوديب

منذ ان اكتشف فرويد الاوديب كعقدة ذات طابع عام ، وكنقطة انطلاق لتفتح الواقع الثقافي ، فان هذه النظرية اثارت اعتراضات علماء الأنام . لقد اشرنا في فصل سابق الى المعارضة التي اصطدم بها التفسير التحليلي لأصل المجتمع ، وهو فرضية تغلب الفردي على الاجتماعي .

ان اطروحة فرويد تستند الى عرض نظري جرى في Totem et tabou عام ١٩١٣ واستعيد فيما بعد ، عام ١٩٢١ ، في psychologie collective et analyse du moi. وهي تفترض في الاصل وجود عشير بدائي حيث يستأثر ذكر معين ، استبدادي وتسلطي بالاناث ويمنع اقترابهن من الابناء. فالابناء يضعون حداً في النهاية لهذه السيطرة بقتل الأب ، ويلتهمونه ، وهو حدث يستعاد ذكره في الوليمة القومية . فنظراً لشعورهم بالاثم يمتنع الابناء عن اخذ مكان الأب وتملك النساء اللواتي تحررن . وللمحافظة على تماسك الجماعة وازالة اي خطر مأزم قبلي جديد يجب انشاء نظام اجتماعي محدد . فالمحرَّم يمنع قتل اي عضو من الجماعة ، كما يمنع امتلاك اية امرأة من نفس القبيلة ؛ في نفس الوقت نشأ قانون الزواج الخارجي .

الا ان الابقاء على مبدأ المساواة اصبح مستحيلاً على المدى الطويل . فالنظام الأمي المؤقت [1] تبعته بنية اجتماعية جديدة ، النظام الابوي الثانوي حيث « استعاد الآباء قسماً كبيراً من حقوقهم . . . ولكن العائلة الجديدة لم تكن الا ظلاً للعائلة القديمة ؛ فالآباء كانوا كثيري العدد ، فكل واحد تحددت حقوقه بحقوق الآخرين » . فانشاء القوانين عليه ان يتجنب العودة الى زمن « كان فيه قتل الأب حقيقة » (فرويد ١٩١٣) .

---

1 ـ لقد كان فرويد يفترض بان قتل الأب تبعه تنظيم اجتماعي اولي من نمط امي ، وذلك للحفاظ على كبت القتل البدائي .

هذا البناء التاريخي سيسمح بإيجاد نموذج بدائي يفسر منع الاتصال المحرم وعقدة اوديب .

لقد انتقد علماء الانام بشدة الاطروحة الفرودية . فهم لم يروا فيها الا خرافة ، دون مرتكز تاريخي . فنظرية العشير البدائي المذكور عند داروين والخاضع لقانون الانتقاء الجنسي ، بدت كاطروحة تطورية غير مقبولة ودون مرتكز . كما انه لم يكن هناك اية حجة علمية يمكنها ان تنفيها بشكل جازم ، لذلك يجب الاعتراف بأن هذه النظرية ، ولو نبذها الجميع ، تحتفظ بكل قيمتها على صعيد الهوام : فما يهمنا ، اكثر من الوقائع ، هو الاعتراف بوجود النزوات العدائية والرغبات الجنسية والهوامات التي تحدد ، في تكوين الكائن ، مصير الفرد . الا ان الخرافة التاريخية تعكس خياراً نظرياً مزدوجاً . الخيار الاول هو اسبقية الفردي على الاجتماعي ؛ فتكوين الكائن ، حسب جيزا روهايم Geza Roheim ، يفصل الفرويدية عن التطورية غير المقبولة . والخيار الثاني (وهو ولا شك الخيار الذي جعل فرويد يتبنى نظريات داروين واتكينسون Atkinson) يقترح جعل التفسيرات التي تستخدم مجموع المصالح المادية او حاجة الأمن ثانوية : فهو يُظهر الطبيعة الحاسمة للروابط الليبيدوية التي تعلق التطور الاجتماعي بمستقبل الدوافع . هذه الروابط الليبيدوية تظهر بأنها الوحيدة القادرة على الحد من المتطلبات النرجسية من اجل ان تجعل نشوء المتجمع أمراً محتملاً .

الا ان فرضية عمومية الاوديب جرى دحضها . فدون ان نذكر الذين لم يروا في الاوديب الا مظهراً خاصاً بالعصاب ، علينا ان نعين الذين ارادوا الاعتراض على عمومية الاوديب من زاوية الطرائقية : ان فرويد قد اكتشف الاوديب في مجتمع معين ، مجتمع البرجوازية في فينا الامبراطورية في بداية القرن ، ومثل هذه النظرية لا يمكن ان تمتد الى الحضارات الاخرى ، وخاصة الى الحضارات البدائية . لقد اعترض ديفرو G. Devreux على قيمة هذا النقد : اذا كان اكتشاف فرويد قد جرى فعلاً في مجتمع معين ووسط معين (اين

يمكن ان يكتشفه ان لم يكن حيث يعمل ؟) ، فهذا لا يكفي للاعتراض على القيمة العمومية الا اذا وجدنا نماذج من مجتمعات لا تظهر فيها عقدة اوديب .

لقد قام عدد من علماء الأنام ، بابحاثهم الحقلية ، بدحض او تأكيد الفرضية الاوديبية . فمالينوفسكي Malinowski ، احد علماء الأنام الأوائل الذين اعترفوا بجدية النظريات التحليلية ، حاول ان يبرهن بان عقدة اوديب لا تظهر في احدى حضارات الباسيفيك ، عند الشعب التروبرياندي Trobriandais . لقد كانت ابحاث مالينوفسكي احدى اهم الابحاث في عصره ؛ ولكن الموقف الذي اتخذه بشأن الاوديب جعلنا ننسى في الغالب اهمية ما قدمه . ان مالينوفسكي لا يقبل بالطابع الثابت للدوافع ، لأن الميول الفطرية برأيه تتبدل بالثقافة . كما انه لا يقبل بمقولة الحتمية « النفسانية » للثقافة ؛ فهو يقول بان العقد هي نتاج الحضارة (ليست محددة لها) : فالعقد تدل على تغير الدافع الغريزي بالثقافة . فإذا كان الاوديب عاماً ، فإن كل ثقافة ستصبح تنظيم وسائل ارضاء الليبيدو . في ابحاثه عن « القمع الجنسي » (١٩٢٧) يدعي مالينوفسكي بانه لم يلاحظ وجود عقدة اوديب عند التروبرياندين . فعقدة اوديب تصبح نتاج المجتمع الابوي ، فلا يمكن اذن ان تظهر في النسب الأمي الذي يتبعه التروبريانديون[1] ؛ بالمقابل يلاحظ مالينوفسكي ان كل ما يتعلق بالاتصال المحرم مع الاخت يحدث نقمة قوية . واكتشف ايضاً بان الاولاد اذا لم يكرهوا اباهم ، فإن الخال بالمقابل يصبح موضوع عداء كبير : « في المجتمع التروبرياندي ذي النسب الأمي ، فالرغبة هي في تزوج الاخت وقتل الخال . » ان اكتشاف المأزم المثلث المحتوي على اخت الفرد وعلى خاله (بدل الأم والأب كما وصفه فرويد) ليس ضد عمومية الاوديب بل هو يؤكدها . وبخلطه المحتوى الكامن والمحتوى الظاهر ، وباقتصاره على الوقائع واهماله لتفسيرات الهوامات التي تحتويها ، يمر

1 ـ بسؤال التروبرياندين عن احلامهم ،يؤكد الكاتب بأنه لم يحلم احد منهم بممارسة الجنس مع الأم .مثل هذ الحجة تبدو غريبة من قبل شخص مطلع تماماً على النظريات التحليلية ، فعليه اذن ان يعرف الفرق بين المحتوى الكامن والمحتوى الظاهر . فهذا الابهام عنده لا يمكن تفسيره .

مالينوفسكي الى جانب المشكلة . فهو يقول بنفسه انـه لم يمـارس « التحليل النفسي للتروبرياندين بواسطة تقنية ارثوذكسية »[1] .

وببرهانه على وجود وضعية مثلثة معينة حتى في المجتمعات الامية ، يفتح مالينوفسكي حقل الابحـاث المستقبلية . وقـد لاحـظ لوك دو هوش Luc de Heusch في كتابه عن رمزية الاتصال المحرم الملـكي في افـريقيا (١٩٥٨) ان اصل النظام الأمي يُفسر في الاساطير على انه نتيجة لمأزم بين الأب والابـن ، وعلى اثر هذا المأزم حرم الأب ابناءه من الميراث لصالح بناته : « فالبنية الامية ترتكز على قتل قانوني للأب ؛ فالأب يحرم من حقوقه على ابنائه بنفس الحركة التي تقرِّب هؤلاء من امهم واخواتهم الرحمية » . وقد اشار اورتيغس (١٩٦٦) الى نقص مقولة مالينوفسكي قائلاً بأننا لا نملك ، لتفسير هذه المواقف ، ترميزاً اجتماعياً » : ما هو المعنى الذي يجب اعطاءه للمانع الذي يفصـل الصبـي عن اخته ؟ وللألفة الممتعة بين الولد والأب ؟ وللانتساب الأمي ؟ ما هو معنى غياب القمع الجنسي عند التروبرياندين كما يريد مالينوفسـكي : هل يتعلـق الأمر بضغط اجتماعي (عُبِّر عنه بالقمع) ام بأوالية كبت ؟

ولكن قد يكون خطأ مالينوفسكي انه اهتم كثيراً بالاشخاص بينما كان يجب التوقف عند الافعال التي تبنين علاقاتهم : « تزوج » ، « قتل » . فما يوجد في كل مكان وعلى الدوام هي البنية المثلثة : الولـد ـ موضـوع الرغبـة ـ حامـل القانون . هذه النظرة وسّعها التحليل النفسي البنياني مع جاك لاكان وعرضها ادوار وماري ـ كلير اورتيغس .

فـاذا تخلينـا عن التفسـير التكوينـي ـ الكونـي لعقـدة اوديب ، فإن الاعتراضات الاولى لعلماء الاناسة تفقد من اهميتها . ولكن يبقى صحيحاً ان عمومية الاوديب يجب اسنادها الى حجـج اخـرى . على ضوء مبـادىء علـم الاناسة البنياني عند ليفي ـ ستروس Lévi strauss (التي بينّا بعض خياراتها الاساسية في فصل آخر) يمكننا اعادة تفسير محرّم الزواج والزواج الخارجي

---

1 ـ يذكرها باستيد R. Bastide (1972) .

بعبارات البنية . ان ليفي - ستروس يعتبر محرم الزواج قاعدة مشتركة بين كل الحضارات . فالمنع هو بنفس الوقت ترتيب ينظم « تبادل » النساء بين مجموعات الرجال . فالمجتمع الانساني يتنظم حسب نظام معقد حيث تدخل الرغبة الجنسية في نظام الثقافة . فالوقائع الاجتماعية هي دلائل يجب حل رموزها وفقاً لنظام ترميز يعطي لكل عنصر معناه الخفي والخاص . فعلاقات الزواج وعلاقات النسب تحدد منطق للمؤسسة العائلية بادخال نظام يميز قواعد القرابة الدموية عن قواعد الزواج . كذلك ، بالنسبة للاكان ، ليس الاوديب مأزماً نفسانياً بسيطاً : فهو يتصل بشكل لا واعي بالمؤسسات الاجتماعية واللغوية . في نظريته عن الدلائل ، واهمها القضيب ، يصبح الاوديب بنية ، « اي نظمة ، حيث يتحدد كل عنصر بقيمة موقعه » (اورتيغس ١٩٦٦) . فالنظرية البنيانية للاوديب تعتبر كاحدى نقاط الالتقاء النادرة حيث يجد علماء الاناسة والمحللون حالياً علامات مشتركة .

ان المقام الاناسي للاوديب ولو كان خاضعاً للنقاش ، الا انه ليس نقاشاً عقيماً . فالاوديب يقابلنا - على حدود علم الاجتماع وعلم الاناسة والعلوم السياسية - ليس فقط مع المواقع العلمية ولكن ايضاً مع الايديولوجية كما يذكرنا بذلك دولوز وكاتاري Deuleuze et Gattari (١٩٧٢) اللذين ينظران في الاوديب دليلاً على « مألوفية التحليل النفسي الثابتة » . فالمحاكمة التي اجراها هذان الكاتبان للاوديب تضيف ايضاح مركزه الاساسي ليس فقط في النظرية ، ولكن ايضاً في الممارسة التحليلية حيث نجده على كل مفرق كبنية تأسيسية ، يدعِّم الوصول الى اللغة الرمزية والى البعد الاجتماعي بنفس الوقت

٢ ـ البلوغ والمراهقة

بعد حل الأزمة الاوديبية ، حوالي خمس او ست سنين ، تكون مرحلة اولى قد تم تجاوزها . ان فترة الكمون التي نتبعها ستسمح للولد بأن يتنظم ويكتسب تجهيزاً ذكائياً وحركياً ويدعِّم دفاعاته ويتكيف بشكل اقتصادي اكثر مع مبدأ الواقع .

ان تصفية المأزم الاوديبي يرافقه انفصال غيري يمكن الولد ، دون هدم

المواضيع المركّزة ، من التسليم بالافتراق عن هذه المواضيع ويحرر الطاقة الليبيدوية المهيأة لأن تُوظف في مواضيع جديدة . هذا الترتيب للعلاقات الغيرية يسير الى جانب التغيرات الدافعية في الاقتصاد النفسي للفرد ويبدأ مرحلة جديدة من نموه المسماة مرحلة الكمون التي تعكس في نهاية المطاف ، المصير الدافعي للفرد في مواجهة تهديد الخصي[1] . فهذه الفترة ذات الهدوء النسبي من ناحية الدوافع ـ وهي ولا شك تتلائم مع الكبت الكثيف للاهتمامات الجنسية ـ تؤدي الى فقدان الذاكرة حول ما جرى في السنوات الاولى . فإعادة النظر بالدوافع التي عالجناها ، والتعفيف الظاهر للعلاقات بالاهل ، وازالة الهوامات الاستمنائية ، اذا كانت تدل على نمط جديد للعمل الليبيدوي ، الا انها ليست مطلقة بالقدر الذي قيل عنها . فالالعاب الجنسية بين الاولاد تبقى غالباً ، واحياناً بشكل سري وتؤدي الى شعور بالاثم . فرغم « الانحراف الثقافي » الذي يوجه الولد في نظامنا على الاقل ، نحو نشاطات الاستيعاب المدرسي ، فهو لا يمحو وضعية التنافس مع الوالدين : فالولد يجد ممنوعات اخرى تأتي لتغطي ممنوعات الوضعية الاوديبية ، ولكنها تبقى ، واحياناً تؤجج موقعه الضعيف تجاه الراشدين الذين يستمرون بممارسة القمع من خلال المتطلبات المدرسية التي تحد غالباً من نشاطات اللعب او النشاطات الخلاقة للولد . فتظهر مأزمات السلطة : فبأسم الطاعة والصفات الحسنة والخير المستقبلي يستمر الوالدين بممارسة سيطرتهما . حتى ولو بدت الوضعية معففة للوهلة الاولى ، حتى ولو بدا المأزم الاوديبي بأنه قد حُل ، فإن الاشكالية الاوديبية نجدها على فترات مختلفة من تاريخ الفرد ، وخاصة اثناء الازمة البلوغية .

١) النضج البلوغي والتماهي الجنسي .

ان النهوض البلوغي للنضج الجنسي سيعبىء عند الولد قبل المراهقة

---

1 ـ لقد اراد البعض ان يروا في فترة الكمون ظاهرة موازية لظاهرة البلوغ ، محاولين التفسير الاحيائي (الهرموني) لكمون الدوافع الجنسية الذي هو خاص بالنضج الفيزيولوجي للانسان . بالاضافة الى اننا لا نملك المعطيات لدعم مثل هذه الاطروحة ، فإن البحث الاناسي يبدو انه يؤكد كون فترة الكمون تخضع بقسم منها لتأثير العوامل الثقافية ، اي العلائقية .

الدفاعات النفسية للمراحل السابقة ، لكنه ايضاً سيشجع على تكوين دفاعات جديدة . فالنضج الجنسي ، بالرغم من كونه ظاهرة فيزيولوجية ، يُمكن ان يرافقه القلق . وهكذا فإن مرحلة من النضج الاحيائي تؤدي الى تأثير نفساني هائل وغريب كما تقول هيلين دويتش Hélène Deutsch (١٩٦٨)[1] .

فاحدى المظاهر الثابتة لتجديد النشاط البلوغي هو الاستمناء الذي يرتبط به . بسبب القمع الاجتماعي ، الشعور بالاثم الحاد في الغالب . فبينما الاستمناء يعتبر كظاهرة طبيعية ـ لأنها تمثل بالنسبة للمراهق المخرج الوحيد الممكن لرغباته الجنسية ـ فهو ليس دائماً موضوع منع معين . اما تؤدي القصص المخيفة حول ضرره ونتائجه الوبالية ـ العجز الجنسي او الخبل ـ الى مخاوف دائمة وحلول تقوية عند المراهق ؛ واما يتعلق الشعور بالاثم ، حتى في غياب اي تهديد ، بالمأزمات الاوديبية غير المحلولة وبعقدة الخصي ، وهو ما دلت عليه الهوامات الاستمنائية التي تخفيها المقولات الاوديبية ـ ولكن النتائج النفسانية لهذا الشعور بالاثم هي المخيفة وليست تأثيرات الاستمناء بحد ذاته .

فالمراهق يخوض صراعاً ضد الاستمناء فيحاول صد العمل الاستمنائي ، ومراقبة الهوامات . فاذا توصل قلق الخصي ومتطلبات الأنا الاعلى الى الغاء الارضاء الاستمنائي ، فإن الطاقة الليبيدوية للهوامات الاستمنائية عندما لا تجد طريقاً للافراغ الجسدي اما تزول تماماً ، واما تجد مخرجاً في نشاطات الأنا . فالاستمناء ، يعتبره لوفير M. Laufer (١٩٦٨) نشاطاً ضرورياً خلال المراهقة لأنه يمكن الفرد من الاحساس الجنسي وان يكون له هوامات متعلقة بنضجه التناسلي ، وان يستخدم الهوامات الشاذة خلال الارضاء الاستمنائي .

فالمشاكل التي يحتويها هي ذات اهمية كبرى لأنها تتسم بارصان هوية جنسية وصورة للجسد تتلائم مع صورة الشخص الذي بلغ نضجه الجنسي . فالاستمناء يجب ان يساعد المراهق على ادخال اعضائه التناسلية في صورته

---

1 ـ ولنشر مرة اخرى انه اذا كانت الحتمية الاحيائية للنهوض البلوغي في نضج الغدة التناسلية امر لا جدال فيه ، فان البلوغ لا يمكن ان يتحول الى ردود فعل عاطفية بسيطة على تجديد النشاط الجنسي . ان تدخل العوامل الثقافية والاحيائية والنفسانية يبدو هنا جلياً .

للجسد باعتبارها اعضاء فاعلة في حياته الليبيدوية . فالهوامات الاستمنائية تلعب هنا دوراً هائلاً : فهي تمكن الفرد من مواجهة الحياة الجنسية الراشدة فيشكل الاستمناء اذن تعلُّماً يقود الفرد من الحياة الجنسية الطفلية الى نضج جنسي تناسلي . في حالات اخرى قد تعبيء الهوامات المحتويات الطفلية المسماة « شاذة » ويمكن للمراهق عندئذ ان يقلق على عدم امكانيته بلوغ النضج الجنسي .

فالهوامات الاستمنائية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالهوية الجنسية لأن المراهق يجب ان يستطيع التعرف على جسده بأنه ملكه الخاص : « فالعامل الاولي يبدو انه امكانية عيش جسده الناضج كأنه ملكاً له وليس شيئاً لا يزال ينتمي للأم . في بعض الحالات يكون لهؤلاء المراهقين انطباع بانه ليست لهم اية رقابة على اجسادهم : فهي تبدو كعدو او كعنصر غريب عنهم . فمثل هذا الموقف يقودهم الى اعتبار اما ان تكون اجسادهم غير موجودة ، واما الى محاولة البرهنة على وجودها ـ محاولات الانتحار ، الشره المفرط المخدرات . فهؤلاء المراهقون يعيشون استمناءهم كفشل لمحاولتهم الكبت او كإرضاء شاذ ومخجل » (لوفير Laufer ١٩٦٨) .

مثل هذه التجارب قد تكون لها نتائج خطيرة عندما لا يُعاش الاستمناء كانتقال الى العلاقات الغيرية ـ الجنسية الراشدة ولا يمكّن من توطيد اولوية الاعضاء التناسلية : فهذا يؤكد فكرة وجود مرض خطير او يشكل تهديداً للتكاملية النفسية : فالمراهقون ينتهون الى كره الجسد الذي لا يشعرون بالسيادة عليه ـ والذي قد تمثل صورته اجتياف صورة الأهل الاضطهادية ـ او يشعرون بانهم عُزّل امام هواماتهم الشاذة . كل هذه العوامل التي تشكل احياءً للمأزمات الاوديبية ولقلق الخصي يمكن ان تعطي الاستمناء وجهه المرضي وتشوش وظيفته ـ في السياق الاجتماعي الذي هو سياقنا ـ في قيادة الفرد نحو حياة جنسية راشدة ، من نمط جنسي متغاير .

يمكننا ببعض المقابلات تبديد بعض المخاوف اللاعقلية ، بقايا القلق الاوديبي . ولكن كما يلاحظ كات فريادلاندر Kate Fried Lander (١٩٤٧) ،

« فالمراهق عندما يعرف ان الاستمناء بعمره هو واقع عادي ، لا ينفك يشعر بأنه مذنب ويصارع ، لكنه يتجاوز مأزماته القديمة بسهولة اكبر وبنجاحات افضل » . ان مال P. Màle (١٩٦٤) يتكلم هو ايضاً ، عن المركز الذي يتخذه ، خلال العلاج النفسي للمراهق ، نزع الشعور بالاثم المرافق للنشاطات الجنسية الاولى وقبول الاشكال الجسدية الجديدة التي جرت معارضتها في الغالب .

فالمراهق يستمر عادة بالاستمناء حتى يستطيع ان يكون له علاقات جنسية ، ولكن على كل حال فإن شعوره بالاثم يجب ان يخف وتفقد المأزمات من حدتها . وعلى العكس من ذلك ، فإن الاستمناء النزوي ، او الصد الكامل لأي استمناء يدل على عدم حل المأزمات الاوديبية ؛ فنتائجها ستظهر لاحقاً اما على صعيد التصرفات الجنسية واما في العلاقات الاجتماعية .

٢) الاختيار الغيري والنرجسية .

فعند البلوغ ، ستؤدي ضرورة التخلي النهائي عن مواضيع الحب الاهلية ، الى جر المراهق نحو مأزم مفتوح مع والديه ، فالانتفاضة البلوغية ستجري بالضبط ضد سلطة الوالدين ، ولكن ايضاً ضد الرموز التي توظفها هذه السلطة . فالانعتاق يكون اكثر صخباً واكثر بهرجة كلما كان الولد متعلقاً بقوة بوالديه وكلما كانت صورتهما اكثر قسرية .

هذا الصراع الدائر بين التركزات القديمة قد يؤدي اما الى النبذ الكلي للأهل ، القطع معهما او الاتجاه نحو نمط حياة مختلف كلياً عن نمطهما ، واما الى اقامة توازن في تسامح متبادل وفي تعاطف متبادل ايضاً . اذا كان موقف الوالدين خلال البلوغ يمكّن من حرف تطور هذه المرحلة بهذا الاتجاه او ذاك ، فمن الضروري الاشارة الى ان مخرجه النهائي يتعلق الى حد بعيد بالمواقع الاوديبية التي كانت موجودة في بداية فترة الكمون وبالحل المقدم للمأزمات اثناء تقهقر الاوديب . فالبلوغ يشكل الفرصة الاخيرة امام المراهق لكي يحل المأزم الاوديبي بشكل عفوي .

فاحدى المشاكل التي تواجه على هذا الطريق هي زيادة حدة النرجسية ،

العائدة الى الميول النكوصية ، والمرتبطة بكون مواضيع الحب الاولى قد زالت قبل ان تأتي مواضيع اخرى لتأخذ مكانها . فهذا يقوى بالتنكيس الذي يتعرض له المثال الاعلى للأنا بسبب الاثم الاستمنائي ومتطلبات الأنا الاعلى المتزايدة : فالنرجسية تُستقوى من اجل اعادة الصورة المقبولة عن الذات . فتقوية النرجسية هذه تلعب دوراً مهماً : فهي من جهة تمكّن المراهق من توظيف طاقته في عمل خلاّق ، ومن جهة اخرى ، تمنعه من الانخراط قبل ان يحين الاوان في ارتباطات عاطفية .

لقد اكدت انا فرويد (١٩٥٨) على انه من الطبيعي بالنسبة للمراهق ان يكون بنفس الوقت منتفضاً ضد والديه وان يبقى مرتبطاً بهما ، ان يكون مثالياً ، كريماً وخلاقاً وبنفس الوقت انانياً ، منطوياً على ذاته ودقيقاً في حساباته . هذه التطرفات التي قد تبدو مرضية في فترة اخرى من الحياة ، تدل على المصاعب التي يواجهها المراهق ليصل الى مقام الراشد . لا يوجد امام المراهقين الا وقت قليل لاكتشاف الحلول التي تلائمهم : فهم يحتاجون كي يقدم لهم الاهل مساعداتهم ويقبلوا بالمحاولات التي يقومون بها من اجل الوصول الصعب الى حريتهم .

هذا يعني ان العمل النفس علاجي خلال « الازمة البلوغية » هو خاص في الغالب . فيما يتعدى التحليل يقتضي القيام بتدخلات علاجية متباعدة غالباً ، « نادرة وفعالة » تترك المراهق « يعيش بين الجلسات » . فالمعالج هو غالباً المحدث الاول المتسامح والمتفهم والمتحمل للعدوانية . « ينتج من ذلك ان المعالج النفسي . . . يمثل امكانيات جديدة للتماهي . . . فصورة المعالج يجب ان تكون مألوفة في ملامستها وقوية في تصورها . . . انها نقطة رئيسية بان لا يكون ابداً المدافع عن الواقع المحافظ وعن الارادة العائلية » (مال ١٩٦٤) .

في محاولة الحل هذه يلعب اختيار مواضيع ليبيدوية جديدة دوراً هائلاً فنتيجة للتماهيات بالوالدين سيكون الاختيار الغيري الاول للبلوغ اختياراً جنسياً مثلياً في الغالب ، ولكنه نادراً ما ينتهي الى مثلية جنسية ظاهرة . هذا الاختيار الاول لا يحدد النشاطات الجنسية اللاحقة ، لانه لا يقوم الا بالدلالة

على صلابة التماهي بالاهل التي يسعى المراهق الى ازالتها . فالاختيار الجنسي التغايري للبلوغ يسهل انعتاق الفرد تجاه المواضيع الاهلية

يمكننا القول على وجه الاجمال ان المأزمات العاطفية للبلوغ تكون اقل حدة وتطول اقل مدة كلما تلقت المأزمات الجنسية الطفلية حلاً اكثر ارضاءً .

٣) تكوين الطبع

من الممكن تعريف الطبع باربعة من محدداته :

أ) سمة الطبع تتعلق بمستوى نمو ليبيدوي معين (فمي ، شرجي ، تناسلي) (ابرهام ١٩٢٤) :

ب) الطبع هو ناتج مختلف الاوجه الدفاعية للأنا : وهو ما سماه رايش Reich (١٩٤٩) « التحصن الطباعي » ؛

ج) يتحدد الطبع بانماط تنظيم العلاقات الغيرية (فرويد ١٩٣٩) ؛

د) حاول بعض الكتاب استخلاص التأثيرات الثقافية التي تساهم في تكوين الطبع (اريكسون Erikson ١٩٤٦ ، ١٩٦٣ ؛ روهايم Róheim ١٩٥٠) .

فالطبع يجب ان يساعد على تخفيف التقلبات العاطفية وتامين هوية الفرد بتحريك اواليات الدفاع المختلفة والسلوكات التوافقية . فلكي يستطيع تكون الطبع ان يتم يجب ارضاء بعض الشروط مسبقاً . ان بلوس يعددها كما يلي : Blos (١٩٦٨) :

أ) يجب ان تتراخى الروابط الغيرية الاولى وتصبح المواضيع الطفلية متخلصة نوعاً ما من تركزات الكره والحب ؛ يسمي بلوس (١٩٦٧) هذه الحركة النسق التفرُّدي .

ب) ان الآثار التي لا يمكن تجنبها للصدمات الاولى يجب ان تندمج في الأنا : ما دامت وضعية الخطر لم تستبطن ، فالتكون الطباعي اما يتأخر واما يتجه نحو حل مرضي دعاه بلوس الحل المؤخر للمراهقة .

ج) من الضروري ان يستطيع الفرد اقامة استمرارية في تاريخه وفي التاريخ العائلي الذي بدونه يستحيل عليه الوصول الى الشعور بالانفرادية :

« لا يمكن ان يكون لنا مستقبل اذا لم يكن عندنا ماضي » ، وماض يمكن تفحصه في فتراته التطورية .

د) ويؤكد بلوس اخيراً على الفرق بين هوية النوع الناشئة في عمر مبكر جداً والهوية الجنسية التي لا تظهر حدودها الا مع البلوغ[1] . « فالبلوغ يمثل الخط الفاصل الذي يصبح بعده الابهام الجنسي المزدوج غير متلائم مع النمو الطبيعي » . فالتاكيد على الهوية الجنسية هو احد الشروط لاجراء اختيار موضوع جنسي متغاير .

فالعوامل الاجتماعية والوسط سوف تحدد قسماً كبيراً من البنية الطبعية ؛ فاستبطان وسط واق ثابت يمكن من تامين استقلال كاف من اجل استيعاب مأزمات الفترة البلوغية وما بعد البلوغية .

٤) مأزم الاجيال والتوافق الاجتماعي .

لقد جرى الادعاء غالباً بان المأزم الذي يعارض الأهل والمراهقين هو فترة ضرورية للنمو ، مهما كانت اوجه هذا المأزم الذي اتخذ ، خلال السنوات العشر الاخيرة حدة خاصة بسبب التناقضات السياسية والاقتصادية التي نعيشها . فالقاعدة النفسانية لهذا المأزم قامت هيلين دوتيش (١٩٦٨) بمعالجتها بوضوح . فبدل ان نرى فيه ، كما يفعل البعض ، تجدداً للمأزمات الاوديبية

---

1 ـ يمكن الاستناد الى اعمال ستولر R. Stoller الذي يقيم فرقاً واضحاً جداً بين هوية النوع Gender identity والهوية الجنسية في ابحاثه حول ما وراء الحياة الجنسية Transexualisme

وهكذا يميز ستولر (1968) بين الجنس والنوع Gender, sex : فهو يسمى « جنس » التحديد الجسمي ـ الاحيائي للانتماء الجنسي ، و « هوية النوع » الحياة الجنسية النفسانية ، كون الفرد يعتبر نفسه رجلاً ام امرأة . فبينما في الظروف الطبيعية نلاحظ توافقاً للجسمي والنفساني ، فإن الامر لا يجري بهذا الشكل في حالات اخرى حيث الجنس الاحيائي يمكن ان يتناقض مع هوية النوع النفساني . فالابهام المؤكد نوعاً ما للتحديد الجنسي نجده عند اللواطي والمخنث كما خلال اي عصاب ؛ فالحد الاقصى لهذا التباين يتبلور في ما وراء الحياة الجنسية ، حيث الفرد ، رغم تكوينه الجسمي ـ الاحيائي له القناعة والرغبة بالانتماء للجنس الآخر ؛ هذه الرغبة تقود صاحبها لطلب اجراء عملية جراحية لتغيير جنسه . (يجب تمييز الراغبين بالانتماء للجنس المعاكس عن الحالات الجنسية الداخلية ـ الخنثية مثلاً ـ حيث نجد فيها جانباً كبيراً لعدم التحديد الشراحي والهرموني المتعلق بالانتماء الجنسي الجسمي .

غير المحلولة ، والاكتفاء بهذا التفسير ويجب اخذ عوامل اخرى بعين الاعتبار.

باكتشافهم ان اهلهم يقحمون احياناً انفسهم في مشاكل المراهقين الخاصة ، فإن صورتهم تصبح غامضة ومتقلبة .

ان رفض النظام والهيكلية والتبرجز والقيم الثقافية يرتكز فعلاً على وقائع ، ولكن التعبير عن هذا الاحتجاج قد يتغير حسب المعايير الثقافية والمشاكل الخاصة والبنية السياسية ـ الاجتماعية للوسط . فالمراهقون يجدون نفسهم افضل في بعض الجماعات الاقلية التي تعارض النظام القائم : لقد ذكرت هذه المشاكل من قبل كتاب كثيرين (ماركوز Marcuse ١٩٥٥ ؛ ميتشيرليخ Mitscherlich ١٩٦٣ ؛ مانديل Mendel ١٩٦٨) . فهنا يلتقي اذن نوعان من الظواهر : المسائل الاجتماعية ـ الثقافية ولكن ايضا الانساق النفسانية الخاصة بالمراهقة والتي قمنا بعرض عواملها البنيانية . لقد اشارت هيلين دويتش الى اوجهها المختلفة : التخفيض من القيم المقبولة ، الاسقاط على الوسط لمشاعر الفشل والتقصير ، والتعويض بالانتفاض والعنف . ان رفض نمط الحياة الذي يقدمه لهم الراشدون والاعتراض على البنى الاجتماعية ـ السياسية . لا يمكن تفسيرها فقط بالعوامل النفسانية الفردية . فهذا امر بديهي . الا ان التوجه التحليلي لهذه المشكلة لا يهتم كما فعلنا ، الا بالعوامل النفسانية للرفض والمعارضة الشاملة ، لانها هي وحدها من اختصاص حقلنا .

من الناحية التحليلية يمكن اعتبار ان الاندماج الاجتماعي يتعلق بثلاثة انواع من العوامل . على الصعيد الاول ، نجد نوع ونمط العلاقات الغيرية للولد التي نجد آثارها عند المراهق والتي تحدد شكل علاقاته مع الآخرين ، وبشكل خاص مع صور السلطة او صور الحب . فبالمأزم الاوديبي ، الذي ندرك آثاره ، تتعلق طاقة المراهق على التركيز او عدم التركيز على صور جديدة ، وعلى اقامة علاقة لا شاذة ولا عصابية في مطالبه تجاه الغير .

من جهة اخرى ، يتعلق هذا الاندماج بمصير الاركان النفسية ، وخاصة الأنا الاعلى والمثال الأعلى للأنا اللذين يحددان شخصية المراهق ، في المواقف التي عليه ان يأخذها تجاه الواقع الاجتماعي . فالانتفاض او الخضوع ، الصد

واللاذرائعية تدل على المواقع الهوامية اللاواعية للمراهق تجاه دوافعه ورغباته .

وأخيراً ، يمكن اعتبار قساوة المأزم الاوديبي تؤثر على وظائف الأنا وعلى أواليات دفاع الأنا : فالتسامح مع الاحباطات ، والتماهي بالمعتدي ، والتماهيات الخاضعة للتغير السريع ، واستخدام اواليات الانكار او التكوين الانعكاسي ، كلها عوامل تؤثر على ما اصطلح تسميته الطبع ، والمعتبر كمجموع تصرفات الفرد .

هذا البعد الاجتماعي نجده في جميع ممارسات التدريب ، من المجتمعات البدائية حتى اكثر المجتمعات تطوراً ، التي تمكن الولد من ترك عائلته لاتخاذ مكانه بين الناس . فحل الرابط الذي يوحده مع اهله ، والاعتراف بامكانية الحياة الجنسية التناسلية ، وتحمل مسؤوليات الابوة او الامومة لا يمكن الا ان تتماشى مع تحقيق طاقات الفرد المتحرر من عراقيل المأزم النفسي الداخلي .

الفصل السابع

الممارسة التحليلية

ان ممارسة التحليل النفسي تطرح مشكلة طرائقية . منطلقاً من ممارسة عملية ، غنية بالوقائع العيادية غير المفسرة في البداية ، فقد استطاع التحليل النفسي تكوين جهاز المفهومي الخاص . ان كل فرضية نظرية يجب ان تجد تأكيداً لها في الممارسة العملية : علينا اعادة معالجة المرتكزات النظرية اذا لم تثبّتها العيادية التحليلية . فالممارسة والنظرية مرتبطان اذن ببعضهما : فبدون ممارسة عملية لا يستطيع المحلل التثبت من الجهاز النظري الذي يحملها ؛ وبدون نظرية تصبح الممارسة التحليلية نوعاً من الارتجال الدائم . ولكن لا يقفل اي محلل على نفسه داخل النظرية دون ان يخضعها الى تساؤل ثابت والا تتحول النظرية الى معتقد .

ان هذا الترابط الضروري بين الممارسة والنظرية شكل ، على الدوام ، مركز المشاكل التي طرحت على محللي الاولاد . فالهم الاول كان التحقق من ان المبادىء التي يرتكز عليها تحليل الراشدين يمكن تطبيقها على الاولاد .

فالتحليل النفسي للولد لم يكن في بداياته الا تطبيقاً مباشراً للطرق المستعملة عند الراشد . ولكن منذ تحليلات الاولاد الاولى التي باشرتها هرمين

فون هوغ ـ هلموت Hermine von Hug— Hellmuth حوالي عام ١٩١٥ ، استخدمت هذه الكاتبة تقنيات جديدة ، اي بواسطة الرسم واللعب ، المتوافقة بشكل افضل من التداعيات الحرة ، لتمكن الولد من التعبير عن هواماته .

ان تاريخ التحليل النفسي للولد سيُطبع دائماً بالبحث عن تقنية تمكن الولد من اجتياز ما يقف عائقاً في التحليل ، مثلاً : موقع التبعية الحقيقية تجاه الوالدين ؛ صعوبة ، بل استحالة ، تطبيق طريقة التداعيات الحرة ، النقص النسبي في دافع الانخراط في المعالجة واقامة رابط نقلي مع المعالج . ولكن فيما يتعدى التقنية تطرح مشكلات نظرية ذات اهمية رئيسية : اصل الأنا الاعلى ، نضج الأنا ، ونشوء القلق .

لقد كان تطبيق التحليل النفسي على الولد متأخراً نسبياً . كان يجب الانتظار عشر سنوات بين معالجة هانس الصغير Petit Hans ، اول تحليل لولد قام به فرويد عام ١٩٠٥ ـ وذلك في ظروف خاصة ـ واستخدام التحليل النفسي للولد على نطاق واسع .

في (هانس الصغير) يعالج فرويد نشوء حل عصاب خوافي عند ولد عمره خمس سنوات . وتجدر الملاحظة ان العلاج النفسي قام به والد هانس ، خلال احاديث اجراها مع ابنه وكان يقدم تقريراً عنها للدكتور : لقد اقتصر دور فرويد على افهام والد هانس معنى الاداة ، وعلى اعطائه بعض التفسيرات . خلال هذا الاشراف لم يقابل فرويد هانس الصغير الا مرتين . ولنشر ان هذه العملية كانت ممكنة لأن والدي هانس كانا قد خضعا بنفسهما للتحليل . ان حالة هانس الصغير كانت بالنسبة لفرويد مناسبة لتأكيد صحة فرضياته العيادية حول دور الحياة الجنسية الطفلية حول الاوديب .

ولنلاحظ ايضاً ما هو استثنائي في هذا السلوك العلاجي . الا ان محللين آخرين ، في بعض الحالات ، استخدموا تقنيات مشابهة عندما لا يمكن ، بسبب الظروف ، متابعة الولد من قبل محلل .

وهكذا قدم بونارد Bonnard (١٩٥٠) ، فورمان Furman (١٩٥٧) وجيليرد Geleerd (١٩٦٧) حالات اخذ فيها احد الوالدين دوراً علاجياً

ليحاول حل المشاكل العصابية لولده . فبونارد ، الذي يتكلم عن حالة عصاب هجاسي عند صبي عمره اربع سنوات كانت امه تلعب دور الوسيط العلاجي بين الولد والمحلل ، يشير الى ان الولد في هذه الظروف كان « تحت الاهتمام اربعة وعشرين ساعة من اصل اربعة وعشرين » .

والحالات التي حللتها هرمين فون هوغ - هلموت حوالي ۱۹۱٥ نشرتها عام ۱۹۲۱ . بنفس الوقت تقريباً اهتمت كل من ميلاني كلاين في بودابيست واوجيني سوكولنيكا Sokalnika وصوفي مورجنسترن Morgenstern في باريس وانّا فرويد في فينا بتحليل الاطفال ، وبنفس الفترة حاول ايكهورن August Aichhorn معالجة المنحرفين الشباب حسب المفهوم التحليلي في مؤسسته في - هولابرون Ober-Hollabrun . اتخذ التحليل النفسي للاطفال مداه ، مقترحاً صياغة المبادىء التي يرتكز عليها .

وقد جعل قدوم التحليل النفسي للولد المحللين يواجهون مشاكل عملية ونظرية فرضت عليهم ارصان مذهب يحدد خصوصية الممارسة المطبقة على الولد ، وضبط التقنية ومؤشرات ارشاداتها .

١ ـ خصوصية التحليل النفسي

ان بعض المبادىء الشكلية تختص بممارسة التحليل عند الراشد : قاعدة التداعيات الحرة ؛ تفسير الامور اللاواعية والاواليات الدفاعية وخاصة النقلة ؛ عدم تدخل وحياد المحلل ؛ تقريب الجلسات بما فيه الكفاية . ولكن على مستوى آخر يجب ايضاً الاعتراف بالخصوصية التحليلية في كون جميع المحللين يستندون الى نظرية عن سير الجهاز النفسي ، هي في خطوطها الكبرى مشتركة بين الجميع الامر الذي يسمح ، عند تعيينها في المعالجة ، من فهم وتفسير اقوال المريض .

من السهل نسبياً اقامة التعارض بين التحليل النفسي والعلاجات النفسانية غير التحليلية : فهذه الاخيرة ، بالرغم من ارادتها مساعدة الفرد على حل مشاكله باقامة علاقة شخصية ، الا انها تفترق عن التحليل النفسي في نقاط رئيسية :

أ) فهي لا تستند الى الجهاز النظري للتحليل ، اي انها تهمل نظرية اللاواعي ، والليبيدو ، والحياة الجنسية الطفلية ، الخ . . .

ب) فهي لا تحافظ على المبدأ الدقيق بعدم تدخل المعالج ، الذي يمكن ان يتراوح بين المبادلات البسيطة والتطمينات ، الى المذهبة وحتى الى التوجيه شبه الكامل ؛

ج) فمشاكل النقلة لا يجري تناولها ولا توضيحها ؛

د) لقد اعتبر البعض ان العلاجات النفسانية وكأنها التخفيف من الحدة الاخلاقية ، او قد عملوا على تكوين ايديولوجية معينة ، واقتراح اجراءات لاعادة التكيف ، وتشجيع التماس المباشر والاجتماعي بين المريض والمعالج ، الخ . فمهما كان بشأن الاشكال المتعددة التي يمكن معالجتها ، من الواضح ان هذه المبادىء مناقضة لتوجه التحليل ولممارسته[1] .

ان التمييز بين التحليل النفسي والعلاج النفساني غير التحليلي يصبح سهلاً لو كان المحللون انفسهم لا يمارسون العلاجات النفسانية التحليلية حيث تدخل تغيرات تتعلق بالمؤشرات الشكلية للممارسة التحليلية : استخدام الرسم والقولبة الى جانب التداعيات الكلامية ؛ ابعاد الجلسات ؛ العلاجات النفسانية

---

1 ـ اننا نترك جانباً ، عن قصد ، العلاجات النفسانية غير التحليلية مثل العلاجات ذات النمط « الروجيري » (انظر Carl Rorgers Client centered psychotherapy, N. Y. Houghton Mifflin, 1951) التي تفترق اسسها النظرية عن النظريات الفرويدية وترتكز كلياً على علم نفس ما بين الاشخاص : وتجدر الاشارة الى ان ممارستها ومفاهيمها الاساسية تبقى مختلفة عن الهيكل المعرفي الذي نحاول عرضه . هذا لا يعني بان العلاجات النفسانية غير التحليلية لا يمكن ان تكون معقولة ؛ ولكن ، بقراءتنا لروجيرز نلاحظ انه ولو لم يستخدم المفاهيم الفرويدية ما وراء النفسانية ، فانه يستوحي على الاقل من النظرية الدينامية للشخصية . وهناك تقنيات اخرى تستوحي النظرية التحليلية (حلم اليقظة لديزوال Desoille ؛ التحليل الوجودي لبينسوانغير Binswauger ؛ الاسترخاء) ولكنها تبقى بعيدة جداً عن شروط الممارسة التحليلية . ان ما نعنيه في بحثنا عندما نتكلم عن العلاج النفساني هو بالتأكيد العلاجات النفسانية التي يمارسها محللون .
اما المدارس المنشقة (يونغ C. G. Yung ، ادلير A. Adler رايش W. Reich هورني K. Horney) فإن بنيتها التحتية تبعدها كثيراً عن التحليل النفسي الفرويدي لذلك لن نأخذها بعين الاعتبار في هذا الكتاب . حول هذه المدارس يمكن مراجعة كتاب براون Freud and the post-Freudians J.A.C Brawn (١٩٦١) .

« وجهاً لوجه » ؛ العلاجات النفسانية المؤسسية ، الخ : انها ليست تحليلاً بالفعل ولكن ما يجعلنا نسميها علاجات نفسانية تحليلية هو استخدام المعالجين للمفاهيم الاساسية التي تضم العلاج : الاهمية المخصصة للامور الكامنة واللاواعية ؛ اكتشاف واستخدام النقلة ؛ ولكن بالاخص الاحتفاظ بالمعطيات الاساسية للتحليل النفسي وتكييفها مع الامكانيات العلاجية المختلفة من حيث شكل التمرين (علاج نفساني مؤسسي او في المستوصف) او نمط المريض (ذهاني ، منحرف ، او مدمن على المخدرات السامة ، الخ . .) [1] .

هذه المحاولة للتمييز بوضوح بين العلاج النفساني التحليلي والعلاج النفساني غير التحليلي تقودنا رأساً الى النقاش حول ممارسة تحليل الاولاد .

فكما قلنا ـ وما سوف نرى حول عبارات الجدل بين مفاهيم انّا فرويد وميلاني كلاين ـ فإن همنا هو تحديد الترتيبات الضرورية والمتوافقة مع سلوك العلاج التحليلي وما يبعد او يقرب الاشكال المختلفة للتحليل النفسي بالمعنى الحصري .

٢ ـ التحليل النفسي للاولاد حسب انّا فرويد

لقد نشرت انّا فرويد اولى اعمالها بين ١٩٢٦ و ١٩٢٧ . بالرغم من انها فيما بعد قد خففت من آرائها في ذلك الوقت ، فإنها على وجه الاجمال لم تغير حججها ابداً فيما يتعلق بالعوائق التي كانت تراها امام التحليل النفسي للولد[2] .

---

1 ـ اننا لن نتناول هنا مشكلة العلاجات النفسانية التحليلية الجماعية والتمثيل النفسيPrychodrame التي ندل القارىء بشأنها على مؤلفات Anzieu (1956) وويدلوشيرWidlocher (1962) .

2 ـ كتاب أنّا فرويد (Wien, 1927) Einfuhrung in die technik des kinderanalyse يشكل القسمين الاولين منTraitement psychanalytique des enfants الذي ظهر عام1946 . في ذلك الوقت توسعت المؤلفة بالنص وادخلت قسماً ثالثاً : «indications for child aualysis» كان قد ظهر عام1945 في Psychoanaly tiestudy of the child حيث استعادت المؤلفة وعدلت بعض فرضياتها الاساسية تحت تأثير الابحاث الاميركية والانكليزية . ولكن بمجمله يبقى الكتاب حتى بطبعته عام1946 ، مطبوعاً بالافكار الاصلية للكاتبة .

١) التقرير .

بسبب عدم نضجه وتبعيته ، لا يمكن للولد ان يقرر بنفسه اتباع المعالجة التحليلية . فالمبادرة تقع على الاهل والمحلل يُواجه بالولد كوضعية يشعر تجاهها انه غريب ، فيُعاش المحلل كشخص لا يمكن لأي شيء ان يصله به لذلك ليس من سبب ليضع فيه ثقته .

فالراشد عندما يتوجه للمحلل يعي حالته المرضية ، حتى ولو تغيرت مكانته الموضوعية ، كما يلاحظ ميشال فوكو Foucault (١٩٥٤) ، ولكن حيث يوجد دائماً « اعتراف تلميحي وادراك مبهم لاطار مرضي تتحدد في عمقه العناصر المرضية » . هذا الشكل الغامض للوعي ، الذي بدونه لا يمكن صياغة الطلب المعلن ، هو الذي يأتي بالراشد الى المحلل[1] .

اما الولد فنادراً ما يعي حالته ، لأنه لا يستطيع تقدير الصعوبات التي يشعر بها حق قدرها . يمكنه ان يشعر بأنه قلق ، تعيس ، متروك ، ولكنه لا يملك امكانيات على المحاكمة ولا مراجع كافية لمعرفة نفسه بأنه مريض .

فمبادرة الاستشارة تعود اذن للأهل الذين يطلبونها لاسباب متنوعة فقلقهم يتحدد ، الى حد بعيد ، بالتسامح ، كثير التغير ، الذي يشعرون به تجاه الاضطرابات التي تظهر عند الولد . هذا التسامح يتعلق اقل بنمط وحدّة الاعراض من تعلقه بقلقهم الخاص وادراكهم لقلق الولد . سوف نعود ، في فصل لاحق ، الى معنى هذا الطلب من قبل الاهل .

والولد ، بسبب وضعه ، لا يمكن ان يكون له نفس الدوافع للجوء الى المعالجة ؛ فالرغبة بالشفاء ، التي هي احدى العوامل التي تمكن المحلِّل والمحلَّل

---

1 ـ في الواقع من الضروري تلطيف هذه الاعتبارات . فقرار المباشرة بعلاج تحليلي ، حتى في حالة الراشد ليس دائماً نتيجة الحرية الكاملة للفرد : فالضغوطات عليه من المحيط غالباً ما تكون حاسمة في مثل هذا القرار . ولكن حتى في الامراض العصابية الطبيعية ، حيث الشكل المرضي لهذا التصرف او تلك السمة في الشخصية لا تظهر دائماً بوضوح للفرد ، يوجد هذا النوع من الوعي التلميحي والغامض الذي يتكلم عنه ميشال فوكو .

من الوصول بالعلاج الى نهايته ، لا وجود لها ، في البداية على الاقل ، في العلاقة العلاجية مع الولد .

٢) المبادىء الاساسية لتحليل الاولاد

« لقد كانت تقريباً مسألة اعتبار لبعض محللي الاولاد ان ينتموا الى نفس المبادىء العلاجية السائدة في تحليل الراشدين » . هذا التصريح لأنّا فرويد يدل عن جميع المحللين ـ مهما كانت المجموعة التي ينتمون اليها ـ يوافقون على الاعتراف بالمتطلبات الدنيا لتبرير مقولة تحليل الولد : ازالة اي ايحاء ؛ ابعاد ازالة العقد عن كونه نسقاً علاجياً ؛ تخفيض الاستعمال اليدوي ما امكن . جميعهم متفقون على الاعتراف بضرورة تفسير المواد اللاواعية وتحليل مقاومات ومظاهر النقلة . ولكن هناك اختلاف في الآراء حول امكانيات تطبيق هذه المباديء دون تعديلها في تحليل الاولاد .

فأنّا فرويد (١٩٦٦) تلاحظ فرقاً بين تحليل الولد وتحليل الراشد . هذا الفرق لا يطال فقط التغيرات او الترتيبات التقنية ، ولكن ايضاً النسق التحليلي بحد ذاته . فعند الراشد تعود فعالية التحليل الى « تحرير القوى الموجودة بشكل طبيعي والتي تنجّح النسق العلاجي عفوياً » ؛ فالراشد يفتش « عن وضع طبيعي يمكنه من الوصول الى اللذة الجنسية والى الارتياح في العمل » . فالوضعية مختلفة تماماً عند الولد : بالنسبة لهذا الاخير كل تكيف يعني غالباً الخضوع لواقع مؤلم ويفرض عليه التخلي عن المكافآت المباشرة . مثل هذه الوضعية ليست شرطاً ملائماً لمجرى التحليل اذا لم يجرِ تعويضها ، حسب انّا فرويد ، بالحاجة (الفطرية) على متابعة نموه الذي هو في اساس اي تطور ، فالحالة المائعة لبنيات الولد النفسية تجعل حاجة النمو هذه تأخذ مكاناً مهماً في النسق التحليلي ، الى حد ان بعض المحللين تساءلوا الى اي مدى تعود بعض النجاحات العلاجية الى التفسيرات التي يعطيها المحلل ، واي قسم منها يعود الى التطور العفوي الناتج عن النمو .

٣) المرحلة التحضيرية .

لقد وجدت انّا فرويد نفسها مضطرة لاضافة بعض الترتيبات على ممارسة التحليل النفسي عند الولد : ادخال مرحلة تحضيرية ؛ تغيرات في التقنية

التقليدية ، استخدام مختلف للنقلة وتوجه تربوي من اجل تكييف التقنية التحليلية مع المتطلبات الخاصة لهذا الحقل .

فأنّا فرويد تقترح ان يسبق التحليل النفسي للولد مرحلة تحضيرية . وهي تعترف بأن هذه المرحلة ليست من التحليل في شيء . فخلال هذه المرحلة لا يجري وعي ما هو لاواعي ، ولا ممارسة تأثير تحليلي على الولد ، ولكن ترتيب وضعية هي في الاصل غير ملائمة ، اي دفع الولد لمباشرة وتدعيم العلاقة العلاجية . فخلال هذه المرحلة قد يقيم الولد مع المعالج علاقات مبنية على الثقة ، كما انه بنفس الوقت يمكنه ان يدرك فائدة التحليل النفسي عندما يعي ضرورة حل بعض الصعوبات الشخصية .

اثناء هذه المرحلة ، على المعالج ان يظهر للولد كشخص يهتم به ويمكنه ان يكون مفيداً له ، وانه يملك قدرة معينة . وهكذا يجب على المعالج ان يصبح ضرورياً للولد ، وبهذا تقام علاقة نقلية تجعل التحليل ممكناً .

فيما بعد ، خففت أنّا فرويد بعض صياغاتها واقترحت استخدام هذه المرحلة الاولى باتجاه مختلف نوعاً ما ، وذلك بتفسيرها ، منذ المقابلات الاولى ، الدفاعات العصابية التي تظهر من خلال موقف الفرد تجاه المحلِّل . وبانكارها استخدام تفسيرات الهوامات اللاواعية او النقلة ، تعمد انّا فرويد على مواجهة العلاقة العلاجية بتفسير دفاعات الولد الطبيعية .

٤) الاعدادات التقنية

لأن الولد في معظم الحالات ، لا يستطيع ان يُعلمنا عن تاريخه العيادي واعراضه ، لذلك سنضطر ، من اجل معرفة ماضيه المرضي ، للركون الى قصة اهله . وهكذا يفلت منا قسم مهم من المواد ، لأن قصة الاهل ستتشوه بالضرورة نظراً لتدخل انفعالاتهم في الصورة التي يكونونها عن ولدهم .

لقد اعتقدت أنّا فرويد بانه يجب التخلي عن هذا المصدر المهم من المواد التحليلية ، التي تردنا عادة من القصة والذكريات خلال تحليل الراشد . فبدل التذكر ، على المحلِّل ان يستخدم طرقاً اخرى للوصول الى اللاوعي وأنّا فرويد توحي باستخدام تفسير الاحلام التي يعطيها الولد ، لأن طريقة التداعيات

التقليدية لا يمكن ممارستها دائماً وان التفسيرات يجب الحصول عليها احيانا بما يمكن ان يتأمن لنا من الحياة اليومية او تاريخ الولد ، وهو ما يأتي به غالبا المحيط بما يخبره عن الولد .

الا ان انّا فرويد لا تكتفي فقط بالمواد الكلامية وتستخدم الرسوم التي يقوم بها الاولاد خلال الجلسات . واحياناً تحل الرسوم محل اي شكل من الاتصال بين الولد والمعالج .

مع ذلك تشير أنّا فرويد الى ان استخدام القاعدة الاساسية في هذه الممارسة يبدو مستحيلاً : فالولد يستطيع في بعض الظروف اعطاء بعض التداعيات الحرة المتعلقة بأهوائه النهارية او احلامه ، ولكنه لا يستطيع فهم القاعدة بان كل المواد خلال الجلسة يجب ان تتحول الى مواد كلامية دون ان توضع مصفاة الرقابة الواعية بين هذه المواد ومظهرها الكلامي . فالتداعيات الحرة التي يعطيها الولد لن تكون الاظرفية ولا تشكل قاعدة مضمونة لسير العلاج .

ان استحالة خضوع الولد لقاعدة التداعي الحر (المسماة ايضاً القاعدة الاساسية) أجبر على ايجاد طريقة بديلة . فميلانـي كلاين تقترح استخدام نشاطات اللعب للولد خلال الجلسات ، وتفسيرها شيئاً فشيئاً شأن التداعيات الحرة عند الراشد : فهي تعترف بوجود معنى رمزي لكل مراحل اللعب يظهر الهوامات اللاواعية . اما أنّا فرويد (١٩٦٥) فلا تنكر بان اللعب يمكن ان يُفسر رمزياً ولكنها تشير ان تداعيات الراشد تدل على جهد ارادي وواعي بعدم شطب اي شيء من كلامه ، بينما لعب الولد لا يتوافق مع مثل هذا الموقف . ولكن تشير أنّا فرويد بشكل خاص الى ان التفسير يبقى صعباً مع تقنية اللعب : فالمواد الرمزية في هذه الحالة تجبر على التفسيرات الرمزية التي قد تكون غير دقيقة او اعتباطية . وتضيف ايضاً بأنه لا يمكن ان نجد في حرية التصرف اثناء اللعب امراً مساوياً للتداعيات الحرة : فالمحلل يضطر غالباً للتدخل مهما كان تسامحه وصبره ، على الاقل لوضع حد لالعاب قد تكون خطرة . فبينما التداعيات الحرة تعبىء غالباً الهوامات الجنسية ، فان حرية الحركة خلال العلاجات باللعب يبدو انه تطلق في كثير من الحالات السلوكات العدوانية . وتختم انّا فرويد بقولها ان

الصعوبات التقنية لا تلبث ان تظهر و « يضيع وقت ثمين في الجهود المبذولة من اجل مراقبة العدوانية المنطلقة بسبب التسامح التحليلي » . واخيراً تشكك المؤلفة بامكانية تفسير اللعب في اطار الوضعية النقلية ، وهذه الصعوبة ، بالنسبة لأنّا فرويد ، تشكل العائق الأكبر امام تحليل الولد .

٥) مشكلة النقلة

فأنّا تعتبر انه من الضروري ان يقيم الولد علاقات ودية مع المعالج ، اي ان تتكون « نقلة ايجابية » . هذه النظرة تبرر المرحلة السابقة للتحليل في العلاقة العلاجية التي يجب ان تدفع الولد لمتابعة العلاج .

وتعترف أنّا فرويد بان العلاقات بين الولد والمعالج مشحونة بالمؤثرات ، من الحب والتعلق ، من الانتفاض والمعارضة ، فهي تقول ان هذه المشاعر لا تشكل عصاباً حقيقياً من النقلات .

لأنه اذا استطاع الراشد فعلاً ، خلال التحليل ، ازالة التركز عن المواضيع التي تربطه بها هواماته ويصبح قابلاً لاعادة عصابه في الوضعية التحليلية وبنيته حول شخص المحلّل ، فإن مثل هذه النقلة تبدو مستحيلة في وضع الولد ، وذلك لسببين .

الاول لأن الوضعية الحقيقية بالنسبة للولد ـ علاقته مع والديه ـ تبقى حية ، لأن الولد يتبع الوالدين في كل المكافآت والاحباطات ، الحقيقية والخيالية . فمواضيعه المأزمية هي خارجية ولم تستبطن بعد كما عند الراشد . فالمحلل يمكنه الدخول في هذه الحلقة ، ولكنه لا يستطيع في اي حال من الاحوال ان يأخذ مكان الوالدين فعلاً ، لأن الولد لا يبدي اية ضرورة لاعتباره صورة بديلة . بالنسبة لأنّا فرويد لا يعني سلوك الولد العدائي تجاه المعالج انه انتقال مشاعر التجاذب التي يحسها في احد الوالدين الى المعالج ، ذلك لأن التعلق بالأم او الأب لا يمكن الولد من اقامة مثل هذه العلاقات مع الخارج . فالولد يحاول الحصول من المحلل ما يشعر بانه محروم منه في الوضعية الحقيقية ،وليس اعادة هذه الوضعية .

والعائق الثاني يتعلق بالموقع الذي يحتله المحلل تجاه الولد . في تحليلات

الراشدين يمكن حياد المحلّل المريض من اسقاط هواماته وتنجيلها على المساحة التي نقدمها له . اما محلل الاولاد ، حسب أنّا فرويد ، فعليه ان يكون كل شيء بدل ان يكون هذا الظل ، لأنه لا يستطيع ان يتنازل عن دوره التربوي : فالولد يعرف جيداً ما هو مقبول وما هو غير مقبول بالنسبة للمحلل ، ما يحبِّذ وما يرفض . في هذه الاحوال ، حسب أنّا فرويد ، يصبح المحلل موضوعاً نقلياً سيئاً .

بالرغم من المؤثرات الايجابية او السلبية ، تعتبر انّا فرويد بان الامر لا يتعلق ابداً بعصاب نقلي حقيقي ، وذلك بسبب الظروف الخارجية ومنها الوجود الفعلي للوالدين المسؤولين عن تربية الولد ، من الممكن التدخل في هذه الظروف وتغييرها ، بفصل الولد مثلاً عن والديه ومتابعة العلاج التحليلي مع الولد في قسم داخلي . ان تغيير الوسط تمكن من تحقيق الظروف الضرورية لنشوء عصاب النقلة ، وذلك بابعاد المواضيع المأزمية البدائية من المحيط المباشر للولد .

ولكن يبدو مستحيلاً اقتراح فصل الولد عن والديه فقط بهدف مباشرة التحليل ؛ مثل هذا الحل لا يرد الا اذا فرضته ظروف ملحة .

فأنّا فرويد (1966) تعتبر ان الولد يستطيع استخدام المحلل باشكال مختلفة حتى في غياب النقلة الحقيقية :

أ) « فالشبيهة لوضعيات جديدة » تشكل جزءاً من الطاقة النضجية ؛ فالولد يرى في المحلّل موضوعاً جديداً ، ويستخدمه على هذا الاساس . فالمحلل يصبح مناسبة للتكرار ، فمواقف الولد لا « تنتقل » حقيقة لأن المحلل يشكل موضوعاً جديداً .

ب) كل العلاقات بين المحلل والولد لا تشحن ليبيدوياً او عدوانياً . فالولد يستخدم عدداً من هذه العلاقات للتعبير عما يُبطن ، وهو نسق يُستخدم من خلاله شخص المحلل كممثل لركن نفسي معين للفرد . وهكذا ، بالتسامح مع حرية التعبير الكلامية - ومع فعالية الولد ايضاً - يصبح المحلل ممثلاً لجزء من هو الولد . وبمساعدته الولد على تجاوز قلقه يصبح المحلل أنا مساعد يجد فيه

الولد الحماية . وباعتباره راشداً يشكل المحلل أنا اعلى خارجي للولـد من الممكن القول ان التعبير عن الباطن هو شكل آخر للنقلة .

لكن مشكلة النقلـة لـم تحـدَد جيداً في اطـار تحليل الولـد . وهـكذا فإن مارجوري هارلي Marjorie Harley (1967) ، التـي قبلـت بوجـود النقلـة خلال التحليل الطفلي ، تدعي بأنها تبقى نسقاً محدود المدى ؛ فهي تؤكد ايضاً على اهمية الاتحاد العلاجي [1] الذي قد يمكنّ الولد من تجاوز العقبات الناتجة عن النقلة السلبية ومواجهة احباطات التحليل . فهذا الاتحاد العلاجي يعني ان الولد يجب ان يكون قادراً ليس فقط على الخضوع للنسـق العلاجـي ، وانمـا المشاركة فيه بتعبئة ديناميته العـاطفية (فرانـكل وهيلمان Franklet Hellman (1962) .

يبقى ان نعرف ما اذا كان نشوء عصاب النقلة عند الولد امراً مرغوباً . بعد نشوئها تأتي مشكلة حل النقلة ؛ فالولد الذي ينفصل عن المواضيع الاهلية بينما هو غير قادر على الاستقلال الكلي ، يجد نفسه في نهاية التحليل ، اي بعد حل عصاب النقلة ، في وضعية صعبة بالنسبة لوالديه . فأنّا فرويد تعتبر ايضاً ان النقلة ، في الظروف العادية ، غير معقولة وغير مرغوبة ، وتدعي بأنها تبغـي القيام بالتحليلات باستخدام المواد الكلامية فقط ، دون ان تشجع على النقلة الحقيقية التي تؤدي الى انتقال مجمل عاطفة الولد . فهي تفضل تركيز عملها على توضيح اواليات الدفاع التي يستخدمها الولد لحماية نفسه من القلـق ، فهـي تعتقد ان هذا ممكن بدون اي تفسير نقلي .

٦) وجهة النظر التربوية ودور الأنا الاعلى .

وتذكر انّا فرويد تحفظـاً اخـيراً على امـكانية اجـراء تحليل نفسي حقيقـي للولد ، هذا التحفظ يعود لنظرتها حول تكون الانا الاعلى . نحن نعلم بان الأنا

---

1 ـ الاتحاد العلاجي الذي وصفه ستيربا R. Sterba (1940) يُحدد على انه امكانية المرضى في استخدام رغباتهم الواعية للتعاون مع المحلل . هذا المفهوم استخدمه غرينسون Greenson (1965) الذي يتكلم ايضاً عن « اتحاد العمل » .

الاعلى ، بالنسبة للراشد ، يمثل الممنوعات والاوامر المسجلة في اللاوعي : فهذا الأنا الاعلى ينشأ من اجتياف متطلبات الأنا الاعلى من مواضيع الحب الاولى : اي من الوالدين ، فما جرى عيشه في الاصل كفرض لا واعي تجاه شخص معين ، تحول الى ركن نفسي واصبح مستقلاً عن شخص الوالدين .

بالنسبة لأنّا فرويد ، ليس من فصل واضح بين الأنا الاعلى المجتاف والوالدين الحقيقيين الذين يشكلان نموذجاً له . فالانا الاعلى عند الطفل يبنى تدريجياً ويبقى فترة طويلة مطبوعاً بضعفه وإمكانية سقوطه . هذا التعرض يصبح واضحاً بشكل خاص عندما يفصل الفرد عن والديه ، اوعندما تنخفض صورة الوالدين . فعندما تنقص هذه المرتكزات الخارجية فان عناصر الانا الاعلى الطفلي سوف تسقط امام الدوافع التي تطلب مكافأة مباشرة .

وهكذا يمكن ان تظهر سلوكاتنكوصية ، كالتبول مثلاً ، عند الانفصال عن الوالدين . فما يتطلبه الأنا الاعلى لا يمكن ان يتدعم الا بوجود تعويض بسبب الوجود الفعلي لموضوع الحب الذي يجعل التضحية محتملة ، بالمكافآت التي يقدمها . كذلك فان بعض التكوّنات الانعكاسية تسير على نفس المنوال ، مثل الخجل او القرف ، فهي تتوصل الى تفشيل الدوافع الشرجية او الهتاكية ، ولكن فقط عندما يكون الوالدين موجودين لدعم نموذج الانا الاعلى بوجودهما الحقيقي . هذا الفرق بين الانا الاعلى الراشد والانا الاعلى الطفلي هو اساسي .
بالنسبة لأنّا فرويد (1945) لم يبلغ الأنا الطفلي بعد مكانة الممثل غير المتعلق بشخص معين . فالعالم الخارجي وخاصة المحيط اليومي للولد يلعبان اذن دوراً في التحليل ، خاصة فيما يتعلق باستخدام الدوافع من قبل الفرد وهي قد ازيل عنها الكبت . فالخطر يكمن في كون الولد ، عندما يتحرر من كبته العصابي ، يستطيع البحث عن مكافآت مباشرة لدوافعه . « اعتقد انه عندما يفقد الولد اي مرتكز لا يعود يجد الا طريقاً واحداً ـ طريق المكافأة المباشرة . الا اننا نعلم بأنه من المرغوب تجنيب الولد مكافأة مباشرة مهمة جداً في كل مراحل الحياة الجنسية الطفلية الشاذة بالضرورة ، والا سيشكل الثبات الليبيدوي على لذة جرى التعبير عنها عائقاً امام النمو الطبيعي . »

لهذه الاسباب رأت انّا فرويد انه من الضروري للمحلل ان يقوم تجاه الولد

بدور تربوي . فالمعالج يجب ان يبين للولد اية دوافع لا تتفق مع الحياة الاجتماعية ويجب كبتها ؛ واية مكافآت مباشرة مقبولة واية دوافع يجب ان تتسامى .

فانّا فرويد تقول بان « المعالج يجب ان ينجح بالحلول محل المثل الاعلى لأنا الولد طيلة مدة التحليل » . فالانا الاعلى للولد يتعلق بشكل وثيق بالعالم الخارجي ، وبما ان الولد لا يستطيع بنفسه ان يراقب دوافعه التي تصبح متحررة، فالمحلل يجب ان يمارس تجاهه وظيفة التربية . لكن مهمته مزدوجة، لأنه من جهة ، يجب ان يمكن الولد من التعبير بحرية عن هواماته ورغباته ويسهل وعي ما كبت تحت ضغط الوسط ؛ ولكن من جهة اخرى عليه ان يسمح او يمنع بعض المكافآت المباشرة ، يشجع التسامي ويقيم بعض التصرفات : فالمحلل يجب ان يكون قادراً ان يؤثر على الوضعية الخارجية وعلى البنية الداخلية للولد .

صحيح انا فرويد قد تراجعت قليلاً عام 1946 عن مقولاتها . فموقع السلطة ،الذي اشارت اليه لم يعد يبدو لها رئيسياً ؛ فمحلل الاولاد يمكن ان يحافظ على دور تحليلي صرف ، اذا ساعده في ذلك الوسط التربوي المثقف والمتعاون . لقد اعتبرت انا فرويد بان الجهود المبذولة مع المربين قد اعطت ثمارها . ويبدو صحيحاً ايضاً ان هذا التوجه التربوي الذي اكدته انا فرويد بوضوح ، يتركز على عمق نظري ، هو التكون المتأخر للانا الاعلى عند الولد ، وعلى توجه علاجي ، هو التكيف النفس الاجتماعي للولد .

فدور المحلل اذن سيكون بتمكين الولد التخلص من صلابة متطلبات الأنا الاعلى ، وحل الاعراض العصابية التي تراقب القلق الناشيء من المأزم الداخلي بين الهو والأنا والأنا الاعلى . وعلى المحلل ايضاً أن يشجع تكوّن انا اعلى آخر ، على صورة المعالج نفسه ، اقل استبداداً واكثر اتصالاً بالواقع الاجتماعي .

٣ ـ آراء ميلاني كلاين

ان استخدام اللعب والرسوم ، كأشكال للاتصال بين الولد والمحلل ،

اخذته ميلاني كلاين عن هرمين فون هوغ هلموت (1921)[1] . لكن الممارسة التحليلية لا تنتصر فقط على كونها تطبيقاً لتقنية معينة ويجب ، لكي نفهم ما تمثله اصالة المدرسة الانكليزية ، الرجوع الى الآراء النظرية المرتبطة بها والتي عرضناها في فصل سابق .

١) تقنية اللعب .

امام صعوبات الاتصال الكلامي ، حاولت ميلاني كلاين ان تجد طريقاً يستطيع فيها الولد ان يعبر وان يكون تعبير صالحاً للتفسير التحليلي . فاللعب ، كنشاط طبيعي للولد ، بدا لها الوسيلة المثالية ، خاصة وانه من خلال اللعب ، الذي يستمر بوجود المحلل ، يجري التعبير عن الحياة الهوامية .

فمنذ 1926 اكدت ان هذه التقنية ، التي جعلتها السمات البدائية للعقلية الطفلية ضرورية ، تحترم المبادىء التحليلية بجميع نقاطها . « معايير الطريقة التحليلية كما قدمها فرويد ، استخدام النقلة والمقاومة كنقطة انطلاق ، الأخذ بالاعتبار دوافع الاولاد ، الكبت وتأثيراته ، فقدان الذاكرة واضطرار التكرار ، بالاضافة الى اكتشاف الحادثة البدائية ، كل هذه المعايير باقية ، بمجملها في تقنية اللعب » .

لقد روّجت انا فرويد (1926) بان اللعب نشاط طبيعي للولد الذي يجد نفسه في وضعية محكومة بمبدأ اللذة .

بالفعل ، تشير ميلاني كلاين ، ان الولد يلعب بوجود المحلل ولعبه هنا يفقد عفويته المعهودة ؛ فهو يلعب ولكن يلعب في وضعية ، امام شخص ينظر اليه ويتحدث معه . في هذه الاحوال ليس لعب الولد اكثر عفوية من سبيل التداعيات الحرة للراشد الذي يتكلم بوجود المحلل . في تحليل الولد يفقد

---

1 ـ ان مقال ميلاني كلاين الاول Infant Anolysis ظهر عام 1923 وادخل فيما بعد في كتابها Psychoanalyse des kindes (1932) (ترجم للفرنسية Psychanalyse des enfants P. U. F.) . بعض المقالات التي ظهرت بين 1921 و 1945 جمعت في كتاب تحت عنوان Contibution to psycho - Anolysis (1948 Hogarth press وترجم للفرنسية Payot, Essais de Psychanaluse) ؛ مقالات اخرى ، كتبتها ميلاني كلاين ، سوزان اسحق ، بولا هايمان وجوان ريفيير Joan rivière حوالي عام 1943 ، نشرت في 1952 Developpements de la Psychanalyse .

اللعب صفته المتعية الصرفة ليفسح المجال امام التعبير عن القلق . بعيداً عن كونه عملية اغراء ، فان وجود المحلل يعطي لعب الولد دلالة تحاول ميلاني كلاين ان تجلوها :

ـ من جهة ، يعبر اللعب عن الهوامات اللاواعية الجنسية والعدوانية ، ولكن بشكل لِعَبي رمزي وحركي بنفس الوقت .

ـ من جهة اخرى ، يعطي نشاط اللعب بوجود المحلل معنى جديداً لهذا اللعب ، لأن المحلل موجود ليبرهن ان « اللعب يتعدى اللعب » ويبرز علاقته بالمواضيع الليبيدوية ؛

ـ واخيراً ، تقوم حول اللعب علاقة بين المحلل والولد مطبوعة بطابع الوضعية النقلية .

فالولد يمكن ان يستخدم الرسم ليمثل على هواه حوادث حقيقية او قصصاً خيالية يمكنها ، عدا المعنى الكامن الذي يتراءى خلف الانتاج الظاهر ، ان تستخدم مدخلاً للتداعيات الحرة .

وتضع ميلاني كلاين ايضاً بتصرف الولد العاباً تمثل اشخاصاً وحيوانات وبيوتاً وسيارات ، وهي ادوات تعطي صورة مصغرة عن عالم الاطفال الخاضع للاستعمال ، وهي ادوات جرى ترميزها وتأسيسها . فنشاط اللعب عند الولد يصبح مركزاً على التعبير عن الدوافع الغريزية والجنسية والعدوانية ، واللعب يمكننا من التقاط هذه الهوامات اللاواعية ولكن تجري بشكل رمزي : هوامات الولادة والحادثة البدائية والتدمير ، الخ . . . بالنسبة لميلاني كلاين تعادل الالعاب الهوامات الاستمنائية وتأخذ محتواها من الحياة الجنسية الطفلية . فهي بابرازها على المسرح تخفض الالعاب الاثارة والقلق .

ان حل القلق يحرر التخيل الذي اذا اعطي مداه يعبيء القلق من جديد .

ان تحويل وظيفة اللعب الى احياء بسيط للخيالي يعني تبسيطها كثيراً . ولكون اللعب يجري « في وضعية » ، اي بوجود شخص آخر ، يجب ان يفسر كمحاولة للخروج من الوضعية الثنائية لاقامة علاقة ثلاثية . بعيداً عن كونه

توالداً خيالياً يحبس الولد في عالم هواماته ، يكتسب اللعب هنا قيمة ومعنى ارصان يوطد النظام الرمزي : « فاختيار المواضيع ، والتعامل معها ، والتنظيم الداخلي للعب ، وتوزيع الادوار تدل ، فيما يتعدى استعادة الهوامات البسيطة ، على مجهود الارصان الاسطوري وبداية الترميز » .

٢) دور الهوام

اذا كان الاهتمام الاكبر لأنّا فرويد يدور حول ادخال الواقع في التحليل النفسي للولد ، فان ميلاني كلاين تناقضها تماما بالاشارة الى اهمية ووظيفة الحياة الهوامية .

اللعب والهوام . ـ في البداية يكون اللعب وسيلة تقنية بسيطة لاقامة اتصال بين الولد والمعالج ، ثم يصبح بالنسبة لميلاني كلاين مركز اي تحليل طالما انه يشكل مخرجاً للهوامات ، كما تقول سوزان اسحق (1943) . في طبعة اعمالها الاولى[١] التي خصصتها لها ، يصبح الهوام عقدة اية وضعية علاجية ، لأن الهوام ، حسب المدرسة الانكليزية ، كما يبدو وراء لعب الولد او الكلام الذي يدور حوله ، يعبر عن الدافع الليبيدوي او العدواني المتجه نحو الموضوع وعن الدفاعات التي يقيمها الفرد لمعارضة الدافع او لحماية نفسه منه .

الهوام والوضعية النقلية . ـ بالنسبة لسوزان اسحق يشكل الهوام « المحتوى العميق للوضعية النقلية » . خلال هذه الوضعية يكرر الفرد في علاقته مع المحلل الرغبات الجنسية والدوافع العدوانية والمخاوف ، وبشكل عام ، كل الانساق العقلية المعاشة (سابقاً) في العلاقة مع اشخاص من العالم الخارجي . فميلاني كلاين تلاحظ ان صورة المحلل يمكن ان تخضع للتغير من يوم الى يوم حسب التغيرات التي تحدث في نفس الفرد ، اكانت هذه التغيرات محددة من جراء التدخلات العلاجية ام بسبب الاحداث الخارجية . وتستنتج ميلاني كلاين بان علاقة الفرد بالمحلل ترتكز بكاملها تقريباً على هوام لا واعي . فالظواهر والمواقف النقلية تمكن من تقصي عمل الهوامات البدائية

(1943) Nature et fonction du fantasme s. Isaacs.

وعلاقتها بالتجارب المعاشة سابقاً في الوضعية الحالية . وهكذا تزول المصفاة التي كانت تشكلها المواقع البدائية ، الاضطهادية او الخوارية ، تجاه الموضوع . فالعلاقة النقلية ترث من كل ماضي الفرد بان تظهر لنا الانفعالات متلائمة « ليس فقط مع وضعيات طفولته ، ولكن ايضاً مع وضعيات الاشهر الاولى من حياته » (سوزان اسحق 1943) .

٣) النقلة

ان تحفظات انّا فرويد (1927) حول اقامة عصاب نقلي عند الولد لا تبدو ذات قيمة لميلاني كلاين .

بالنسبة لميلاني كلاين يحصل عصاب النقلة في التحليل النفسي للولد على نفس المنوال الذي يحصل فيه عند الراشد . فهي تبرهن ذلك بالاستناد الى رأيها عن المراحل الاولى للمأزم الاوديبي والى تكوُّن الأنا الأعلى .

في سن التحليلات المبكرة (بين سنتين ونصف واربع سنوات) يكون الولد ، حسب ميلاني كلاين ، منخرطاً تماماً في المأزم الاوديبي ، ويكون قد حله بشكل او بآخر : هذا يعني ان مواضيع الحب التي رغبها في الاصل قد جرى استبطانها من قبله وان المواضيع التي يتكلم عنها ما هي الا صور للمواضيع .

فالأنا الاعلى يجد وظيفته المستقلة ، على شكل ركن لاواعي وليس تشريعاً بسيطاً من قبل الاهل . فهذا ينتج مباشرة عن آراء كلاين في المأزم الاوديبي الذي يتبنين منذ المرحلة الفمية ، في صراع من اجل تملك الموضوع الليبيدوي ، الأمي او الأبوي ؛ ولكن المواضيع الجزئية (نهد الأم او قضيب الأب) هي التي تشكل محور المأزم .

تعتبر ميلاني كلاين ان الولد ينخرط منذ بدء حياته ، في علاقة مثلثة - وليس ثنائية - ولكنه ليس شخصاً متفرداً كذو . فالعالم المحيط لا يعاش فقط وكأنه مكون من مواضيع جزئية ،بل ان الولد ايضاً ليس الا « جسداً مجزءاً » لم يشكل بعد من ذاته صورة شاملة .

ان استبدان المواضيع والتكون المبكر لبعض عناصر الأنا الاعلى ، تمكن المحلل من احتلال مركز مشابه للمركز الذي يأخذه في تحليل الراشد .

اننا نجد في هذا الصدد آراء مختلفة حول علاقات الاولاد بالاهل . بالنسبة لأنا فرويد مثلا يواجه محلل الاولاد التبعية الطفلية كنسق راهن (بينما التبعية عند الراشد ليست الا اثراً من مرحلة نمو مبكرة) . فالولد يستخدم والديه باشكال مختلفة : فهو يفتش عن « اندماج نرجسي » مع الأم ، وهو ، الى جانبها ، يتعلم كيف يؤثر على العالم الخارجي ، ويحوِّل الليبيدو النرجسي الى ليبيدو- موضوع ؛ وهو يستخدمها ايضاً ليحد من مكافآته الدافعية ؛ واخيراً يجد فيها مكاناً للتماهي يمكنُّه من الحصول على استقلاله . وهكذا يلعب الوالدين دوراً اساسياً في تسبيب المرض او في الابقاء على الاضطرابات النفسانية وانَّا فرويد (١٩٦٦) تعتبر انه « في تحليل الولد تتعلق بداية العلاج ومتابعته ليست فقط بانا المريض وانما بموقف ووعي والديه » . فمن شأنهما أن يساعدا انا الولد على تجاوز المقاومات والنقلة السلبية دون التخلي عن التحليل . فالمحلل ليس له من مرجع اذا فشل الوالدان في مهمتهما .

من الملاحظ ان ميلاني كلاين تتناول هذه المسألة بشكل مختلف تماماً . رغم انها لا تنكر اطلاقاً الطابع الاندماجي للعلاقات المبكرة ، الا انها تؤكد اكثر على الهوامات من تأكيدها على وظائف انا الولد . « فالأم الحقيقية » تلعب دوراً اقل من الصورة المثالية التي تمثلها في الحياة الهوامية . ان ميلاني كلاين تعمل على تخفيف القلق ـ الذي يبقى هائجاً احياناً اثناء التحليل ـ بتفسيرها الهوامات التي تسببه . فالتدخلات لا تهدف الى تقوية الأنا ، ولكن الى ازالة العوائق (اي القلق والمأزمات المبكرة التي تولِّده) ، التي تمنع الولد من استخدام وظائف الأنا . « فالواقع الاهلي » هو ايضاً اقل اهمية من الصور الاهلية كما تظهر في الهوامات .

فميلاني كلاين لا تعتمد على الاهل لتسهيل التجربة التحليلية للولد الذي يستطيع اقامة علاقة علاجية مستقلة حيث يمكنه اطلاق العنان لهواماته . بهذا الشكل يمكن لعصاب النقلة ان ينشأ .

اما المرحلة التحضيرية التي تتكلم عنها انّا فرويد ، فهي ، حسب ميلاني كلاين ، تستخدم القلق والشعور بالاثم لتشجيع الارتباط العاطفي الذي يثبت هذا القلق بدل تسخيره في خدمة العمل التحليلي . فميلانـي كلاين التـي لا تهرب من اي « مظهر للنقلة السلبية » ، تحاول استغلالها لتعبئة ما يحافظ على القلق .

فميلاني كلاين تلاحظ ان الاعراض تتغير حسب مجرى التحليل وعصاب النقلة . فخلال تحليل الولـد يدل تعاقـب الادوار التـي يجعـل الولـد المحلل يلعبها ، ان المحلل يمثل مختلف اوجه الأنا الأعلى .

كذلك فان المظاهر العاطفية الصاخبـة ، التـي تحـدث خارج التحليل ، وخاصة في الوسط العائلي ، تعكس تقلبات العلاقات الخيالية مع المعالج . فاذا حدثت مثل هذه المظاهر ، فليس ، كما تدعي انّا فرويد ، ان المحلل تخلف عن دوره التربوي ، بل انه لم يعرف عزل وحل القلق والشعور بالاثم اللذان حركا هذه المظاهر ، خاصة وان المأزم النفسي القديم قد اعيد احياؤه في النقلة .

فالمعالج لا يمكنه ان يكون في نفس الوقت محللاً ومربياً ، فالوظيفة الثانية تلغي الاولى ، لأنه يصبح ممثلاً لعوامل الكبت .

« على محلل الاولاد ان يكون له نفس الموقف اللاواعي الـذي نطلبه في تحليل الراشدين ، اذا اراد ان ينجح . هذا الموقف يجب ان يجعلـه قادراً على ارادة التحليل ، وليس محل ارادة قولبة وتوجيه مرضاه . فاذا كان القلق يمنعه من ذلك ، فما عليه الا الانتظار بهدوء المخـرج الطبيعـي ، وبهـذا الشـكل يتـم الوصول الى هذا المخرج . بذلك يبرهن على صحة المبدأ الثاني الذي اقدمـه بالتعارض مع انّا فرويد : وهو وجوب تحليل علاقة الولد بوالديه وعقدة اوديب عنده دون تأخر وبالشكل الكامل » (ميلاني كلاين)[1] .

---

1 ـ حلقة حول تحليل الاولاد (1927) ، ظهر عند ميلاني كلاين Essais de psychanalyse

ان مواقف هذا الفريق او ذاك حول مسألة النقلة تبقى رغم كل التعديلات ، الافضل تحديداً فأنا فرويد تستمر باعتبار انه لا وجود لعصاب نقلة حقيقي عند الولد يحل خلاله المحلل في عاطفة المريض الصغير محل المواضيع الاصلية الموجودة في الواقع . فهذه الكلمة الاخيرة تفتح الاختلافات المذهبية . بالنسبة لأنّا فرويد ينخرط المحيط اليومي للولد ، وخاصة والدُه ، في حقل العلاج . بالنسبة لميلاني كلاين ، لا يحتل المحيط الحقيقي في المأزم النفسي الداخلي ، الا موقفاً تابعاً . فالذي يهم التحليل هي الاسقاطات والاجتيافات للمواضيع الحسنة والسيئة .

وهكذا يُطرح السؤال الحقيقي حول الاختلاف بين العلاقات الغيرية الاولى وظواهر العلاقة النقلية . فميلاني كلاين تتوقف على الطابع الاولي لعلاقة الولد بنهد الام . فالمواضيع ، منذ البداية ، تدخل اذن في الحياة العقلية للولد ، فوجودها يدل على مساهمة المواضيع في الحياة الهوامية ، اكثر مما يدل على اندماج الولد في الواقع . فالنقلة تنشأ في الانساق التي تحدد ، في المراحل المبكرة ، العلاقات مع المواضيع . فخلال النقلة يعاد احياء القلق المبكر ، الذي يُنشي الاضطرار التكراري . فالعودة الى القلق الاولي تاخذ بعين الاعتبار التفاعل بين الحب والكره ، بين الاستبدان والابعاد ، ودورة العدوانية ـ القلق ، الشعور بالاثم ـ العدوانية ، وتعدد الاشكال والتغيرات المستمرة للنقلة : « ان تعدد الادوار المعهودة للمحلل يكرر تعدد اشكال العلاقات الحقيقية والخيالية التي يقيمها الولد مع المواضيع . فالاستكشاف خلال التحليل للتفاعل بين التجربة الراهنة المعاشة والتجربة الماضية تمكّن من احداث الانشطار بين المواضيع المثلى والمواضيع المضطهِدة ، ومن تلطيف الشحن الهوامي الذي تركز عليه المواضيع ، وبذلك تحرير حياة الفرد اللاواعية ، التي عندما تصبح حرة تُوظف في نشاطات اخرى » (لاغاش 1952) .

٤) التدخلات العلاجية

خلال الجلسات تفسر ميلاني كلاين العاب الولد وتمثيله المسرحي ،

ورسومه وكل ما يدور بين الولد والمعالج[1] . لقد قيل ان ميلاني كلاين لا تقوم الا بتفسيرات رمزية ، لأنها تعتبر ان كل اللعب وكل سلوك الولد لا تقوم الا بترجمة رغباته وهواماته . الا ان ميلاني كلاين ، منذ عام1926 ، تعتبر ان الرمزية ليست الا احد العناصر ، وعلينا ان نأخذ بعين الاعتبار كل اشكال التصور وكل الاواليات كما توجد في عمل الحلم ؛ اي كل اواليات الدفاع ومختلف اشكال التعبير والصد العائد للشعور بالاثم الذي يظهر خلال العمل التحليلي . فالتفسيرات الاولى يبررها القلق الظاهر في المواد التي يقدمها الولد خلال لعبه : هذه التفسيرات تمكن من بنينة الوضعية العلاجية بازالة المقاومات ويربط ظاهرة النقلة بالوضعيات السابقة . فهي مناسبة للمعالج كي يحول القلق الذي تحتويه الى كلام ، وان يبين الى اي حد يتورط المعالج ، منذ التماس الاول ، في التعبيرعن هذا القلق . فالامر يتعلق اذن بتفسير نقلي نلاحظ بسرعة تأثيراته ، حتى ولو لم يرد الولد على التفسير . فعندما تبين للولد ان لعبه له معنى كامن ، وراء المحتوى الظاهر ، وان هذا المعنى يدركه المعالج ، فان لعبه يصبح بعد الآن وكأنه اتصال بين الولد والمحلل ، وليس كمظهر لعبي ومتعي صرف . فهذا يمكّن من ازالة الصد واطلاق اللعب ؛ فاللذة التي يظهرها الولد غالباً بعد التفسير تعود الى كون الطاقة الضرورية للكبت قد جرى تحريرها. «فبتفسير وتخفيف القلق يمكننا ان نشق طريقاً نحو اللاوعي ونمكّن الولد من التهوم» . هذه التفسيرات الاولى تهدف ايضاً الى وصل القلق بالوضعية العلاجية ، ويصبح المحلل مباشرة موضوع الشك لأنه يركز القلق على نفسه .

ولكن التفسيرات تهدف ايضا الى جعل الولد يعي بان القلق الذي يشعر به في الوضعية الحالية ، العلاجية ، ليس الا انعكاساً عن قلق نقطة ارتكازه توجد خارج التحليل . وان هذا القلق ، بعبارات اخرى ، ليس الا استعادة للقلق الذي اوقظ في حياة الولد الخيالية ، ولهواماته حول علاقاته بالوالدين .

---

١ - يمكن العودة لكتاب La psychanalyse des enfants ، وايضا الى كتاب La Psychanalyse d' un enfant (1961) حيث تعرض الكاتبة جلسة العلاج لريشار الصغيرRichard حيث تصبح تقنيتها قابلة للاستيعاب من خلال مجرى العلاج .

ان تخفيض القلق يجب ان يمكّن الولد من تحرير القطاعات المأزمية اللاواعية التي كانت قد وقعت في الكبت . وهكذا يجب على الانتاج الخيالي ان يستطيع الوصول ، بعد التفسيرات ، الى مجالات اخرى اكثر عمقاً او اكثر بدائية ، التي يؤدي ذكرها الى قلق جديد يحل بالمعالجة التحليلية .

من هذه الاعتبارات تنتج تقنية معينة للتفسير كما تمارسة المدرسة الانكليزية :

- ان التفسيرات تعطى في مرحلة مبكرة جداً من التحليل ، واحياناً منذ الجلسات الاولى . فوجود نقلة منذ هذه المرحلة يسمح للمحلل ان يتدخل ، على الاقل للتخفيض من التأثيرات الصادة للنقلة السلبية التي ، اذا استمرت ، قد تبطىء وحتى توقف كل تقدم تحليلي .

- فالتفسيرات تدور حول المحتوى اللاواعي للالعاب والرسوم حيث تستقصى فيها المقولات الاوديبية ، الاجتيافات والاسقاطات والتعارض بين المواضيع الخارجية والمواضيع الداخلية ؛ هذه التفسيرات تبرز الحادثة البدائية وقلق الخصي وقلق التجزئة كما تظهران في المواد خلال الجلسات .

- واخيراً يجري التأكيد على ضرورة تفسير النقلة السلبية بشكل منظم ، وحتى في اوجهها الحامية ، والتي بدونها لا يمكن قيادة التحليل الى نهايته ، ويخشى من غوصه في لعب خيالي مع المعالج[1] .

بالنسبة لميلاني كلاين يجب على التحليل ان يُدخل الولد في نظام رمزي يمكنه من الوصول الى فهم افضل (استبصار) لذاته وللعالم الخارجي . وذلك بفضل تلطيف متطلبات الأنا الأعلى البدائي والمرعب . « فالانا الاعلى الذي

1 - يجد ليبوفيشي Lebovici (1972) حسنة اخرى لتفسير النقلة السلبية ، لأنه بتحمل الانتقال السلبي ، تمكّن الولد من تقويم الاوجه الايجابية لتماهيه بوالديه ونخفض هكذا من صعوبات السلوك العائلي . هنا يبدو بوضوح الفرق بين التوجهين لنفس المبدأ التقني ؛ واحد يهدف الى تقدم العلاج ، والاخر الى تكيف افضل مع الواقع .

تكوّن في سن كان الولد خاضعاً لقلقه البدائي ، وبني انطلاقاً من صور الاهل المشوهة والمضخمة والهوامية ، يعكس مخاوفه وعدوانيته » .

فهي تعمل على فصل الأنا عن ثوابته ما قبل التناسلية لكي تسمح لليبيدو من التركيز على قطاعات اكثر تقدماً ومن حل القلق الذي يثبت الولد عند مواقعه البدائية .

فما يهدف اليه التحليل اذن لا يمكن تحديده بالتوافق الاجتماعي او العائلي الافضل . فهذا الاخير ليس الا نتيجة ، على الصعيد الخارجي ، للتعديل الداخلي في الهوامات . مما يدل الى اي حد يغيب ، في مثل هذا التوجه ، الهدف التربوي والاهتمام بجعل العلاج النفسي يلعب دور الاعداد او الاستشراط . فالمحلل لا يعرض نفسه في اي حال من الاحوال « كمثل اعلى للأنا » اكثر قبولاً ، ولكن كأداة اسقاط فقط ، مركز الكلام والتفسير ، حقلاً حيادياً يعود للولد وحده ان يلعب دوره الخاص ، دون ان يتدخل المعالج لاحداث اي تحديد مباشر ، واي توجيه واي معارضة كامنة او ظاهرة .

لقد كانت آراء ميلاني كلاين التقنية موضوع انتقادات محللين آخرين . لقد أخذ على كلاين واتباعها انهم طبقوا التحليل بنفس الشكل على جميع المرضى (العصابيون والذهانيون) ؛ وانهم لم يأخذوا بعين الاعتبار الواقع في تقدير الوضعية التحليلية ؛ وانهم اعطوا منذ بداية العلاج تفسيرات معمقة للهوامات اللاواعية ولمظاهر النقلة ؛ واخيراً انهم قاموا ، بالتفسيرات المتكررة ، « بمذهبة » المريض . ولكن ، رغم هذه الانتقادات ، تجدر الملاحظة ان بعض المعطيات التقنية قد ادخلت شيئاً فشيئاً في الفكر التحليلي التقليدي . لقد تأثر التحليل بالآراء الكلانية على الصعيد العلاجي فجعل لها مكاناً مهماً في نظرية علاقات الموضوع المبكرة ، وفي العمليات الدفاعية من النمط الخواري والاهتياجي ، وفي اهمية العدوانية ، وفي الاشكال المبكرة للأنا الاعلى وللاوديب . وهكذا ، كما يشير كيرنبرغ Kernberg (1969) ، لقد وُجّه انتباه اكبر للمظاهر النقلية عند الولد وجرى التراجع عن فكرة بانه لا يمكن ان يكون هناك عصاب نقلي في تحليل الولد . من جهة اخرى ، فان التفسيرات المتعلقة

بانشطار الأنا ، وردود الفعل العلاجية السلبية والدفاعات النرجسية تحتل حالياً مركزاً اكبر (كوهوت Kohut 1971) . واخيراً كان لاهتمام تحليل المواقع النكوصية نتيجة ادت الى مواجهة العلاج التحليلي للامراض الذهانية والى الكلام عن « ذهان النقلة » (زيتزيل Zetzel 1967) . يمكننا القول في الحالة الراهنة بان هناك عدد من المحللين ، حتى من بين الذين يرفضون المواقف النظرية لميلاني كلاين ، قد ادخلوا في ممارساتهم التقنية بعض المفاهيم المستقاة مباشرة من اعمالها .

٤ - معايير نهاية التحليل .

لا يجوز ان يوضع حد للعلاقة العلاجية بين الولد والمحلل بشكل اعتباطي . فالمعايير التي تمكّن من مواجهة هذه النهاية متعددة وهي تحاول ان تأخذ بعين الاعتبار التغيرات الحاصلة على الصعيد العيادي ، او التعديلات البنيوية .

بعض هذه المعايير يستند الى معايير اعراضية تاخذ بالاعتبار زوال المظاهر العيادية التي دفعت للعلاج النفسي . ان تحسن العلاقات العائلية والعودة المرضية للاستيعاب المدرسي وامكانية الاندماج في جماعة معينة ، وزوال التصرفات ذات العدوانية المفرطة اوعزل الصدود ، كلها قد تشكل مؤشراً مهماً للحكم على ضرورة انهاء العلاج . كذلك فان الزوال الكامل تقريباً للاضطرابات النفسية الحركية ، للهجاسات وللخوافات تمكن من الحكم على انخفاض الانساق المرضية . ولكن يجب الحذر من التحسنات الاعراضية الصرفة لاننا نعلم ان وراء هذا الشفاء البارز ، قد تتحول النواة العصابية الناشطة الى الهدوء وحسب وقد يكون زوال الاعراض غطاءً لدفاع مرضي جديد . فهذه المعايير اذن لا يمكن ان يكون لها قيمة بحد ذاتها وعليها ، كي تؤخذ بعين الاعتبار ، ان تستند الى معطيات اخرى .

ان تطور الحياة الهوامية يترجم تعديل العلاقات الغيرية للفرد . فالالعاب والرسوم التي ينتجها الولد خلال الجلسات تمكن من متابعة المراحل المتتالية لهذه العلاقة ومن توقع مصيرها المستقبلي . لقد جرى التاكيد على تخفيض الصد ،

وعلى ظهور عناصر هوامية اكثر بدائية وعلى التنوع والحرية التدريجية المتزايدة للتعبير باللعب والكلام ، خلال العلاج النفسي .

فالتحليل يجب ان يمكّن بمتابعة مصير المواضيع الجزئية الحسنة والسيئة التي جرى تعديلها بالاجتيافات والاسقاطات المتتالية ، كما تظهر في اطار العلاقة النقلية الراهنة . وبتفسير هذا التعديل الهوامي نمكّن الولد من مواجهة المحتوى الليبيدوي والعدواني .

فعندما تفقد هوامات التقطيع والاستبدان تأثيرها ، وعندما يستطيع الولد تجاوز الخصي ليحل الاوديب ، وعندما يستطيع ان يواجه هواماته بمتطلبات الأنا الاعلى ، يصبح من الممكن ان يتخلى عن هذا العالم المبني حول الثنائية الخيالية ليصل الى البعد الثلاثي والرمزي ، ويؤكد استقلاله بالنسبة لمواضيعه البدائية .

هناك محللون آخرون يستندون الى المعايير البنيوية ليقرروا نهاية التحليل . فهم يعتبرون ان الانا يجب ان يتمكن من التسامح مع الدوافع ، اي يستخدمها بشكل اجتماعي ولكن دون ان يترك الدوافع العدوانية او الجنسية تجتاحه تماما . ان مثل هذا التثبيت يجب ان يكون مرناً كفاية لكي يقبل الدوافع الضرورية للوظائف المعرفية والابداعية ، لاقامة وانضاج علاقات غيرية جديدة ولتوظيف مختلف الوظائف الحركية والحسية توظيفاً عاطفياً .

فالمعايير البنيوية تاخذ بعين الاعتبار ايضا الوظيفة الدفاعية للأنا . وهكذا فبعض الاواليات ، البدائية جداً - مثل الانكار والالغاء المرتد للماضي - لا تتوافق مع النضوج العاطفي والجنسي الحقيقي ؛ فخلال التحليل يمكن ان نتوقع تخفيض مثل هذه الاواليات وظهور اخرى - مثل التكون الانعكاسي او التسامي - التي تمكن بعض الدوافع من الظهور بشكل منحرف ، ولكن قابلة للاستخدام من قبل الفرد . يمكننا ان نلاحظ ان هذه المعايير البنيوية تحاول تقدير توافق الأنا ، في حال استخدام الأنا للوسيط بين الواقع الخارجي الاجتماعي والدوافع . فحل المأزم يقود الى تخفيض القلق والاحباط والعدوان والشعور بالاثم اللاوعي التي تنتج عنها . فالعلاج التحليلي يجب ان يقود الى وعي المأزمات والمقاومات التي تظهر خلال العلاج .

من الممكن تحديد ما ننتظره من العلاج التحليلي . فبفضل الارصان الواعي للهوامات ، يجب على الولد ان ينفلت من الهيمنة الهوامية التي شحن بها كل ماضيه : فهذا « الخيالي » يجب اذن ان يتوقف عن التأثير بفعالية على التصرفات الحاضرة والمستقبلية . فرفع الكبت وتوضيح العلاقة النقلية واعادة توظيف الدوافع العدوانية والليبيدوية ، حسب نمط اجتماعي ، يجب ان تقود الفرد الى مواجهة المازمات الراهنة والى اقامة علاقات دون الركون للأواليات العصابية . فاذا كان هدفنا الاسمى تكيف الفرد فهو لا يكون بمعنى الامتثالية الاجتماعية ، بل بمعنى شعور الفرد بانه حر التصرف بنفسه ، وحر بان يعمل ويتكلم باسمه الخاص

الفصل الثامن

توجيهات التحليل النفسي عند الولد

ان التوجيهات العلاجية تتعلق بالتقدير النفسي المرضي لكل حالة . فالمعطيات العيادية التي جمعت يمكن تفسيرها بشكل مختلف حسب آراء كل طبيب نفسي للاطفال بشأن الاسباب المرضية للاضطرابات العقلية : فهذه الخيارات تتلائم مع توجهه النظري ، ولكنها تعكس ايضاً موقفه الضمني ، وحتى اللاواعي ، تجاه المرض العقلي . فهذا يفسر الاختلافات ، التي قد تكون جذرية احياناً . فالطبيب العقلي « المتعضي » سوف يعارض التحليل بالطبع ، وهناك طبيب عقلي آخر يتبنى موقفاً مشككاً او يضع توجيهات معرضة احياناً للنقاش .

في هذا الفصل سوف نتناول فقط توجيه التحليل النفسي من وجهة نظر المحلل الذي يحاول ، ضمن الحدود التي تضعها له طرائقيته ، ان يتوقع الشروط الملائمة لبدء التحليل اذا بدا انه نافع او غير ضروري . بوضع توجيهه ، يعتبر المحلل ان الفرد قادر على استخدام الوضعية التحليلية .

لكن قدرتنا على توقع نتيجة التحليل تبقى محدودة . من جهة لأننا لا نملك عند بدء التحليل الا نظرة جزئية : اننا نجهل امكانية الفرد على التعاون مع

المحلل ؛ ولا نستطيع الوصول الا الى بعض المعطيات العيادية ، بينما الأخرى ، وقد تكون اكثر اهمية ، تظهر خلال التحليل . تنقصنا أيضاً المعطيات الاحصائية الحقيقية التي تمكننا من توقع النهاية بدقة . يمكننا بالطبع محاولة فهم اسباب النجاح والفشل العلاجي ؛ يمكننا حتى ، على ضوء التجربة المكتسبة ، معرفة اية اضطرابات او اية بنى يمكنها ان تتغير بواسطة النسق التحليلي . ولكن خلافاً لهذه المبادىء العامة ، من الصعب تقدير خصوصيات كل حالة واستعداد الفرد وطاقته ورغبته للانخراط في النسق التحليلي .

هذا يعني ان التقدير الاولي لتقرير اي اولاد يمكن تحليلهم واي اولاد لا يستطيعون ذلك ، هو عملية حساسة .

١ ـ التقدير العيادي

هناك نوعان من الحجج تصدرنا التوجيه العلاجي .

١) معطيات ذات طبيعة تشخيصية ، اي الوضع النفسي المرضي للولد الذي ينتج من المقابلات مع الولد والوالدين . تشخيص متعدد الابعاد يأخذ بالاعتبار كل التاريخ العيادي ومراحل النمو والعلاقات والاندماج العائلي وملكات التعلّم ، الخ . . . ويمكن ، في المرحلة الاولى ، من ايجاد مؤشر في الاطار النفسي ـ مرضي التحليلي (الاضطرابات الانعكاسية ، العصاب ، الذهان او ما قبل الدهان ، حالة وسيطة ، بنية شاذة ، الخ) . فهذا له اهميته لأن تشخيصاً معيناً قد يبدو اكثر ملائمة من تشخيص آخر في توجيه نفسي علاجي معين ؛ بالاضافة الى ذلك فان العلاج النفسي ليس القرار الوحيد الذي يمكن ان نأخذه ، لأن هناك اجراءات من نوع آخر قد تبدو ضرورية : الانفصال عن العائلة (بوضع الولد في مؤسسة داخلية طبية ـ تربوية ، او في مستشفى نهاري) ؛ اجراءات نفس ـ تربوية (مدارس متخصصة او مؤسسة ذات عدد ضئيل) . هذه الاجراءات لا تهدف الى الحلول محل العلاج النفسي ، بل على العكس تجعله ممكناً . والتشخيص يجب ان يمكننا في بعض الحالات من ترتيب الوضعية العائلية والمدرسية للولد . يبقى علينا اذن تحديد العوامل الداخلية للبنية النفس مرضية للفرد .

٢) اما التقدير البنيوي فهو عملية اكثر تحليلية . من المفروض ادراك معنى الاعراض والتصرفات ، مع العلم ان اي مظهر ، اذا أُخذ معزولا ، يمكن ان يكون له معنى مختلفا جدا حسب مستوى التدامج النضجي والمرحلة الليبيدوية ، والنمط العلائقي ، الخ . . . في هذا التقدير ، يجب ، قدر المستطاع ، تحديد العوامل النفسية الداخلية : الهوامات والرغبات اللاواعية ، اواليات الدفاع ، قدرة السمع والتعبير التي يجب اكتشافها من خلال المواد العيادية الظاهرة . .فالاستناد الى النظرية التحليلية يصبح هنا ضرورياً لقياس المظاهر حسب المقاييس البنيوية ولادراكها حسب المعايير ما وراء النفسية ، وذلك بتقييم :

- الاعراض المرضية ووجود عصاب طفلي ونواة ذهانية ، الخ . . .

- اضطرابات النمو الليبيدوي والتركزات العاطفية ؛ وانعكاسها على علاقة الموضوع والنمو الذكائي والحركي للولد ؛
- تشوش الوسط المحيط الذي يخلق ويشجع يؤبد او يحجب طبيعة الخلل البنيوي وذلك من خلال تسببيه للمرض ـ اكان اكيدا او محتملا .

فالتشخيص ينتج اذن من مقابلة عدد معين من المعطيات التي جمعت بالفحص .

أ) البحث عن سوابق المرض . ـ فهو يدور حول سيرة الولد واسلافه ، وهو يمكّن من ابراز عدم الانسجام في التطور الليبيدوي . بعض الصعوبات التي كانت في المجال الغذائي او في حقل النظافة ، وبعض الاضطرابات في النوم او في تاخر اكتساب الحركة والكلام كلها يمكن ان تجذب الانتباه الى عثرات معينة خلال التطور . فبدل ان يكون منسجماً وتدريجياً ، يُطبع التطور بانفصالات وتأخرات في شتى المجالات تدل على التقلب في المصير الليبيدوي وتعطي المعلومات حول « البرهة الخصبة » ، نقطة انطلاق العصاب .

ب) الاستقصاء العيادي . ـ يمكننا من تحديد طبيعة وحدة الاضطرابات . ليس فقط الاضطرابات التي دفعت الاهل لطلب المساعدة ، ولكن ايضا الاعراض العصابية ، المجهولة غالباً او التي لا تقدر حق قدرها من قبل

الوالدين . فاضطرابات النـوم الخفيفـة ، الاحـلام المزعجـة ، نغمات القلـق الليلي ، احتفاليات الرقاد ، السلـوكات الخـوافية او التشنجـات في الوجـه ، القرف من المأكولات ، بالاضافة الى بعض السمات الطبيعية ، كلها يمكن ان لا تقلق الوالدين ، خاصة اذا لـم تظهـر هذه الاضطرابـات بشـكل صاخـب : الخجل ، الامتناع عن الالعاب الجماعية ، السلبية ، هذه يتحملها الاهل اكثر من الاعراض الصاخبة مثل التبول والعدوانية وعدم التوازن النفسي ـ الحركي . لقد اكدت انّا فرويد على اهمية اصول الاعراض : فهي تشير الى انـه رغـم التعرض الكبير للاعراض ـ التي يمكن ان تختفي بسرعة او ان تستبدل بغيرهـا خلال العلاج النفسي ـ يجب ان نأخذها بعين الاعتبار للقيام بالتشخيص . فهي بوقوفها ضد « العدمية التشخيصية » لبعض المحللين ، تعتبر ان كل تشخيص يجب ان يتعدى الاستدلال الوصفـي البسيط (اي تنـظيم تصـنيف الامـراض العادية) ليصل الى تصنيف مرتـكز على ما وراء علـم النفس (الـذي يأخـذ بالاعتبار العناصر الموضعية ، التكوينية ، الدينامية والاقتصادية) ، والى المعنى اللاواعي للمظاهر العيادية . اننا نجد مثل هذا التصنيف في مقال انّـا فرويد (1970) والذي حسب رأيها ، يجب ان يؤدي الى تشخيص يكشف اسبـاب المرض[1] .

ج) تقييم المأزم . ـ فالاستقصاء العيادي يبحث ايضاً عن شكل العلاقة القائمة بين الاهل والاولاد وعن البنية العائلية حيث يمكن ان توجد علاقـات سادية مازوشية او عصاب عائلي . انها فترة رئيسية في الاستقصاء العيادي لأن هذه العلاقات تتعلـق الى حـ. كبـير ، ليس فقـط التطـور اللاحـق والعفـوي للاضطرابات ، ولكن ايضاً المساعدة والتعـاون التـي يمكن ان ننتظـرهما من جانب العائلة في مشروع نفسي علاجي .

وعلينا ان ندرك من بين الاعراض التي تدفع لاستشارة المعالج تلك التي قد تكون عائـدة لاضطـراب انعـكاسي في السلـوك ، من اجـل تمييزهـا عن الاعراض التي تعبر عن بنية عصابية .

---

١ ـ هذه المحاولة لاقامة مخطط تشخيص عولجت في Hampstead psychouanalytieindex (١٩٦٥ Bolloud et saudler)

لهذا السبب فان مفهوم عدم التكيف ليس نافعاً ابداً . وهو قد تعرض للنقد فيما يتعلق بالراشد ، ويستند الى معايير ليست معايير الولد ، بل هي معايير اقامها الاهل والمربون وحتى اطباء العقل ، وهو يطرح هكذا مسألة تحديد المرض العقلي الذي اشارت اعمال ميشال فوكو (1954) وتوماس ساز Thomas Szasz (1926) بأنه لا يمكن ان يتحول الى مجرد عدم اندماج اجتماعي . فعندما نتكلم عن اضطراب انعكاسي يجب تحديد ما نفهم بذلك . بالمعنى النفس تكويني كل اضطراب عند الولد هو انعكاسي لمأزم معين وكل عرض يمكن اعتباره كنمط لدفاع الأنا ضد الضغوطات غير المسموحة والتي تعود لمتطلبات خاصة متعلقة بهذه المرحلة التطورية او تلك (أنا فرويد (1968) .

في العديد من الحالات تأتي هذه الضغوطات من الخارج وبشكل خاص من وسط الاهل . فهي تتلائم مع وضعيات حقيقية ويواجهها الولد عن وعي . في هذه الحالة يدل المأزم على وضعية حقيقية مثل التعارض الظاهر بين الاهل والولد ؛ فالمأزم خاضع للوعي ، يُعرف ويحدد من قبل كل الاطراف . فالاضطراب يدعى « انعكاسياً » عندما يكفي الغاء الصعوبات الخارجية لازالة وحل المأزم . فعلى العكس من ذلك يعمل المحللون على ابراز المأزم اللاواعي والمستبطن ، الذي يظهر في اعراض عصابية ، بينما الطابع المأزمي للوضعية الحقيقية يمكن ان لا يكون ظاهراً . فالامر يتعلق بمأزم نفسي داخلي ، وهو بذلك يحدد الاضطراب العصابي الذي لا تختفي اعراضه عندما نكتفي بتصحيح الصعوبات الخارجية . وتجدر الاشارة مرة اخرى بانه يستحيل ، بشكل مطلق ، معارضة المأزم الحقيقي بالمأزم النفسي الداخلي . فالمأزمان يمكن ان يتعايشا ، يتتابعا ويتداخلا . والمأزم الحقيقي قد يستخدم لتغطية المأزم النفسي الداخلي وهو قد لا يكون الا تعبيراً عيادياً عنه . فالتحليل النفسي الذي يهدف قبل كل شيء الى حل المأزمات النفسية الداخلية ، لا يمكن ان يؤثر على المأزمات الحقيقية الا بقدر ما تكون هذه الاخيرة مظهراً عيادياً يغطي المأزمات اللاواعية .

د) التقدير التنذري . ـ بما ان الامر يتعلق عند الولد باضطرابات تاتي خلال النضج والنمو ، فانه من الصعب غالباً تقييم طاقتها التطورية والحكم

على التنذر . بالاضافة الى ان بعض الخلل في التكيف . المقلق في مظهره الحالي ، يمكن ان يجد مخرجاً ملائماً بينما الاعراض المعتبرة صغيرة وبسيطة يمكن ان تشكل فعلا المظهر العرضي لحالة ذهانية او عصابية لاحقة . فضلاً عن ذلك ، من الصعب القول ان الاضطرابات التي يطرأ عليها تغييراً ظاهرياً ، قد لاتترك في الواقع وراءها آثاراً عصابية خطيرة . فالمظهر المرعب او المطمئن لعرض معين لا يكفي لتحديد التنذر .

يجب التذكير بان طرح التوجيه للتحليل النفسي للولد (او للعلاج النفسي التحليلي) ، يعني باننا لا نفكر بان الاضطرابات عند الولد ليست قابلة لأن تتغير فجأة . فعلينا اذن ، قبل كل شيء ، تقدير الطاقة التطورية .

٢ ـ مشكلة العصاب الطفلي

ان عبارة العصاب الطفلي بالذات يمكن ان تحتوي معنى مزدوجاً في المفردات التحليلية .

أ) بالمفهوم الاول للكلمة يدل العصاب الطفلي على حالة مرضية ، تبرز في اعراض تدل على تنظيم عصابي خفي . فكلما عبرت هذه الاعراض عن مأزم نفسي مستبطن ـ اي لا واعي اذن ـ نجد تشوشاً في العمل النفسي : ثبات او نكوص للتطور الليبيدوي ، عدم فعالية الأنا في مجابهته لمتطلبات الواقع الخارجي ، الركون الى الاواليات الدفاعية للاحتماء من الدوافع الداخلية ، ومظاهر القلق التي لم تستطع دفاعات الأنا ان تسيطر عليها ولا ان تحتويها .

ولنلاحظ ان كل اضطراب عاطفي في هذا السن لا يحمل بالضرورة طابعاً مبنيناً لعصاب معين . فالأمر يمكن ان يتعلق ، حسب التصنيف الذي يقترحه غلوفيرGlover (1953) ، باضطراب وظيفي ، او ماندعوه عادة اضطراباً انعكاسياً للسلوك . انها مظاهر عدم تسامح مع شروط الوسط وهي تختفي عامة

عندما نعالج الاسباب الخارجية المسؤولة مهما طال عدم استبطان المأزم من قبل الفرد[1] .

ان العصاب الطفلي يطرح مشكلة تشخيصية تزداد اهميتها بالنسبة للبعض لأنها تشكل التوجيه الأكبر للتحليل النفسي للولد ، بينما اضطرابات السلوك ، المسماة انعكاسية ، هي من اختصاص العلاجات النفسية التحليلية او اجراءات المساعدة النفس اجتماعية .

ب) بالمفهوم الثاني تدل عبارة العصاب الطفلي على فترة في التطور النفساني ، الفترة الخصبة التي قد تظهر في اعراض يمكن مقارنتها ، بجميع نقاطها ، بأعراض العصاب المبنين (تولبان Tolpin 1970) . فهذا مأزم نفسي داخلي قد يجد حلاً عفوياً له ، دون تدخل علاجي خارجي ؛ ولكنه قد يصبح متعذر الحل ، او يصبح نموذجاً لعصاب لاحق عند الراشد .

في تعليقاته حول هانس الصغير (1909) يلاحظ فرويد ان هانس لم يكن الولد الوحيد الذي يقدم عرضاً عصابياً (الخواف في حالته) في هذه الفترة او تلك من تطوره . نحن نعلم ان « مثل هذه الامراض ، ويا للغرابة ، كثيرة الوقوع . . . فهي تنكص بعد عدة شهور او عدة سنوات وتشفى ظاهرياً ؛ لا احد يستطيع ان يقول ما هي التغييرات النفسانية التي كوّنت هذا الشفاء ، ولا التغييرات في الطبع التي يحتويه . ولكن اذا حللنا عصابياً راشداً لم يظهر مرضه الا في سن النضج ، فاننا نكتشف بان عصابه مرتبط بقلق طفلي ، وهو في الواقع يشكل امتداداً له ، فهذه المأزمات الطفلية قد خلقت نشاطاً نفسياً ، شأن الخيط المستمر وغير المتقطع مع هذا المأزم ، نجده فيما بعد طيلة حياة الفرد ؛ فهذا يبقى صحيحاً اذا استمر العرض الأول للمأزمات او اختفى تحت ضغط الظروف » .

---

١ ـ نادراً ما يكون العرض نفسه يحمل خصوصية عصابية او انعكاسية معينة . وهكذا فإن بروز اعراض خوافية ، وهجاسية عند الولد ، وصعوبات مدرسية ، واضطرابات في السلوك العائلي ، ومظاهر نفس حركية (تبول ، قرض الاظافر) لا يكفي لتأكيد وجود عصاب ، وهو وحدة مرضية مبنية على التشخيص ان يكشف حقيقتها . لكن بعض الامراض النفس جسدية (الربو ، السمنة ذات الاصل النفسي ، الخلفة العقلية) تدل على وجود بنية عصابية ، وحتى ذهانية ، خفية .

وهكذا فكل عصاب عند الراشد يرتكز على مرض طفلي لم يُعرف او أُهمل وشفـي فجـأة . يعـود فرويد الى هذا الموضـوع في Inhibition 1926) Symptome et angoisse) ، عندما يفتش عن اصل القلق عند الراشد .

« في عدد كبير من الحالات تختفي فعلاً العوامل القديمة المحددة للقلق ، بعد ان تنتج ردود فعل عصابية . فخوافات الاولاد التي تظهر في الخوف من البقاء وحيدين او في الظلمة ، او في حضور اشخاص غرباء ، هذه الخوافات التي يمكن اعتبارها تقريباً على انها طبيعية ، تختفي عامة في سن معين . . .

« والخوافات من الحيوانات ، التي هي غالبة الوقوع ، تتلقى نفس المصير وكثير من هستيريات التحول في السنوات الاولى لا تبقـى موجـودة بعـد سن معين . والاحتفاليات التي تظهر عادة في فترة الكمون ، لكنها نادراً ما تؤدي الى عصاب هجاسي حقيقي . . . . فالامراض العصـابية في مرحلـة الطفولـة هي حوادث عرضية طبيعية في نمو الولد . . . اننا قد نجد اعراضاً لعصاب طفلي عند جميع العصابيين الراشدين دون استثنـاء ؛ لكن هذا لا يعنـي ان كل الاولاد الذين نجد عندهم هذه الاعراض يصبحون عصابيين في سن الرشد » .

« يجب ان نستنتج بأنـه عنـد النضـج يجري التخلي عن بعض العوامـل الحاسمة في القلق وتفقد بعض وضعيات الخطر دلالتها . بالاضافة الى ذلك ، تستمر بعض وضعيات الخطر الى سن متقدم بتغيير العوامل المحددة للقلـق ، وبالتكيف مع الظروف الراهنة . . . فالعصابي يتميز عن الفرد الطبيعي بكونه يرد على هذه المخاطر بتطـرف . فالنضـج لا يوفـر حمـاية كافية ضد احياء الوضعيات المقلقة والصدمية الاصلية . كل فرد قد يعرف حدوداً يفشل بعدها جهازه النفسي في وظيفته في السيطرة على الاثارات التي يتعرض لها » .

من المؤكد ان عصاب الراشد لا يمكن ان يشفى فجـأة . فكما تشـير أنّـا فرويد ، ان العصاب الذي هو تسوية بين قوتين متعارضتين ، لا يمكن ان يتغير الا عندما يصبح التوازن مختلاً بسبب تعديل الميول الـدافعية او اعـادة ترتيب ضغوط الأنا الاعلى . فهذا لا يحدث فجأة عنـد الراشـد الـذي يبقـى متعلقـاً بالنموذج الطفلي لعصابه ؛ فالأنا يبقى مشحوناً بكل قوتـه القمعية ، والنسـق

النفسي بكامله يجري على مستوى اللاواعي ، ولهذا لا يتأثر بالعوامل الآتية من الوعي . فحول هذه النقطة بالضبط يتميز العصاب الطفلي عن عصاب الراشد . فالتنظيم الليبيدوي هو تطوري بشكل اساسي ، ومطبوع ببعض المرونة التي تمكنه بسهولة الانتقال من مرحلة الى مرحلة اخرى ، واجتياز المراحل المختلفة لنموه . فكل نكوص عنده امكانيات كبيرة كي ينفصل مجددا عن نقطة ثباته ويستأنف تطوره . وهذا صحيح بشكل خاص في بعض فترات تطوره الليبيدوي عندما تبلغ الدوافع قوة معينة ، مثلاً حوالي سن الرابعة او الخامسة ، وفي بداية المرحلة القضيبية ، او عند البلوغ أيضاً . اما في مرحلة الكمون فإن الحد من العصاب الطفلي قد يعود جزئياً لتخفيض ملموس في الدوافع عند هذا السن ، وخاصة لأن الرغبات الناشئة من الوضعية الاوديبية تجد غالباً حلاً لها . فالشفاء الفجائي المزعوج للعصاب الطفلي يتحدد ، بالنسبة لأنّا فرويد ، بتغيرات تسميتها كمية ، اكان ذلك في فترة حل الاوديب ام اثناء انبعاث الدوافع عند البلوغ .

الا ان موقف انّا فرويد تجاه العصاب قد تغير بعض الشيء . لقد قلنا ان كل عصاب عند الراشد يسبقه عصاب طفلي ، ولكن كل عصاب طفلي لا يؤدي بالضرورة الى تطور عصابي عند الراشد . مثل هذه الفرضية تتضمن :

أ) ان العصاب الطفلي اكثر حدوثاً واكثر طبيعية من العصاب الراشد ؛

ب) وان بعض الامراض العصابية الطفلية قابلة للشفاء بشكل فجائي ؛

ج) وان حصول العصاب عند الراشد ليس الا اعادة نشاط العصاب الطفلي ، وهو يتحدد ببعض التجارب المعاشة المكوّنة لمأزمات نفسية جديدة . فأنّا فرويد تشير بأننا اليوم نهتم اقل بالعصاب الطفلي باعتباره فترة مبّشرة بالعصاب عند الراشد ، من اهتمامنا به كتنظيم نفسي حيث نتعرف فيه على « عوامل النمو المبكر للشخصية » ؛ هذا يعني ان العصاب الطفلي يدل بنظرنا على العوائق التي تعترض النضج النفسي الافضل ؛ واننا ندرك المرحلة الاوديبية على انها نهاية المأزمات ما قبل التناسلية المبكرة .

٣ ـ المعايير البنيوية للعصاب الطفلي حسب انا فرويد .

لقد تبينّا كل اهمية التشخيص البنيوي للعصاب الطفلي . فلكي نعرضه

بالتفصيل سوف نتبع الخطوط الرئيسية لعمل انّا فرويد (1945 ، 1968) ، في البحث عن المعايير التي تمكن من تأكيد وجود العصاب عند الولد .

1) التطور الليبيدوي

احدى هذه المعايير يرتكز على التطور الليبيدوي للولد . يمكننا اعتبار ان كل ولد يتشوش المجرى الطبيعي لتطوره الليبيدوي ـ اكان ذلك باتجاه النكوص نحو مرحلة سابقة او باتجاه الثبات ـ يحدث عنده اضطراب عصابي . فتقييم مثل هذا التشويش يجب ان يأخذ بالاعتبار التراكب الطبيعي للمراحل المختلفة وبقاء العناصر والمظاهر المتعلقة بالمراحل السابقة ، خلال المراحل المتتابعة . فهذا المظهر الفمي او الشرجي يمكن ان نجده في مرحلة لاحقة من النمو ، ولكن ما يهم هو ان « معظم الليبيدو يبلغ مرحلة التنظيم الخاص بالسن الحقيقي للولد » وان المظاهر الليبيدوية للمرحلة الحالية تسيطر على الآثار الليبيدوية من المراحل السابقة .

ان ابراز مثل هذه الآثار يشكل غالباً فترة صعبة في التشخيص ، لأنها تتبلور في الهوامات اللاواعية للولد ولا يمكن استخلاصها الا من خلال مقابلات متتابعة .

في تقدير النمو الليبيدوي يجب ان نأخذ بالاعتبار المظاهر التي تعود للدوافع الجزئية (الهتاك ، النظار ، التوحش ، النهم ، الخ . . .) ، التي قد يدل وجودها وحدّتها المتغيران على نقاط ثبات في المصالح والتركّزات الليبيدوية للولد ويفسح المجال لاحقاً لمظاهر عصابية من هذا النمط او ذاك . كذلك لا يمكننا اعتبار هذا الوجود البسيط للدوافع الجزئية بمثابة عرض مرضي ، فإن غيابها الكامل او سيطرتها يثير عصاباً طفلياً .

ان تقلبات النمو الليبيدوي تحت تأثير العصاب تعبر عن الصعوبات التي يصطدم بها الفرد في تطوره . فمتى يتخلص من القلق يعود الى تنظيم اكثر بدائية ، والليبيدو ينكص ويتوقف عند مستوى يتلائم مع مرحلة مبكرة . فالولد يواجه اذن برغبات فمية ، وشرجية ، عدوانية او تعبر عن تبعية معينة ، وهي تثير تحرك اواليات الدفاع العصابية . مثل هذا الدفاع قد يفشل او قد

تتجاوزه الدوافع كما يدل على ذلك ظهور الاعراض العصابية التي تمثل « ارضاءً للرغبة ، ولكنه مشوه تحت اندفاع القوى القمعية » . فالليبيدو يتوقف في تطوره نحو الحياة التناسلية ؛ ويضطر للتراجع الى المواقع البدائية للتنظيم الليبيدوي . وهكذا يمكن لنمط العلاقة بين الـذو والموضـوع ان يتلقـى نكوصـاً حقيقياً في المواقف العاطفية ، مثل النكوص ذي الطابع الفمي : تبعية ، عدم ارتـواء ، نهم ، الخ . لكن هذا النكوص يختص باختـلاف رئيسي : فهـو ليس عودة بسيطة للوراء ، ولكن تظهر اعراض جديدة ، منتجة حسب نموذج بدائـي . فبينما يستمر النمو الذكائي والحركي وتُغْنى العلاقات بالعالم الخارجـي ، فانـه يحدث عدم تطابق بين التجربة الانفعـالية المعاشـة للولـد وتكيفـه مع الوسـط المحيط . بعد الآن نصبح بمواجهة الدلالة المبهمة لمثل هذه المظاهر : هل نحن امام عصاب طفلي ، وحالة مرضية توجه مستقبل الفـرد باتجاه عدم تعـويض تطوري ؟ ام امام فترة خصبة من التطور ، ولهذا فهي يمكن ان تشفى بشكل عفوي ؟ عصاب الولد ام عصاب طفلي ، مرض او فترة تطـورية ، هذه هي المسألة التي يبقى علينا حلها .

باستخدامها للمعيار الـذي يقدمـه النمـو الليبيدوي ، تضـع انّـا فرويد التوجيهات العلاجية : فإذا اكتشفنا في التنظيم الليبيدوي بعض الحركية وميلا للتقدم يمكنهما ان يلغيا النكوص والثبات العصابي ، فان العصاب الطفلي يجب الا يشكل الا فترة تطورية ، وتحليلية يبدو بدون فائدة . اما عندما يبدو التنظيم الليبيدوي صلباً وعندما تتخذ مظاهره العيادية اتجاها متخفياً لا يمكن توقع تعبئة لاحقة لتركزاته ، فاننا اذ ذاك يمكن ان نستنتج بوجود حالة مرضية ، وبذلك يبرر التدخل العلاجي .

٢) نمو الأنا

ان تأثـير العصـاب على نمـو الأنـا هو معيار مهـم للحـكم على ضرورة التحليل . فلتقدير ذلك ميزت انّا فرويد العوامل الكمية والنوعية لهذا النمو .

أ) باستنادها الى قوة الأنا ، وهي معطى كمي ، عرضت انّا فرويد لفعالية الأنا في مهمته المواجهة لمتطلبات الدوافع . فالأنا ، في مواجهة الدوافع ، يجب

ان يتصرف كركن ضابط للرغبة . فإمكانية استخدام العالم الخارجي بالنسبة للولد من اجل تحقيق رغباته ، تلي « مجال الدوافع غير المتنازع » . فأنا الفرد يحاول ان يسيطر على رغباته بواسطة التماهي بالأهل ، وهو يحاول ان يتبنى في مواجهة الدوافع موقفاً نقدياً يتلائم مع متطلبات الاهل المستبطنة . فبعد مبدأ اللذة الذي يحكم الحياة الدافعية ، يلي شيئا فشيئا مبدا الواقع الذي يحاول توفيق الرغبات مع متطلبات العالم الخارجي . فوظيفة التوافق هذه تقع على الأنا الذي يدخل في مأزم مع الهو . فأنّا فرويد ترى في اقامة توازن قوي بين دوافع الهو وقدرة الأنا « شرطاً اساسياً لنمو الشخصية المتناغم . فهذا النمو يبقى معقولاً طالما بقيت العلاقة بين المتطلبات الدافعية (الهو) والركن الذي يحاول ان يجعلها متوافقة مع مبدأ الواقع (الأنا) مرنة بما فيه الكفاية لكي تمكّن من استخدام الوسط بحكمة لاجل ارضاء الرغبات . « فتركيز العصاب الطفلي يعمل على شكل التكلُّس داخل الجسم » . كل مرونة توافقية تختفي ويقوم توازن صلب بين الرغبة الدافعية وقوى الأنا القمعية : فالعرض العصابي يحاول تحقيق مثل هذا التوزان الذي يتوصل شيئاً فشيئاً الى شل وتجميد العلاقة الدينامية بين الانا والهو . هذه الصلابة تظهر على شكل تكرار آلي للاجراءات التي يستخدمها الأنا لمعارضة المطالب الدافعية ، ويمكنها ان تبدو عيادياً كمظهر « لأنا قوي » . فالعرض العصابي يعبّر فعلاً عن التوازن الهش بين الأنا الدي خسر كل امكانية تكيف والمتطلبات الدافعية الخاضعة كلياً لمبدأ اللذة .

ب) من جهة اخرى تستند انّا فرويد الى اواليات دفاع الأنا ، وهو عامل نوعي يؤثر في اقامة علاقات الأنا مع العالم الخارجي . فيعود للأنا ، باعتباره ركناً ينظم علاقات الفرد مع العالم الخارجي . ان يمتحن الواقع ويشجع على نشوء آثار ذاكرية ، وينسق ويركّز المؤثرات المتناقضة تجاه المتطلبات الخارجية وتجاه دوافعه ، ويراقب اخيراً التعبير الحركي للدوافع ويكبح مظاهرها البدائية . ان فعالية الفرد تتعلق بالوظيفة المنظمة للأنا طالما ان سير هذا الجهاز المنظم يمكنّ الفرد من الحصول على مكافآت رغباته ومن ممارسة سيطرته على العالم المحيط . بهذا يساهم نشوء هذه الوظائف بنضج الفرد عاطفياً .

الا ان الولد يجد نفسه بمواجهة الاحباطات والمخاطر وخيبات الأمل التي

يهيئها له العالم الخارجي ، وبمواجهة التناقضات بين الرغبات والواقع . ان ضرورة التخلي عن بعض المواضيع المشحونة ليبيدوياً من اجل مواجهة الوضعية الواقعية تفرض عليه خياراً صعباً . فالتعبير الحركي عن دوافع الهو يواجه الصد من جراء الرقابة التي يمارسها الأنا .

امام هذه الصعوبات يركن انا الولد الى عدد معين من اواليات الدفاع . وبما انه لا يستطيع تغيير الواقع الخارجي لا يُبقى امامه الا وضع مصفاة بين الأنا وهذا الواقع لكي تجعله مقبولاً من الأنا . **فالانكار** تمكنه من نكران الواقع كما يظهر له ؛ **والكبت** يمكّن من طرد الذكريات والادراكات المؤلمة من الوعي ، ومن منع الدوافع من ان تصبح تصوراً واعياً ؛ **والتكون الانعكاسي** . يمكّن من قلب الميول غير المرغوبة الى عكسها ؛ **والهرب في الهوام** يمكّن من استبدال الوقائع المؤلمة بنزوات مستحبة ؛ **والاسقاط** يمكّن من اتهام الآخرين او العالم الخارجي بالمشاعر او الاخطاء التي يريد ان تكون صادرة عنه .

في الحالة العادية ، تستخدم كل هذه الاوليات للدفاع عن الأنا ضد القلق . لكن استخدامها يبقى محدوداً في الزمن ، مفسحاً المجال شيئاً فشيئاً امام تقييم الواقع بصورة افضل .

فما يطبع العصاب الطفلي هو الاستخدام المكثف والمزمن لأواليات الدفاع من قبل الأنا . ونرى ، فضلاً عن ذلك ، ان اواليات الدفاع ليست بحد ذاتها اشارة للعصاب . يمكنها ان توجد بشكل عارض امام مأزم معين وتختفي عندما يُحل المأزم وعندما يتمكن الأنا نتيجة لنضجه من التخلي عن هذا الدفاع او ذاك . ولكن يجب التأكيد ان اتساع وديمومة هذه الدفاعات هي التي تجعلها مرضية بالفعل . وهكذا فإن التهوم المستمر يبدو لليبوفيشي Lebovici (1950) كمؤشر مهم على وجود بنية عصابية عند الولد .

وتجدر الاشارة ، من جهة اخرى ، الى ان تأثير الاضرار التي تلحق بوظائف الأنا يكون اكثر اذية كلما حدث في فترة يكون فيه الأنا في قمة التطور . هذا يعني ان مثل هذه الاصابة قد توقف التقدم الطبيعي لبعض الوظائف ، بينما

وظائف اخرى تستمر بالنمو . وهكذا ينشأ عدم انسجام حيث تهيمن بعض العوامل على حساب عوامل اخرى تخضع للصد .

واخيراً تجدر الملاحظة ان اشكال الدفاع التي تتصدر ، اذا لم يكن لها طابع خاص ومطلق ، نجدها غالبا في هذه البنية العصابية او تلك . وهكذا فالكبت يسود في البنى الهستيرية ، وانكار الميول العدوانية اكثر ما نجده خلال الامراض العصابية الهجاسية ، بينما الخوافات تطبع بالتقلص العاطفي والصبر الحركي لكي تتجنب القلق الذي يبرز خلال الوضعيات الخوافية . ولكن ، كما هي القاعدة ، تتجاوز اوالية الدفاع المجال الخاص كثيراً لتظهر ، عند الولد خاصة ، كسمة طبيعية او كينونة في العالم ، او تركيب من شخصيته[1] .

٣) التوجيهات .

من هذا التحليل البنيوي لنمو الليبيدو ، من نضج الأنا وأواليات الدفاع تستطيع انّا فرويد ان تحصل على نتائج تسمح لها بوضع التوجيهات العلاجية . « فعندما يكوّن الولد عن العالم الخارجي فكرة خاطئة ، لا علاقة لها بمستواه الذكائي ؛ وعندما تصبح انفعالاته الخاصة غريبة عنه بالفعل ، وعندما يوجد في ذكرياته فراغات ذاكرية تتجاوز الاطار العادي لفقدان الذاكرة الطفلية ، وعندما يوجد ثغرة في شخصيته ، وعندما تنفلت قدرة تحركه من سيطرة الأنا ، عندها لا يبقى اي شك عن خطورة عصابه ويصبح التوجيه العلاجي امراً ملحاً » .

في عملها الذي كتب عام 1968 تحدد انّا فرويد توجيهات التحليل عند الولد . فالعصاب عند الولد يبقى التوجيه الاكبر ، لأن التجربة اكدت بانه

---

١ ـ هناك قرابة وثيقة بين البنية الطبيعية والعرض ، لأننا نجد فيهما عناصر نكوصية واواليات دفاعية متشابهة ، ويمكننا ان نقول بانهما يشكلان طريقاً للإفراغ الليبيدوي او العدواني . فالبنية الطبقية قد يكون لها هدف توافقي مع الواقع . ويمكننا القول باننا نجد وراء اي عرض بنية طبيعية تكون في اساس نشوئه . فالفرق بين الواقعين يتعلق بدرجة استبطان المثال الاعلى لأنا الوالدين وبمتطلبات الأنا الاعلى (لوستمان Lustman ١٩٦٢) . اننا نجد عند انّا فرويد (١٩٧٢) تشابهاً آخر بين نمو الشخصية والعصاب الطفلي ، وهو ما عرضناه فيما سبق .

يخضع تماما للتحليل . في حالات اخرى ، حيث يبقى التشخيص اكثر دقة ، من الضروري اخذ امور اخرى بعين الاعتبار :

١) فالتوجيه النفس علاجي هو اقل وضوحاً عندما نكون امام مأزم نفسي جاد عائد لصعوبات حالية تعترض الولد خلال تطوره (بينما المأزم العصابي يستبطن ويعمل كإحياء للماضي) . نحن نعلم ان التحليل يكون اكثر فائدة كلما واجه مرضاً قديماً وليس راهناً ، لأن الأنا ، خلال المأزمات الحادة ، يكون مشغولاً كلياً بالمهمات المباشرة ولا يكون مستعداً للعمل التحليلي (فرويد 1937) .

فهذا يتعلق بالمأزمات الكبرى التي يواجهها الفرد في فترات مختلفة : التنافس بين الاخوة ، الاوديب ، قلق الخصي ، بالاضافة الى انساق النمو بحد ذاتها . ونعلم بان الصعوبات المرتبطة بالفترات التطورية لا يمكن تجنبها ، لذلك فهي مؤقتة . فانّا فرويد تشير « بان على انّا الولد ان يتجاوز هذه المأزمات وعلى الوالدين ان يساعدا الولد في هذه المهمة » . ولكن قد يستخدم الأنا حلولاً غير ملائمة حيث لا يستطيع الوالدين مساعدة الولد بفعّالية . بعض المحللين يعتبرون ان هذه الازمات ، وان كانت طبيعية ، تهدد النمو ويصبح وحده التحليل قادراً على تجنيب الولد حلولاً هدامة .

٢) في بعض الحالات ترتبط اضطرابات الولد بصعوبات خارجية تشوش نمو الفرد . فبعض المواقف للوالدين قد تؤدي الى احباطات ، خاصة اذا لم يستطع الاهل حماية الولد من القلق والخوف البدائي واذا لم يعرفوا تشجيع الوظائف المعرفية ، او اذا تسامحوا بشكل سيء مع تعبيرات الولد الواقعية . هذه الاحباطات قد تخلق عجزاً في بعض قطاعات النمو وتهيء ارضاً ملائمة للعصاب . فانّا فرويد (1968) تؤكد على اهمية هذا « المرض العجزي » الذي ينشأ من عدم كفاية الوسط .

فالوالدان اللذان يتسامحان بشكل سيء مع العدوانية والتحصيل المدرسي السيء وعدم التوازن الذي قد يشوش كل الحياة العائلية ، يطلبان من العلاج النفسي الغاءً بسيطاً لهذه الصعوبات . في كثير من الحالات يبدأ العلاج النفسي

بالرغم من انه لا يأمل منه الا تحسناً جزئياً ، وحتى مؤقتاً : فهو قد يمكن الولد احياناً من مراقبة العدوانية ، وتحسين العمل المدرسي ـ وبذلك تنظيم وتسهيل العلاقات بين الولد ووسطه ـ لكنه يبقى غالباً عاجزاً عن سد العجز الرئيسي .

٣) ان القرار بممارسة العلاج النفسي قد يكون صعباً عندما يتبلور العصاب العائلي بتصرفات قد تشوش في العمق علاقات الولد مع والديه : عندما يُبقي الاهل الولد ، بالممنوعات وعدم التشجيع ، في تبعية لا تمكنه من اكتساب استقلاله ، اوعندما يخيفون الولد بتهديدات وقصاصات مستمرة ، او حتى يعنفونه ويغرونه جنسياً . يجب معرفة تمييز ما يعود في القصص للواقع وما يعود للهوام : ولا يجب نسيان ان كل حادثات التهديد والاغراء التي يقدمها الولد ليست بالضرورة خيالية .

ان مثل هذه التصرفات للوالدين تترك غالباً اثراً لا يمحى ويمكنها ان تشكل عائقاً للنمو الطبيعي . فعندما يكون العنف والعدوان او الاغراء من صنع الاهل ـ وهم اشخاص حقيقيون ـ ينتظر الولد منهم الدعم والمساعدة ـ فالتحليل النفسي لا يمكنه تصحيح تأثيرات الواقع . كما ان الانكفاء عن العلاج قد يكون ايضاً اشد خطورة ، ويصبح من الضروري فصل الولد عن والديه لجعل العلاج النفسي ممكناً .

فعمل انّا فرويد يتناول توجيهات التحليل النفسي للولد بالارتكاز على تشخيص بنيوي . فليست المظاهر الاعراضية هي التي تقرر سير العلاج ، ولكن البنية النفسية التي تندمج فيها هذه الاعراض . فالعصاب الطفلي ، المحدد بعناصر التطور الليبيدوي وعمل الأنا واواليات الدفاع ، يمثل ، بالنسبة لأنّا فرويد ، التوجيه الاساسي ، ان لم يكن الوحيد ، للتحليل النفسي عند الولد .

٤ ـ توجيهات التحليل النفسي حسب ميلاني كلاين .

فلوضع التوجيهات للتحليل النفسي عند الولد ، لا تستخدم ميلاني كلاين المعطيات البنيوية بحد ذاتها . فهي تعالج هذه المسألة باستخدامها معايير اخرى : من الضروري اكتشاف اثر المأزمات غير المحلولة على الفرد ، اي

تقدير الشحن المرضي للقلق والتأثيرات الصادة التي يمارسها العصاب الطفلي على العمل النفسي .

ان اسلوب ميلاني كلاين يقوم باكتشاف القلق وراء بعض الاعراض وفي حنايا بعض التصرفات . فالعرض مهما كان نوعه ، ليس دلالة بحد ذاته ، ولكن يجب تفسيره بالارتباط بالاقتصاد النفسي .

١) المظاهر العصابية والمأزم النفسي .

كل ولد يلاقي خلال تطوره صعوبات لا يمكن تلافيها ؛ من الضروري تقصي الصعوبات التي تدل على عدم قدرة الولد على حل مأزمه النفسي المستبطن ، اي تلك الصعوبات التي تخفي عصاباً حقيقياً .

بالدرجة الاولى تواجه ميلاني كلاين (1932) اشارات القلق الطفلي ، مؤكدة بشكل خاص على اضطرابات النوم والصعوبات الغذائية والاعراض الخوافية . فعند الولد الصغير ، قد يتخذ القلق اشكالاً متنوعة جداً ، اكان يتعلق باضطراب شامل للنوم (المشوش او المتقطع باستمرار) ام باضطراب اكثر تحديداً : اضطراب النعاس ، يقظة مبكرة او عدم قدرة على القيلولة اثناء النهار . كل هذه الصعوبات تعادل الرعب الليلي وترتبط مباشرة بالهوامات التي تثير القلق . كذلك فإن احتفاليات الرقاد تمكن ليس فقط من تأخير النوم بل تتخذ طابع الطقس السحري المخصص لحماية الولد ضد حصول القلق . فهي يجب ان تجذب انتباهنا على الدوام للبحث عن وجود قلق خفي .

والاضطرابات الغذائية يمكن ايضاً ان تكون مؤشراً لعصاب طفلي . وهي تتراوح بين فقدان الشهية الشامل الى الاحتفاليات المتنوعة التي ترافق الوجبة ، الى رفض هذا النوع او ذاك من الطعام ، او كل طعام صلب ، هذه الاضطرابات قد تظهر فيا بعد على شكل فقدان للشهية ، وصعوبات في المضغ ، وتصرفات سيئة اثناء الأكل[1] .

---

١ ـ ان رفض او صعوبة المضغ ـ الولد يفضل طعاما نصف سائل او يبلع دون مضغ ـ يمكن ربطها بالمرحلة السادية ـ الفمية وبهوامات التجزئة والتقويض التي يحاول الولد انكارها بشكل لا واع .

وقد يجد القلق ايضاً تعبيراً عيادياً في بعض الاضطرابات المسماة وظيفية مثل الايماءات وقضم الاظافر ، والتبول وعدم التوازن النفسي الحركي : هذه المظاهر تعبر عن المأزمات النفسية الخفية على نمط نكوصي ، ولكنها تحوي ايضاً دلالة رمزية يمكن للتحليل ان يربطها بالفترات التطورية للنمو .

هناك اعراض اخرى ، اصلها النفساني اكثر تأكيداً ، قد تجذب انتباهنا الى صعوبات الولد العصابية . فالخوافات ، اكانت من الحيوانات او من الاشياء الجامدة (كالازرار والهاتف والمقص الخ . . .) تأتي غالباً حوالي السن الثالثة او الرابعة . ان مثل هذا الخواف ، الخوف من الاحصنة ، كان العرض المسيطر في حالة العصاب الطفلي الاولى التي عالجها فرويد (1909) عند هانس الصغير .

لكن الجديد عند ميلاني كلاين يبدو عندما حاولت تقدير صعوبات الولد ، ليس انطلاقاً من الاعراض ، بل انطلاقاً من تشوش تصرفاته اليومية . فهي تجذب الانتباه الى الصد الذي يجابه نشاطات اللعب : رفض الاشتراك بالألعاب او التردد بحجة التعب او عدم مهارة الولد . هذه الخصوصيات والشواذات وعدم الاهتمام تستمر احياناً عند الراشد الذي يستطيع دائماً ان يجد تبريرات لاعلان بعض النشاطات الطبيعية بانها مزعجة ، متعبة او عديمة الذوق ، بينما عند الولد ـ بسبب اهمية نشاطات اللعب في حياته ـ فإنه من الصعب تغطيتها في تبريرات عقلانية . فالصد يدل دائماً على وجود القلق والشعور بالأثم اللذان تخفيهما وتحاول تجنبهما . هذا ما يفسر مقاومة اضطرابات السلوك للجهود التربوية حتى المفهومة جيداً ، الا انها تخضع للعلاج النفسي ، شأن اي عرض عصابي .

فبعض الالعاب تحرم او على العكس تصبح الشغل الوحيد ، وتأخذ منحى النشاط الهجاسي المتكرر بشكل آلي الى ما لا نهاية ، بمعزل عن اي نشاط آخر . ولكن هناك اولاد لا يستطيعون المواظبة وينتقلون من لعبة الى اخرى دون التعلق بأية لعبة . واحياناً لا يستطيع الولد ان يأخذ اية مبادرة ولا يلعب الا عندما يتكفل شخص آخر بادارة اللعب ، اما هو فيثبت عند دور المتفرج .

فميلاني كلاين تشير انه وراء هذا الصد او هذا الهجاس يجري كبت كثيف للهوامات يحاول الفرد ان يتجنبها او ينكرها .

ان رفض المساهمة في الالعاب الحيوية او في النشاطات الجماعية يجري التعبير عنه لاحقاً في عدم المهارة او عدم الاهتمام بالرياضة خاصة الرياضة التنافسية او رياضة الفرق . لكن هذا الصد قد يطال مجالات اخرى ويشمل النشاطات المدرسية . فصد التعلم او رفض المعرفة يمكنهما ان يظهرا بأشكال مختلفة : بلادة او كسل ، قرف او عدم اهتمام ببعض المواد ، عجز جزئي (تعسر في القراءة او الحساب) او عدم قدرة العمل الا تحت ضرورة ملحة (الضغط ، او قرب الامتحانات) . ولكن في بعض الحالات يصبح الاولاد المصدودين تلاميذ جيدين من جراء التعويض ، ولكن عملهم يبقى له دائماً طابع اضطراري ، وهو معرض دائماً للتدهور . هذه الصعوبات لها انعكاسات لاحقة على الاخص في فترة الخيار المهني : فكل مجال المعرفة والفعالية تطغى عليه شحنة هوامية تشله .

وهكذا نكتشف مظاهر القلق الطفلي في بعض المواقف تجاه الهدايا . هناك اولاد لا يكتفون ولا يمكن لاية هدية ان ترضيهم فترة معينة : فالهدية التي لا تشبع انتظارهم تصبح بالنسبة لهم على الدوام مصدراً لخيبة الامل . بينما آخرون لا يظهرون اية رغبة ويبقون لا مبالين تجاه الهدايا التي يتلقونها .

بالنسبة لميلاني كلاين (1932) فان الدلالة الرمزية واللاواعية للهدية تظهر بوضوح : « فالهدايا تعني كل عطاءات الحب التي مرت على الولد : نهد الأم وحليبها ، قضيب الأب ، البول والبراز والاولاد . فالهدايا تخفف شعوره بالاثم ، وترمز الى العطاء الحر للأشياء التي يرغب الولد امتلاكها بشكل سادي . فالولد يشعر بشكل لا واعي عدم الحصول على هدايا وكأنه احباط ، او كقصاص لدوافعة العدوانية التي تشكل جزءاً من رغباته الليبيدوية . في حالات اخرى ، عندما يجد الولد نفسه في وضعية اقل ملائمة بالنسبة لشعوره الهائج بالاثم ، فان الخوف من خيبة امل جديدة يؤدي الى الغاء كلي للرغبات الليبيدوية ولا تعود الهدايا تثير عنده اية لذة حقيقة » .

يمكننا تقدير التسامح مع الاحباط بالموقف الذي يعتمده الولد تجاه الاهداف والرغبات التي تمنع عليه او التي تصبح صعبة المنال . فبقدر ما يستطيع الولد التخلي تدريجياً عن بعض المواضيع الليبيدوية لاستبدالها بمواضيع اخرى ، اكثر تكيفاً ، فإنه يقدر ان يخضع لمتطلبات الواقع الخارجي . فهذا يصبح ممكناً بسبب نضجه ، ولكن ايضاً بفضل تعديل هواماته اللاواعية المتعلقة بمواضيع حبه .

وبسبب هذه الآراء النظرية بالذات ، فإن توجيهات التحليل النفسي تصبح موسعة بالنسبة لميلاني كلاين . لأن كل فرد يجتاز خلال السنة الاولى مواقع يسيطر عليه فيها القلق حيث يقوم ببناء اواليات دفاع ضدها ، فمن هذه الامور تبقى آثار مهمة ظاهرة اوكامنة ، لكن حدتها تتغير من فرد لآخر . وتظهر اضطرابات في السلوك ، عصاب ، عدم كفاية معرفية ، صعوبات تكيف ، حالات ما قبل الذهانية كلها محاولات متكررة لحل المأزم النفسي ، وهي لذلك تبرر التدخل العلاجي الذي يلغي التكرار ويمكن من الوصول الى النواة المريضة . فالتوجيهات ستكون اذن اكثر اتساعاً ، حتى ان ميلاني كلاين لا ترى مانعاً لتحليل جميع الاولاد تحليلاً وقائياً : « فالتحليل ، بتخفيضه القلق والشعور بالاثم وبادخاله تغيرات في حياة الولد الجنسية ، يمكنه ان يمارس تأثيراً مشجعاً ليس فقط على الولد العصابي ، وانما ايضاً على الولد الطبيعي » ولكنها تعترف ، لأسباب عملية ، بأن التحليل النفسي يجب ان يقتصر على الحالات التي لا يمكن للعصاب الطفلي فيها ان يجد مخرجاً بشكل عفوي .

فالمشكلة بالنسبة لميلاني كلاين ليست البحث عن العصاب بقدر ما هي اكتشاف خطورته وتوقع امكانية حله العفوي .

هذا المخرج العفوي قد يكون صعباً ، وحتى مستحيلاً ، عندما تصبح الصعوبات العصابية والقلق والتجاذب العاطفي عائقاً امام اي تكيف مع الوسط الخارجي ، وتشوش قيام العلاقات الغيرية ، وتعرض الولد الى عذاب حاد . ان اهمية دراسة الاعراض وتأثيرها على العلاقة بين الولد ومحيطة تجعل من التوجيه النفس علاجي امراً لا مفر منه .

وبالمقابل فإن الامراض العصابية التي تجري بهدوء قد لا يمكن التعرف

اليها او قد يجري التقليل من خطورتها من قبل المحيط . ان معـايير التـكيف تنقص ، لأنه كما تقول ميلاني كلاين « فالاولاد الذين بشبهون اكثر ما يكون الراشدين غير العصابيين قد يكونون احياناً من اكبر العصابيين . وهكذا فالولد الذي يخضع للمتطلبات التربوية ولا تسيطر عليه الحياة الهوامية والدافعية ، قد يبدو متكيفاً تماما مع الواقع . ولا نجد عنده الا قليلاً من القلق ـ رغم ذلك مثل هذا الولد قد يكون غير طبيعي ، بكل ما في الكلمة من معنى . لأنه من الطبيعي ان نرى الآثار التي تتركها المأزمات والازمات التي مر بها الولد خلال السنوات الاولى من حياته ، تظهر من جديد » . ان التكيف مع المتطلبات التربـوية ، التي يخضع لها الولد بدون صعوبة ظاهرياً ، ليس تكاملاً بسيطاً للمعطيات التي يفرضها الواقع : قد يتعلق الامر فعلاً « بقمع كثيف نوعاً للدوافع والهوامات التي سقطت في كبت فعال بشكل خاص » . ان غياب الصعوبـات الظاهـرة يجب ان لا يجعلنا نستنتج غياب اي عصاب ، لأن التجربـة تعلمنـا بان وراء التكيف المزعوم قد يجري نسق عصابي صامت تنذُّره أكثر دقة من العصاب الذي يظهر من خلال اعراض صاخبة .

٢) المعايير التشخيصية

تقترح ميلاني كلاين الحكم على خطورة العصاب باختيار المعايير التي تدل على تضييق النمو النفساني .

ـ صد ميول الهواية المعرفية يظهر بنقص في رغبة التعلم والمعرفـة ، ليس فقط بمقاومة التعلم المدرسي ، ولكن ايضاً ، بشـكل او بآخـر بمقاومـة كل ما يدخل الولد في مجال المعرفة (القراءات ، المسـارح ، الالعـاب الخلاقـة) . فالكاتبة تشير بشكل خاص الى النقص في فضـولية الولـد حول مسألـة الحياة الجنسية : اما لا يسأل الولد اي سؤال ، واما لا يهتم بالتفسيرات التي تعطى له . فالكاتبة ترى ، في هذا الصد وهذا النقص في رغبة المعرفة ، كبتاً كثيفـاً للفضولية الطبيعية تحت تأثير الهوامات اللاواعية للولد المتعلقة بحياة الوالدين الجنسية ، هذا الصد قد يمتد ليشمل استيعاب اية معرفة .

ـ كبت الحياة الخيالية ، كما تظهر في العاب الولد ، تُعبِّر عن كبت كثيف للهوامات . فالألعاب المتكررة بشكل آلي ، او الهجاسية ، المتحولة الى طقوس

او تكرار ثابت تدل على الضغوطات التي تتعرض لها الحياة الهوامية للولد بسبب القيود المفروضة على دوافعه .

ـ وعدم قدرة التسامح مع الاحباطات يدلنا على عدم نضج نمو علاقاته مع المحيط وعلى الشحن المقلق الـذي تركَّز عليه اية علاقـة غـيرية ، وعلى نقص الطمأنينة التي يشعر بها الولد تجاه حاجاته الخاصة التي لا يستـطيع ان يقـوم بمراقبتها . فكل رفض اوكل تطلب خارجي يبدو له كقصاص لهواماته العدوانية او الليبيدوية ، التي لا يستطيع السيطرة على تأثيرها . فموقفه غير المتساهل تجاه موضوع رغبته التي يتمن ان يملكه ، توقعه في هوامات التجزئة والخصي .

ـ التكيف الملح مع المتطلبات التربوية يدل على الهيمنة المفرطة لتشكيلات الأنا الأعلى ، وعلى اجتياف أنـا اعلى مستبـد ومخيف كان قد صد حرية الحياة الخيالية للولد وابدل طالب الدافعية للفرد بكبت رغباته . فالاولاد يصبحون عادة اولاداً صالحـين مطيعـين وجاهـدين ، ولـكن على حسـاب حرية تعبـير هواماتهم وعفوية الالعاب الخيالية والتخلي عن اية مكافأة للدوافع . فالمواضيع الخارجية تصبح الضامنة للحماية ضد القلق وضد مشاعر الاثم اللاواعي المعبأ بواسطة الهوامات .

ـ واخيراً يجب التأكيد على شكل العلاقات العاطفية للولد مع محيطه العائلي ومع اولاد آخرين : ان ميلاني كلاين تعتبـر السلـوكات العـدوانية جداً ، او الخاضعة جداً او العواطفية جداً كإشارة على عدم قدرة الولد لمواجهة القلق او العداء ضد الموضوع الليبيدوي . هذا وتقوم علاقات سادية او مازوشية ، قد تنعكس لاحقاً على التكامل الاجتماعي والعائلي للفرد .

نرى ان المعايير التي تقترحها ميلانـي كلاين لا ترتـكز على التـكيف مع الواقع : فهذا الواقع قد يبدو ممتازاً ولكن لا يمثل الا وسيلة دفاعية ضد الدوافع والهوامات الاولية . فالمعايير التي تقترحهـا ميلانـي كلاين تستنـد الى المواقـع الهوامية للفرد ، والى الحرية التي يسيطر بواسطتها على هذه المواقع ، والى الصد الذي ينتج عن عدم ايجاد حل عفوي للمأزمات النفسية الداخلية التي تسببها هواماتـه . فما تحـاول ميلانـي كلاين تقـديره ليس توافـق الفـرد مع الواقـع

الخارجي ، وانما القدرات التي يملكها الفرد لحل مأزماته ، اي تحرير الفرد من الثقل الصاد لعالمه الهوامي .

بالنسبة للولد ، فإن استقلاله غير مؤمن وتبعيته تجاه الوسط العائلي كبيرة ، ونضجه النفسي الجنسي لا يزال بعيداً . هذا يعني ، بعكس الراشد ، فإن اشياء كثيرة قد تؤثر خلال التطور في علاقات الولد مع محيطه . من الضروري ان نأخذ بالاعتبار المساعدة التي يجدها الولد عند والديه لحل عدد معين من المأزمات : استعداد عاطفي للوسط ، ادراك الطلب العصابي (اللاواعي) للمساعدة والعطف ؛ امكانية التماهي مع صور الاهل ؛ طاقة الاهل على السماع ومواجهة صعوبات الولد .

وهكذا ، كما سوف نرى ، من الضروري احياناً التدخل على مستوى الوسط العائلي ومسألة العلاج النفسي للاهل قد طرحت غالباً .

يمكننا ان نتصور ، اية كانت المعايير المستخدمة ، ان التوجيه لا يمكن ان يجري بالنسبة لاعراض وصفية . فالدلالة اللاواعية للعرض او للسلوك هي وحدها التي تدخل في الاعتبار في النهاية . هذا يعني ان توجيه تحليل الولد يجب ان يُطرح بعد عدد معين من الخطوات التي تعمل بشكل اساسي على تحديد دور العصاب :

- الصد الذي يمارسه على النمو بسبب القلق والاجراءات الدفاعية للأنا التي توقف الطاقة العاطفية والذكائية للفرد ؛
- التضييق الذي تفرضه على سير وظيفة الخيالي ؛
- استحالة الانتقال الى نظام رمزي في العلاقات مع الغير .

علينا اذن ان نقدر « الامكانيات العفوية لشفاء » العصاب الطفلي الذي يحوي طاقة تطورية كبرى ، وهو لا يشكل بعد ، كما عند الراشد ، اثراً متبلوراً .

الفصل التاسع

الاهل والتحليل النفسي للولد

فاحدى الامور الفريدة في التحليل النفسي للولد تكمن في العلاقة الوثيقة بين الولد ووالديه . فوجودهما والدور الذي يقع عليهما لاشباع الحاجات ، والتعلق العاطفي الذي نتج عن هذا الدور ، والذي يسعى الولد للتحرر منه ، تجد انعكاسا لها في الممارسة العلاجية . فكل علاقة جديدة سيقيمها الولد تاخذ مرجعاً لها في الرابط الاولي مع الوالدين الذي يحدد وجودهما الحقيقي ، تخيلهما ودلالتهما الرمزية ، اشكال النقلة التي اشرنا الى انها تمثل الترابط الاساسي لكل علاج تحليلي .

فالوالدان في تحليل الراشد يوجدان كمعطى تاريخي ماضي ، مع الاحتفاظ بقيمتهما الرمزية ، اما في تحليل الولد فهما يمثلان معطى راهنا لانهما يتدخلان ليس فقط في اصل الاضطرابات ، ولكن ايضا في استمرارها ، وفي اشكال مواجهتها العيادية وفي حلها .

فحول مسألة الاهل ، اي حول امكانيات النقلة ، تمحورت الاختلافات التي طبعت التيارين الرئيسيين في التحليل النفسي للولد . وهكذا كما رأينا بالنسبة لانّا فرويد ، ينخرط الولد في حوار فعلي مع والديه ، وهي قد اشارت

الى طابعه الواقعي : فالولد ليس مهيئاً لاقامة علاقة نقلية تمكنه من حل مأزماته اللاواعية . بالنسبة لأنا فرويد ان التحليل النفسي بمعناه الضيق ، اي اقامة عصاب نقلي ، هو مستحيل وعلى العمل النفس علاجي ان يسلك طرقاً اخرى[1] .

على العكس ، بالنسبة لميلاني كلاين ، ان العلاقة الحقيقية والراهنة مع الاهل ، لا تأخذ الا مكاناً ثانوياً بالمقارنة مع اهمية العلاقة الهوامية التي تجري على الصعيد التخيلي ؛ فدور الوالدين الحقيقيين ينخفض اذن بالنسبة للعبء التخيلي الذي يتحملانه ، فعليهما ان يتركا الولد المهيأ لتكرار هواماته ولاستعادة مأزماته اللاواعية في العلاقة النقلية .

فمهما كانت نتائج المواقف النظرية ، فإن وجود الوالدين يعطي التحليل النفسي للولد خصوصيته .

فالوالدان يتدخلان مباشرة لأنهما يطلبان معاينة المحلل . فمعهما يجري الحوار ؛ وبموقفهما ، من الولد ام من التحليل النفسي يتعلق فيما بعد تطور العلاج .

١ ـ المقابلات الاولى .

عندما يأتي الوالدان لطلب مساعدة نفسانية لولدهما ، فانهما يقيمان علاقة بينهما وبين المحلل . خلال هذه المقابلات التي تجري بشكل حر وليس على شكل استقصاء محدد يتناول الوالدان ، عدا المعلومات عن سوابق المرض التي يعتقدان بانهما يعطيانها بشان الولد ، مشاكلهما الخاصة ، وهذا يتعدى الطلب الصريح الذي يصيغانه بالنسبة لولدهما .

فخلال هذه المقابلات الاولى يقابل الوالدان اما المحلل الذي سيتولى العلاج النفسي للولد ، واما عضوا آخر من المجموعة الطبية ـ النفسانية . فالاشكال المختلفة تتعلق بالامكانيات العملية ، ولكن ايضا بمواقف المحللين

---

١ ـ انظر Selma Fraiberg (١٩٥١) .

النظرية . ونشير بانه ليس هناك تقنية نموذجية والاختيار يجري حسب العوامل العيادية والنفس مرضية الكائنة في هذه الحالة او تلك .

فهذا الاتصال ، قبل ان ينخرط الولد في العلاج النفسي ، هو وقت اساسي ، لأنه يمكن من الحصول على معطيات موضوعية عن نمو الولد والبنية العائلية ، وتقدير الدينامية اللاواعية للعلاقة بين الاهل والولد . بالاضافة الى ذلك ، تمكن هذه الصلات الاولى من توضيح الدوافع اللاواعية للاهل ، ومقاومات الوالدين تجاه العلاج النفسي ، ومن تقرير شكل التدخل العلاجي .

أ) موقف الوالدين تجاه العلاج النفسي يحدد امكانية الاستجابة لطلبهما . فأحكامهما المسبقة - المؤيدة او غير المؤيدة - وحذرهما - الظاهر او الخفي - ستلعب دورا كبيرا اثناء العلاج التحليلي للولد .

فاحكام الوالدين المسبقة قد تشكل عائقاً اثناء العلاج ، لأنها تعكس المقاومات اللاواعية ، التي نجد صورتها في مواقف الجمهور تجاه التحليل النفسي .

فوراء الانحرافات التي يتحملها التحليل النفسي نتيجة الجهل ، ووراء التشكيك وحتى التأييد السطحي هناك مخاوف اكثر عمقاً ، واعية اولاواعية ، وهي تدل غالباً على عجز الوالدين عن مواجهة مشاكلهما العاطفية الخاصة .

الى كل ذلك تضاف الصورة التقليدية التي يكوّنها الراشد عن الولد والتي ترتكز على « البراءة » الطفلية ، وتحذف من هذه الصورة المظاهر الجنسية او العدوانية ، ولا ترد الا بمثابة اثر مرضي واستعداد جبليّ او نقص وراثي .

ان ظهور التحليل النفسي ادى الى تعديل ببعض المعايير الثقافية فحد من اسطورة البراءة الطفلية ، وغير حتى اسس مواقفنا النفسانية والتربوية تجاه الولد .

الا ان الحكم المسبق الجنسي بقي عند كثير من الاهل الذين ، بسبب مبادئهم الاخلاقية او مأزماتهم العاطفية ، يخشون بان يوعّي التحليل النفسي

الولد على بعض المشاكل التي يفضلون انفسهم ان يتجاهلونها او يقللون من شانها[1] .

حتى الاهل الذين ينكرون وجود دوافع جنسية وعدوانية عند الولد يعودون فيقبلون بها ضمنياً . فهم يخشون أن يقوم التحليل النفسي الذي قد يكشف للولد رغباته اللاواعية ، بتقوية الاضطرابات التي يحاول ازالتها ، وذلك بهدم اي رقابة خارجية . انه موقف غريب لأنه « على العكس من ذلك فالميول اللاواعية ، بدل ان تكتسب قوة ، تخسر اكبر قدر من قدرتها عندما تؤمن مخرجاً لها في الوعي . . . فهذه الحاجات عندما تخرج من الكبت وتعود لمستوى الوعي ، تصبح خاضعة لرقابة الفرد الذي قد يتمكن عندئذ من مواجهتها بأفق افكاره ومثله . . . » (انا فرويد 1945) . فبقدر ما يكون عمل الاركان النفسية كافياً لانتاج العصاب ، فإن هذه الاركان نفسها يجب أن تكون قادرة على ضبط الدوافع عندما تصبح واعية . فالتحليل يمكّن الفرد من التخلي عن بعض المواقع البدائية وعن بعض الاشكال الدفاعية غير المناسبة او العصابية ، لصالح اواليات دفاعية اكثر اقتصاداً . فالامر لا يتعلق اذن بتجريد الفرد تجاه الدوافع بل بتمكينه من جعل الرقابة اكثر فعالية .

فمقاومات الاهل هذه تلعب دوراً مهماً عند طلب المساعدة وتحدد شكلها . فالمقابلات الاولى تهدف لتقدير صلابة مقاومات الاهل وللتحقق من تعاونهم ، ولكنها تمكّن ايضاً من تقصي مرض الاهل بالذات[2]

ب) امراض الاهل . ـ

ان تقديم الولد للمعاينة يشكل بالنسبة للوالدين استمراراً لعلاقتهما بالولد وتشكيكاً بموقفهما الخاص وبردود فعل الولد تجاههما .

فبعرضهما للشكاوى والمآسي يجعل الوالدان من الولد موضوعاً لقلقهما او

---

١ ـ اننا نجد نفس المخاوف حول التربية الجنسية التي تصطدم بفكرة الاخطار التي قد يتعرض لها الولد اذا ما واجه مجال الحياة الجنسية .

٢ ـ بالامكان معاينة كتاب l'enfant sa «maladie» et les autres Maud Mannoui حيث يتكلم الكاتب عن الدور الذي تلعبه الرغبة اللاواعية للام في تكوين الاضطرابات النفسانية .

لاحباطهما . فأعراض الولد تشكل السبب الظاهر للمعاينة . لكن الولد الذي يقدم على انه عنيد ، غير متكيف او غريب ، يعكس ، دون علم الوالدين ، مشاكلهما الخاصة ويصبح هكذا وسيطا في علاقتهما بالمحلل . فاذا كان الولد في البداية لا يطلب شيئا ولا ينتظر شيئاً من المحلل ، فان الوالدين ، على العكس من ذلك ، يبدوان معنيين بشكل اساسي .

فخلال المعاينات الاولى قد يحاول الوالدان انكار اية مسؤولية او اية مساهمة في اضطرابات الولد ، وهما يضخمان كفاءاتهما التربوية او يؤكدان مبادئهما الاخلاقية ، او يرسمان ايضاً صورة تبدو لهما صورة الوالدين الصالحين المهتمين بواجباتهما ، والمتعقلين في متطلباتهما ، والعادلين في مجازاتهما .

قد نميل لمواجهة المشكلة من زاوية مزدوجة : الولد من جهة ، والاهل من جهة اخرى . في محاولة لتقسيم « المسؤوليات » . لكن الوضعية العائلية بمجملها هي موضع اتهام فعلا ، ويجب مواجهتها اذن ككل ، بشكل عصاب عائلي ، « مرض المشاركة » حيث تبدد بنفس الوقت العناصر العصابية لعلاقة الزوجين والعوامل المرضية في العلاقة بين الوالدين والولد . ان مفهوم العصاب العائلي الذي عولج عام1936 من قبل لافورج ولوبا R^r Laforgue و J^r Leuba اتخذ اليوم اهمية متزايدة (ايسنستاين Eisenstein 1956 ؛ اكرمان Ackerman 1958 ؛ غروتجاهن GrotJahn 1960 .

في بعض الحالات يبدو مرض الاهل فجأة وكأنه اكيد . الوالدان سريعا النرفزة والغضب ، قليلا الصبر ، تطغى عليهما ردود فعلهما العدوانية امام سلوك ولدهما ، في وضعية يثيرانها او يطيلانها عن لا وعي . الوالدان القلقان ، المفرطان في الحماية ، غير القادرين على التقرير ، وبدون سلطة ، اللذان يراقبان بخوف صعوبات اولادهما المنفعلين بقلقهم . الوالدان الضعيفان ، المنخرطان نرجسيا في اهتماماتهما الاجتماعية او المهنية ، وغير القادرين على تحمل دورهما ، ولا يقدمان للولد الا صورة اهل بعيدة ، والمنهمكان بمشاكلهما وصعوباتهما الحقيقية ، والواقعان في شرك الحل الشخصي الذي قد يغطي عصابهما الطباعي بغطاء النجاح . الوالدان الهجاسيان ، المتطلبان والمدققان ،

الصارمان وغير الفعالين ، اللذان يأسران الولد في القواعد الضيقة حسب مفهومهما الخاص ، وفي خط حاجاتهما لمقاومة القلق والتي يقيمانها لهذا الغرض . الوالدان الطفليان ، الوالدان المستقيلان ، الوالدان المستبدان ، الوالدان الهكعيان : كل الامراض الطباعية قد تظهر . من الضروري ادراك اشكالها والتعرّف على انعكاسها على الولد . فبعيشه مع مثل هذين الوالدين يمكن ان يقع الولد في اضطرابات انعكاسية ، اي على صلة بمواقف الاهل او رداً عليها .

لكن الاضطراب الانعكاسي قد يستبطن بسرعة . فعندما يصبح تصحيح موقف الاهل - اذا كان هذا التصحيح ممكناً - غير كاف لتخفيض صعوبات الولد ، يمكننا اعتبار الاضطراب بانه قد اندمج في بنية عصابية .

يجب ان لا يغرب عن بالنا ان مرض الاهل ليس مجرد شاشة ينعكس عليها المرض الطفلي . لأنه اذا كان سلوك الولد يشكل صدىً لموقف الاهل فإن هذا الاخير ليس عفوياً ، بل ينبع من التاريخ المعاش للاهل الذي يلعب دوراً فاعلاً في تحديد الاضطرابات .

فالوالدان يريدان من المحلل ان يجد حلاً لصعوبات ولدهما ، ولكن شرط ان يحتفظا بنمط حياتهما . هذا يعني ، ان كل محاولة لتغيير سلوك الاهل تصطدم بمقاومات لاواعية ؛ لذلك فالنصائح او التفسيرات العقلانية لا يمكن ان تؤدي الى احسن من تغيير سطحي في المواقف دون مساس الاسباب العميقة التي تحدد سلوكهم . فإذا شرحنا للوالدين بأنهما السبب الاساسي للاضطرابات التي يشكوان منها عند ولدهما ، نكون بذلك قد اهملنا البنى الطباعية التي تشكل قاعدة العصاب العائلي ؛ فبعده الحقيقي هو جهل الوالدين للمرضي في ردة فعلهما او لما يمكن ان يسبب مرض الولد . فالعصاب العائلي يشكل توازناً يحاول الوالدان ابقاءه عندما يقاومان بشكل لاواعي كل محاولة لتغيير عناصر هذا التوازن .

فاذا كانت مواقف الوالدين تبدو في بعض الحالات مضطربة بشكل خاص ، فاننا احيانا قد نواجه اهلا طبيعيين بمظهرهما . هذا يدل ، كما يلاحظ

دياتكين Diatkine وفافر Favreau (1961) ، ان المحلل يتماهى بسهولة اكبر مع سلوك الاهل الـذين لا يبـدون له مرضى . فقـد يكون المحلل مختلفـاً مع المواقف التربوية للاهل ، خاصة عندما تصدم آرائهم التربوية آراءه الخاصـة الاكثر ليبـرالية في الغالـب . الا انـه يجـب ان لا يتنـازل عن قاعـدة « الحياد المستيقظ » التي كوّنها . فهذا اساسي لعملـه . كما انـه من الضروري معرفـة المعنى الـذي يعـطيه لهـذا الحياد . فهـو لا يمـكن ان يكون تخلياً عن قناعاتـه التربوية ، كما لا يمكن ان يكون تأييداً سطحياً ظاهراً . فالحياد يعني امتناعه عن أي سلوك ناشط (نقد او نصيحة) ، مع العلم ان الاهل لا يستطيعـون اعادة النظر بالدوافع اللاواعية التي تبنى عليها مواقفهم ، الا عندما يواجهون محدثاً دوره لا ان يحكم ولا ان ينصح ، بل يسمع لهم . فهـل نعتبـر اذن ان اضطرابات الولد العاطفية تعود لعدم انسجام تطوري دون ان يتدخل الاهل بالمأزم النفسي ؟ حتى بوجود الاهل المتعاونين ، المتفهمين والمنفتحين ، لا يجوز ان يفوتنا بان هذا التوازن الظاهر قد يطمس مأزماً كامناً ، وان كان لاواعياً ، فهو ليس اقل فعالية ولا مسؤولية في تكوين الاضطرابات ، الامر الذي يحدد اشكال ردود فعل الاهل . من جهة اخـرى ، فان كل تغيير ، وحتـى شفـاء اضطرابات الولد يؤدي بالضرورة الى تعديل ميزان القوى الذي قد يفسّخ موقف الاهل الذي يبدو متكيفاً ظاهرياً .

ج) تقدير تعاون الاهل . ـ ان المقابلات الاولية تمكّن ايضـاً من تقـدير امكانيات التغيير في مواقف الاهل . وهكذا فان الصلات الاولى تدفع الاهل غالبا للابتعاد قليلا عن الوضعية المأزمية القائمة ولادراك بعض دوافع سلوكهم التي تمكّنهم من مقابلتها بحياتهم الطفلية الخاصة . لذلك فالمقابلات الاولية ، بتحديدها اتخاذ موقف جديد تجاه الولد تحقق ما يسميه بوكل Buckle وليبوفيتش (1958) ازالـة التشريط العلاجـي . فهـذان المؤلفـان يشـيران الى ان القـوة الدينامية التي تدفع اثناء الأزمة ، الى المعاينة تحوي تجاذباً وجدانياً مكوّنـاً من الخضوع والعدوانية على السواء تجاه المحلل . فبسبب هذه المشاركة العـاطفية يجب عدم اجراء المقابلات الاولى في جو من التحقيق الموضعي .

ويمنح الاهل « ارضاء نرجسياً » معيناً ، عندما نستمع لما يقولونه ، فاننـا

نعيد في انظارهم تقييم دلالة عملهم الحالي ، وليس فقط سلوكهم . فالاستجابة لثقتهم ـ وان كانت متجاذبة ـ باطراء معين وحتى بابتسامة ، يعتبر بالنسبة لهم تشجيعاً على المضي في طريق لا يدرك تعرجاته مسبقاً الا المحلل وحده : لأنه يعرف ان ما يأتون لطلبه ـ نصيحة او تفسير ـ لا يكون له ، في افضل الاحوال ، الا فعالية محدودة . أما الطريق التي يسعى لوضعهم عليه ـ طريق الوعي ـ فتتطلب من قبلهم مجهوداً لا يستطيعون مسبقاً قياس مداه : فالعلاقة المرضية مع المحلل هي وحدها قد تمكنهما من تجاوز الصعوبات ومتابعة العلاج الذي يشاركون به .

فالوعي القاسي ، الذي يُبرز المأزمات المكبوتة او الذي يهدم الحاجز الدفاعي قبل الأوان ، قد يعبىء القلق الذي يجعلهم احياناً يتخلون عن طلب المساعدة منذ هذه المرحلة .

هذا يعني ان المقابلات الاولية تتطلب ممارسة دقيقة للعلاقة المنوي اقامتها ، ويجب ان نبعد عنها اي تفسير فظ[1] يواجهها مع الدلالة اللاواعية لسلوكهم الذي يجري التحضير اليها في هذه المرحلة . هنا بالفعل يأخذ الحياد المتيقظ كل معناه ، لأن موقف المحلل لا يمكن ان يكون لا مؤيداً ولا ناقداً ، ولكن دعوة حقيقية للمتابعة .

فخلال المقابلات الاولى ايضاً على المحلل ، وراء الاسباب الظاهرة التي تدفع الوالدين لطلب المساعدة لولدهما ، ان يسمع اعتراف الوالدين بفشلهما او التعبير عن اضطرابهما وان يدرك الدعوة غير المباشرة لمساعدتهما شخصياً ، بينما صعوبات الولد لا تشكل غالباً الا حجة (واعية) او تبريراً (لا واعياً) . من الضروري تفهم هذا الطلب غير المباشر ، كما انه يجب عدم الانجرار الى

---

١ ـ الفظ هو التفسير النافر (الصحيح احيانا للاواعي ، الذي لا يكون الفرد ناضجا له . فهذا التفسير الصدمي وغير المفيد الذي يُعطى خارج اي مرجع تاريخي او تقني يبدو كتدخل خطر ومزعج . هذا التفسير لا يمكن للفرد ان يستوعبه كما لا يأخذ مكاناً في اقتصاده النفسي ، ولا يكون له اذن اي تأثير « منضج » ولا يساعد على الوعي .

الفخ العدواني لمتطلباتها ، لأن الفارق الذي يفصل طلب الاهل عن مبادىء قدرتنا هو الذي يعطي ، كما سوف نرى ، قياس حقل نشاطنا .

ان النصائح التي يطلبها الوالدان قد تصبح محور علاقتهما بالمعالج النفسي . وبإثارتهما لنصيحة معينة يهدف الوالدان لتأكيد قيمتهما الشخصية : الاعتراف من قبل الاختصاصي بأنهما والدان صالحان .

فكل نصيحة تُسدى تحوي على حكم قيمة : تأييد او نقد سلوكهما ، وحتى معاينة عدم قدرتهما على القيام بدورهما . هنا يبدو بوضوح كل التجاذب الوجداني في طلبهما : فإذا كان الوالدان يقبلان ضمنياً بان عند المحلل نظرية متماسكة ترتكز عليها النصيحة ، فإنهما يسعيان بشكل لا واع لافشاله . فعدم الفعالية التي تلي التطبيق الدقيق ، وحتى المحال للنصائح المسداة ، قد تستغل للبرهنة بانه لا احد ، وحتى الاختصاصي ، يمكنه ان ينجح حيث هما فشلا .

د) التحليل النفسي والتربية . ـ الى اي حد يمكننا ان نتكلم عن نظام تربوي مرتكز على التحليل النفسي ؟

لقد حاولت انّا فرويد (1931) ان تحدد اهداف « التربية التحليلية » . من الفمروض ، بالنسبة لها ، ايجاد حد وسط بين التطرفين ، بين المجازاة الضاغطة والمكافآت ؛ من الضروري ضبط المكافآت الممنوحة والمحددات المفروضة على الدوافع الغريزية .

فالتحليل النفسي لم يتوصل ولا يمكن ان يتوصل الى تنظيم مبادىء تربوية على اساس مذهب معين . لقد استطاع التحليل النفسي فعلاً ان يعطي اطاراً يمكن للجهود التربوية على اساسه ان ترتبط بحاجات وبنضج الولد ، مع اخذ العوامل العديدة القائمة بعين الاعتبار . لكن السير التربوي لا يمكن الا ان يكون فردياً ولا يخضع لأي تنظيم . الا انه يستند الى بعض المبادىء التي تضبط العلاقات بين الولد ووالديه . فعلى الوالدين ان يفهما ويدركا الاسباب التي تحدد سلوك الولد ؛ وان يستطيعا اقامة اتصال معه مرتكز على تجارب عاطفية متبادلة ؛ وان لا تمنع المكافأة الليبيدوية بل تتكيف مع الاهداف المتبعة ، حسب مراحل التطور المختلفة .

ولكن يبدو لأنّا فرويد ١٩٦٨ بانه من الممكن تنقية المواقف التربوية بتخليصها « من بعض الرياء المتعلق بالمشاكل الجنسية ، ومن المبادىء الاخلاقية الضاغطة وغير الواقعية ، ومن المواقف المتصلبة او على العكس المتسامحة كثيراً ، الخ . . . » . صحيح ان بعض المحاولات « لتربية الاهل » قد اعطت ثمارها وان الاهل في بعض الاوساط الاجتماعية قد استطاعوا ترك او تغيير تصرفاتهم المؤذية لنمو اولادهم . في كثير من الحالات توصل الاهل الى تجنب القصاصات والمكافآت المفرطة التي هي مضرة اكثر مما هي نافعة ؛ والى تفهم الحاجات العاطفية ودرجة النضج عند الولد فيما يتعلق بالمكافآت والممنوعات ؛ والى التسامح بشكل افضل مع مشاعرهم الخاصة المتجاذبة تجاه الولد والى التخلي عن البحث عن طريقة مثلى للتربية . وهكذا بالامكان محاربة بعض الافكار المسبقة وتجنب المواقف التربوية المتصلبة التي هي نتيجة تماهي الوالدين بوالديهما حيث يطبقان حرفياً مبادئهما التربوية ، او يناقضهما بشكل كامل .

صحيح ، كما تشير انّا فرويد (1968) ، ان التحليل النفسي قد غيّر عدداً لا بأس به من المواقف التربوية . في ايامنا اصبحت المشاكل التي كانت تحصل خلال السنوات الاولى اقل حدوثاً . والممارسات الغذائية الاقل قساوة والفطام الاقل حدة ادت الى تخفيض الاضطرابات الغذائية ؛ وتعلم النظافة بليونة وفي سن متقدم ، وبشكل اقل تطلباً ، قد ساهم بلا شك بتقليل مظاهر المعارضة عند الولد ؛ واخيراً فان اضطرابات النوم يبدو انها اصبحت اقل حدوثاً منذ ما بدأ يسود التسامح مع النشاطات الغلمية الذاتية عند الاطفال (مص الاصبع ، الاستمناء) . وتجدر الاشارة اخيراً ، اذ كان كثير من الاولاد يُربون بشكل اقل قساوة فهذا لا يعني بانهم تحرروا من قلقهم ومن مأزماتهم وانهم اقل تعرضاً للصعاب .

لا شك بان هذه نتائج جزئية منذ ان اصبحت التربية اقل قمعاً .

ان التحرر النسبي في مبادىء التربية هو نتيجة للتعديلات الثقافية لبعض القيم التقليدية المحافظة ؛ يجب ان لا نقلل من الدور الذي لعبه التحليل النفسي في هذا التطور لأنه شجع على الصعيد الثقافي العام على تسامح اكبر ،

وكان تاثيره هنا اكبر من تأثيره المباشر على الاهل . ولكن تغيير المواقف التربوية لا يحل مشكلة المحددات اللاواعية ، ووراء التحرر الظاهر قد تستمر احكام مسبقة قوية واعية او مبطنة - بممارسة تاثيراتها . على كل حال من الصعب الكلام عن تربية تحليلية لأنها تصبح نوعاً من نتيجة تشريط ثقافي .

لكن بعض ممارسات التربية الحرة قد جرى تفسيرها بشكل سيء من قبل الاهل ، وادت في كثير من الحالات الى الخلط بين التسامح والحرية والفوضى . في البداية كانت التربية « المتحررة » رد فعل ضد التربية القسرية : لقد كانت التربية تبغي صب الولد في قالب الافكار المسبقة التقليدية ؛ وكانت تهدف لالغاء المبادرات الشخصية للولد ولتمنع عنه الارضاءات الليبيدوية المعتبرة انها بداية تدهور المبادىء الاخلاقية . ونتيجة لعدم فهم روح الاصلاحات التربوية المقترحة ، لم يستوعب كثيرون من الاهل الا كلمة « حرية » التي تعني بالنسبة للبعض ازالة كل منع وكل ضغط . ولكن محو دور الاهل بتحرير الولد من كل قيد يؤدي الى زعزعة عالم الولد . وغياب صورة الاهل يزيل كل امكانية تماهي ، وكل نموذج يبنين الولد بالنسبة له علاقاته مع العالم الخارجي . فهذه الحرية الخاطئة ، باضعافها معنى الواقع ، تؤدي اما الى تثبيت القلق ، وأما الى نشؤ انا اعلى صلب لا يلين يحل محل الحواجز الخارجية التي لم يعد الوالدان يقيمانها .

فعلى مستوى هذه التربية الليبرالية يمكننا ادراك عدم فعالية النصيحة . فاذا نفذت بحذافيرها فانها تؤدي الى محال ، بينما وحدة فهم الدوافع يجب ان يحدد تغير موقف الاهل .

من جهة اخرى ، فكل نصيحة تُعطى وتُقبل تضع الاهل في وضعية تبعية طفلية تجاه المعالج . هنا يبدو المعالج النفساني بشكل لا يقبل الشك في دور احد الوالدين ، ويمكن ان تنشأ علاقة معينة قد تؤدي في النهاية الى منع اي تطور : فبقدر ما يتوقعون الاوامر والتفسيرات ، فان تنازلهم عن وضعهم كأهل قد يزداد في نفس الوقت الذي تظهر فيه ردود فعل التبعية والانتفاضة تجاه المعالج .

فالمعالج الذي يستطيع العمل ليس الذي يكمل احد الوالدين المتسلط او

المكروه ، او الذي يلعب دور احد الوالدين البديل ، فعمله لن يكون فعالاً الا اذا ساعد الوالدين على وعي المأزمات النفسية التي تحدد علاقتهما بالولد ، وعلى حلها .

٢ ـ العلاج النفسي للاهل .

ان مسألة العلاج النفسي للاهل قد تطرح باستمرار عندما يطلبون معاينة ولدهم . في بعض الحالات يكون الوالدان منخرطان في علاج نفسي معين وواعيان للمصاعب التي يصطدم بها ولدهما ، فيحاولان مساعدته بعرضه على المحلل النفسي . في حالات اخرى ، يكتشف الوالدان ، خلال مقابلات اولية ، مشاكلهما العاطفية الخاصة ورغبتهما بمباشرة علاج نفسي معين . ولكن في اغلب الاحيان ليس لهما اي ادراك عن مصاعبهما الخاصة ويمكن ان تُطرح امكانية العلاج النفسي دون احساسهما فعلاً بضرورته . فموقف الوالدين تجاه العلاج النفسي يتراوح من الطلب المحدد وقبول المساعدة النفسانية الى الرفض البحت . هذا يعني ان موقف المحلل يختلف حسب الحالات وليس هناك سياسة واحدة حول هذه المسألة التي لا تتعلق فقط بالتوجيه المبدئي ولكن ايضاً باستعداد ورغبة الوالدين (ابّات، ABBATE 1967) . كذلك فان الاجراءات المقترحة تتغير ويعود للمحلل ان يقرر ما اذا كان العلاج النفسي للوالدين امراً مرغوباً وما هو شكله الاكثر فائدة . سوف نعالج اذن باختصار مختلف الامكانيات التي تُقدم لنا ، من العلاج النفساني التحليلي حتى جماعات الاهل ، وما هي حسنات كل منها .

١) العلاج النفساني التحليلي .

هذا العلاج النفساني الذي يُقاد بأشكال مختلفة ، منفصل او متصل بعلاج الولد ، يبغى الوصول الى النواة العصابية التي تحدد سلوك الاهل[1] .

في بعض الحالات قد يكفي العلاج النفسي للاهل لازالة مصاعب الولد .

---

١ ـ وليس فقط جعل الوالدين يقبلان العلاج النفسي للولد او تخفيض الاحباطات التي يسببها هذا العلاج لهما ، كما يجري اقتراح ذلك خلال العلاجات النفسانية المساعدة (وهو ما سوف نراه لاحقاً) .

فتوجيه مثل هذا العلاج النفسي يتطلب اختياراً حاسماً ، ومعايير توجيه تأخذ بعين الاعتبار العناصر العيادية للعصاب العائلي فتقديره يجب ان يمكن من توقع الفعالية على الامدين القصير والطويل وتأثيرها على اضطرابات سلوك الولد . وهكذا فان القرار يخضع لعامل الفعالية مع اختيار نقطة التدخل الأكثر ملائمة في العائلة ، مع اخذ بعض العوامل بعين الاعتبار :

- امكانية التوصل للوالدين : مستواهما الثقافي وذكاؤهما ، وخاصة صلابة سلوكهما واستعدادهما العاطفي ؛

- الدوافع الظاهرة واللاواعية وراء طلب المساعدة العلاجية ؛

- واخيراً الجدول العيادي لعصاب الوالدين . ولنذكر بالامراض العصابية الطبيعية التي لها غالباً تنذّز تطوري خاص وتتطلب علاجات نفسانية طويلة وصعبة . ان مشكلة التوجيهات النفس علاجية للاهل تقودنا لطرح مسألة توجيهات التحليل النفسي عند الراشدين ، وهي مسألة لا يمكن تناولها هنا .

هناك ملاحظة تتعلق بصلات الوالدين او احدهما بمحلل الولد . يحدث احياناً انه خلال علاج نفساني يجري مع الولد يطلب الوالدان ان يتكلما للمحلل : فالجواب عليهما يتعلق بعوامل متعددة . يتعلق اول الامر بما يحدث في العلاقة العلاجية مع الولد وبما اذا كانت المقابلة مع الوالدين تبدو مفيدة او على العكس مزعجة لمواصلة العلاج النفساني . ولكن القرار يتعلق ايضاً بالمواقع النظرية للمحللين الذين اما يعتبرون بان تحليل الولد يجب ان يجري دون اية صلة مع الوالدين ، واما يقبلون - وحتى يفضلون - بالقيام بعملية علاجية موازية مع الوالدين (بورلينغهام Burling ham 1955) . والقرار يتعلق ايضاً بالبنية العصابية للوالدين ، وبرغبتهما في التدخل في العلاقة بين الولد والمحلل ؛ وبقلقهما ان يجدا نفسيهما مقصيان ، الخ . هذه الصلات الظرفية تؤدي احياناً الى علاجات نفسانية حقيقية « موازية » ، للولد ولأحد الوالدين مع نفس المحلل ، وتطرح مشاكل عديدة نظرية وعملية . فلا يمكن في مثل هذا المجال اعطاء اي توجيه تنظيمي محدد .

على كل حال فان هدف العلاج النفساني التحليلي يبقى بنيانياً بشكل

أساسي : فالامر لا يتعلق بالحد من هذا الموقف او هذا الرد الفعلي العاطفي ، ولا بإزالة عرض او سلوك ، ولكن بكشف بنية شخصيته العصابية ، التي نسعى لبلوغها من خلال العلاقة النقلية حتى يستطيع الفرد حل المأزم النفسي الداخلي .

ان الوجه النقلي للعلاج النفسي التحليلي هو الذي يميزه بشكل رئيسي عن تقنيات الدعم الاخرى او حالة الفعل . ان دياتكين وفافرو Favreau Diatkine, (1961) يذكران بأهمية هذه الوضعية النقلية الاوديبية التي عليها ان تسمح بانتقال الارضاءات العميقة « وهو شرط ضروري لكل عمل نفس علاجي على الوالدين » . انه من السهل تحقيق مثل هذا الشرط عندما يكون الوالدان متعاونان وبامكان المقابلات معهما ان تغير بسرعة بعض مواقفهما وتهدىء من قلقهما ، خاصة اذا وجد هذان الوالدان مكافأة في علاقة افضل مع اولادهما . هذا الانتقال لتركُّزاتهما الليبيدوية يفترض دينامية عاطفية مرنة وليست مبنية بعصاب متأصل . على العكس ، فالاهل الذين يعارضون العلاج النفساني يختفون وراء تنظيراتهم ـ وحجة النظام الاجتماعي السيء الذي يمنعهم ، حسب رأيهم ، من تخصيص الوقت الضروري للولد ـ نواة عصابية تهدد كل امكانية باقامة علاقات مرضية مع الآخرين . فهم يطلبون علاجاً نفسانياً لولدهم ولكن شرط ان يتوجه هذا العلاج الى الولد وحده ، من اجل تجنيبهم الاعتراف بمساهمتهم في المأزم العاطفي . في بعض الحالات ان اقتراح العلاج النفسي للولد يكون الطريق الوحيد لدفع الوالدين للقبول بمساعدة علاجية لهما بالذات .

٢) العلاجات النفسانية للدعم .

فلعدم استطاعتنا اخضاع الاهل لعلاج نفساني تحليلي ، علينا ان نكتفي غالباً بعلاج نفساني للدعم . وهو عبارة عن مقابلات تحافظ على اتصال ثابت مع الوالدين او مع احدهما طيلة العلاج النفساني للولد ، وذلك بوتيرة قد تكون متغيرة . ان مثل هذا العلاج لا يهدف لحل المشاكل العصابية مباشرة للوالدين ، ولكنه يخفف التوترات التي يثيرها العلاج النفساني للولد .

فمن الوجهة السطحية فان هذه التوترات رغم تأثيرها لا تشكل صعوبات كبرى ، لأنها توظف عاطفياً من قبل الوالدين ، فلا تمكّن بالتالي من حل المواقف النقلية التي تعقدها . بالاضافة الى ذلك فانها تعمل على تركيز كل الانتباه حول الولد ، دون مواجهة صعوبات الوالدين التي تبقى مغلقة لا يمكن الوصول اليها طيلة العلاج النفساني .

لكن المعارضة البارزة او الخفية للوالدين قد تنال من الجهود العلاجية ، اما باحداثها قطع العلاقة ، واما بتلاقي اية نتيجة ايجابية بسبب استمرار بعض المواقف . في كلا الحالتين فان العلاجات النفسانية المساعدة تقوم بتخفيض الاحباط ومشاعر الإثم وبزيادة هامش تسامح مع العلاج النفسي للولد ، وذلك بتوضيح المعنى الذي يتخذه بالنسبة لهما العلاج النفساني ، وخيبة الامل والصعوبات التي قد يؤدي اليها . فطالما اننا لا نأمل بتعديل البنية العصابية للراشد ، فإنه يبقى ممكناً الوصول الى تغير كاف في الموقف حتى يستمر العلاج النفساني للولد ويعطي ثماره .

كل هذه المشاكل التي قد تبدو سخيفة للوهلة الاولى ، يمكنها ان تشحن بالقلق وتثير عداء تجاه المعالج النفساني ، وتحدد تغييرات دينامية للوسط العائلي .

في اطار العلاجات النفسانية للدعم علينا ان نذكر تقنيات حالة الفعل التي تأخذ مكاناً يزداد اهمية في « الارشاد الطفلي » ، وحيث تستطيع المقابلات المقامة بشكل منتظم ان تستمر طيلة العلاج النفساني للولد .

ان حالة الفعل تمكّن ليس فقط بربط هذا العلاج النفساني بردود فعل الاهل ، وانما للذهاب ابعد من ذلك لمواجهة الراشد مع مشاكله الخاصة . وهكذا فان بعض الاهل ، الذين رفضوا في البداية العلاج النفساني ، عادوا عن طريق علاج الدعم او حالة الفعل الى القبول بعلاج نفساني اكثر عمقاً . لأن الاهل اذا توصلوا الى وعي الطابع المفرط او غير الملائم لمواقفهم ، لا يعني ذلك بانهم يستطيعون اجراء التعديلات الضرورية عليها اذا لم يجر توضيح

الدوافع اللاواعية لسلوكهم . ان هذا التوضيح لا يتم الا من خلال علاج نفساني معمق للاهل .

3) العلاجات النفسانية الجماعية .

ان العلاجات النفسانية الجماعية وجماعات الاهل هي شكل آخر للتدخل . ان حسنات هذه الطريقة على الصعيد التقني جعلت البعض يفضلون هذا الشكل للتدخل على العلاجات النفسانية الفردية ، ذلك لأن تأثيرات الجماعة تمكّن من تخفيض المواقع التجاذبية في العدوان والخضوع تجاه المعالج ؛ ولكنها تجنب ايضاً التأثيرات النقلية التي يصعب استخدامها احيانا في علاجات الدعم او حاله الفعل . ان تأثيرها الرئيسي يكمن في معظم الحالات في تخفيض الشعور بالإثم الذي يرافق الوضعية النفس علاجية للولد ، وفي تخفيض بعض الأواليات العدوانية او الأواليات الصد تجاه المشاكل التربوية. وفي توسيع تسامحها تجاه اضطرابات الولد ، وفي تغيير بعض مواقفها الخاصة عن طريق التماهي والتماهي المعكوس تجاه المعالج النفساني وتجاه اعضاء الجماعة الآخرين .

فبدون ان ندخل في تفاصيل التقنيات المتعلقة :بتسيير جماعات الاهل وبالمشاكل التقنية التي تطرحها ، وبشكل عملها ، فانه تجدر الاشارة الى تقنيتين مختلفتين قدتتعارضان . من جهة ان جماعات الاهل هي جماعات نقاش تحت ادارة ، او بوجود ، طبيب نفسي تناقش فيها المشاكل المتعلقة بالعلاقات بين الاهل والاولاد والتصرفات والمواقف التي تستتبعها . ان قيمتها الاعلامية ليست بسيطة ، ولكننا يمكن ان نلاحظ تغييرات علائقية مهمة حتى داخل جماعة نقاش .

من جهة اخرى يوجد علاجات جماعية تهدف للحصول على تعديلات بنيوية لشخصية الاهل ، والى توصلهم لفهم « دينامية الجماعة » ولذكر مشاكلهم الخاصة وكذلك لتوضيح المواقع النقلية بين مختلف اعضاء الجماعة ولموقع هذه الاخيرة تجاه المعالج . هذه العلاجات المبنية اساساً على علاج نفساني تحليلي ، تقوم بدمج الحسنات النظرية والعملية التي تجعلها تستخدم

اكثر فاكثر مع الاهل الذين لا يتحملون ، بسبب قلقهم ، ان يواجهوا المعالج النفساني منفردين ، بينما بالمقابل يندمجون بكل طيبة خاطر في جماعة حيث يشعرون بانهم في اطمئنان اكثر .

٤) توجيهات العلاجات النفسانية للاهل .

ليس هناك تنظيم محدد لتوجيهات العلاجات النفسانية للأهل . قد يكون ضد « اي مبدأ نفسي علاجي استخدام التشخيص كإطار مرجع دائم لعملنا » (دياتكين وفافرو) ؛ لأنه فيما يتعدى التشخيص الشكلي من الضروري تقييم المعطيات التاريخية وتدخلها في الوضعية الواقعية الراهنة . من الضروري ايضاً معرفة البنى الطباعية القائمة والدينامية العاطفية ، وكذلك امكانية خضوع الاهل للعلاج النفسي التحليلي . في هذا الاتجاه امامنا امكانيتان : اما نصح الوالدين او احدهما للخضوع لعلاج نفساني تحليلي يقوم بحل النواة العصابية عن طريق الغاء العوامل اللاواعية التي تحافظ على المأزم النفسي . اما اقامة علاج نفسي للدعم مع الأمل بان تتغير بعض المواقف فتضع حداً للتفاعلات العاطفية التي تولد الصعوبات العائلية . وهكذا ، بشكل او بآخر ، تجري محاولة كسر الصميات التي تجمد سلوك البعض وردود فعل البعض الآخر في سلوك تكراري وعقيم . من جهة يمكننا القول ان كل علاج نفسي للاهل يتابع عملية موضعة تهدف لمواجهة الاهل بالوضعية الواقعية وابراز بعض صميات السلوك التي نجدها باستمرار في العلاقات العائلية ، اكانت راهنة ام اعترضت الاهل خلال طفولتهم . ان موازاة العلاقات الحالية مع العلاقات التي تستخدم تاريخياً كنموذج ، تمكن من استخلاص معناها في افق تكويني ينامي . من جهة اخرى ، كل علاج نفساني يحاول الوصول الى نضج عاطفي ، بحيث نأمل بإزالة التصرفات الطفلية التي تسمر عند الوالدين كآثار عن مأزماتهم القديمة التي لم تحل . ان التعرف على هذه المأزمات وامكانية تصحيحها يتماشيان مع جعل السلوكات موضوعية ويفرضان استعداداً اكبر لدى المنابع العاطفية للراشد الذي لا يعود يحاول ، على مستوى اولاده ، استعادة او حل حاجاته العصابية . هذا يعني ان كل علاج نفسي مهما كان سطحياً ، يعرض العلاقة

العلاجية برمتها ويهدف ليس فقط لاستخلاص الواقع الموضوعي ولكن ايضاً كل ما يحويه الجانب الخيالي الذي يلونه والمعنى الرمزي الذي يعطى له .

اننا في هذا الفصل لم نتناول الراشد الا كواحد من الاهل ، وقد اخذنا بعين الاعتبار قبل كل شيء اضطرابات علاقته بالولد . انه من السهل ادراك كون هذا الموقف مصطنعاً وبأنه لا يمكن الدفاع عنه الا في مجال مواجهة محلل الاولاد للعوامل المختلفة التي تحدد الامراض الطفلية ، وهمه العلاجي يواجه الوضعية العائلية الشاملة وليس وضعية تحولت لعناصر منعزلة بشكل مصطنع .

فمنذ المعاينة الاولى يواجه محلل الاولاد في نفس الوقت الاولاد والوالدين في عملية تهم عنصري الخلية العائلية اللذين لا يمكن فصلهما .

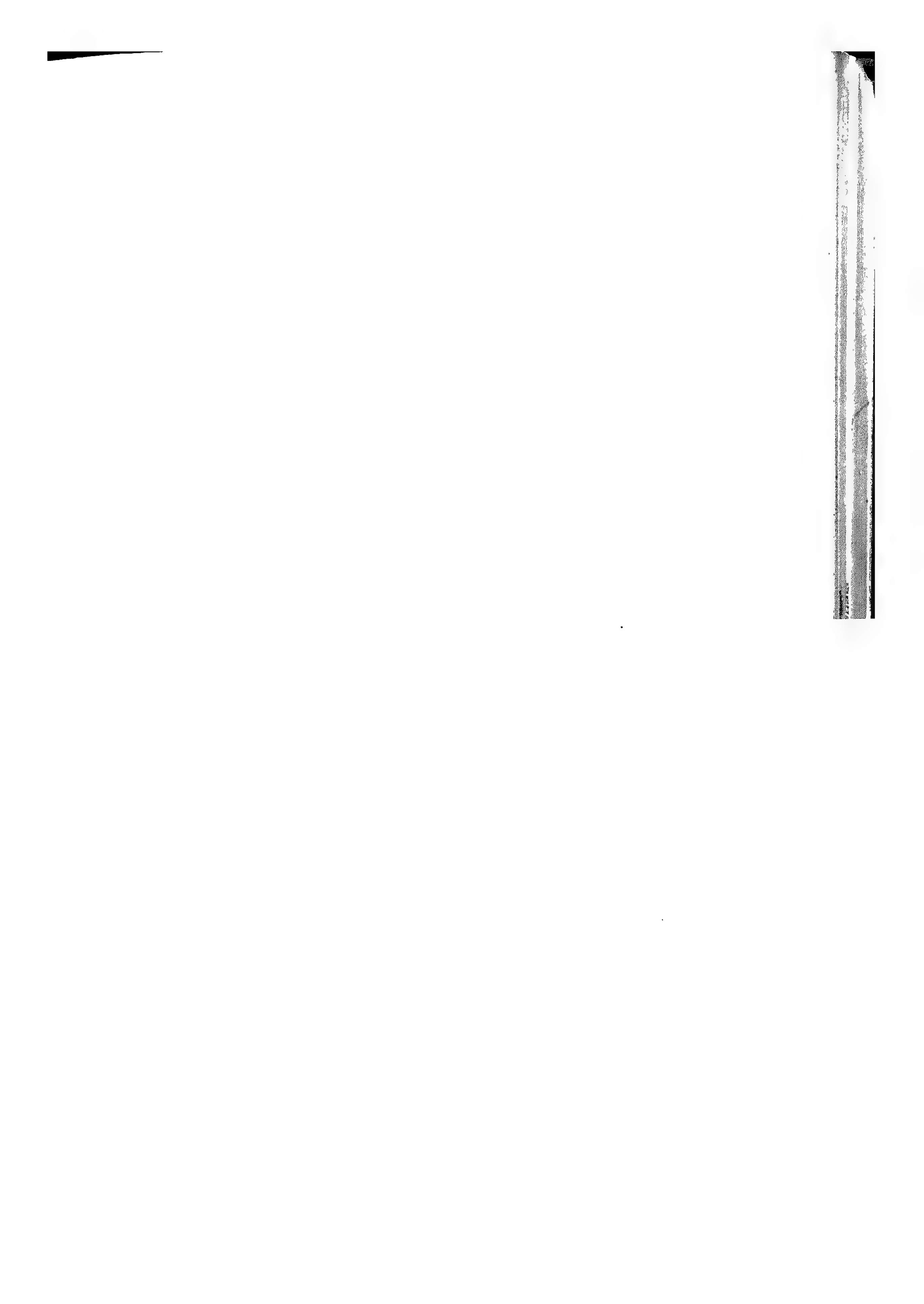
بهذا المعنى تبدو العملية العلاجية مع الاهل عملية اساسية .

خلاصة

هل يمكننا ان نتساءل ، على سبيل الخلاصة ، ما هو هدف التحليل النفسي في سيره العلاجي ؟ الشفاء ، بالطبع ، ولكن حيث يجب ان يكون محو العرض نتيجة لوعي المأزمات التي يعبر عنها ، ويؤدي لاعادة تبنين اركان الشخصية .

فالتحليل النفسي يجد فعاليته في تفسير التجربة المعاشة للوضعية العلاجية في مواجهتها لاعادة احياء المأزمات اللاواعية . ان جهودنا تهدف لأن تجعل الفرد يتعرف على رغبته ووضعها في مكانها الحقيقي في مجرى تاريخه ، وفي تشابك رموزه ، وفي هواماته ، حتى يمكّن اللاواعي المنكشف الفرد من ان يتحدث بصيغة المتكلم .

وبتخليص الفرد من مأساته العصابية لا يقوده التحليل الى فورة لا مسؤولة ، بل على العكس يمكّنه من مجابهة صعوبة الحياة . فالتحليل لا ينتهي الى عالم تحل فيه الامور دفعة واحدة ، بل يجعل الفرد مهيئاً للافراح والمآسي وقادراً على حل المأزمات التي يصطدم بها . فالحرية التي يستعيدها يقيس بها المسؤولية التي تكوّنها هذه الحرية وحدود هذه الحرية . ان جعل الفرد يتعرف على رغبته يعني تخليصه من الصراع العقيم الذي تفرضها عليه ضوابطه العصابية وشعوره اللاواعي بالاثم . فطاقة الدوافع التي تحرر يمكن للفرد ان يوظفها بعد الآن في تحقيق حياته الانفعالية ، وفي متابعة مشاريعه وفي انجاز ابداعيته .



المصطلحات

Acculturation	تثاقف ـ ارتهان ثقافي
anthropologie	علم الاناسة
Apologétique	تبريري
Actualisation	تحيين
Association d'idées	تداعي
Atavique	تأسُّليَّة
Aptitude	قدرة
Autisme	انطواء
Adaptatif	توافقي
Anatomie	شراحة
Antinomique	تناقضي
Actes manqués	تصرفات ناقصة
Affect	مؤثر
Amnésie	فقدان الذاكرة
Annulation rétroactive	الغاء ارتجاعي
Anorexie	خلفة (قطع الشهية
Apnée	انقطاع التنفس

Apathie	جمود الشعور
Anamnése	سوابق المريض
Biologique	احيائي
conceptuel	مفهومي
Communicable	ايصال
Conduite	سلوك ـ تصرف
Codage	ترميز
Condensation	تكثيف
constitution	جبلّة
constitutionnaliste	جبلّتي
Chromosome	صبغـــي
Conformisme	امتثالية
Culturalisme	تقافوية
Castration	خصي
ça	هو
Clivage	انشطار
Compulsion	اضطرار
Compulsif	اضطرارية
Compulsionnel	اضطرارى
Coenesthésique	حشوية
Consanguinité	قرابة دموية ابوية
Conditionnemment	تشريط
Cannibalisme	آدمية
Conflit	مأزم
dogme	معتقد
Distorsion	انحراف
deplacement	انتقال
Dépression	خور
Depressif	خواري
Décharge	افراغ
Désexualiser	تعفف
Depersonnalisation	تشخيص
Déplaisir	كدر

Ecmnesie	استذكار الماضي
Ethnologie	علم الأنام
Etiologie	علم اسباب المرض
Endoctriner	مذهب
Epistemophilique	الهواية المعرفية
Erotisme	غلمة
Erotique	غلمي
Erotisation	غلمية
Erogéne	مغلمة
Exhibitiomisme	هناك
Erection	انعاط
Elaboration	ارصان
Egocentrisme	انوية
Evitement	تلافي ـ تجنب
Empathie	معرفة الغير
Ethologie	علم الاخلاق
Emoi	اضطراب ـ انفعال
Fantasme	هوام
Fantasmatisation	تهوم
Fantasmatique	هوامي
Frustration	احباط
Fixation	ثبات
Guidance	توجيه
génotype	نموذجاً تكوينياً
Gènes	مكونات
Germen	خلايا الوراثة
Gestalt	شكل
Gènital	تناسلي
Hallucination	هلاس
Homosexualité	اللواط ـ الجنس المثلي
Hétérosexualité	الجنس المتغاير
Hypotonie	نقص التوتر
Horde	عشير

Hermaphrodite	خنثي
Hedonisme	متعيه
Hypocondrie	هكع
Individuation	تفردية
Investigation	تقصي
Interaction	تفاعل
Instrumental	ادواتي
Iteration	تكرار
Inne	فطري
Inhibition	صد
Introjection	اجتياق
Introjecter	اجتياف
Inceste	الزواج المحرم
Infériorité	دونية
Instance	ركن
Intérioriser	استبطن
Idéalisation	مثلنة
Investir	ركّز نفسياً
Impulsif	نزوية
Impulsion	نزوة
Incorporer	استبدن
Insight	استبصار
Imago	صورة مثالية
Linguistique	الـسنية
Libido	ليبيدو
Libidinal	ليبيدوي
Lapsus	زلة لسان
Méthodologie	طرائقية
Morphologique	تشكلية
Molécule	جزيئة
Masturbation	استمناء
Mutation	تغير انقطاعي
Matriarcat	نظام امي

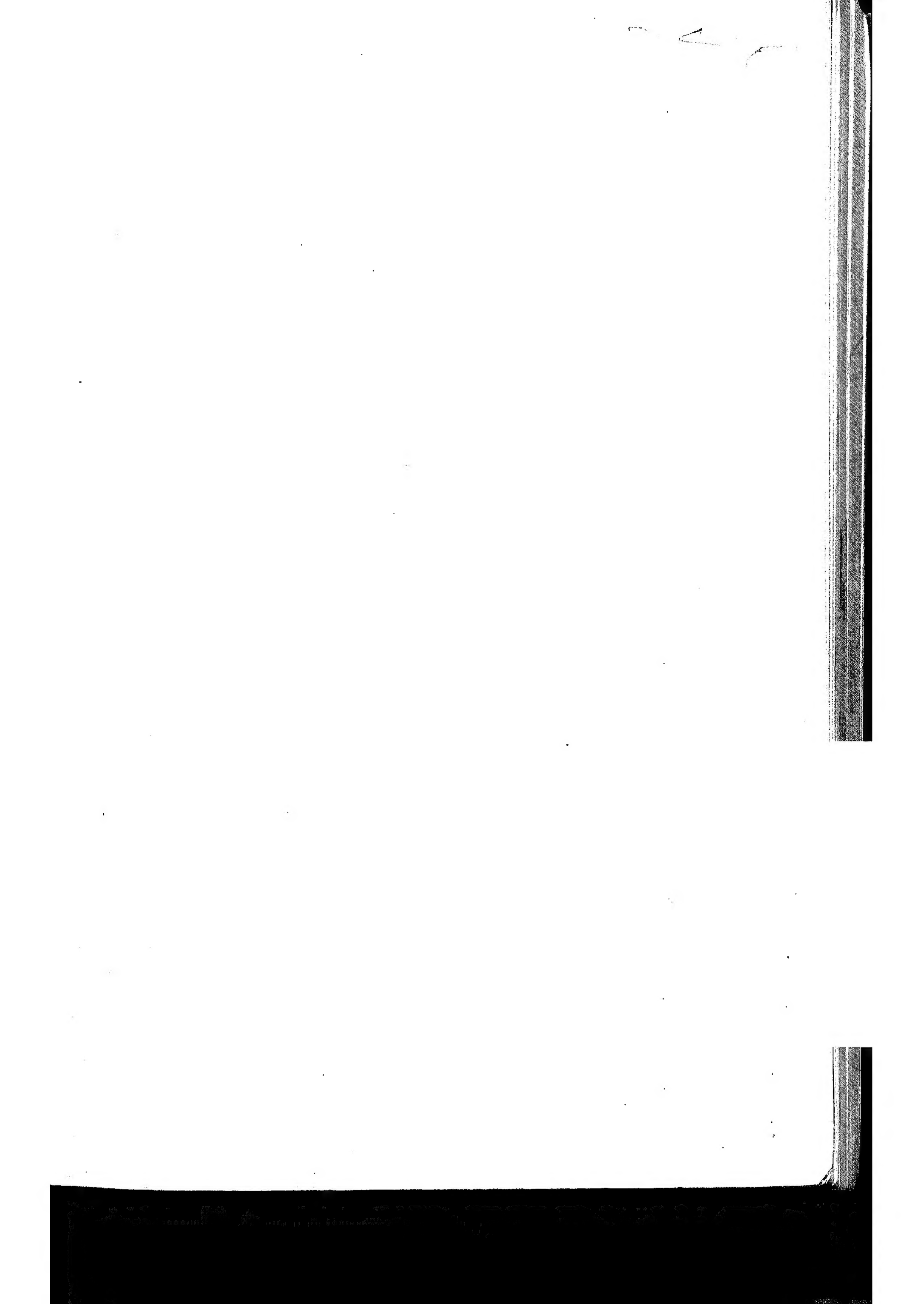
Mnésique	ذاكرية
Névrose	عصاب
Nosologie	علم تصنيف الامراض
Nodal	عقدي
Ostracisme	إبعاد
Objectal	غيري
orthophrenique	تقويم عقلي
Ontogenie	تكوين الكائن
Objectiver	توضع
Orgasme	رهز
Omnipotence	جبروت
Onychophogie	قرض الاظافر
Obesite	سمنة
Pulsion	دافع
Processus	نسق
Psychothérapie	علاج نفساني
[illegible]	حكم مسبق
Psychiatrie	طب عقلي
Psychose	ذهان
Psychose Maniaco Depressive	ذهان هوسي ـ خواري
Phobie	خواف
Psychopathologie	نفس مرضي
Phylogénie	تكوين الكون
Postulat	مسلمة
Phallus	قضيب
Préconscient	قبل الوعي
Plasticité	مرونة ـ ليونة
Paranoïa	عظام
Paranoïde	شبه عظامي
Perversion	شذوذ
Passivité	فتوز
Prohiber	حرّم
Problématique	اشكالية
Passion	تهوّك

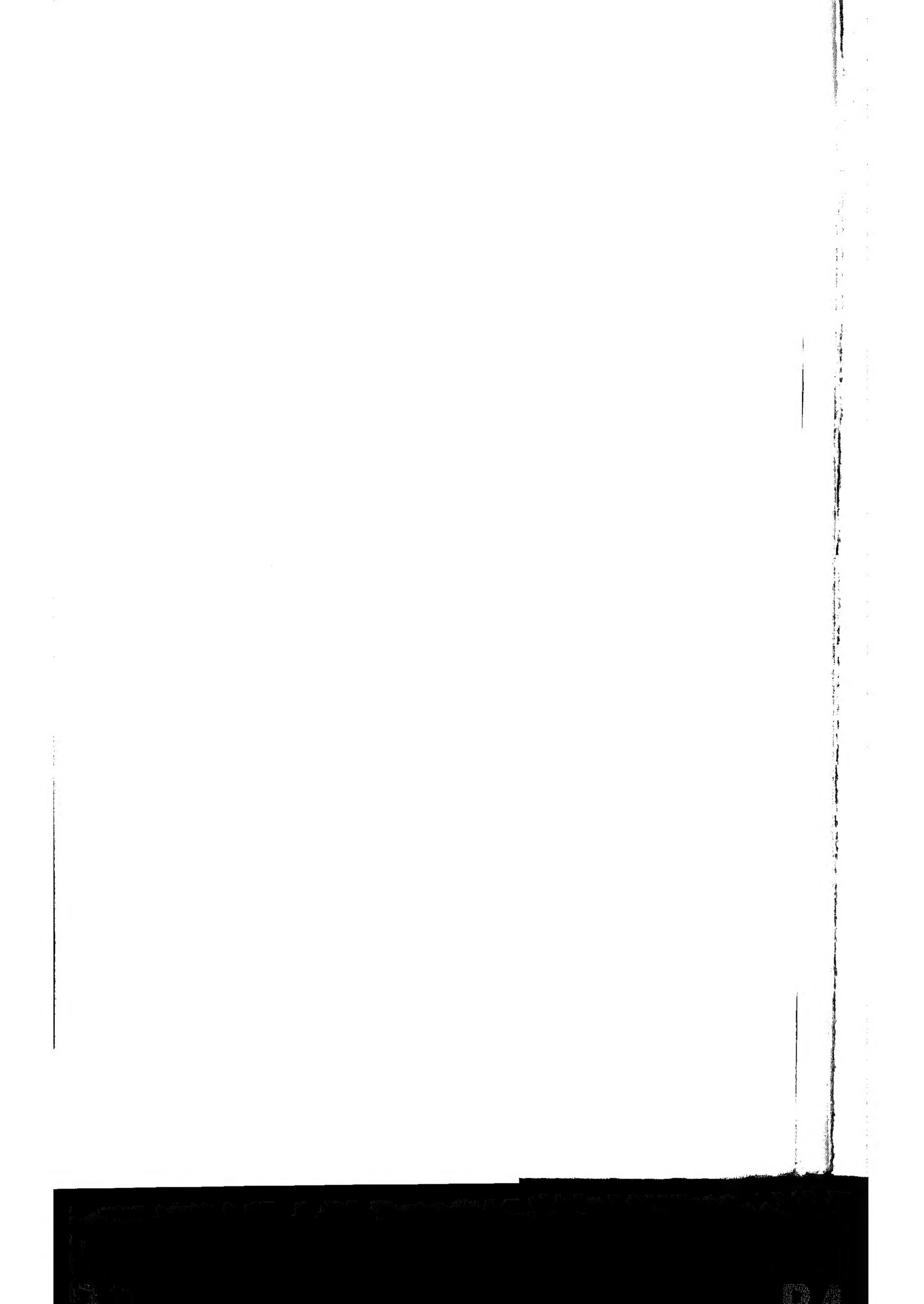
Promiscuité	اختلاط
Puberté	بلوغ
Pronostic	تندر
Quotient intellectuel	نسبة ذكائية
Relationnel	علائقي
Réactionnel	انعكاسي
Regression	نكوص
Régulation	ضبط
Régulateur	ضابط
Reflex	منعكس
Sujet	ذو
Structuralisme	بنيانية
Scotome	عتمة
Signifiant	دال
Signifié	مدلول
Spéculation	تأمل
Schème	صميمة
Sémiologie	علم الاعرض
Schizophrénie	فصام
Schizoïde	شبه فصامي
Sanction	مجازاة
Sensualiste	حسّوي
Subconscient	ما دون الوعي
Supéiorité	استعلائية
Stress	ضغط
Sublimation	تسامي
Sphincter	صارة
Statut	مقام
Symbiotique	اتكالي
Stéréotypie	تكرار الي
Transfert	نقلة
Traumatisme	صدمة
Tabou	محرّم

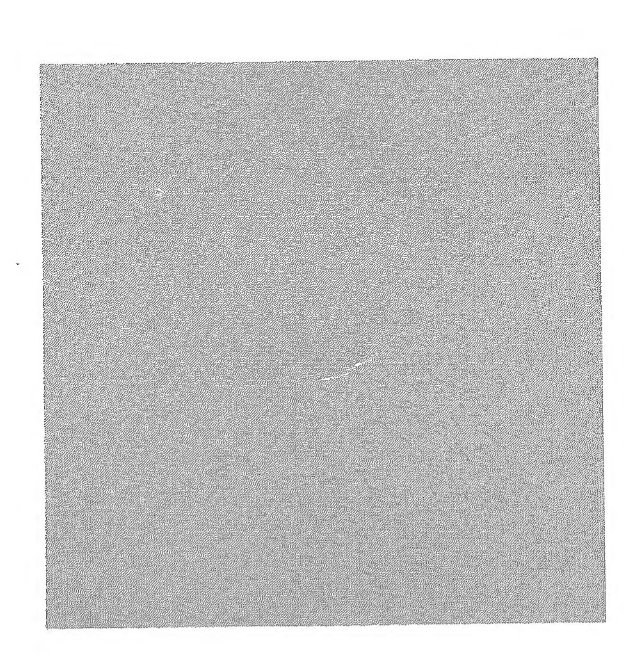
موضعه	Topique
انتهاك	Transgression
رغبة الانتاء للجنس الآخر	Transexualisme
نظار	Voyeurisme



محتويات الكتاب







المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت
ديوان المطبوعات الجزائري ـ الجزائر